



جامعة قطر
QATAR UNIVERSITY
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية
COLLEGE OF SHARIA AND ISLAMIC STUDIES



تَسْوِيَةُ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ

(١٩)

التفسير الوسيط

بَصَائِرُ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

(٣٢)

سُورَةُ الْعَمَّارِ

عمود السورة (مرضعها الطلي)

تَكُونُ أُمَّةً شَهَادَةَ الْوَحْدَانِيَّةِ
لَتَكُونَ خَيْرَ أُمَّةٍ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ
وَتَسْتَشْمِرُ سُنَنَ الْإِنْتِصَارِ بَعْدَ الْإِنْكَسَارِ
فِي التَّفَاعُلِ مَعَ الْعَالَمِ وَخُصُوصًا الْحَضَارَةِ النَّصْرَانِيَّةِ

المجزئة الأولى

(من المقدمة حتى المحور الرابع)

تَفْسِيرُ وَبَصَائِرُ الْآيَاتِ (١-١٢٠)

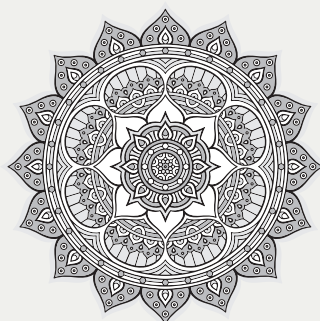
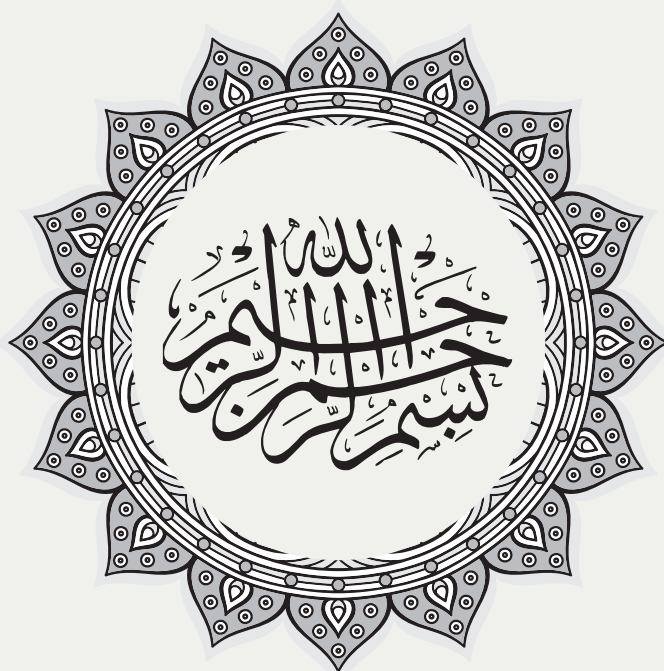
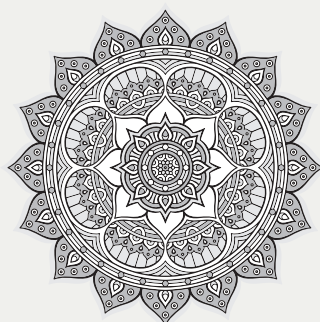


الأستاذ الدكتور
عبد السلام مكي المكي
كلية الشريعة / جامعة قطر



سُورَةُ الْعَمَّارَاتِ

التفسير الوسيط



التفسير الوسيط

سُورَةُ الْعَمَّارَاتِ

الجزء الأول

عبد السلام مكيدي

خضع هذا الكتاب للتحكيم العلمي

راجعته

القسم العلمي بمؤسسة بصائر المعرفة القرآنية

تصميم

محمد عبدالحميد عبدالله الزيبيدي

+905551520522

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف
ويجوز نشر الكتاب، ويفضل إخبار المؤلف

وحدة البحوث والدراسات
كلية الشريعة والدراسات الإسلامية / جامعة قطر

الطبعة الأولى
1447 هـ - 2026 م

رقم الإيداع بدار الكتب القطرية : ٢٠٢٦/١٢٤
الترقيم الدولي ISBN : ٩٧٨٩٩٢٧٢٠٦٠٤٧



طبعت بمطابع الراية

تَسْوِيرُ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ

١٩

بَصَائِرُ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ

٣٢

التفسير الوسيط

سُورَةُ الْعَمَّارَاتِ

عمود السورة (موضوعها الظاهري)

تَكُونُ أُمَّةً شَهِادَةً الْوَحْدَانِيَّةِ
لَتَكُونَ خَيْرَ أُمَّةٍ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ
وَتَسْتَشْمِرُ سُنَنَ الْإِنْتِصَارِ بَعْدَ الْإِنْكَسَارِ
فِي التَّفَاعُلِ مَعَ الْعَالَمِ وَخُصُوصًا الْحَضَارَةَ النَّصْرَانِيَّةَ

المَجْمَعُ الْأَوَّلُ

(من المقدمة حتى المحور الرابع)

تَفْسِيرُ وَبَصَائِرُ الْآيَاتِ (١-١٢٠)

الْأَسْتَاذُ الذَّكِيُّ

عَبْدُ السَّلَامِ مَقْبِلُ الْمَجِيدِي

كلية الشريعة / جامعة قطر

تقديم: الدكتور/ إبراهيم بن عبد الله الأنصاري

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة قطر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مَوْسُوعَةُ الْبَصَائِرِ وَالتَّسْوِيرِ: جُهْدٌ مُثْمِرٌ وَأَثَرٌ مُسْتَمِرٌّ

الْحَمْدُ لِلَّهِ مُتَوِّرِ الْقُلُوبِ بِبَصَائِرِ كِتَابِهِ، وَمُزَكِّي الْعُقُولِ بِبَرَاهِينِ فَصْلِ خِطَابِهِ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ صَفْوَتِهِ مِنْ خَلْقِهِ وَأَحْبَابِهِ، وَعَلَى آلِهِ الْكَرَامِ وَسَائِرِ أَصْحَابِهِ، وَعَلَى التَّابِعِينَ النَّجَبِ السَّائِرِينَ فِي رِكَابِهِ، وَالْمُسْتَمْسِكِينَ بِسُنَنِهِ وَأَدَابِهِ، وَبَعْدُ:

فَقَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ كِتَابَهُ الْعَظِيمَ مِنْهَاجَ حَيَاةٍ وَهَدَايَةً لِلْمُؤْمِنِينَ، وَأَخَاطَهُ بِسِيَاحِ الْإِعْجَازِ، وَجَعَلَهُ بَصَائِرَ مَعْرِفَةٍ لِلْعَالَمِينَ، فَأَحْيَا بِهِ مَوَاتَ الْقُلُوبِ، وَاهْتَدَتْ بِهِ الْعُقُولُ، وَاسْتَنَارَتْ بِأَنْوَارِ مَعَارِفِهِ الْبَصَائِرُ وَالْأَبْصَارُ، وَتَجَلَّتْ فِيهِ دَلَالِلُ الْمُعْجَزَةِ وَالْإِعْجَازِ.

وَإِذَا كَانَتْ الْأَعْمَارُ تُوقِفُ لِأَمْرِ عَظِيمٍ؛ لِنُثْمَرٍ بِالْعَطَاءِ الْكَثِيرِ، فَإِنَّ أَرْحَبَ الْمَيَادِينِ وَأَفْسَحَهَا، وَأَهْدَى الْمَسَالِكِ وَأَنْجَحَهَا مِضْمَارُ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ، آخِرِ خُطَابَاتِ اللَّهِ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ، لِعِبَادِهِ عَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ الْكَرِيمِ، عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ أَتَمُّ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى التَّسْلِيمِ، فَحَسَبُ الْأَنْفُسِ الزَّكِيَّةِ، وَالْقُلُوبِ النَّقِيَّةِ، وَالْهَيْمَمِ الْعَلِيَّةِ رِيَاضُ الْقُرْآنِ وَمِرْقَاةُ الْبَيَانِ؛ لِنَعْرُجٍ فِي مَعَارِجِهِ الْأَرْوَاحُ، وَتَسْمُوَ فِي مَدَارِجِ الْكَمَالِ.

وَمَنْ يَتَأَمَّلْ حَالَ الْإِنْسَانِيَّةِ الْيَوْمَ، وَيَقِفْ عَلَى مَا انْحَدَرَتْ إِلَيْهِ مِنْ هُوَّةٍ سَحِيقَةٍ فِي دَرَكَاتِ الشَّقَاءِ، حَتَّى تَسْقُلَتْ إِلَى اصْطِنَاعِ شَقَائِهَا بِيَدِهَا، وَاجْتِرَاحِ بُؤْسِهَا بِاخْتِيَارِهَا عِلْمٌ أَلَّا عَاصِمٌ لَهَا فِي أَمْوَاجِ الْحَيَاةِ الْمَادِّيَّةِ الْمُتَلَاظِمَةِ بِالشُّهُبَاتِ وَالشَّهَوَاتِ إِلَّا سَفِينَةُ الْقُرْآنِ، فَمَنْ لَازَمَهَا عُصِمَ وَنَجَا.

وَوَاجِبُ الْأُمَّةِ الْيَوْمَ تَعْرِيفُ الْإِنْسَانِيَّةِ بِبَصَائِرِ هَذَا الْكِتَابِ الْكَرِيمِ وَجَزِيلِ إِفْضَالِهِ وَأَفْضَالِهِ؛ لِيَتَقَفَ عَلَى الْحَقِيقَةِ الْكَامِنَةِ فِيهِ لِحَلِّ مُشْكَلَاتِهَا، وَإِنَارَةِ طَرِيقِهَا، وَلَنْ تَسْتَطِيعَ الْأُمَّةُ الْقِيَامَ بِذَلِكَ إِلَّا إِذَا عَادَتْ عَوْدَةً صَادِقَةً إِلَى كِتَابِ رَبِّهَا، وَتَفَيَّاتَ ظِلَالَهُ قَوْلًا وَعَمَلًا.

وَقَدْ كَثُرَتْ التَّفَاسِيرُ عَنِ عُسُورِ الْإِسْلَامِ لِتَوْضِيحِ مَعَانِي الْقُرْآنِ، وَتَعَدَّدَتْ مَنَاهِجُ أَصْحَابِهَا؛ لِتَنُوعِ الْمَعَارِفِ وَالْعُلُومِ، وَاخْتِلَافِ قُدْرَاتِ الْأَذْهَانِ وَمَلَكَاتِ الْإِدْرَاكِ فِي الاسْتِنْبَاطِ وَالْفُهْمِ.

وَمِنْ أَهَمِّ مَقَاصِدِ هَذِهِ الْجُهُودِ الْمُبَارَكَةِ الْمُتَعَاظِمَةِ فِي خِدْمَةِ هَذَا الْكِتَابِ الْمَجِيدِ، الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ {فصلت: 42}، أَنْ تَعِيشَ الْأُمَّةُ مَعَ كِتَابِ رَبِّهَا، تَسْتَمِدُّ مِنْهُ رُقْيَ إِنْسَانِيَّتِهَا، وَهَدَايَتَهَا؛ لِأَنَّهُ الْخِطَابُ الْإِلَهِيُّ الْخَاتِمُ لِلْإِنْسَانِيَّةِ، وَرِسَالَتُهُ الْهَادِيَّةُ لِلْبَشَرِيَّةِ، لِتُدْرِكَ تَنْزِيلَ آيَاتِهِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى وَاقِعِهَا فِي الْحَيَاةِ.

وَقَدْ تَعَدَّدَتْ وَتَنَوَّعَتْ الْجُهُودُ الْمَبْدُولَةُ الَّتِي تَسْتَكْشِفُ كُنُوزَ كِتَابِ اللَّهِ الْعَزِيزِ، وَتَنْشُرُ أَنْوَارَهُ، وَتَسْتَخْرِجُ حِكْمَهُ وَأَسْرَارَهُ، وَتُوصِلُ بَيْنَاتِهِ إِلَى الْعَالَمِ، وَتُقِيمُ حُجَّهَ عَلَى الْخَلْقِ، وَشَهِدَ عَصْرُنَا الْحَاضِرُ جُهُودًا مُتَكَاثِرَةً مُبَارَكَةً فِي هَذَا السِّيَاقِ، وَإِنَّ مِنَ الْجُهُودِ النَّوْعِيَّةِ وَالْمَشَارِيعِ الرَّائِدَةِ: (مَشْرُوعَ بَصَائِرِ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ) الَّذِي أَسَّسَهُ وَيَقُومُ عَلَيْهِ الْأُسْتَاذُ الدُّكْتُورُ/ عَبْدُ السَّلَامِ مُقْبِلُ الْمَجِيدِي، الْأُسْتَاذُ بِقَسَمِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ فِي الْكَلِيَّةِ، فَقَامَ بِنَشَاطٍ رَائِدٍ كَبِيرٍ وَجُهِدٍ عَظِيمٍ بِالْبَدءِ فِي إِخْرَاجِ عَمَلٍ عَلِيٍّ تَعْلِيمِيٍّ إِعْلَامِيٍّ ضَخْمٍ، يَتِمَثَّلُ فِي مَوْسُوعَةٍ تَفْسِيرِيَّةٍ، أَسَاسُهَا وَقَاعِدَةُ مَبْنَاهَا مِنْهَجُ تَفْسِيرِيٍّ مَتِينٍ، وَفَنٌّ مِنْ عُلُومِ الْقُرْآنِ مُبِينٌ، أَسْمَاهُ: (تَسْوِيرِ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ)، هَدَفُهُ الْأَعْظَمُ بَيَانُ الْحِكْمَةِ الْأَكْثَرِ صَوَابًا مِنْ تَسْوِيرِ آيَاتِ كُلِّ سُورَةٍ قُرْآنِيَّةٍ بِسُورٍ هُوَ اسْمُ السُّورَةِ الَّتِي اشْتَهَرَتْ بِهِ.

وَلِيُحَقِّقَ ذَلِكَ، فَقَدْ عَمِلَ عَلَى تَقْدِيمِ بَصَائِرِ كُلِّ سُورَةٍ فِي ثَلَاثَةِ مُسْتَوِيَّاتٍ: الْمُفَصَّلِ وَالْوَسِيطِ وَالْوَجِيزِ ضِمْنَ هَذِهِ الْمَوْسُوعَةِ الْمُبَارَكَةِ الرَّائِدَةِ.

وَيَقُومُ بِمُعَالَجَةِ تَفْسِيرِ كُلِّ سُورَةٍ وَتَقْرِيبِ بَصَائِرِهَا الْقُرْآنِيَّةِ، وَفَهْمِ آيَاتِهَا وَسَبْرِ أَعْوَارِهَا؛ لِتَكُونَ وَسِيلَةً مُبَاشِرَةً لِلتَّوَاصُلِ الْحَضَارِيِّ الْإِيجَابِيِّ مَعَ الثَّقَافَاتِ وَالْمَلَلِ الْأُخْرَى، فَتَتَحَقَّقَ بِذَلِكَ وَظِيفَةُ الْبَلَاغِ الْمُبِينِ، وَتَبْرُزَ الْحِكْمَةُ مِنْ تَسْوِيرِ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَبَدِيعُ تَنَاسُيْهَا وَإِحْكَامِ بِنَائِهَا، وَتَرَدَّدُ عَلَى شُمُهَا الطَّاعِنِينَ فِي إِحْكَامِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَتَجْتَهَدَ فِي تَنْزِيلِ بَصَائِرِهَا عَلَى وَاقِعِ الْإِنْسَانِيَّةِ؛ لِاسْتِخْرَاجِ الدَّوَاءِ النَّاجِعِ وَالْبَلَسَمِ الشَّافِي، لِلْأَمْرَاضِ الْبَشَرِيَّةِ وَعِلَلِهَا فِي حَيَاتِهَا الْمُعَاصِرَةِ.

وَيُبْرِزُ هَذَا الْمَشْرُوعُ الْقُرْآنِيُّ التَّفْسِيرَ الْعَصْرِيَّ الَّذِي يُنَاسِبُ الْوَقَائِعَ وَيَسْتَنْبِطُ الرِّوَايَاتِ، وَيُحَقِّقُ مَقَاصِدَ الْقُرْآنِ فِي الْهَدَايَةِ، وَالْبِنَاءِ الْحَضَارِيِّ، وَالتَّرْبِيَةِ الرَّاقِيَةِ الرَّاشِدَةِ لِلْمُجْتَمَعَاتِ؛ لِتَنْهَضَ بِأَمَانَةٍ الْأَسْتِخْلَافِ وَفَقَّ الْخُطَّةِ الرَّبَّانِيَّةِ، الْمُضْمَنَةِ فِي الْبَصَائِرِ الْقُرْآنِيَّةِ، وَقَدْ اتَّبَعَ فِيهِ الْمُؤَلِّفُ مِنْهَجًا فَرِيدًا فِي عَرْضِ وَتَنَاوُلِ بَصَائِرِ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ، جَمَعَ فِيهِ بَيْنَ الْجِدَّةِ وَالْأَصَالَةِ وَالْعُمُقِ وَالنَّزَاهَةِ الدِّلَالِيَّةِ وَالتَّجْدِيدِ فِي الْأُسْلُوبِ، وَأَحْسَنَ فِيهِ الْعَرْضَ وَالتَّفْسِيرَ، وَالتَّقْنِينَ الْخُفُوقِيَّ، وَأَظْهَرَ التَّمَاسُكَ النَّصِّيَّ وَالْمَعْنَوِيَّ لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، الْمُتِمَثِّلَ فِي الْخَرِيطَةِ الْكَلِمِيَّةِ لِلْسُّورَةِ وَعَمُودِهَا (مَوْضُوعِيَّةِ الْكَلِمِ) الَّذِي تَرْتَكِزُ عَلَيْهِ مَحَاوِرُهَا وَمَوْضُوعَاتُهَا، وَتَنْبَثِقُ عَنْهُ بَصَائِرُهَا الْهَادِيَّةُ، وَأَنْوَارُهَا السَّارِيَّةُ، وَأَرْجُو أَنْ يَصْدُقَ فِي صَنِيعِ الْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ الْمَجِيدِيِّ مَا قَالَهُ الْعَلَّامَةُ الْمُفَسِّرُ الطَّاهِرُ ابْنُ عَاشُورٍ (رَحِمَهُ اللَّهُ) عَنْ نَفْسِهِ فِي تَفْسِيرِهِ: "فَجَعَلْتُ حَقًّا عَلَيَّ أَنْ أُبْدِيَ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ نُكْتًا لَمْ أَرْ مِنْ سَبْقِي إِلَيْهَا، وَأَنْ أَقِفَ مُوقِفَ الْحَكَمِ بَيْنَ طَوَائِفِ الْمُفَسِّرِينَ تَارَةً لَهَا وَأَوْنَةً عَلَيَّهَا، فَإِنَّ الْاِقْتِصَارَ عَلَى الْحَدِيثِ الْمُعَادِ، تَعْطِيلُ لِفَيْضِ الْقُرْآنِ الَّذِي

مَا لَهُ مِنْ نَقَادٍ". (التَّخْرِيرُ وَالتَّنْوِيرُ: 7/1).

وَصَدَرَ حَتَّى الْآنَ مِنْ هَذِهِ الْمَوْسُوعَةِ الْمُبَارَكَةِ وَمُلَحَقَاتِهَا (24) كِتَابًا مِنْهَا:

- "الْوَسِيطُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ وَبَصَائِرِهَا"، وَمَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ: (الْإِسْلَامُ فِي سَبْعِ آيَاتٍ فَالْفَاتِحَةُ تُعَرِّفُ الْعَالَمَ بِالْإِسْلَامِ- الْفَاتِحَةُ مِنْهَا جُ حَيَاةٍ)، وَمُفَصَّلُهَا.
- "الْوَسِيطُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ وَبَصَائِرِهَا"، وَمَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ: (إِشْرَاقُ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى الْعَالَمِ)، وَوَجِيزُهَا، وَالْجُزْءُ الْأَوَّلُ، وَالثَّانِي وَالثَّلَاثُ مِنَ الْمُفَصَّلِ.
- "الْوَسِيطُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّسَاءِ وَبَصَائِرِهَا"، وَمَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ: (بَثُّ الْحَيَاةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَتَنْظِيمُهَا الْإِلَهِيُّ الْحَقُوقِيُّ)، وَوَجِيزُهَا، وَمُفَصَّلُهَا فِي ثَلَاثَةِ مَجَلَّدَاتٍ.
- "الْوَسِيطُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْأَعْرَافِ وَبَصَائِرِهَا"، وَمَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ: (الْقُرْآنُ بَيْنَ الْاِتِّبَاعِ وَالتَّذْكِيرِ وَالْإِنْدَارِ وَالتَّبْصِيرِ: (الْقُرْآنُ يُبَصِّرُ بِالْمَعْرِفَةِ الْعُلْيَا لِلْمَرَاكِحِ التَّارِيخِيَّةِ الْبَشَرِيَّةِ، وَيَخْطُرُ الْمَلَأُ الْمُسْتَكْبِرِينَ فِي تَأْسِيسِ دَارِ الْفَاسِقِينَ، وَيَقِي مِنَ الْفَسَادِ وَالْانْقَاضِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الْمَوْسَسَةِ لِلْإِنْسِلَاحِ مِنَ الْأَنْوَارِ الْإِلَهِيَّةِ)، وَثَلَاثَةُ أَجْزَاءٍ مِنَ الْمُفَصَّلِ.
- "الْمُفَصَّلُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ الْفَلَقِ وَبَصَائِرِهَا"، وَمَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ: (التَّحَصُّنُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَالْبَرِيَّةِ فِي دَفْعِ الشُّرُورِ الظَّاهِرَةِ وَالْغَامِضَةِ الْخَفِيَّةِ).
- "الْمُفَصَّلُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ النَّاسِ وَبَصَائِرِهَا"، وَمَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ: (الْمُحَافَظَةُ الرَّبَّانِيَّةُ عَلَى الْإِنْسَانِيَّةِ وَحِمَايَتِهَا مِنْ أَصْلِ الشُّرُورِ الْخَفِيَّةِ).
- وَثَلَاثَةُ كُتُبٍ مِنْ سِلْسِلَةِ عِلْمِ السُّنَنِ الرَّبَّانِيَّةِ: (الْمَدْخَلُ)، وَ(عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ)، وَ(اِقْتِحَامُ الْعَقَبَةِ).
- وَبَيْنَ أَيْدِينَا الْآنَ "الْوَسِيطُ فِي تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَبَصَائِرِهَا"، وَمَوْضُوعُهَا الْكُلِّيُّ: (تَكْوِينُ أُمَّةٍ شَهَادَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ، لِتَكُونَ خَيْرَ أُمَّةٍ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ).
- وَأَظُنُّ أَنَّ خَيْرَ سَبِيلٍ لِمَنْ أَرَادَ الْوُقُوفَ عَلَى الْجَهْدِ الْعَظِيمِ وَالنَّوْعِيِّ الَّذِي يُبْدَلُ فِي إِخْرَاجِ هَذِهِ الْمَوْسُوعَةِ الْمُبَارَكَةِ تَخْرِيرًا وَتَحْقِيقًا وَتَدْقِيقًا وَمَرَاجَعَةً هُوَ مُطَالَعَتُهَا، وَتَنْسُجُ عَبَقَ خَمَائِلِهَا، وَمَلَأُ الرُّوحَ مِنْ مَعِينِ جَدَائِلِهَا، حِينَئِذٍ سَتُشْرِقُ لَهُ كُنُوزُ مَآثِرِهَا، وَتَتَجَلَّى لِنَاطِرِيهِ مَكْنُونَاتُ بَصَائِرِهَا.

وَلَذَا رَعَتْ كُلِّيَّةُ الشَّرِيعَةِ وَالِدِّرَاسَاتِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي جَامِعَةِ قَطَرَ هَذَا الْمَشْرُوعَ الْمُبَارَكَ،
بِمُبَارَكَةٍ وَتَوْجِيهِ مُبَاشِرٍ مِنْ رَئِيسِ الْجَامِعَةِ الدُّكْتُورِ عُمَرَ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيِّ جَزَاهُ اللَّهُ خَيْرًا،
وَنَرْجُو أَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ ﷻ هَذَا الْمَشْرُوعَ أَحَدَ الْعَلَامَاتِ الْفَارِقَةِ فِي الْمَشَارِيعِ الْبَحْثِيَّةِ فِي الْعَالَمِ هِدَايَةً
وَتَنْوِيرًا، وَضِيَاءً وَتَبْصِيرًا.

أَسْأَلُ اللَّهَ ﷻ لِلْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ عَبْدِ السَّلَامِ الْمَجِيدِيِّ بَرَكََةً فِي الْوَقْتِ، وَعَافِيَةً وَتَوْفِيقًا، وَأَنْ
يَجْعَلَهُ مِنْ الْمُخْبِتِينَ الْمُخْلِصِينَ حَتَّى يُكْمَلَ تَفْسِيرُ كِتَابِ اللَّهِ عَلَى أَحْسَنِ الْوُجُوهِ، وَأَجُودِهَا
وَأَنْفَعِهَا، وَأَرْضَاهَا عِنْدَهُ، وَأَكْثَرَهَا تَأْثِيرًا فِي نَفُوسِ الْخَلْقِ، وَأَعْظَمَهَا بَيَانًا لِإِعْجَازِ آيَاتِهِ، وَأَنْ يَجْعَلَ
أَثَرَهَا فِي الْعَالَمِينَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

وَصَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمْ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

الدكتور/ إبراهيم بن عبد الله الأنصاري

عميد كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة قطر

تقديم: أ.د/ أحمد خالد شكري

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

التفسير الوسيط لسورة آل عمران

أَكْتُبُ هَذِهِ الْكَلِمَاتِ حَوْلَ كِتَابِ التَّفْسِيرِ الْوَسِيطِ لِسُورَةِ آلِ عِمْرَانَ مِنْ إِعْدَادِ شَيْخِنَا الْحَبِيبِ الْأُسْتَاذِ الدُّكْتُورِ عَبْدِ السَّلَامِ مُقْبِلِ الْمَجِيدِيِّ، وَأَنَا عَلَى يَقِينٍ بِأَنَّ مَا يَخْطُهُ بِقَلَمِهِ وَيُبَيِّنُهُ مِنْ عَصَارَةِ فِكْرِهِ وَيُوضِّحُهُ مِنْ اسْتِنْتَاجَاتِهِ وَتَأَمُّلَاتِهِ لَيْسَ بِحَاجَةٍ إِلَى تَقْدِيمٍ مِنْ أَحَدٍ، وَلَا إِلَى تَعْرِيفٍ وَإِشْهَارٍ، فَمَوْلَاتُهُ تُقَدِّمُ نَفْسَهَا وَعِبَارَاتُهُ غَنِيَّةٌ عَمَّنْ يُشِيدُ بِهَا.

وَقَدْ طَالَعْتُ الْكِتَابَ كَامِلًا بِشَغَفٍ وَإِعْجَابٍ، كَمَا أَفْعَلُ فِي كُلِّ مَا أَقْرَأُهُ أَوْ أَسْمَعُهُ لِشَيْخِنَا الْمَجِيدِيِّ، فَدَأْبُهُ الْإِجَادَةُ وَالْإِفَادَةُ وَالْإِمْتِنَانُ، وَهُوَ فِي هَذَا الْجُزْءِ مِنْ مَشْرُوعِهِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كَمَا سَبَقَ فِيمَا صَدَرَ مِنْهُ يَتَمَيَّزُ بِأُسْلُوبٍ جَدَّابٍ، وَعِبَارَاتٍ مُؤَثَّرَةٍ، وَاسْتِنْبَاطَاتٍ لِبَصَائِرِ الْآيَاتِ وَدُرُوسِ النَّارِخِ، مَعَ الْإِشَارَةِ إِلَى الْمَشْكَلَاتِ الْوَاقِعِيَّةِ، وَبَعْضِ الْحَوَادِثِ الْمُعَاَصِرَةِ، يُرَافِقُ ذَلِكَ حُسْنُ التَّفْسِيرِ وَالْعَرْضِ وَالتَّدْرِجِ فِي الْفِكْرَةِ، وَالرَّبْطُ الْمُحْكَمُ الْمُتَّقَنُ بَيْنَ مَقَاطِعِ الْآيَاتِ وَالتَّصْنِيفِ الْحَسَنِ لَهَا، مَعَ الْإِخْرَاجِ الْجَمِيلِ وَالتَّوْبِ الْقَشِيبِ.

وَفِي هَذَا الْكِتَابِ إِبْدَاعٌ فِي الْحَدِيثِ عَنِ الْآيَاتِ وَبَيَانٌ مَعَانِيهَا، وَاعْتِنَاءٌ خَاصٌّ بِالرَّبْطِ بَيْنَ الْآيَاتِ، أَوْ كَمَا أَسَمَاهُ: جِسْرَ الْإِتِّصَالِ، وَاعْتِنَاءٌ بِجَانِبِ التَّفْسِيرِ الْمَوْضُوعِيِّ بِرَبْطِ الْآيَاتِ بِمَحَوْرِ السُّورَةِ وَأَقْسَامِهَا، وَالْإِفْصَارُ غَالِبًا عَلَى الْقَوْلِ الرَّاجِحِ عِنْدَهُ مِنَ الْأَقْوَالِ فِي التَّفْسِيرِ، وَفِي مَوَاضِعِ الْجَمْعِ بَيْنَ قَوْلَيْنِ أَوْ أَقْوَالٍ، وَالِدِقَّةُ فِي تَفْسِيرِ الْمَقَاطِعِ وَقَدْ يَكُونُ لِبَعْضِ آيَةٍ، وَمُعَالَجَةُ سِلْسَلَةٍ مُتَدَرِّجَةٍ مَعَ جَمَالِ التَّعْبِيرِ وَالْعَزْوِ إِلَى صَاحِبِ الْفِكْرَةِ وَانْتِقَاءِ أَطْيَبِ عِبَارَاتِ الْمُفَسِّرِينَ، وَخُلُوعُ مَا يُورَدُ فِي بَصَائِرِ الْآيَاتِ مِنَ التَّكْلِيفِ وَالْمُبَالَغَةِ.

لِكُلِّ مَا سَبَقَ فَهُوَ تَفْسِيرٌ مُتَمَيِّزٌ لِلْسُّورَةِ، يَسِيرُ وَفْقَ مَنْهَجٍ رَاشِدٍ وَتَحْلِيلٍ عَمِيقٍ دَقِيقٍ، لَا يُشْبِهُ مَا سَبَقَ، وَلَا يَخْرُجُ عَنْ خَطِّ الْإِعْتِدَالِ وَالْإِلْتِزَامِ، وَإِنَّا نَتَرَقَّبُ إِنْجَازَ الْعَمَلِ وَإِتِمَامَهُ لَيْسَدَ فَرَاغًا فِي مَكْتَبَةِ التَّفْسِيرِ وَيَتَبَوَّأُ مَوْقِعًا مُتَقَدِّمًا بَيْنَهَا وَيَكُونُ دُرَّتَهَا وَوَاسِطَةً عَقْدِهَا، يُشَارُ إِلَيْهِ بِالْبَنَانِ، وَيَنْتَفِعُ مِنْ مُطَالَعَتِهِ كُلُّ مَنْ يَفْرَأُ فِيهِ.

أحمد خالد شكري

كلية الشريعة – جامعة قطر

10/5/1447 وفق 2025/11/1

مُقَدِّمَةٌ تَشْوِيقِيَّةٌ بَيْنَ يَدَي تَفْسِيرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ وَبَصَائِرِهَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى وَمُحَمَّدٍ وَالْأَنْبِيَاءِ أَجْمَعِينَ،
اللَّهُمَّ إِنَّا نُحِبُّهُمْ، وَنُقَاتِلُ بِهِمْ، وَنُحِبُّ أَصْحَابَهُمُ الَّذِينَ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ اللَّهِ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا، وَبَعْدُ:
هَذَا كَنْزٌ عَظِيمٌ مِنْ كُنُوزِ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، يَكْشِفُ لَنَا بَصَائِرَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، وَيُظْهِرُ لَنَا بَعْضَ
مَكَامِنِ إِعْجَازِهَا، وَأَسْرَارِ بَيَانِهَا.

وَلَعَلَّ بَوَابَهُ هَذَا الْكَشْفِ الْعَظِيمِ تَكْمُنُ فِي سُؤَالٍ يَطْرُقُ أَبْوَابَ الْعُقُولِ الْمُتَدَبِّرَةِ:
كَيْفَ تُظْهِرُ لَنَا آيَاتُ سُورَةِ (آلِ عِمْرَانَ) إِحْكَامًا مَتِينًا، وَنَسِيجًا وَاحِدًا مُتَكَامِلًا مُبِينًا كَأَنَّهُ لَوْحَةٌ فَنِيَّةٌ
بَلَّغَتْ كُلَّ جَمَالٍ، وَلَكِنَّهَا تَنْتَظِرُ مَنْ يَكْتَشِفُ سِرَّتَهَا أَبْطَاهَا وَاتِّصَالَهَا، وَمَكَامِنَ جَمَالِهَا وَجَلَالِهَا؟
يَتَجَلَّى الْجَوَابُ فِي الْبَصَائِرِ الْأَتِيَةِ فِي هَذَا الْكِتَابِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ ثَمَارِ مَوْسَسَةِ "بَصَائِرِ الْمَعْرِفَةِ
الْقُرْآنِيَّةِ" وَمَشْرُوعِ "تَسْوِيرِ السُّورِ الْقُرْآنِيَّةِ":

السِّرُّ الْكَامِنُ وَالنَّسِيجُ الْمُعْجِزُ:

بَصِيرَةٌ

تَنْسِجُ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ بِبَرَاةٍ بَيْنَ قَضِيَّتَيْنِ رَئِيسَتَيْنِ:

القَضِيَّةُ الثَّانِيَّةُ

ضَجِيجُ الْمُعْرَكَةِ اللَّاهِبِ، الَّذِي يَرُوي تَفَاصِيلَ
غَزْوَةِ "أُحُدٍ"، وَيَسْتَخْلِصُ مِنْهَا دُرُوسًا إِلَهِيَّةً
هَائِلَةً فِي النَّصْرِ وَالْإِنْكَسَارِ، شَكَّلَتْ وَعَيَّ الْأُمَّةَ
إِلَى الْأَبَدِ، وَامْتَدَّ الْكَلَامُ عَنْ ذَلِكَ فِي [الآيَاتِ:
200-121].

القَضِيَّةُ الْأُولَى

حَوَارِثُهَا الْهَادِي وَالْعَمِيقُ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ،
فَتَدْعُوهُمْ إِلَى ﴿كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾، وَخُصُوصًا
النَّصَارَى، وَتُؤَسِّسُ السُّورَةُ بِصُورَةٍ مُذْهِلَةٍ
جَادِبَةٍ ذَلِكَ عَلَى الْقِصَّةِ الْحَقِيقِيَّةِ لِأُسْرَةِ آلِ
عِمْرَانَ وَالْمَسِيحِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وَامْتَدَّ الْكَلَامُ
عَنْ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ فِي [الآيَاتِ: 1-120].

هَلَا تَوَقَّفْتَ مَعِيَ لَحْظَةً لِّتَسْأَلَ عَنِ الْحِكْمَةِ الْعَمِيقَةِ الَّتِي تَرِبْتُ بَيْنَ هَاتَيْنِ الْقَضِيَّتَيْنِ الْكَبِيرَتَيْنِ؟

لَطَامًا حَبَرَ هَذَا الرِّبْطُ الْمُثِيرُ الْعُقُولَ، وَأَثَارُ فِي النُّفُوسِ سُؤَالًا عَمِيقًا: مَا الْخَيْطُ الْخَفِيُّ الَّذِي يَنْسُجُ قِصَّةَ أُسْرَةِ مُبَارَكَةٍ مُتَبَتِّلَةٍ فِي نَسِيجِ مَعْرَكَةٍ فَاصِلَةٍ؟ هَلْ هُمَا مَوْضُوعَانِ مُتَجَاوِزَانِ أَمْ أَمَّهْمَا جُزْءَانِ مِنْ لَوْحَةٍ وَاحِدَةٍ عَظِيمَةٍ، لَمْ نُمنَحْ مِفْتَاحَ فَهْمِهِمَا عَلَى الصُّورَةِ الْأَمْثَلِ بَعْدُ؟

الْيَوْمَ، أَنْتَ تَوْشِكُ أَنْ تَمْتَلِكَ هَذَا الْمِفْتَاحَ.

فَهَذَا التَّفْسِيرُ يَكْشِفُ إِحْكَامًا وَتَرَابُطًا رَائِعًا بَيْنَهُمَا (مِنْ التَّشَتُّتِ إِلَى التَّكَامُلِ وَمِنْ الْمَاضِي إِلَى صِنَاعَةِ الْمُسْتَقْبَلِ)، بِهَذَا الْمَنْظُورِ الْجَدِيدِ، لَنْ تَعُودَ قِصَّةُ آلِ عِمْرَانَ وَالْمَسِيحِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مُجَرَّدَ تَارِيخٍ يُرْوَى، وَلَنْ تَكُونَ مَعْرَكَةٌ أُحِدٍ مُجَرَّدَ حَدَثٍ عَسْكَرِيٍّ يُسْتَخْلَصُ مِنْهُ الْعِظَاتُ. بَلْ سَتُدْرِكُ أَنَّ:

قِصَّةُ آلِ عِمْرَانَ تُمَثِّلُ الْأَسَاسَ الْإِيمَانِيَّ الَّذِي يُوضِّحُ حَقِيقَةَ الرِّسَالَاتِ الْإِلَهِيَّةِ

وَمِنْهَا رِسَالَةُ الْمَسِيحِ ﷺ، فَقِصَّةُ آلِ عِمْرَانَ هِيَ الْأَسَاسُ لِلْجَوَارِمَعِ الْحَضَارَةِ النَّصْرَانِيَّةِ، لَا مِنْ مَوْقِعِ الْخُصُومَةِ، بَلْ مِنْ مَوْقِعِ التَّصْحِيحِ وَمَحَبَّةِ الْخَيْرِ لَهُمْ، بِإِعَادَتِهِمْ إِلَى الْأَصْلِ الَّذِي انْطَلَقُوا مِنْهُ: إِسْلَامُ الْمَسِيحِ وَأَمَّهُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وَأَحْدَاثُ مَعْرَكَةٍ أُحِدٍ الْإِلَهِيَّةِ، هِيَ الْمُخْتَبَرُ الْعَمَلِيُّ

وَالدَّرْسُ الْإِلَهِيُّ الْقَاسِي الَّذِي يُعَلِّمُ الْأُمَّةَ كَيْفَ تَوَاجَهُ التَّحَدِّيَّاتِ الدَّاخِلِيَّةِ وَالْخَارِجِيَّةِ، وَتَهْضُ مِنْ كِبَوَاتِهَا لِتَسْتَأْنِفَ مَسِيرَتَهَا، وَلِتَتَعَلَّمَ "سُنَنَ اللَّهِ" الَّتِي لَا تَتَبَدَّلُ، فَالْنَّصْرُ لَهُ قُوَانِينُهُ، وَالْهَزِيمَةُ لَهَا أَسْبَابُهَا، وَالْإِنْكَسَارُ لَيْسَ نِهَايَةَ الطَّرِيقِ، بَلْ هُوَ فُرْصَةٌ لِلتَّمْجِيسِ وَالتَّطْهِيرِ، وَفُرْصَةٌ لِلتَّهْوِضِ مِنْ جَدِيدٍ بِقُوَّةٍ أَكْبَرَ وَعَزِيمَةٍ أَشَدَّ.

الْيَوْمَ، أَنْتَ عَلَى أَعْتَابِ رَحْلَةٍ مَعْرِفِيَّةٍ فَرِيدَةٍ مَعَ بَصَائِرِ هَذِهِ السُّورَةِ لِتَرَى فِيهَا دَعْوَةً إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ، لَا تُنَادِي أَهْلَ الْكِتَابِ وَحْدَهُمْ، بَلْ تُنَادِي الْعَالَمَ أَجْمَعَ إِلَى الْخَيْرِ وَالْفَلَاحِ فِي كُلِّ مَيْدَانٍ.

مِفْتَاحُ الْكَزْرِ الْمُكْنُونِ: الْكُشْفُ عَنْ عَمُودِ السُّورَةِ:

فِي هَذَا الْكِتَابِ سَتَجِدُ مِفْتَاحًا مَنْهَجِيًّا عَظِيمًا يَكْشِفُ لَكَ عَنْ "شَخْصِيَّةِ السُّورَةِ" وَرُوحِهَا الْكَامِنَةِ. سَتَكْتَشِفُ أَنَّ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ لَيْسَتْ سَرْدًا لِأَحْدَاثٍ مُتَفَرِّقَةٍ، بَلْ هِيَ بِنَاءٌ شَامِخٌ يَقُومُ عَلَى عَمُودٍ وَاحِدٍ وَبَعْدَ تَدْبِيرٍ طَوِيلٍ، وَمُعَالَجَةٍ تَفْسِيرِيَّةٍ مَضْلِيَّةٍ امْتَدَّتْ نَحْوَ أَرْبَعِ سِنِينَ، تَوْصَلْتُ فِيهِ إِلَى "عَمُودِ السُّورَةِ"، وَهُوَ الْمَوْضُوعُ الْكُلِّيُّ الْمَحْوَرِّيُّ الَّذِي تَدُورُ فِي فَلَكِهِ كُلُّ آيَةٍ وَكَلِمَةٍ وَقِصَّةٍ فِي السُّورَةِ، وَهُوَ:

"تَكُونُ أُمَّةً شَهَادَةً الْوَحْدَانِيَّةِ، لِتَكُونَ خَيْرُ أُمَّةٍ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ، وَتَسْتَثْمِرَ سَنَنَ الْإِنْتِصَارِ
بَعْدَ الْإِنْكَسَارِ فِي التَّفَاعُلِ مَعَ الْعَالَمِ، وَخُصُوصًا الْحَضَارَةُ النَّصْرَانِيَّةُ".

هَذَا الْعَمُودُ هُوَ الْجِسْرُ الَّذِي يَرِبُ بَيْنَ عَالَمِي السُّورَةِ، وَيُحوِّلُهُمَا إِلَى وَحْدَةٍ مُتَكَامِلَةٍ شَدِيدَةِ الْإِحْكَامِ، وَيَتَجَلَّى لَكَ
الْتِمَاسُكَ وَالتَّنَاسُبُ بَيْنَ أَجْزَاءِ السُّورَةِ إِذَا عَلِمْتَ أَنَّهَا قَدْ تَكُونَتْ مِنْ مُقَدِّمَةٍ وَسَبْعَةِ مَحَاوِرٍ وَخَاتِمَةٍ فِي بِنَاءٍ هَنْدَسِيٍّ
يَهِيحُ يَعْجَبُ الْمَرْءُ لِحِمَالِهِ وَقُوَّةِ اتِّصَالِهِ.



لَكِنْ قَدْ تَسَأَلُ: كَيْفَ وَصَلْتُ إِلَى عَمُودِهَا؟

الجواب:

هَذَا الْعَمُودُ لَيْسَ مُجَرَّدَ فِكْرَةٍ عَامَّةٍ أَوْ انْطِبَاعٍ شَخْصِيٍّ عَابِرٍ، بَلْ هُوَ ثَمَرَةُ مَنْهَجِيَّةٍ عِلْمِيَّةٍ صَارِمَةٍ تَقُومُ عَلَى ثَمَانِيَةِ مَعَايِرٍ
دَقِيقَةٍ، تَبْدَأُ مِنْ تَحْلِيلِ اسْمِ السُّورَةِ "آلِ عِمْرَانَ"، وَسِيَاقِهَا التَّارِيخِيِّ، وَعَلاَقَتِهَا بِمَا قَبْلَهَا مِنَ السُّورِ كَالْفَاتِحَةِ وَالْبَقَرَةِ،
وَكَلِمَاتِهَا الْمِفْتَاحِيَّةِ الْمُتَكَرِّرَةِ، وَالْمُفْرَدَاتِ الَّتِي انْفَرَدَتْ بِهَا، وَتَنْتَهِي بِرِسْمِ خَرِيْطَةٍ كَلِّيَّةٍ مُحْكَمَةٍ لِلْسُّورَةِ بِأَكْمَلِهَا.
كُلُّ مِعْيَارٍ مِنْ هَذِهِ الْمَعَايِرِ هُوَ بِمَثَلَةٍ ضَوْءٍ كَاشِفٍ، وَبِاجْتِمَاعِهَا تَتَجَلَّى الصُّورَةُ الْكَامِلَةُ، وَيَظْهَرُ الْمَوْضُوعُ الْكُلِّيُّ الَّذِي
لِأَجْلِهِ سُورَتْ آيَاتُ هَذِهِ السُّورَةِ بِهَذَا السِّيَاقِ الْإِلَهِيِّ الَّذِي سُمِّيَ "سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ".

لِمَاذَا التَّرْكِيزُ عَلَى الْحَضَارَةِ النَّصْرَانِيَّةِ فِي هَذِهِ السُّورَةِ؟

لِأَنَّهَا أَقْوَى حَضَارَةٍ بَشَرِيَّةٍ يَقُودُهَا الْمُتَعَصِّبُونَ مُسْتَقْبَلًا لِيَصُبُّوا عَلَى الْعَالَمِ الْأَذَى الْكَثِيرَ مُنْذُ سُقُوطِ دَوْلَتِهِمْ
فِي الشَّامِ وَتُرْكِيَا، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَكْشِفُ عَنْ تَأْثِيرِهَا، فَيَقُولُ:
«فَارِسُ نَطْحَةٌ أَوْ نَطْحَتَانِ، ثُمَّ لَا فَارِسَ بَعْدَهَا أَبَدًا، وَالرُّومُ ذَاتُ الْقُرُونِ أَصْحَابُ بَحْرٍ وَصَخْرٍ، كُلَّمَا ذَهَبَ قَرْنٌ
خَلَفَ قَرْنٌ مَكَانَهُ، هَمَّاتٌ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ. هُمْ أَصْحَابُكُمْ مَا كَانَ فِي الْعَيْشِ خَيْرٌ» «مسند الحارث: 702، ورجاله ثقات إلا أنه مرسل.
المدائني لعلل الجامع الصغير 4/563»، وَمَعْنَى (أَصْحَابُكُمْ) أَيِ خُصَمَاءُكُمْ الَّذِينَ تَبْقُونَ مَعَهُمْ فِي سَنَةِ التَّدَافُعِ، وَقَالَ ﷺ:
«تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ» «مسلم: 2898»، وَيَظْهَرُ أَنَّ الْكَثْرَةَ هُنَا تَقْتَضِي الْقُوَّةَ، وَلَيْسَ الْعَدَدُ بِالضَّرُورَةِ.

هَذَا تَتَكَشَّفُ عِبْقَرِيَّةُ الْبِنَاءِ الْهَنْدَسِيِّ وَالتَّصْمِيمِ الْإِلَهِيِّ لِلْسُّورَةِ

فَلَا يُمَكِّنُ بِنَاءَ "خَيْرِ أُمَّةٍ" قَادِرَةٍ عَلَى حَمْلِ "الشَّهَادَةِ الْكُبْرَى" لِلْعَالَمِينَ بِمُجَرَّدِ امْتِلَاكِ الْعَقِيدَةِ الصَّحِيحَةِ (دَرْسُ قِصَّةِ آلِ عِمْرَانَ)، وَلَا يُمَكِّنُ أَنْ تَتَكَوَّنَ خَيْرُ أُمَّةٍ دُونَ أَنْ تَمْتَلِكَ الْقُدْرَةَ عَلَى التَّعَامُلِ مَعَ سُنَنِ الْوَاقِعِ، وَالتَّهَوُّضِ مِنْ قَلْبِ الْإِنْكَسَارَاتِ (دَرْسُ أُحَدٍ).

يُفَاجِئُ الْقُرْآنُ الْعَالَمَ فِي هَذِهِ السُّورَةِ بِرَبْطِ الْإِنْتِصَارِ بَعْدَ الْإِنْكَسَارِ فِي مَعْرَكَةِ أُحَدٍ بِالْمُحَرِّفِينَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يُشَارِكُوا فِي الْمَعْرَكَةِ. لَكِنَّ السُّورَةَ تَكْشِفُ لَنَا الْمُسْتَقْبَلَ الْهَائِلَ لِدَوَائِرِ الصِّرَاحِ بَيْنَ الْأُمَّةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الْخَيْرِ، وَبَيْنَ الْمُعْتَدِينَ الْمُتَقَلِّبِينَ الَّذِينَ يُحَاوِلُونَ نَشْرَ الْأَذَى فِي الْأَرْضِ، وَيَتَزَعَّمُهُمُ التِّيَّارُ الصُّهُيُومَسِيحِيُّ.

مِنْ هَذَا الْمُنْظُورِ الْجَدِيدِ، سَتَتَغَيَّرُ رُؤْيُوتُكَ لِلْسُّورَةِ تَغْيِيرًا جَدْرِيًّا

وَذَلِكَ عَلَى عِدَّةِ مُسْتَوِيَاتٍ، وَمِنْهَا: فِي مَنْهَجِيَّةِ التَّدْبِيرِ: مِنَ الثَّرَاثِ إِلَى التَّجْدِيدِ: يُقَدِّمُ هَذَا الْكِتَابُ مَنْهَجِيَّةً تَجْدِيدِيَّةً مُبْتَكِرَةً فِي التَّدْبِيرِ، تُبْنَى عَلَى الثَّرَاثِ التَّفْسِيرِيِّ الْعَظِيمِ الْمُبَارَكِ بِنَاءً قَوِيًّا، وَتَزِيدُ عَلَيْهِ بِأَنْ تَغُوصَ فِي أَعْمَاقِ رُوحِ السُّورَةِ، وَتَكْشِفَ عَنْ "شَخْصِيَّتِهَا" الْمُتَفَرِّدَةِ، وَ"عَمُودِهَا الْكُلِّيِّ" الَّذِي تَنْتَظِمُ حَوْلَهُ كُلُّ آيَاتِهَا وَقِصَصِهَا وَأَحْكَامِهَا كَالْجَوَاهِرِ فِي عَقْدٍ فَرِيدٍ.

وَمِنْهَا: فِي جَمَالِ تَتَابُعِ السُّورِ الْقُرْآنِيِّ

فَإِنَّ بَصَائِرَ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ تَكْشِفُ عَنْ تَكْمِلَةِ مُذْهَلَةٍ لِلْمَوْضُوعَيْنِ الْكُلِّيَّيْنِ لِسُورَتَيِ الْفَاتِحَةِ وَالْبَقَرَةِ: فَإِذَا كَانَ عَمُودُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ هُوَ: "تَعْرِيفَ الْعَالَمِ بِالْإِسْلَامِ"، فَإِنَّ عَمُودَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ أَوْجَدَ الْعُمُرَانَ الَّذِي يُعْرِفُ الْعَالَمَ بِالْإِسْلَامِ، فَالْمَوْضُوعُ الْكُلِّيُّ لَهَا هُوَ: "إِشْرَاقُ الْحَضَارَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ عَلَى الْعَالَمِ بَعْدَ التَّجْرِبَةِ الْإِسْرَائِيلِيَّةِ الْفَاشِلَةِ فِي الْإِسْتِخْلَافِ".

هَذَا تَأْتِي سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ فِي تَرْتِيبٍ مَنْطِقِيٍّ حَكِيمٍ لِيَكُونَ عَمُودُهَا تَالِيًا لِإِشْرَاقِ الْحَضَارَةِ، فَالْسُّورَةُ تُحَدِّثُنَا عَنْ: "تَكْوِينِ أُمَّةٍ شَهَادَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ، أُمَّةٍ الْخَيْرِ الَّتِي تَصْنَعُ الْحَضَارَةَ الَّتِي أَشْرَقَتْ بِهَا سُورَةُ الْبَقَرَةِ".

وَمِنْهَا: التَّسْوِيرُ هُوَ لِبَنَاتِ نِظَامِ الْقُرْآنِ الْمُتَكَامِلِ (مِنْ دُعَاءِ النَّصْرِ إِلَى سُنَّةِ التَّدَاوُلِ)

سَتَجِدُ شَيْئًا وَاضِحًا عَظِيمًا يُظْهِرُ قُوَّةَ النِّظَامِ الْقُرْآنِيِّ، وَالْإِحْكَامَ الْفَرْقَانِيَّ، فَبَيْنَ الرَّهْرَؤَيْنِ (الْبَقَرَةِ وَآلِ عِمْرَانَ) اتِّصَالٌ مُدْهِشٌ مِنْ أَهَمِّ مَعَالِمِهِ: أَنَّ سُورَةَ الْبَقَرَةِ انْتَهَتْ بِمُفَاجَأَةٍ كَبِيرَةٍ؛ إِذْ خُتِمَتْ كَلِمَاتٌ أُخْرَايَةُ فِيهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى يُعَلِّمُنَا أَنْ نَقُولَ: ﴿أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 286]، وَهُنَا جَاءَتْ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ لِتُبَصِّرَنَا بِصُورَةٍ مُدْهِشَةٍ بِتَحْقِيقِ الْفَلَاحِ الْحَقِيقِيِّ فِي مُوَاجَهَةِ الْكَافِرِينَ.

وَالْفَلَاحُ يَعْنِي تَحْقِيقَ النَّصْرِ وَالْفَتْحِ وَالنَّجَاحِ الْكَامِلِ الْفَرْدِيِّ وَالْجَمَاعِيِّ فِي كُلِّ مَعَارِكِنَا الثَّقَافِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ وَالْعَسْكَرِيَّةِ، وَقَدْ تَكَرَّرَتْ كَلِمَةُ: (تُفْلِحُونَ) فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

وَلَكِنَّ الْمُثِيرَ فِي تَغْيِرَاتِ الزَّمَانِ أَنَّهَا تَخْضَعُ لِسُنَّةٍ تَدَاوُلِ الْأَيَّامِ. تِلْكَ السُّنَّةُ الرَّهْبِيَّةُ الَّتِي تَقْتَضِي أَنْ نَنْتَصِرَ عَلَى الْكَافِرِينَ حِينًا، وَأَنْ يَنْتَصِرُوا عَلَيْنَا حِينًا آخَرَ. هُنَا رَسَمَ الْقُرْآنُ الْمُبِينُ لَنَا طَرِيقَ النَّصْرِ عَلَيْهِمْ مِنْ خِلَالِ مَعْرَكَةٍ فَشَلْنَا فِيهَا أَمَامَهُمْ هِيَ مَعْرَكَةُ أَحَدِ الْعَظِيمَةِ.

لِمَاذَا جَاءَ ذِكْرُ سُنَّةِ التَّدَاوُلِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ؟

لِأَنَّ أَكْبَرَ الْجِهَاتِ الَّتِي تُحَارِبُ الْمُسْلِمِينَ تَنْتَهِي لِقَوْمٍ يُعَظِّمُونَ آلَ عِمْرَانَ، وَهُمْ النَّصَارَى الَّذِينَ يُسَمُّونَ أَنْفُسَهُمُ الْعَالَمَ الْمَسِيحِيَّ. وَبِذَا تَكْشِفُ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ قَوَانِينَ الْإِنْتِصَارِ فِي سُنَّةِ التَّدَاوُلِ:



فَإِنْ قُلْتَ: كَيْفَ أَسَسَتْ سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ لِتَحْقِيقِ الْإِنْتِصَارِ عَلَى الْكُفَّارِ وَكُلِّ الْقُوَّاتِ الْمُعَادِيَةِ؟

الجواب:

الْجَوَابُ: فِي مَوْضُوعِ التَّدَاوُلِ مَعَ الْكَافِرِينَ نَجِدُ تَدَبُّرًا عَجِيبًا. فَإِنَّكَ سَتَلَاخِظُ أَنَّ اللَّهَ ﷻ أَشَارَ إِلَيْهِمْ بِكَلِمَةِ {كَفَرُوا} بِصِغَةِ الْفِعْلِ الْمَاضِيِّ الْمُسْنَدِ إِلَى الْوَاقِعِ فِي أَوَّلِ مَوْضِعٍ مِنَ السُّورَتَيْنِ، وَتَكَرَّرَتْ هَذِهِ الْكَلِمَةُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ (11) مَرَّةً، بَيْنَمَا تَجَدُّهَا ذُكِرَتْ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ (16) مَرَّةً مَعَ أَنَّ سُورَةَ آلِ عِمْرَانَ أَصْغَرُ مِنْهَا.

كُلُّ ذَلِكَ يُؤَشِّرُ إِلَى ضَخَامَةِ الْمَعْرَكَةِ بَيْنَ الطَّرَفَيْنِ، وَإِلَى أَهَمِّيَّةِ تَكْوِينِ الْأُمَّةِ الدَّاعِيَةِ إِلَى الْخَيْرِ فِي الْعَالَمِ، وَالَّتِي سَتُخَلِّصُهُ مِنْ شُرُورِ الْمُجْرِمِينَ مِنْ خِلَالِ الْإِسْتِعْصَامِ بِالشَّهَادَةِ الْكُبْرَى (أَيِ الشَّهَادَةِ لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَّةِ، وَأَنَّهُ قَائِمٌ بِالْقِسْطِ، وَأَنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ).

مُتَعَةً الْبَيِّنَةِ الْقُرْآنِيَّةِ وَجَادِبِيَّتُهَا "الْإِعْجَازُ الْقُرْآنِيُّ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ: دَعْوَةٌ لِإِعَادَةِ الْاِكْتِشَافِ":

سَتَرَى كَيْفَ أَنَّ كَلِمَاتِ هَذِهِ السُّورَةِ الْمُمَيَّزَةَ نَسَجَتْ لَنَا بَصَائِرَ الْمَعْرِفَةِ الْعُظْمَى مِثْل: "الشَّهَادَةِ"، و"الْإِسْلَامِ" دِينَ الْأَنْبِيَاءِ جَمِيعًا، و"الِاتِّبَاعِ" الْحَقِيقِيِّ، و"كَلِمَةٍ سَوَاءٍ"، و"سُنَنِ اللَّهِ" فِي النَّصْرِ وَالْهَزِيمَةِ، فَصَارَتْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ خُيُوطًا ذَهَبِيَّةً فِي هَذَا النَّسِيجِ الْمُحْكَمِ.

إِنَّ هَذَا الْكِتَابَ دَعْوَةٌ لِإِعَادَةِ اِكْتِشَافِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ، لِتَرَاهَا بِعَيْنٍ جَدِيدَةٍ، وَلِتَنْتَقِلَ مِنْ قِرَاءَةِ الْآيَاتِ الْمُتَفَرِّقَةِ إِلَى فَهْمِ بِنَائِهَا الشَّامِخِ الْمُتَكَامِلِ.

سَتُدْرِكُ لِمَاذَا بَدَأَتِ السُّورَةُ بِالشَّهَادَةِ الْكُبْرَى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾، وَكَيْفَ أَنَّ هَذِهِ الشَّهَادَةَ هِيَ مَحْوَرُ الْحَوَارِمِ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَهِيَ ذَاتُهَا الْغَايَةُ الَّتِي يَبْذُلُ النَّاسُ فِي سَبِيلِهَا أَرْوَاحَهُمْ فِي سَاحَاتِ الْقِتَالِ. إِنَّهَا رَحْلَةٌ فِكْرِيَّةٌ إِيْمَانِيَّةٌ مُذْهِلَةٌ، تَمْنَحُكَ الْأَدَوَاتِ وَالْبَصَائِرَ لَيْسَ فَقَطْ لِفَهْمِ أَسْرَارِ الْمَاضِي، بَلْ لِاسْتِلهَامِ دُسْتُورِ الْحَاضِرِ وَالْمُسْتَقْبَلِ؛ دُسْتُورِ بِنَاءِ الْأُمَّةِ الَّتِي لَا تَهْزِمُهَا كِبُوءَةٌ، وَلَا يُغْرِمُهَا نَصْرٌ، بَلْ تَمْضِي فِي طَرِيقِهَا بِثَبَاتٍ، حَامِلَةً رِسَالَةَ الْخَيْرِ لِلْعَالَمِينَ، كَمَا أَرَادَ لَهَا رَبُّهَا ﷻ.

فَهَلَّا سَارَعْتَ مَعَنَا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ مِنْ خِلَالِ كُنُوزِ بَصَائِرِ الْمَعْرِفَةِ الْقُرْآنِيَّةِ فِي سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ؟

عَبْدُ اللَّهِ مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ

s1435y@gmail.com

الأحد 25 محرم 1447 هـ

الموافق 20 يوليو 2025 م

النور الأول

من فضائلها

الفضيلة
الثالثة

وعن ابن مسعود رضي الله عنه:
«من قرأ آل عمران فهو غني،
وَالنِّسَاءُ مُحِبَّةٌ».
قال الدارمي: مُحِبَّةٌ: مُزَيَّنَةٌ.

(الدارمي: 3438، جُودُ إِسْنَادِهِ مُحَقَّقُهُ: حُسَيْنُ أَسَد).

الفضيلة
الثانية

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:
موقوفاً عليه:
«نِعْمَ كُنْزُ الصَّلَوكِ سُورَةُ آلِ
عِمْرَانَ يَقُومُ بِهَا فِي آخِرِ
الَّيْلِ»

(الدارمي: 3441، وَصَحَّحَ إِسْنَادَهُ مُحَقَّقُهُ: حُسَيْنُ

أَسَد).

الفضيلة
الأولى

هي الزهراء الثانية: فعن أبي
أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: سمعت
النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «افْرُؤُوا
الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقَرَةَ وَسُورَةَ آلِ
عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ
كَأَنَّهُمَا غَيَايَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا
فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ صَوَافٍ تَحَاجَّانِ
عَنْ أَصْحَابِهِمَا» (مسلم: 804).

والزهراء توحى بالتميز والإنارة والجمال والوضاءة

فهي التي تنير حياة الناس، وتضيء لهم؛ إذ كلُّ من السورتين تضع تفاصيل دستورية يتحرك بها الإنسان،
وتتحرك بها الأمة، وتقوم بها الدولة، ولا تجد هذه التفاصيل بهذه الصورة في سورة أخرى.

النور الثاني

المعايير الثمانية التي تحدد عمود سورة آل عمران

وهو موضوعها الكلّي، وهذا العمود هو الذي لأجله سُورَت آياتها بِسُورِ سَمَاءِ اللَّهِ ﷻ
«سورة آل عمران»



ما المعايير التي حددت عمود سورة آل عمران ليكون موضوعاً كلياً؟

الجواب:

الجواب: جرياً على منهجيتنا في تحرير هذه الموسوعة التفسيرية المباركة (بصائر المعرفة القرآنية) فإن
لتحديد عمود السورة ثمانية معايير، وهي:

المعيار الثاني

نزولها التاريخي.

المعيار الأول:

اسمها (آل عمران).

المعيار الرابع

أهم الموضوعات التي تشير إليها سورة آل
عمران أو تتمحور حولها.

المعيار الثالث

ترتيبها المصحفي، فهي السورة الثالثة
حسب الترتيب المصحفي.

المعيار السادس

من أهم الكلمات المتكررة بنصها أو
بمعناها بصورة ملحوظة.

المعيار الخامس

من أهم الكلمات التي انفردت بها
سورة آل عمران.

المعيار الثامن

الخريطة الكلّية التي تُظهر المحاور العامّة
لسورة آل عمران، وتبين إحكام ترتيب آياتها.

المعيار السابع

مدد السّابّقين من المفسّرين في تحديد
عمود سورة آل عمران (موضوعها الكلّي).

المعيار الأول: اسمها (آل عمران)

اسمها الذي شُهرت به: (آل عمران)، كما تُلَقَّب بـ(الزهاء الثانية).
وهي ثمانية السبع الطّوال، بلغت حروفها أربعة عشر ألفاً وخمسمائة وخمسة وعشرين حرفاً.
وكلماتها: ثلاثة آلاف وأربعمئة وثمانون، وعدد آياتها: مائتان باتفاقٍ عند أئمة العدد (البيان في عد أي القرآن ص143)



وهنا نسأل: فما دلالات اسم السورة (آل عمران)؟

الجواب:

اسمها يشير إلى القصة الحقيقية الرائعة للأسرة المباركة (آل عمران) التي هي على الصحيح أسرة المسيح عيسى عليه السلام

بَصِيرَةٌ

إذ تسمع في هذه السورة عن جدة المسيح وأمه وعنه معهما عليهم السلام، بأسلوبٍ يجمع بين البيان للواقع الحقيقي للقصة، والتوظيف التربوي الإيماني، والإرشاد الدعوي، والإخبارات والعبودية الحقّة، والتبليغ للرسالة، والارتباط بالرسالة الخاتمة التي جاء بها نبينا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وباسم الإسلام بصورة عظيمة ضخمة؛ إذ يقول أتباع المسيح عليه السلام: ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 52]، فترينا بصائر القرآن التعامل الرشيد مع الفئتين المتقابلتين: مع ذوي القلب المفتوح وذوي الفكر العنيد من أهل الكتاب، خصوصاً النصارى.



علاقة تسمية السورة بالقضيتين الكبيرتين اللتين فصلتهما سورة آل عمران: تاريخ النصرانية، ومعركة أحد:



هنا يظهر لنا سؤال: لماذا كان التركيز هنا في سورة (آل عمران) على النصارى في حين كان التركيز على اليهود في سورة البقرة؟ ولماذا ذكرت معركة أحد بتوسع في هذه السورة على الرغم من عدم تسميتها سورة أحد؟

الجواب:

١ تعال نبصر كنزاً قرآنياً مدهشاً في الجمع بين هاتين القضيتين، فعند نزول هذه السورة لم يكن الجمع بينهما واضحاً، ولكن القرآن يبصّرنا بالحكم المتعددة لألفاظه، وآياته، وترتيبها كلما تقدم الزمان.

٢ اليهود أسبق زمناً من النصارى، فكان البدء ببيان أحوالهم وطرائق التعامل معهم، وتقديمهم على النصارى متناغماً من جهة الترتيب.

٣ وهنا نعلم لماذا ذكر الله ﷻ قصة معركة أحد بتوسع كبير في هذه السورة التي لم يسمّها كما سمّى السورة التي تكلمت عن بدر بالأنفال، وكما سمّى السورة التي فصلت معركة الخندق بالأحزاب بل سماها سورة (آل عمران)، فعلاقة المسلمين مع النصارى لها خصوصية، وتسامح المسلمين الكبير في التعامل معهم مكّن المعتدين من اختراق مجتمعات المسلمين، وسبّب ذلك هزائم متوالية للمسلمين كما في الحملات الصليبية، وكما في موجات الاحتلال الأخير.

٤ عالج الله ﷻ في هذه السورة التعامل مع هزيمة أحد مع أنها لم تكن بسببهم في الجزء الثاني من السورة، وبين المنهجية القرآنية في معالجة الأخطاء، والتركيز على التعليم الذي بعث الله عز وجل به النبي الأمين ﷺ، ومعالجة عقدة الخوف من الموت، فالمعتدون من النصارى صار لهم دورٌ محوريٌّ هائلٌ في إلحاق الأذى الكثير بالمسلمين بعد أحد، وهنا نعلم لماذا دعا النبي ﷺ بعد آلام أحد على كفرة أهل الكتاب الذين يصدون عن سبيل الله، ويحادون أولياءه.

٥ حَدَّثَ استغلال متبادل بين اليهود الذين ذكرت أحوالهم سورة البقرة، والنصارى الذين ذكرت أحوالهم سورة آل عمران، وهذا الاستغلال المتبادل ظهر في أسوأ صوره في العصر الحاضر، وهنا نشعر بسر هذا التكامل الكبير بين السورتين في توضيح نفسيات هذين الفريقين المتحالفين الآن.

المعيار الثاني: نزولها التاريخي

هي سورة مدنية باتفاقٍ نزلت تربي المسلمين في الدولة المسلمة التي يقودها رسول الله ﷺ في المدينة

بَصِيرَةٌ ١

ويظهر أن سورة الأنفال نزلت بعد أوائل ما نزل من سورة البقرة، لأنها ذكرت بدرًا، ثم نزلت بعدها سورة آل عمران التي أشارت إلى محاصرة النصارى، وذكرت معركة أُحُد، وأشارت إلى بدر، وهذا يعني أن ابتداء نزولها كان في أواخر السنة الثالثة، ولا يعني هذا أنه لم تنزل سورة أخرى بينهما.

القضية الكبرى الأولى في السورة، وهي التاريخ الحقيقي للنصرانية إلى الآية (120)

بَصِيرَةٌ ٢

ويظهره ما روي أنه قديم على رسول الله ﷺ، وفدُ نجران، ستون ركبًا، فيهم أربعة عشر رجلًا من أشرفهم، وكبير النصرانية فيهم، وهو أبو حارثة بن علقمة، الذي شرفه ملوك الروم لما أظهر الاجتهاد في المسيحية

(المعجم الأوسط: 3906، وضعفه الهيثمي في مجمع الزوائد 239/8).

في هذه القصة بيان واضح أن كبار قسس النصارى يعرفون الحق

بَصِيرَةٌ ٣

فقد ركب أبو حارثة بغلته، فعثرت، فقال كرز أخوه: تعس الأبعد. يريد رسول الله ﷺ، فقال أبو حارثة: بل تعست أمك، فقال: ولم يا أخي؟ فقال: إنه والله النبي الذي كنا ننتظره، فقال له أخوه كرز: فما يمنعك منه وأنت تعلم هذا؟ قال: لأن هؤلاء الملوك أعطونا أموالًا كثيرة وأكرمونا، فلو آمننا بمحمد ﷺ لأخذوا منا كل هذه الأشياء (المرجع السابق).

السورة تعلمنا الحوار حول دقائق التاريخ النصراني

ففي هذه القصة أنهم لما قابلوا النبي ﷺ تكلّم ساداتهم معه، وجادلوه بأن عيسى إله أو ابن الإله أو ثالث ثلاثة - فهم أنفسهم لا يعلمون المسألة بدقة إلى الآن -، وإنما جادلوه في ذلك لأنهم سمعوا أنه كان يُحْيِي المَوْتَى، وَيُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى هذه السورة تعلمنا الحوار معهم، وتعرض القصة الحقيقية لتاريخ الأسرة المباركة: أسرة عيسى ابتداءً من جدته ثم أمه ﷺ.

نزلت السورة من آية (121) إلى آخرها في وصف معركة أُحُد، وتحويلها إلى دروس
استراتيجية في حياة الأمة

فعن المسور بن مخرمة رضي الله عنه، قال: قلت لعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: أي خالي، أخبرني عن قصتكم يوم أُحُد، فقال: اقرأ العشرين ومائة من آل عمران تجد: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعَدَ الْفِتَالِ﴾ [آل عمران: 121] إلى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمْنًا نُعَاسًا﴾ [آل عمران: 154]

[154] (ابن أبي حاتم: 4074، وفي مجمع الزوائد 112/6 أشار إلى ضعفه ولكن المعنى صحيح).



المعيار الثالث: ترتيبها المصحفي

هي السورة الثالثة بعد سورة الفاتحة والبقرة حسب الترتيب المصحفي، وهنا نبحث في علاقات سورة آل عمران بهما

هذا المعيار يساعد على معرفة عمود السورة وموضوعها الكلي من ناحيتين:

الثانية

الأولى

معرفة العلاقات ثمرة لتحديد الموضوع

معرفة العلاقات تؤدي إلى محاولة تحديد الموضوع المتوقع للسورة الثانية.

فبعد تحديد الموضوع نعود مجدداً للنظر إلى السورة وعلاقاتها بما قبلها وما بعدها في ضوء هذا الموضوع، ولذا لن يُستكمل هذا العنصر بصورة مثالية إلا بعد الانتهاء من تفسير ما قبل أي سورة وما بعدها، والأصل أن نعود إلى السورة بعد تحديد عمودها الكلي للنظر في علاقاتها بسبقها ولحاقها مجدداً، وهذا لا يثنينا عن الماضي فيما يتيسر الآن، فمن أهم أنواع العلاقات التي ظهرت بين هذه السورة وما قبلها.

العلاقات بين سورة آل عمران وما قبلها:

يمكن إجمال هذه العلاقات في (17) علاقة، وذلك كما يأتي:

تكامل الموضوعات الكلية وتتابعها على أجمل الوجوه

علاقة ١

فالموضوع الكلي لسورة الفاتحة يدور حول تعريف العالم بالإسلام.

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

وبصورة محكمة يأتي الموضوع الكلي لسورة البقرة، وهو: إشراق الحضارة الإسلامية على العالم، وتجربة الاستخلاف الإسرائيلية

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ

ويتلوه الموضوع الكلي لسورة آل عمران الذي يدور حول كيفية الإفادة من سنن الله الكونية والاجتماعية في تحقيق النصر لهذه الحضارة الجديدة، ولذا يجب أن تعرف كيفية التعامل مع أقوى الامبراطوريات في التاريخ، وهي الإمبراطورية أو الحضارة النصرانية.

الترابط بين الموضوعات الكلية لهذه السُور

لأنَّ الموضوع الكلي للفاتحة يسوقنا إلى الموضوع الكلي لسورة البقرة، والموضوعان الكليان لسورتي الفاتحة والبقرة يُسَلِّماننا تلقائيًا إلى الموضوع الكلي لسورة آل عمران بسلاسة، ويحضران بقوة في صياغته وتحديده:

علاقة ٢



فالتعريف بالإسلام في سورة الفاتحة هل هو مجرد أمر نظري؟

الجواب:

تأتي سورة البقرة لتبصّرنا بأنه يتحول إلى حضارة واقعية لها وزنها في التدافع بين الأمم، وهذه الحضارة لا بد أن تُظهر للعالم شهادتها الكبرى ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، وأن تُعرف سنن الانتصار في تداول الأيام حتى يكون لها الدولة والثبات، وهذا ما جاء في سورة آل عمران.

اتضح من الزهراوين ضرورة الانتباه للتفاعل مع بعض الحضارات الكبرى السابقة مثل الحضارة الإسرائيلية، والحضارة النصرانية.

علاقة ٣

ذكر الله ﷻ في سورة الفاتحة فنتين بصفاتهم

علاقة ٤

والضالين

المغضوب عليهم

وأبرز من يمثّل المغضوب عليهم:

الذين كفروا من اليهود، ويشير اسم سورة البقرة إليهم، ففصّل الله عز وجل ﷻ فيها تاريخهم، ونفسياتهم، والجانب السلبي، والإيجابي من حضارتهم، وتبين لنا كيف ندير العلاقات معهم في السلم والحرب.

وأبرز من يمثّل الضالين:

الذين كفروا من النصارى، ويشير اسم سورة آل عمران إلى أساس حضارتهم، فذكر الله ﷻ أهم ما يتعلق بهم، وفصّلت السورة أهم قضية عند النصارى يتمحور ديثهم عليها، وهي أسرة عيسى عليه السلام، وقصته من الولادة إلى الرفع، ومن خلالها يّن كيف ندير العلاقات معهم.

علاقة

اليهود قُدموا في سورة البقرة باعتبار وجودهم التاريخي السابق للنصارى

وباعتبار بعضهم عقلاً محرّكاً في الفريقين، وبعضهم أداة للصهيونيين النصارى، فبين الطرفين تخادماً واضح ضمن مؤامرة مستديمة، وتراني هنا أصرّ على نظرية المؤامرة، وأتعجب ممن ينفمها، وهي أشد ما تكون وضوحاً، ولانتماء كثير من قياداتهم الدينية إلى فئة (المغضوب عليهم)، وفي سورة آل عمران ركّز على النصارى؛ باعتبارهم الفريق الأكثر عدداً، وبين التيار المحرّف منهم والتيار المحرّف من اليهود تخادماً متبادل، وهم الذين يسعون في الأرض فساداً، ويلعب كل طرف بالآخر بصورة ما، والتأمر بينهم مشترك، ولانتماء كثير منهم إلى فئة (الضالين)، فناسب هذا الترتيب ما جاء في سورة الفاتحة.

علاقة

ترتيبهما (البقرة وآل عمران) منطقي حكيم في المصحف

فكلاهما يشير إلى أعظم أمتين ستبقى علاقتهما بالمسلمين وبالتأثير في أحداث العالم في جانبها الإيجابي القليل والسلبي الكثير، وواقعهما الحضاري والسياسي، وهما: اليهود والنصارى.

كلُّ من السورتين بُدئَ بِذِكْرِ الْكِتَابِ، سواءً أكان ذلك من حيث مضمون الكتاب، أم من حيث أحوال الناس مع الكتاب

علاقة ٧

ثانياً: ومن حيث أحوال الناس مع الكتاب

أولاً: مضمون الكتاب

٢

وفي آل عمران ذكر الله ﷻ الزَّائِغِينَ الْمُفْتَونِينَ الْفَاتِنِينَ، وَالرَّاسِخِينَ فِي الْعِلْمِ الْمُؤْمِنِينَ بِمَحْكَمِهِ وَمُتَشَابِهِهِ، وَنَاسِبَ ذَلِكَ التَّأْخِيرُ؛ لِأَنَّهُ كَلَامٌ فِي التَّفْصِيلِ بَعْدَ الْإِجْمَالِ.

١

في البقرة بيّن الله تعالى أساس تعامل الناس في الانتفاع به أو معاداته، فقسّمهم إلى متقين، وإلى كفار معاندين ومنافقين؛ فناسب أن تكون البقرة مقدمة.

٢

وفي آل عمران ذكر الله ﷻ تفصيل محتويات الكتاب، وقسّم آياته إلى نوعين: (محكمات ومتشابهات).

١

ذكر الله ﷻ في سورة البقرة الكتاب إجمالاً ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: 2].

بعد أن أقام الله ﷻ المجتمع الإسلامي في سورة البقرة على أساسٍ راسخ

علاقة ٨

من التقوى والسمع والطاعة والتشريعات الفقهية والسياسية والعقدية الحياتية، بيّن الله تعالى في هذه السورة الأخطار الداخلية والخارجية التي تهدّده، ووسائل حمايته من هذه الأخطار، مع ذكر الأخطار بنوعها في سورة البقرة.

بُدئت سورة البقرة بذكر الكفار من حيث الإنذار، ثم خُصَّ بنو إسرائيل وغيرهم بالحوار

علاقة ٩

أما سورة آل عمران فقد بينت أن الكفار يحشدون طاقتهم وجندهم للاعتداء، وطمأنت المؤمنين بنتيجة المعركة إذا تمسكوا بالقرآن الحكيم، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ١٠ كَذَابٍ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ١١ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ١٢﴾ [آل عمران: 10 - 12].

سورة آل عمران تُكْمِل بعض أهم الأنظمة التي ذكرتها سورة البقرة

علاقة ١١

إذ أضافت قوانين جديدة في بيان تحريم الربا، وأكملت الحديث عن الحج، والإنفاق والحذر من أهل الكتاب وأهل النفاق، وأضافت مسائل جديدة في دور المال في صناعة النصر، وفصّلت سنن النصر والهزيمة عند الاشتباك الحربي مع المعتدين، فذكرت سورة البقرة أصل مشروعية المواجهة المسلحة، وكيفية الممارسة لها إيجاباً وسلباً، وذكرت سورة آل عمران كيفية سنن النصر والهزيمة عند وقوع المواجهة، وجعلت من غزوة أحد أنموذجاً.

نجد في كليهما تكاملاً في التركيز على أن دين الإسلام هودين الأنبياء ﷺ

علاقة ١٢

وامتد التركيز في هذه الفكرة إلى سورتي النساء والمائدة، والسور الأربع مدنيات؛ ليعلمنا ذلك أن أهم مرتكزات الحوار مع الحضارات الأخرى التركيز على أن دين الإسلام هودين الأنبياء ﷺ، لا أن تضيق جلسات الحوار فيما لا فائدة فيه، أو في تضيق هذه القضية.

الدُّعَاءُ فِي كُلِّ مِنْهُمَا يَكْمِل الصورة على أجمل لوحة تراها، فمثلاً:

علاقة ١٣

في البقرة: الدعاء بالهداية للإسلام، وأحكامه العظام ﴿رَبَّنَا وَلَجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ

ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ [البقرة: 128]

وفي آل عمران: الدعاء بالثبات عليه ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ

رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾ [آل عمران: 8].

ثم الدعاء بأن يكتب الله ﷻ المؤمنين مع الشاهدين:

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: 53].

في البقرة الدعاء بتحقيق أهداف المسلم الثلاثة الكبرى ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا

حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ٢٠١﴾ [البقرة: 201]

٣

وفي آل عمران: الدعاء بالإعانة على أهم وسائل تحقيق ذلك: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

وَأَسْرَفَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ١٤٧﴾ [آل عمران: 147].

في البقرة الدعاء بالمغفرة عندما نضعف عن القيام بالتكاليف، وسؤال الله ﷻ

التخفيف ﴿غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ٢٨٥﴾ لَا يَكْلِفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ

وَعَلَيْهَا مَا كَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: 285-286]

٤

وفي آل عمران الدعاء بأهم مقصود من سؤال الله التخفيف، وهو الوقاية من عذاب

النار وخزيه ومقدماته ﴿فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تَدْخُلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ وَمَا

لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا

رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْأَبْزَارِ ١٩٣﴾ [آل عمران: 191-193].

بدأت سورة البقرة بذكر خمس وسائل يصل بها المؤمنون إلى تحقيق رتبة المفلحين

١٤

علاقة

وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾ [البقرة: 3-5]، وآل عمران خُتِمَتْ

بما يُكَمِّل ذلك؛ إذ أبانت أربع وسائل جديدة تَوَصِّل إلى تحقيق رتبة الفلاح العظيمة:

﴿أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٢٠٠﴾ [آل عمران: 200].

تكملت السورتان في بيان بعض أهم محطات تاريخ البشرية

علاقة ١٥

فبدأت سورة البقرة بذكر حقيقة وجود آدم عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾ [البقرة: 30].

وأكملت سورة آل عمران في بيان اصطفاء المصلحين من ذريته ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ

ءَادَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ۚ﴾ [آل عمران: 33] ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ۗ.

قامت كلٌّ من السورتين على الحوار والمحااجة لأهل الكتاب

علاقة ١٦

وناسب أن تذكر فيهما أحكام العمل العسكري، والحرب الأخلاقية التي تميز بها أهل الإسلام، وذلك لأن المعتدين يحاولون دائماً التلاعب بمبدأ التسامح، ليجعلوا أهله لقمة سائغة لهم باسم الحوار، فأرست سورة البقرة أسباب الحرب وكيفية المواجهة، وأظهرت سورة آل عمران سنن النصر والفشل فيها.

ذكر في سورة البقرة مكانة هذه الأمة من حيث شهادتها على الناس

علاقة ١٧

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: 143]، وذكر في سورة آل عمران خيريتها للناس

فقال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].



المعيار الرابع: أهم الموضوعات التي تشير إليها سورة آل عمران أو تتمحور حولها

من أهم الموضوعات التي تشير إليها سورة آل عمران (13) موضوعًا، وذلك كما يأتي:

موضوع الشهادة الكبرى

الموضوع
الأول

تقدم السورة الشهادة الكبرى التي يلوذ بها العالم لمعرفة الحقيقة وبناء السعادة، وترى ذلك بيّنًا واضحًا من أول السورة؛ إذ يقول الله ﷻ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

بَصِيرَةٌ
١

ثم لا تتركنا آياتها حتى تعيد على مسامعنا مجددًا هذه الشهادة الكبرى، فيقول الله ﷻ: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

بَصِيرَةٌ
٢

ثم لا تتركنا آياتها حتى تعيد هذه الشهادة بصورة لا مثيل لها في القرآن الكريم كله

بَصِيرَةٌ
٣

فيقول الله ﷻ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (١٨)، وتستمر هذه الشهادة مرتبطة بالموضوع الثاني.

الإسلام هودين المسيح وأنبياء بني إسرائيل وسائر الأنبياء ﷺ، وتبصرنا السورة باجتماع المعتدين من فريقَي أهل الكتاب على إخفاء هذه الحقيقة الكبرى.

الموضوع
الثاني

بَصِيرَةٌ

١

تربط السورة اسم الإسلام بالشهادة الكبرى من أول السورة إلى آخرها؛ إذ يقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19].

بَصِيرَةٌ

٢

يستمر الأمر على هذا النحو بأساليب متعددة، ومن خلال القصص

والتوجيهات القرآنية الراشدة المهمة إلى أن يواجهنا قول ربنا ﷻ في آخر السورة:

﴿رَبَّنَا إِنَّا أَسْمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا﴾ [آل عمران: 193].

بَصِيرَةٌ

٣

لا تتركنا بصائر السورة دون أن نخبرنا عن وجوب أن نتفاعل مع النصارى كما نتفاعل مع اليهود داعين لهم إلى الخير وأعظم الخير أن يؤمنوا

وهنا نرى جمال الختم بقول ربنا ﷻ: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 199]، الذي يبين أن استجابة هذه الفئة من أهل الكتاب وإيمانهم هو نتيجة منطقية لهذا التفاعل.

الموضوع
الثالث

حقيقة الاتِّباع للأنبياء

ذكر الله ﷻ في هذه السورة موضوع اتِّباع الأنبياء، وبَيَّنَّ أن محبَّته ليست ادِّعاء بل ترتبط باتِّباع أنبيائه، وليس بادِّعاء المحبة الشكلية لهم، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ

فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: 31].

وتكرّر في هذه السورة المباركة ذكر الاتباع؛ للترقية بينه وبين ادعاء المحبة، ومن هذه المواضع:

قوله عن محبي النبي ﷺ: ﴿فَقُلْ أَسَأَمْتُ
وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: 20].

قوله عن محبي عيسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا
أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ [آل عمران: 53].

قوله عن جزاء الحوارين وغيرهم من أتباع
عيسى عليه السلام: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ
الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: 55]، أي: فوق
الذين كفروا بك ولم يهتدوا بهديك فوقية
روحانية دينية، وهي كونهم أحسن أخلاقاً،
وأكمل آداباً وأقرب إلى الحق والفضل،
وأبعد عن الباطل والاعتداء

قوله عن محبي إبراهيم عليه السلام:
﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا
التَّيِّبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [آل عمران: 68]، فمن اتبع
إبراهيم ينبغي أن يفتخر بالإسلام، لا أن
يضل الناس باسم الديانة الإبراهيمية
بعيداً عن الإسلام، ولذا قال الله ﷻ: ﴿قُلْ
صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 95].

وقال في عموم الاتباع الحقيقي:
﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ﴾
[آل عمران: 162].

وقال عن المتبعين الحقيقيين الذين يخافون
الله ﷻ، ولا يخافون الطواغيت
﴿فَلَنَقْلُبُوا نِعْمَةً مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمَسَّ لَهُمْ
سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 174].

المنهجية القرآنية في بناء المجتمع الإسلامي

الموضوع الرابع

وحمايته من التحديات الخارجية التي تحيط بالمشروع الإسلامي فيما يتعلق بإدارة العلاقات مع
أهل الكتاب وخاصة النصارى سلماً وحرّاً، ونجد ذلك في الآيات [1-120] من سورة آل عمران،
ثم نجد إشاراتٍ إليه في مواضع أخرى منها.

الموضوع
الخامس

معالجة التحديات الداخلية التي تفشل المشروع الإسلامي

فأظهرت سورة آل عمران المنهجية القرآنية في معالجة الأخطاء التي تُحدث الفشل،
وتسبب الهزيمة ويظهر ذلك في الآيات [121-189] التي عرضت لقصة غزوة أُحُد.

الموضوع
السادس

بيان طبيعة الآيات القرآنية؛ إذ تنقسم إلى محكم ومتشابه، وعلى الرغم من أن هذا الموضوع أشير إليه في الآية السابعة فإنه ظهرت تطبيقاته المعنوية في بقية السورة

فيدخل في المتشابه ولادة عيسى عليه السلام من غير أب، وكونه كلمة الله، فحمل ذلك غلاة
النصارى على تأليهه، ويدخل في المتشابه قوله: ﴿لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ﴾ [آل عمران: 130]، فقد احتج بها بعضهم على أن الربا في غير الأضعاف المضاعفة يجوز، ويدخل في
ذلك انكسار المسلمين أمام المشركين، ويدخل في ذلك ندب الله عز وجل الناس ليتصدقوا،
فقد حمل ذلك المحرفين العتاة إلى أن يقولوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: 181].

الموضوع
السابعسنن الله تعالى في النصر والهزيمة: في النصر لنتبعها ونطبقها، وفي الهزيمة لنحذر
من الوقوع فيها.الموضوع
الثامن

تقلب الذين كفروا في البلاد، وتبخرتهم بالثروات المالية الاقتصادية، والقوات
العسكرية والأمنية والإعلامية، وبيان سوء عاقبتهم في الدارين، وظهر ذلك في نحو
(11) موضعاً من السورة.

الموضوع
التاسع

تاريخ آل عمران، وحقيقة قصة المسيح عليه السلام، وانقسام أهل الكتاب إلى مؤمنين
وفاسقين.

الموضوع
العاشر

رسالة الأمة الخاتمة تتلخص في دعوة العالم إلى الخير

فَهُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ، وربط ذلك بقضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإيمان بالله عز وجل، وفي ورودها بيان لدعامة من أهم دعائم الحماية من المخاطر الداخلية والخارجية.

الموضوع
الحادي
عشر

تشجيع المسلمين على المواجهة الحقيقية المدروسة للعدو المعتدي، ومعالجة عقدة الخوف من الموت

إذ بذلك تُبنى المجتمعات على الكرامة والاستقلال، وتُؤسّس الجيوش على الدفاع عن مجتمعاتها، وليس على أسْرِ مجتمعاتها وتحويلهم إلى رهائن بأيدي قُوّات أمنهم، ويتعلق بهذا عدمُ الاغترار بما يظهر من نعيم أو قوة أو تمكين للذين كفروا في البلاد.

الموضوع
الثاني
عشر

سبب وقوع المصائب الاجتماعية على الأمة هو أنفسنا وتراخينا في تطبيق توجيهات الكتاب الذي تلاه علينا الرسول الخاتم ﷺ

ويأتي التآمر الخارجي لاستثمار نقاط ضعفنا وتوظيف ثغرات الخلل لدينا، وجاء ذلك في آيات غزوة أُحُد.

الموضوع
الثالث
عشر

محاورة أهل الكتاب، وبالأخص النصارى منهم لإقامة الحجة عليهم

ودحض شبهاتهم في القول بالوهمية المسيح أو بُنُوْتَه، وظهر ذلك بصورة صريحة في نحو (18) موضعاً من السورة، وبصورة غير صريحة في كثير من مواضع السورة.

المعيار الخامس: من أهم الكلمات التي انفردت بها سورة آل عمران



٦

﴿بِدِينَارٍ﴾ [آل عمران: ٧٥]

كلمة تصف الشيء القليل الذي يوضع عند بعض أهل الكتاب، ولكنه يَخُونُهُ مهما قَلَّ، وهي كلمة لها علاقة بالموضوع الكلي للسورة؛ لأن ذكرها يوجب الحذر الشديد مع الأفراد والمؤسسات التي تنتهي لأهل الكتاب.

٧

﴿مَلِكٍ أُمْلَكٍ﴾ [آل عمران: ٢٦]

وهو مصطلح فخْمٌ ضخمٌ له هيمنته العظيمة على النفس، يبين إحاطة الله ﷻ بالحضارات القوية الكبرى، والأفراد الذين حباهم بالقوى، وأنه -جل مجده- هو الذي أعطاهم الملك، وهو الذي ينزعه منهم، وإن خضع العطاء والنزع لسننٍ وضعها في الحياة.

٨

﴿رَمَزًا﴾ [آل عمران: ٤١]

هذه الكلمة تصف تواصلَ زكريا مع قومه بعد أن بُشِّرَ بابنه يحيى ﷺ، وأسرة زكريا ﷺ هي التي كفلت مريم عليها السلام.

٩

﴿تَذَخَّرُونَ﴾ [آل عمران: ٤٩]

كلمة قالها عيسى ﷺ وهو يخبر قومه بآيات نبوته أي: بمعجزاته، ومن ذلك أنه يخبرهم ما الذي يجعلونه في بيوتهم اقتصادًا، أو يخفونه ادخارًا لما يريدون أن يعملوه في المستقبل، أوليفيدوا منه في المستقبل، ويحتمل أنه يريد أن يصف لهم ما ينبغي أن يجعلوه مدخرًا ليفيدوا منه وينظّموا حياتهم الاقتصادية.

١٠

﴿رَبَّانِينَ﴾ [آل عمران: ٧٩]

لهذه الكلمة حناها وجمالها؛ إذ تتصل بكلمة {رب}، وتضفي جو التربية والتزكية والعلم والتعليم، بما لها من دور في مواجهة الأخطار الداخلية والخارجية، وقد وردت مرفوعة في موضعين في سورة المائدة.

١١

﴿بِبَكَّةٍ﴾ [آل عمران: ٩٦]

لهذه الكلمة أثر ضخم جدًا في إقامة الحجة على أهل الكتاب، فهي من البيانات العظيمة للنبي ﷺ، فقد جاء ذكرها في سورة الفتح الآية (24): ﴿مَكَّةَ﴾، ولكنها جاءت هنا {بككة} لتقيم الحجة عليهم؛ إذ ما زال هذا الاسم موجودًا في كُتُبهم إلى اليوم مع كثرة تحريفهم لها.

١٢

﴿حُفْرَةَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

كلمة عظيمة تصوّر الإنسان وهو قائمٌ أمام خِرْقٍ مُدَوَّرٍ أو مفتوح من الأرض له عمقٌ كبير، إن وقع الإنسان فيه هلك، وقد ذكرها الله تعالى مبيّنًا لنا واقع العرب وغيرهم في الجاهلية، وأنه لولا هدايته لهم لأوشك أن يقعوا في هذه الحفرة من النار، وعلاقتها بعمود السورة واضحة فإن الإنسان عندما يتفاعل مع أهل الكتاب والنصارى خاصة ينبغي أن يستحضر معايير الإيمان ونعمته، لا أن يكون ذليلاً أمامهم، أو معجباً بهم إعجاباً يؤدي إلى انصهار هويته الإيمانية.

١٣

﴿تُبَوِّئُ﴾ [آل عمران: ١٢١]

تكتنز هذه الكلمة التي لم ترد في كتاب الله ﷻ إلا في هذا الموضع آليات وسبل الإعداد للتعامل مع التحديات والتحفز لمواجهة ما يحقق النصر والغلبة.

١٤

﴿رَبِّيُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٣]

ووصفها بكلمة ﴿كَثِيرٌ﴾ يبين لنا سنة مهمة من سنن النصر، وهي الجماعة، والتنظيم، والتماسك، والغاية المحددة، والرسالة.

١٥

﴿تُضْعِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣] ﴿غَزَى﴾ [آل عمران: ١٥٣]

وجود هاتين الكلمتين يجعل جو المعركة حاضرًا في السورة.

١٦

﴿الْجَمْعَانِ﴾ [آل عمران: ١٥٥]

بما تحمله من دلالات التمايز والتدافع الحضاري، ووجوب المواجهة عند قيام مقتضاها، والتحقق بمؤهلاتها ولوازمها، وقد وردت في أربعة مواضع في القرآن؛ اثنان في هذه السورة الآية رقم (155، 166)، وهما يتحدثان عن غزوة أُحُد، والثالث في الأنفال الآية (41)، ويتحدث عن غزوة بدر، والرابع في الشعراء الآية (61)، ويتحدث عن جمع موسى عليه السلام وقومه وجمع فرعون وجنوده، فمن حيث دلالة الكلمة على غزوة أحد تُعد من المفردات التي انفردت بها سورة آل عمران. والألفاظ الثلاثة أعلاه تتعاضد في بنائية الموضوع الكلي للسورة، وبلورة معالنه وماهيته.

١٧

﴿وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾ [آل عمران: ٢٠٠]

وفي هذا دلالة على الثبات على الحق في مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، وهو موافق لموضوعات السورة ومحاورها، وقد تردد ذكر الصبر في السورة كثيرًا.

ونلاحظ من الكلمات التي انفردت بها السورة الكلمات الآتية: ﴿تُقَاةٌ﴾ [آل عمران: 28]، ﴿يَقْبُولُ﴾ [آل عمران: 37]، ﴿وَسَيِّدًا وَحْصُورًا﴾ [آل عمران: 39]، ﴿نَبْتَهْلُ﴾ [آل عمران: 61]، ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: 102]، ﴿فِيهَا صِرٌّ﴾ [آل عمران: 117]، ﴿مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: 125]، ﴿فَطَّا غَلِيظَ الْقَلْبِ﴾ [آل عمران: 159].

وكل منها له ظلاله الخاصة، ولا نستطيع أن نفيه حقه في التفسير الوسيط، وإنما نحرك التدبر عند القارئ المبارك ليتأمل في ذلك.

المعيار السادس: من أهم الكلمات المتكررة بنصها أو بمعناها بصورة ملحوظة

هذه الألفاظ أشبه بالكلمات المفتاحية للسورة وتسهم في تحديد موضوعها الكلي، وأبرز هذه الكلمات:

وردت (37) مرة في القرآن، وأكثر السور فيها ورودًا سورة آل عمران، وردت فيها أربع مرات، يليها طه وغافر؛ إذ وردت فيهما ثلاث مرات.

شهادة
التوحيد

١

ورد هذا المصطلح (31) مرة في القرآن، منها (12) مرة في سورة آل عمران.

(أهل
الكتاب)

٢

ورد هذا التركيب (166) مرة في القرآن، وتعد آل عمران من أكثر السور ورودًا؛ إذ ورد فيها (14) مرة، يليها سورتا النساء والمائدة، ورد فيهما (9) مرات، ووردت مادة (كفر) بمشتقاتها المتنوعة في القرآن في أكثر من (500) مرة، منها (40) موضعًا في سورة آل عمران.

(الذين
كفروا)

٣

مثل: القتال ومشتقاته، والغلبة، والفشل، النصر، الإمداد.

ألفاظ ذات
دلالات عسكرية
وحرية

٤

فيه بيان صنوف الابتلاءات وذكر العواقب.

تكرار ألفاظ
الخير والشر
والمصيبة

٥

التذكير بصدق وعد الله باليوم الآخر، فكما أن الكتاب لا ريب فيه، فكذلك اليوم الآخر لا ريب فيه، وكذلك وعد الله ﷻ عباده المؤمنين بالنصر لا ريب فيه، ووردت عبارة عدم إخلاف الميعاد أربع مرات في القرآن، منها اثنتان في هذه السورة، هما: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ٩]، ﴿إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: ١٩٤].

[آل عمران: ١٩٤].

﴿جَامِعُ
النَّاسِ لِيَوْمٍ
لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾
[آل عمران: ٩]

٦

أي شعور بالأمان سببه النعاس الذين أصاب الصحابة أثناء غمٍّ أحد، وبمعناها ﴿تَأْمَنُهُ﴾ [آل عمران: 75]، فإنها تدل على الأمان.

﴿أَمْنَةً﴾ [آل
عمران: ١٥٤]

٧

وفي الموضعين إشاعة جو البشري بنصر الله تعالى للمؤمنين والطمأنينة.

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾
[آل عمران: ١٧٥، ١71]

٨



المعيار السابع

مدد السابقين من المفسرين في تحديد عمود سورة آل عمران وهو موضوعها الكلّي:



أولاً: ذكر البقاعي (ت 885هـ) أن مقصودها:

التوحيد

فأثبت الوجدانية له سبحانه بإبطال إلهية غيره، وذلك بإثبات أن عيسى عليه السلام -الذي كان يحيي الموتى- عبده، فغيره بطريق الأولى.

(نظم الدرر 3/2، مصادد النظر 67/2).

تعقيب: هذا الموضوع عام جداً، ولا تظهر له علاقة مباشرة بالقضية الثانية الكبرى في السورة.

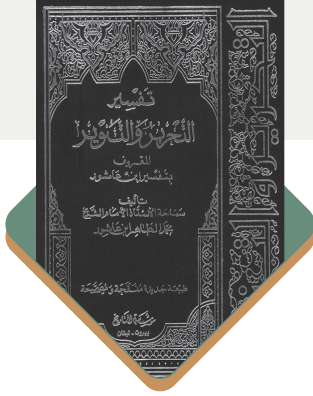


ثانياً: ذكر بعض المفسرين

أن السورة دارت حول ثلاثة خطوط:

بيان معنى الدين، ومعنى الإسلام، وتصوير حال المسلمين مع ربهم، واستسلامهم له، وتلقيهم لكل ما يأتيهم منه بالقبول والطاعة والاتباع الدقيق، والتحذير من ولاية غير المؤمنين.

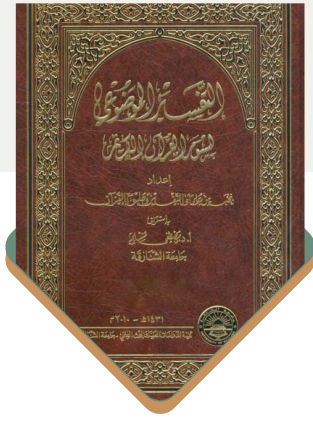
تعقيب: هذا أيضاً يغلب عليه العموم، ولا يظهر منه سبب تسوير آيات السورة باسم آل عمران، وقد جمع قضايا متعددة ترجع إلى المعاني الكلية للإسلام، فلا يظهر منها تميز شخصية السورة.



ثالثاً: ذكر ابن عاشور (ت 1393هـ) -رحمه الله-

الأغراض التي اشتملت عليها السورة (التحرير والتنوير، 144/3)

ويقصد بها محاورها التفصيلية التي ظهرت في آياتها، ولم يذكر موضوعاً كلياً، فاصطلاح (أغراض) عنده يعني به الموضوعات أو المحاور المتتابعة التي ناقشتها السورة في آياتها دون أن يظهر عمق المعنى أو الحكمة في تتابعها وترتيبها، وليس أهداف السورة أو موضوعها الكلي.



رابعاً: ذهب فضلاء موسوعة التفسير الموضوعي-الشارقة إلى أن محور السورة العام هو:

"إثبات وحدانية الله، وإقامة الأدلة عليه نقلاً وعقلاً، ومقصد مهمّ امتازت به هذه السورة؛ وهو المقارنة بين ظواهر الأمور، وحقائقها، وعواقب مآلاتها". (التفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم، ص: 413).

تعقيب: موضوع الوحدانية أحد أهم مقاصد السورة، وأحد أعظم مقاصد القرآن الكريم، لكنه موضوع متكرر، ولم تنفرد به سورة بعينها لتمييزه بل نجده ذكراً بأساليب متعددة.

ما توافقت فيه هذه المحاولات:

الاجتماع على الوحدانية، وقد سبق التعقيب عليه.

الخريطة الكلية التي تظهر المحاور العامة لسورة آل عمران، وتبين إحكام ترتيب آياتها

عمود السورة (مَوْضُوعُهَا الْكَلِّيُّ)

"تَكُونُ أُمَّةً شَهِادَةً الْوَحْدَانِيَّةِ، لِتَكُونَ خَيْرَ أُمَّةٍ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ، وَتَسْتَنْمِرُ سُنَنَ الْإِنْتِصَارِ بَعْدَ الْإِنْكَسَارِ فِي التَّفَاعُلِ مَعَ الْعَالَمِ، وَخُصُوصًا الْحَضَارَةَ النَّصْرَانِيَّةَ".

تكونت هذه السورة من مقدمة وقضيتين رئيسيتين ظهرت في سبعة محاور، ثم خاتمة

المقدمة

أهم الأسس الدستورية (الثوابت العشرة) التي تقوم عليها خير أمة أخرجت للناس، وتضمنتها الآيات

[آل عمران: 9-1]

جسر اتصال

فصلت المقدمة أهم الأسس الدستورية (الثوابت العشرة) التي تقوم عليها خير أمة أخرجت للناس، وتضمنتها الآيات [9-1]، فما أهم القضايا التي تنطلق منها لدعوة العالم إلى الخير؟ الجواب: هنا تأتي القضية الكبرى الأولى، وهي:

القضية الكبرى الأولى:

شهادة الوجدانية التي تتحقق في الإسلام دين جميع الأنبياء عليهم السلام أساس لتكوين أمة الخيري في العالم، وفصلتها آيات المحاور الأربعة الأولى [آل عمران: ١٠-١٢]:

المحور الأول

الدين عند الله الإسلام، وأساسه الشهادة الكبرى شهادة الوجدانية، وسنة الله ﷺ في الكافرين من أهل الكتاب وغيرهم ممن يتأمر على المسلمين أهل هذه الشهادة، وفهم تفكيرهم

[آل عمران: 10-32]

جسر اتصال

حدثنا المحور الأول عن كون الدين عند الله الإسلام، وأساسه شهادة الوجدانية، وسنة الله في أهل الكتاب المتأمرين على أهل هذه الشهادة [آل عمران: 10-32]، فأی المتأمرين أكثر حشدًا ضد المسلمين؟ وما قصة بدايتهم الحقيقية لتحاوّر معهم؟ الجواب: هنا يأتي:

المحور الثاني

القصة التاريخية الحقيقية لأسرة آل عمران أسرة عيسى عليه السلام، ومكانتها العظيمة عند المسلمين، وحقيقة دينها

[آل عمران: 33-63]

جسر اتصال

كشف المحور الثاني للعالمين القصة الحقيقية لأسرة آل عمران أسرة عيسى وأمه، وحقيقة دينها [آل عمران: 33-63]، وهنا نتساءل: فهل دينها يختلف عن دين بقية الأنبياء اسمًا ومعنى؟ الجواب: هنا يأتي:

المحور الثالث

ميثاق الأنبياء، وخلاصته: الإسلام هو دينهم عليهم الصلاة والسلام، وكلهم يبشر بالنبى الخاتم، وهذا يوجب الحوار مع المنصفين من أتباعهم، والتعاون على محاصرة مكر المحرّفين

[آل عمران: 64-91]

جسر
اتصال

حدثنا المحور الثالث عن ميثاق الأنبياء، وخلاصته: الإسلام هو دينهم، وكلهم يبشر بالني الخاتم، وهذا يوجب الحوار مع المنصفين من أتباعهم، والتعاون على محاصرة مكر المحرّفين [آل عمران: 64-91]، فكيف يمكن أن نشيع الخير في العالم؟ الجواب: هنا يأتي:

المحور
الرابع

[آل عمران: 92-120]

يحدد خطة الفلاح الاستراتيجية الشاملة لندعو العالم إلى الخير

جسر اتصال: عرفنا القضية الأولى من هذه السورة، وهي:

شهادة الوجدانية التي تتحقق في الإسلام دين جميع الأنبياء عليهم السلام أساس لتكوين أمة الخير في العالم، وقصّلتها [آل عمران: ١٠-١٢]، فكيف تنتصر هذه الأمة في مواجهة تحديات الكافرين؟ الجواب: هنا تأتي:

القضية الكبرى الثانية:

تفصل سنن الانتصار والفسل والانكسار التي يجب أن تعرفها أمة الخير، لتعالج أهم الأخطار الداخلية والخارجية، من خلال تفصيل أحداث معركة أُحُد لتكون أنموذجاً لغيرها [121-189]، وتتكون من المحاور الثلاثة الأخيرة التي جاءت مرتبة بصورة محكمة:

المحور
الخامس

يحدثنا عن سنن النصر في الاستعداد للمعركة قبل المواجهة العسكرية في معركة أُحُد [آل عمران: 121-136]

جسر الاتصال بين المحورين الخامس والسادس:

يحدثنا عن سنن النصر في الاستعداد للمعركة قبل المواجهة العسكرية في معركة أُحُد [121-136]، فما تفاصيل سنن النصر والهزيمة عند المواجهة المباشرة؟ الجواب: هنا يأتي:

المحور
السادس

يفصل أهم السنن الربانية في النصر والهزيمة عند المواجهة المباشرة [آل عمران: 137-166]، وهذه السنن تدخل ضمن منظومة الأمن القومي، ينبغي أن تدرس في المراحل التعليمية.

جسر الاتصال بين المحورين السادس والسابع:

بصرنا المحوران الخامس والسادس بأهم سنن النصر والفسل قبل المواجهة، وفي أثناءها [آل عمران: 121-166]، ووضعنا القرآن فيهما أمام مرآة النفس لنرى أسباب الانكسار الكامنة في داخلنا، فهل حدد لنا القرآن معالم التأمر الخارجي؟

المحور
السابع

دور الأعداء الخارجيين في إحداث الفتنة، وإيقاع المسلمين في سنن الفسل، وإبعادهم عن سنن الانتصار، وامتد هذا المحور في الآيات [166-189]

جسر الاتصال:

بيّن المحور السابع [166-189] بوضوح كيف يعمل الأعداء الخارجيون (وحلفاؤهم من المنافقين) على إيقاع المسلمين في سنن الفسل، فكيف ختم الله هذه السورة العظيمة؟ الجواب:

الخاتمة

ثم جاءت خاتمة السورة في الآيات [190-200]: لتحذّرنا عن أولي الألباب، وهم قيادات الخير في العالم، وتذكّرهم أهدافهم، ونظرهم المتفكّر إلى ما حوّلهم من الكون والناس، وخصوصاً أهل الكتاب.



وهنا يأتي السؤال: بعد أن اهتدينا إلى عمود السورة عبر تطبيق المعايير الثمانية السابقة، فما أسباب اختيار هذه الكلمات بالذات في صياغة عمود السورة؟

الجواب: يتجلى ذلك في البصائر الآتية:

بَصِيرَةٌ
١

«تكوين الأمة التي هي خير أمة أخرجت للناس» ظاهرٌ في آيات بارزة تكاد أن تكون آيات

مركزية في السورة: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: 103]

﴿وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: 104]، ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110].

بَصِيرَةٌ
٢

«الشهادة الكبرى»: المراد بها الشهادة بالتوحيد في قوله تعالى:

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]، وتعالج السورة موضوع الشهادة الكبرى من أولها: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

بَصِيرَةٌ
٣

وتفصيل السورة بعض المظاهر التطبيقية لوحداية الله ﷻ وعظمته في آيتين تفصيلان بعض مظاهرها:

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ شَاءَ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ شَاءَ وَتُعِزُّ مَنْ شَاءَ وَتُذِلُّ مَنْ شَاءَ ط
بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦٦﴾ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ شَاءَ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

بَصِيرَةٌ

٤

لظهور الشهادة كشفت لنا بصائر سورة آل عمران فساد المحرّفين الذين جعلوا عيسى
إلهًا، فعيسى عليه السلام يعلن للعالم:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ٥١﴾، وجعل الله ﷻ من المظاهر العظمى
لِلشهادة الكبرى أن يفتخر المؤمنون ويطمئنوا لكونه هو مولاهم: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ
خَيْرُ النَّاصِرِينَ ١٥٠﴾.

بَصِيرَةٌ

٥

نُظهِرنا بصائر السورة أهمية هدفٍ عظيمٍ في الحياة، وهو أن نكون من أهل الشهادة
الكبرى شهادة الإيمان بوحداية الله ﷻ، لذا طلب الحواريون أن يكونوا منهم، فقالوا:

﴿رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ٥٢﴾.

بَصِيرَةٌ

٦

وتعيد السورة كلمات الشهادة الكبرى بأسلوب حصريٍّ مختلف، فيقول الله ﷻ:

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٦٢﴾.

بَصِيرَةٌ

٧

تبصّرنا السورة أن نجعل الشهادة الكبرى محور الحوار مع أهل الكتاب خصوصًا، والعالم
عمومًا، فيقول الله ﷻ:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا
وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ٦٤﴾.

بَصِيرَةٌ

٨

تكشف لنا السورة أن المقربين لأرحم الراحمين يخضعون للشهادة الكبرى، فيقول الله ﷻ:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ٧٩ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ٨٠﴾

بَصِيرَةٌ

٩

هنا ينكشف لنا سرٌ عظيمٌ. إنه السرُّ الذي لأجله سَمَّى الله ﷻ مَنْ يبذل نفسه في سبيل الشهادة الكبرى شهيداً، ويحقق بذلك الدرجة العظمى باصطفاء الله تعالى له لهذه المرتبة

فيقول الله ﷻ عن ذلك: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ١٤٠﴾

بَصِيرَةٌ

١٠

"سُنَّ الْإِنْتِصَارِ بَعْدَ الْإِنْكَسَارِ" ظهر ذكرها في آية مركزية هي قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ ١٣٧﴾

بَصِيرَةٌ

١١

(فِي التَّفَاعُلِ مَعَ الْعَالَمِ، وَخُصُوصًا الْحَضَارَةُ النَّصْرَانِيَّةُ)

هذه الجملة مأخوذة من الكلام في أول السورة إلى آخرها عن الذين كفروا، واختيالهم بثرواتهم المالية، وقواتهم البشرية، وتقليهم في البلاد، وذكر الحضارة النصرانية خصوصاً يناسب اسم سورة آل عمران؛ إذ هي الأسرة المركزية التي انبثقت منها النصرانية.

بَصِيرَةٌ

١٢

عالجت سورة (آل عمران) سنن الفلاح والانتصار والفشل والانكسار في إقامة أمة الشهادة الكبرى الرسالية التي تبني الخير في العالم وتتفاعل مع الحضارات الأخرى مع تركيز السورة على الحضارة النصرانية.

بَصِيرَةٌ
١٣

يأخذ الحديث عن سنن الفوز والانتصار والفشل والانكسار في غزوة أحد حيزًا كبيرًا من السورة في الآيات [121-189]، ويربط كل ذلك بالنجاح والتفوق الإيماني والقيمي

ليبين أن الحضارة التي ينشئها النبي ﷺ في المدينة ذات رسالة وظيفية تتعلق بتلاوة الآيات والتزكية والتعليم، وبذلك يتحقق أن تكون الأمة خير أمة أخرجت للناس تدعو إلى الخير في العالم.

بَصِيرَةٌ
١٤

الحضارة النصرانية قامت على تمجيد آل عمران (خصصوا المسيح وأمه عليهما السلام)، ولكنهم حرّفوا قصة هذه الأسرة المباركة

ثم أقامت قيادتهم الدينية والسياسية غالبًا على إلحاق الأذى الكثير بالمسلمين، والتحالف مع أعدائهم لتحقيق ذلك، وبين الله جل جلاله لنا لأجل ذلك سنن الانتصار والاندحار في معركة أحد لنستفيد منها في العلاقات السلمية، وفي المواجهات العسكرية.

وعند النظر في المعايير الثمانية، وآخرها الخريطة الكلية للسورة نتوصل إلى أن أنسب موضوع كلي يعبر عنها ليكون عمود السورة هو:

تَكْوِينُ أُمَّةٍ شَهِادَةِ الْوَحْدَانِيَّةِ، لِتَكُونَ خَيْرَ أُمَّةٍ تَدْعُو إِلَى الْخَيْرِ، وَتَسْتَثْمِرُ سُنَنَ الْإِنْتِصَارِ بَعْدَ الْإِنْكَسَارِ فِي التَّفَاعُلِ مَعَ الْعَالَمِ، وَخُصُوصًا الْحَضَارَةَ النَّصْرَانِيَّةَ.

مقدمة السورة

أهم الأسس الدستورية
(الثوابت العشرة) التي
تقوم عليها خير أمة
أخرجت للناس، وتضمنتها
الآيات [٩-١].

مقدمة السورة

أهم الأسس الدستورية (الثوابت العشرة) التي تقوم عليها خير أمة أخرجت للناس، وتضمنتها الآيات

[9-1]

ينبغي أن يغرسها المسلمون في أنفس الأجيال في وسائل التوجيه والتربية والتثقيف والدعاية والإعلام؛ لتكون المعالم الحضارية الضخمة في بناء خير أمة أخرجت للناس

آيات المقدمة:

﴿الْعَرَبُ ۝ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝ إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ۝ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ۝﴾ [آل عمران: 9-1]

فنتساءل: ما الأسس (الثوابت) الدستورية التي تضمنتها آيات هذه المقدمة، والتي تشكّل البنية الأساسية للمجتمع الإسلامي؟

الجواب: تضمنت آيات المقدمة عشرة ثوابت دستورية، وهي:

القرآن كلامٌ عربيٌّ مبين يتكون من جنس هذه الحروف التي تتكلمون بها

الثابت الأول

لكنه حجة عليكم، وهو معجز لكم: ﴿الْعَرَبُ ۝﴾

الإيمان بثلاث صفاتٍ عظمتُ لله وَجَّكَ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: 2].

الثابت الثاني

دستور المجتمع الذي لا يتغير هو القرآن الكريم

الثابت الثالث

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ...﴾ [آل عمران: 3-4].

اليقين بقدرة الله ﷻ وعده: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران: 4].

الثابت الرابع

اليقين بأن علم الله ﷻ شامل لكل شيء في كل مكان:

الثابت الخامس

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ [آل عمران: 5].

العلم بأن الله ﷻ خلق الإنسان من عدم، وصوره كيف يشاء في الرحم:

الثابت السادس

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 6].

التوحيد المقترن بالعزة والحكمة: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 6].

الثابت السابع

قَسَمَ الله ﷻ آيات الكتاب إلى قسمين: محكم ومتشابه، فيجب فهم القرآن وفق ذلك

الثابت الثامن

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7].

ينقسم الناس أمام آيات الكتاب إلى صنفين: الزائغين، والراسخين بنوعيهما

الثابت التاسع

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾ [آل عمران: 7].

الإيمان باليوم الآخر له المكان المركزي في بناء المجتمع المسلم

الثابت العاشر

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران: 9].

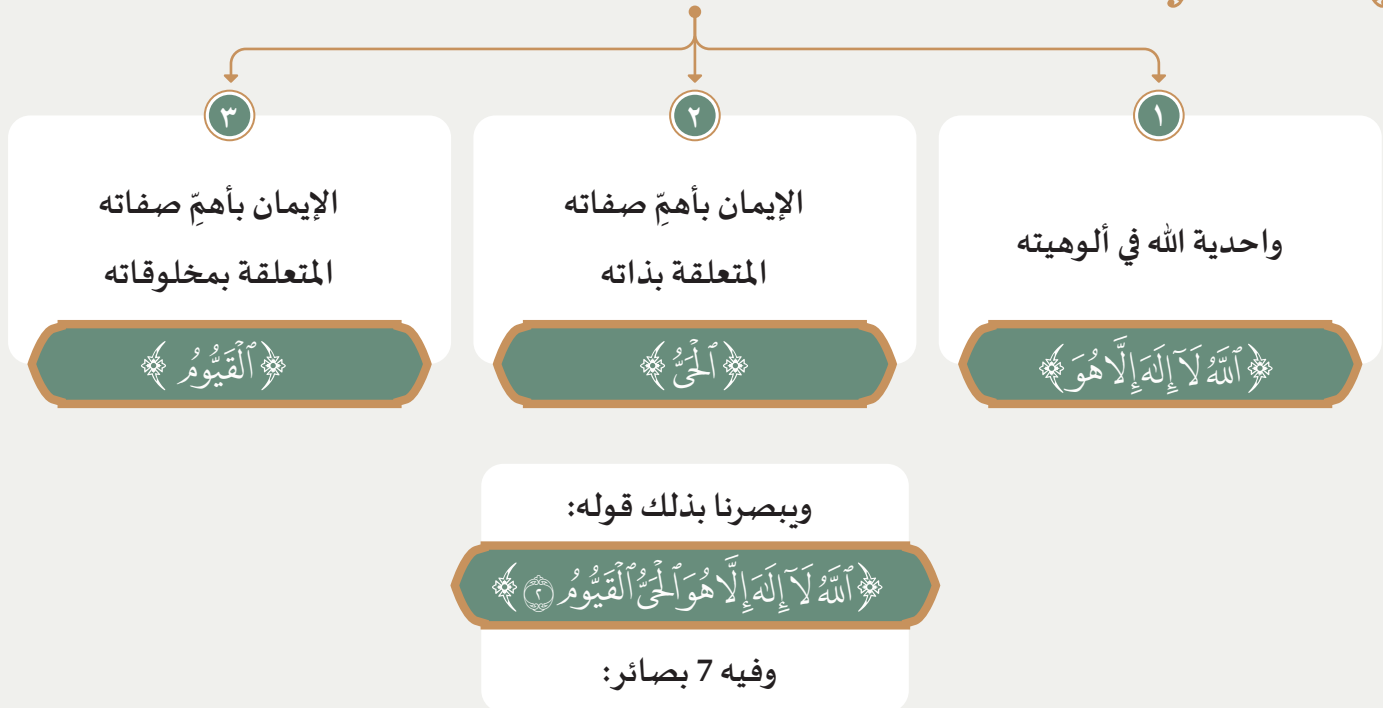
الثابت الأول

القرآن كلامٌ عربيٌّ مبين

يتكون من جنس هذه الحروف التي تتكلمون بها، لكنه حجة عليكم، وهو معجز لكم، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿الْم ١﴾

الثابت الثاني

الإيمان بثلاث صفاتٍ عظمى لله ﷻ، هي:



بَصِيرَةٌ

﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ ٢﴾ أساس الصفات الأخرى، ولكانتها كان الدعاء بهما من أعظم الدعاء وأكملِه وأجملِه

فعن علي بن أبي طالب عليه السلام، قال: «لما كان يوم بدر قاتلتُ شيئاً من قتالٍ، ثم جئت مسرعاً لأنظر إلى رسول الله ﷺ ما فعل، فجئت، فأجدّه وهو ساجدٌ يقول: «يا حيُّ يا قيُّومُ» لا يزيد عليها، فرجعتُ إلى القتال، ثم جئت وهو ساجدٌ، يقول ذلك، ثم ذهبتُ إلى القتال، ثم جئت، وهو ساجدٌ يقول ذلك، فلم يزل يقول ذلك حتى فتح الله عليه» (المستدرک: 809، وحسنه ابن حجر في نتائج الأفكار 4/78)

بَصِيرَةٌ

٢

﴿الْحَيُّ﴾: إنها صفةٌ تفيض كمالاً وجلالاً، وهي كلمةٌ تُشرق من آيات القرآن الكريم تحمل في طياتها سرَّ الوجود ونبض الحياة

فهي تعني أنه ذو الحياة المطلقة الكاملة، التي لا يعترها فناء ولا يعترضها نقص، وهي إعلان عن سرمدية الخالق وعظمته، إنه الحي الذي لا يموت، الدائم الوجود، الباقي أبداً.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿الْحَيُّ﴾ صفة تعني معنى ثانياً، وهو أنه -جل مجده- يهب الحياة لكلِّ حيٍّ من أصغر ذرةٍ إلى أكبر كوكبٍ

فكلَّ نَسَمَةٍ في الكون، وكلَّ نبضةٍ في قلبٍ، وكلَّ زهرةٍ تتفتَّحُ، إنما هي شهادةٌ على حياته المطلقة.

بَصِيرَةٌ

٤

لاختيار صفة ﴿الْحَيِّ﴾ في هذه السورة معنى مهم، إذ أراد الله ﷻ أن يوضح الفرق الكبير بين حياته سبحانه التي هي حياة أبدية كاملة لا بداية لها ولا نهاية

وبين المعبودات الأخرى مثل الأصنام التي لا حياة فيها أصلاً، أو مثل سيدنا عيسى عليه السلام الذي كانت حياته محدودة كأي بشر.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿الْحَيُّ﴾ صفةٌ تتضمن جواباً على الملحدّين الذين يتساءلون: مَنْ خلق الخالق؟

فالجواب: الذي يفيض بالحياة، ويهب الحياة لغيره كيف يحتاج إلى مَنْ يمنحه الحياة؟! وكيف يُعقل أن يكون المُحيي بحاجةٍ إلى مَنْ يُحييه؟

كيف للمُنعم بالحياة أن يكون مُفتقراً إليها؟! بل هو الأصل والمبدأ، الحياة قائمة به، ومنه ينبع كلُّ وجود.

إنّها لحقيقةٌ تُفجِّمُ الملحدّين، وتعيد الأذكىء إلى نور اليقين.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿الْقَيُّومُ﴾: هو الذي قام بنفسه، فاستغنى عن غيره، وقام غيره به، وهذا يتضمن جوابًا على الملحدین الذين يسألون السؤال السابق، فنزيد في الجواب عليهم:

القائم على غيره مطلقًا كيف يحتاج إلى غيره؟!

بَصِيرَةٌ

٧

ذَكَرَ اللَّهُ ﷻ الصِّفَتَيْنِ رَدًّا عَلَى:

٣

اليهود

الذين نسبوا لله ﷻ ما يُتَنَزَّهُ عنه من النقص.

٢

النصارى

الذين جعلوا عيسى عليه السلام -وهو مخلوقٌ من مخلوقاته- ابنًا له أو جعلوه نفسَه، فالله حي قيوم سبحانه أن يحتاج لولد، أو يكون في صورة بشر.

١

المشركين

الذين يجعلون الحجارة أندادًا لله ﷻ، فالإله الحق هو الحي القيوم، والحجارة لا حياة فيها، ولا قيام لها.

والثوابتُ القادمةُ تبين بعضًا من معاني الحياة والقيومية.

عرفنا أن الثابت الثاني هو الإيمان بثلاث صفاتٍ عظمى لله ﷻ، وهي المذكورة في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، فما الثابت الثالث؟

جسراتصال

دستور المجتمع الذي لا يتغير هو القرآن الكريم

الثابت الثالث

وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران: 3، 4].



فإن قلت: ما أهم الصفات الفريدة لهذا الدستور الخاتم (القرآن) حسب هاتين الآيتين؟

الجواب:

يا لها من آياتٍ تُلامس شغاف القلب، تُنيرُ الدروب، وتهدي النفوس إلى برا الأمان! إنها ليست مجرد حروفٍ وكلمات، بل بلسمٌ للروح، ونورٌ يُبديد ظلمات الضلال، وتتجلى في هاتين الآيتين سبعُ صفاتٍ فريدةٍ تُميز هذا الدستور الخاتم (القرآن)، هي:

التنزيل المُفَرَّق:

صفحة ١

نزل على النبي ﷺ مُفَرَّقًا على مدى ثلاثة وعشرين عامًا، ليناسب مراحل تطور المجتمع الإسلامي الوليد، ولتترسخ أحكامه في النفوس تدريجيًا، فيناسب هدف التربية مع الهداية، وبصّرنا بهذا المعنى قول الله سبحانه وتعالى ﴿نَزَّلَ﴾؛ إذ يدل تشديد الزاي غالبًا على ما ينزل مُفَرَّقًا، بينما يدل ﴿أَنزَلَ﴾ عما ينزل جُملة واحدة.

التدوين الكتابي:

صفحة ٢

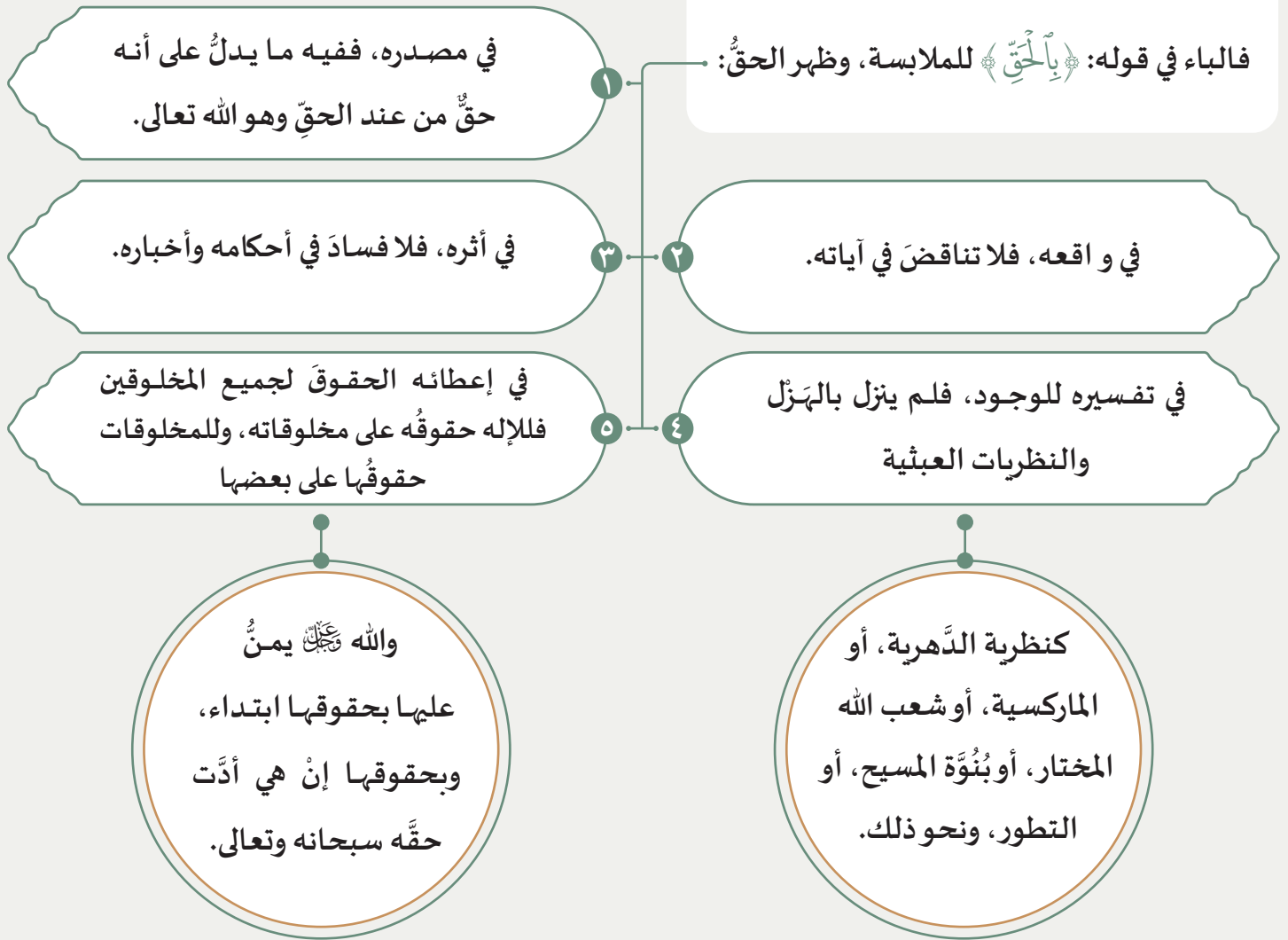
نزل على النبي الأمي ﷺ ليكون مكتوبًا، وبصّرنا بذلك قوله جل مجده: ﴿عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، فكلمة الكتاب لا تعني أنه نزل مكتوبًا كالنوراة، بل تعني أن يقوم النبي الأمي ﷺ بتعيين من يكتب القرآن، مما شجّع على نشر الكتابة في المجتمع الإسلامي مع ملاحظة بقاء النبي ﷺ أميًا ليستبين أنه ليس مصدر القرآن، بل مصدره الله ﷻ

كما قال محمد عبد الله دراز وهو يتكلم عن إحكام البنیان وتماسكه في السُّور القرآنية رغم نزولها مفرقة:

"إن كانت بعد تنزيلها قد جُمعت عن تفريقٍ، فلقد كانت في تنزيلها مفرقة عن جمع" (النبأ العظيم ص194)

أي كان القرآن مجموعاً في اللوح المحفوظ فَفُرِّقَ في تنزيله، ثم جمعه الصحابة مكتوباً مفرقاً، ثم جمعه مكتوباً في مصحفٍ واحدٍ في الجمع الصديقي في عهد أبي بكر رضي الله عنه.

صفة ٣ نزوله ملابساً للحق الذي تثبت به قوانين الكون، ووجود الحياة



فانظر كيف اجتمعت كلُّ هذه المعاني الضخمة الهائلة في كلمة: ﴿بِالْحَقِّ﴾.

فما للمعتدين من أهل الكتاب والمُعَرَّضِينَ من مرضى القلوب من المسلمين يصرون على محاربة الإسلام، ويسعون في شيطنته وهو الذي يقدِّم لهم كلَّ عوامل السعادة والعدالة الحقيقية؟!

﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾

صفة ٤

يُصَدِّقُ الذي لم يُحَرِّفْ من الكتب السابقة، فهو المزيِّي لها، فما شهد له فهو المقبول، وما رَدَّه فهو المردود، وهي شاهدة له بالصدق، وتصديقه لها يدلُّ على أنه من عند الله عز وجل؛ «لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَمْ يَكُنْ مُوَافِقًا لَهَا؛ لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ أُمِّيًّا لَمْ يَخْتَلِطْ بِأَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ» (تفسير الرازي 130/7).

القرآن هو الكتاب الأخير المهيمن على الكتب السماوية والمناهج الأرضية

صفة ٥

وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ مِنْ قَبْلُ﴾:

وَأَتَى بِكَلِمَتِي ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ لِنَلَّا "يَتَوَهَّمُ أَنَّ هُدَى التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ مُسْتَمِرٌّ بَعْدَ نُزُولِ الْقُرْآنِ، فَهِيَ كَالْمُقَدَّمَاتِ لَهُ، وَهُوَ تَمَامٌ مُرَادِ اللَّهِ ﷻ مِنَ الْبَشَرِ" (التحرير والتنوير 149/3).

﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾

صفة ٦

أي القرآن، وما لم يُحَرِّفْ من التوراة والإنجيل هدى للناس، فينقادون بإرشادها وبيانها إلى اتخاذ القرارات الصائبة في الحياة.

﴿وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾

صفة ٧

اختار كلمة: ﴿وَأَنْزَلَ﴾ دون {نَزَلَ}؛ ليبين مصدر القرآن، واكتماله في السماء جملة واحدة قبل نزوله إلى الأرض تعظيمًا لمرجعيته، وتوثيقًا له، وتمجيدًا لغايته وهي التفريق بين الحق والباطل.

اختار كلمة: ﴿الْفُرْقَانَ﴾ وصفًا للقرآن هنا في سورة آل عمران مع أنه وصف التوراة بالفرقان في سورة البقرة والأنبياء

وذلك ليقرر أن القرآن هو الباقي الذي يفرِّق بين الحق والباطل في واقع والحياة، وكذلك يفرِّق بين المحرِّف وغير المحرِّف مما ورد في التوراة والإنجيل.

بَصِيرَةٌ

١

بَصِيرَةٌ
٢

جمع الله ﷻ في صفات الكتاب الخاتم بين كونه هدى وكونه فرقاناً، فقال: ﴿هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ﴾، كما قال عنه ذلك في سورة البقرة: ﴿وَيَبَيِّنَ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185]،

فألهدى دلالة الناس على مصالحهم ومنافعهم، والفرقان اتخاذ القرار الفصل الذي يفرق فيه بين الخطأ والصواب، والهدى والضلال.

بَصِيرَةٌ
٣

ذكر الله ﷻ هنا فريقين الناس عند تفاعلهم مع آيات الله ﷻ: فريق المهتدين، وفريق الكافرين الذين يتعمدون إخفاء أنوار الآيات، وإنكار هداياتها للمخلوقات.



فيأتي السؤال: فما عاقبة الذين أنكروا هذا الوحي خصوصاً الكتاب الذي وصفه هنا بالفرقان؟

الجواب:

بَصِيرَةٌ
١

عقوبة الكافرين به: العذاب الشديد في الدنيا والآخرة لمن كفر به، وبما لم يُحرّف من الكتب السابقة، وبصيرنا بذلك قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [آل عمران: 4].

بَصِيرَةٌ
٢

أكّد الله ﷻ على حلول العقوبة بهذا الصنف الذي أجرم في حق نفسه، وربما أجرم في حق الناس، وبصيرنا بهذا التأكيد الحرف مع الجملة الاسمية ﴿إِنَّ﴾

ويظهر أن سبب التأكيد ما يتبادر إلى أهواء بعض الناس من أن الإله ينبغي أن يكون رحيماً وفق مقاييسهم المريضة، ويعنون بذلك أنه مهما اقترفوا من المنكرات، فهم يتكلمون على رحمته، ولأنه قيوم فهم يتكلمون على قيامه على مصالحهم، فجاء التأكيد ليخبرهم بعدله بعد فضله، وأن العذاب يقابل قراراتهم واختياراتهم السيئة.

بَصِيرَةٌ
٣

وصف الله ﷻ الذين يستحقون العقوبة بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ﴾، والكفر يجمع التغطية والجحود والعناد

وجاء بالباء لتؤدّي دوراً عظيماً في بيان أنهم استخدموا الآيات في تغطية آيات الله ﷻ كأن وصفوها بالسحر أو الجنون أو التخلف، أو استخدموا بعضها ضد بعض تلاعباً.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾

إما في الدنيا ماديًّا أو نفسيًّا بمعيشتهم القلقة الحائرة، وقد يجتمعان، وإما في الآخرة فيكون العذاب محسوسًا لا يموت فيه الواحد منهم ولا يحيا، ووصفه بالشدة لضغطه الهائل عليهم وعلى حياتهم.



عرفنا أن الثابت الثالث هو بيان أن دستور المجتمع الذي لا يتغير هو القرآن الكريم، فما الثابت الرابع؟

جسرات اتصال

اليقين بقدرة الله ﷻ وعدله

الثابت الرابع

﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾

٢

٢

﴿ذُو انتِقَامٍ﴾

أي صاحب انتقام، إشارة إلى كونه فاعلًا للعقاب المقترن بالغضب، فالعزة: صفة الذات، ووصفه بأنه ﴿ذُو انتِقَامٍ﴾: صفة الفعل (تفسير الرازي 7 / 134).

﴿عَزِيزٌ﴾

أي قادر قاهر لا يغلِب، ولا يصل إلى صفته أحد، وفي ذلك إشارة إلى القدرة التامة على العقاب.

اليقين بأن علم الله ﷻ شامل لكل شيء في كل مكان

الثابت الخامس

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾

١
فما يحدث للعالم وللمسلمين منهم ولهم وعليهم يعلمه الله ﷻ.

٢
هذا ردٌّ على من يجعل غير الله إلهًا، فإن كل ما يدعونه إلهًا تخفى عليه أشياء كثيرة في الأرض فضلًا عن السماء، وهذا ردٌّ على الذي جعل عيسى ﷺ إلهًا بإخباره عن بعض المعجَّبات، فالإله الحق لا يخفى عليه شيءٌ مطلقًا، بينما عيسى ﷺ خفيت عليه أشياء كثيرة (تفسير المنار 3 / 134).

الثابت السادس

العلم بأن الله ﷻ خلق الإنسان من عدم، وصوّره كيف يشاء في الرحم

﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ۖ﴾

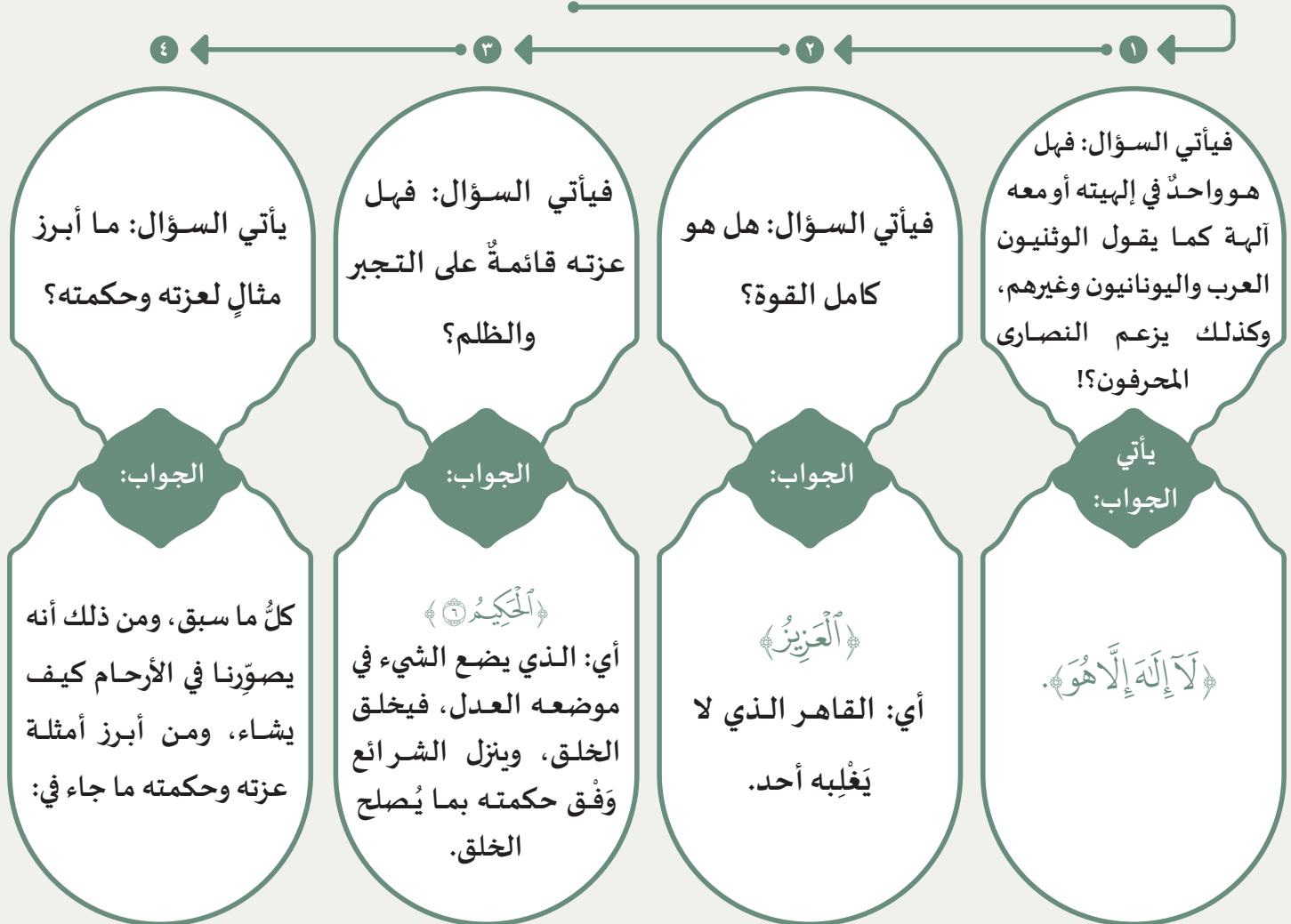
١ مما يجعل العبد يلجأ إليه ويخاصم به، ويعتمد عليه، ويتحاكم إليه؛ لأنه سبحانه يتحكّم به منذ ما قبل الولادة تصويراً ورعاية.

٢ في الآية ردٌّ على من ألّه المسيح ﷺ وغيره، فالله ﷻ قد رعى المسيح كما رعى غيره، فهو الذي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ مِنْ نُطْفَةِ الْأَبِ، أو إن شاء صَوَّرَهُ ابْتِدَاءً مِنْ غَيْرِ الْأَبِ كما في حالة عيسى ﷺ. (تفسير الرازي 7/ 136).

الثابت السابع

التوحيد المقترن بالعزة والحكمة

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾



الثابت الثامن

قَسَمَ اللهُ عزوجل آيات الكتاب إلى قسمين: محكم ومتشابه

فيجب فهم القرآن وفق ذلك

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾ [آل عمران: 7]

بَصِيرَةٌ

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ عَرَّفَ المبتدأ ﴿هُوَ﴾ والخبر ﴿الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾؛ ليفيد قَصْرَ
إِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ

ويعيد التأكيد على أنه -جل مجده- مصدر القرآن، وهو -عز سائله- مصدر تقسيمه إلى محكم ومتشابه لحكمته البالغة، فيبطل بذلك قول المُشْرِكِينَ: ﴿إِنَّمَا عَلَّمَهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: 103]، وقول المحرفين: إنه نسخ القرآن من التوراة، وتسمية القرآن كتاباً يبصرنا بتوثيقه بالكتابة.

بَصِيرَةٌ

قَسَمَ اللهُ ﷻ آيات القرآن من حيث دلالاتها إلى قسمين: محكمات ومتشابهات.

بَصِيرَةٌ

القسم الأول قال عنه: ﴿مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ﴾ أي: بعضه آيات محكمات، وهي:

١	٢	٣	٤
الثوابت	الواضحات في معانيها	القطعيات في دلالاتها	الباقيات
التي لا تتغير بتغير الشرائع، ومثل لها ابن عباس رضي الله عنهما بالوصايا العشر في الثلاث آيات التي في سورة الأنعام ﴿قُلْ تَعَالَوْا﴾ [الأنعام: 151-153] (الحاكم: 3138، وقال: صحيح الإمام)	مثل قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ [الأنبياء: 30]، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: 11]، ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: 23]، ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ [البقرة: 205].	اللاتي لا يتطرق إلى معاني الاشتباه واللبس، لخلوهم عن الخفاء والإيهام مثل قوله: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [البقرة: 43]، فإن لفظ الصلاة يحتمل معاني لغوية وعرفية، واتفق المفسرون على معناه القطعي هنا.	فلم يُنسخن، أو يطرأ على الفاظهن أو معانيهن ما يزيلها أو يصرفها عن ظواهر الدلالات، مثل تحريم الخمر في سورة المائدة.

بَصِيرَةٌ

3

بَصِيْرَة

بَصِيْرَة

قال الشاطبي رَحِمَهُ اللهُ:

«وَالْتَّسَابُهُ بِالْمَعْنَى الْحَقِيقِيَّ قَلِيلٌ جِدًّا فِي الشَّرِيعَةِ، وَبِالْمَعْنَى الْإِضَافِيَّ كَثِيرٌ»، وينبغي أن نستحضر أن المحكم أكثر.

حُكْمُ الْمُتَشَابِه:

يُردُّ المتشابه إلى المحكم، فهذه الطريق يُصدِّق الوحي بعضه بعضاً، ولا يحصل فيه تناقض، وهذا عمل الراسخين المستنبطين، قال البقاعي رَحِمَهُ اللهُ: «فحال أهل التوفيق تحكيم المحكم، وحال أهل الزيغ اتباع المتشابه، والتعلُّق به» (نظم الدرر 4/252).

أمثلة لرد المتشابه إلى المحكم:

٣

قال عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَحِمَهُ اللهُ: «الْمُحْكَمُ: مَا ذَكَرَ اللهُ وَحَكَى فِي كِتَابِهِ مِنْ قَصَصِ الْأَنْبِيَاءِ فَقَصَلَهُ وَبَيَّنَّهُ، وَالْمُتَشَابِهُ: هُوَ مَا اخْتَلَفَتْ أَلْفَاظُهُ فِي قَصَصِهِمْ عِنْدَ التَّكْرِيرِ، كَمَا قَالَ فِي مَوْضِعٍ مِنَ قِصَّةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿أَحْمِلْ فِيهَا﴾ [هود: 40]، وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فَأَسْلُكْ فِيهَا﴾ [المؤمنون: 27]، فيظن أن: (اسلك) يشبه: (احمل)، وهذا صحيح، ولكن بينهما فرقٌ دقيق، وَقَالَ فِي عَصَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ [طه: 20]، وَفِي مَوْضِعٍ: ﴿فَإِذَا هِيَ تُعْبَانُ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: 107]، وفرقٌ بينهما.

٢

وكان يقول النصارى في قوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: 171]: إِنَّ اللَّهَ رُوحٌ، وَالْمَسِيحَ رُوحٌ مِنْهُ، فَهُوَ مِنْ جِنْسِهِ، وَجِنْسُهُ لَا يَتَّبَعُ، فَهُوَ هُوَ، فَيَأْخُذُونَهُ عَلَى ظَاهِرِهِ مِنْ غَيْرِ نَظَرٍ إِلَى الْأَصْلِ الْمُحْكَمِ: لِيَفْتِنُوا النَّاسَ بِدَعْوَتِهِمْ إِلَى أَهْوَائِهِمْ وَيَخْتَلِبُوهُمْ بِشَيْئِهِمْ، ولكننا نحمل هذه الآية على المحكم في مثل قوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: 29]. ولو كان (مِنْ) تبعيضية لكانت السموات والأرض جزءاً من الله - تعالى الله عن ذلك -، فقد قال الله عز وجل: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [الجاثية: 13]، ف(مِنْ) في هذا السياق القرآني لا ابتداء الغاية في الخلق والإيجاد وليس تبعيضية.

١

ما روى الطبري (177/6) عن مجاهد رَحِمَهُ اللهُ قال: ﴿مِنْهُ أَيْدَتْ مُحْكَمَةً﴾ ما فيه من الحلال والحرام، وما سوى ذلك فهو «متشابه»، يُصدِّق بعضه بعضاً، وهو مثل قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَلْسِقِينَ﴾ [البقرة: 26]، ومثل قوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: 125]، أي: فهاتان الآيتان المحكمتان تفسران قوله: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ [البقرة: 7]، فلو سأل سائل: ما ذنبهم حتى يختم الله وَحَكَى على قلوبهم؟ أجابته الآيتان المحكمتان السابقتان وأمثالهما.

جسر اتصال

ذكرنا أن الآيات تبصرنا بأن الثابت الثامن: قَسَمَ اللهُ ﷻ آيات الكتاب إلى قسمين: محكم ومتشابه، فيجب فهم القرآن وفق ذلك، فما موقف الناس من هذين القسمين؟

الثابت التاسع

ينقسم الناس أمام آيات الكتاب إلى صنفين: الزائغين، والراسخين بنوعيهما

ويبصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَمَّا يَهُـۥ﴾ [آل عمران: 7]

بَصِيرَةٌ

كلمة ﴿فَأَمَّا﴾ لتقسيم الناس بالنسبة للتعامل مع المحكم والمتشابه، إذ قسمهم إلى صنفين:

الصنف الأول:

﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾

والزيع هو الميل النفسي المنحرف الذي يجعل صاحبه يخوض بالباطل في كتاب الله ﷻ، فيترك المحكم، ويذهب إلى المتشابه لهدفين كشفهما الله تعالى لنا في الآية بصورة مباشرة:

الهدف ١

﴿ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾

أي يطلبون طلباً حثيثاً ما يفتن الناس عن الحق، ويصرفهم عن اتباعه بتقرير المعاني الباطلة، كمحبة الوثنية، ومحاربة المؤمنين، وإشاعة الفاحشة، والتزهد عن العفة.

الهدف ٢

﴿وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾

أي: يطلبون طلباً حثيثاً تفسيره بإرجاعه إلى معاني باطلة توافق أهواءهم المريضة، ويُعرضون عن إرجاعها للمعاني الحقة، بل يصدون الناس عنها، وسمى ابن قتيبة رحمه الله ذلك: «استكراه التأويل» (تأويل مشكل القرآن، ص 230) أي يكرهون كلمات القرآن لتكون وفق معانيهم، ولذا قال الله ﷻ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [7].



وبما أن الله ﷻ جعل ابتغاء تأويله هدفاً لأهل الزيغ، فهل يعني ذلك أن طلب التأويل مذموم؟



الجواب:

لا! بل طلب التأويل منقبة، فهو عملٌ ممدوح بشرط ألا يطغى صاحبه، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، فإن كان العطف قائماً، فهذا مدحٌ للراسخين؛ لأنهم يعلمون تأويله، والمذموم أن يؤوِّله من ليس أهلاً للتأويل لجذب الجماهير أو فتنتهم، أو من يحمل الكتاب على غير معانيه الحقّة، ويسلك به سبيلاً عوجاً.

فقد قال رسول الله ﷺ لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لما تلا هذه الآية:

«فَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ، فَأَحْذَرُوهُمْ» (البخاري: 4547).

أمثلة على من اتبع المتشابه:

المثال (١)

أول من اتبع المتشابه: ذو الخويرة التميمي

فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يَقْسِمُ قَسْماً أَنَاهُ ذُو الْخَوِيرَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ اعْدِلْ. فَقَالَ: وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلْ. فَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، انْذَنْ لِي فِيهِ، فَأَضْرِبْ عُنُقَهُ، فَقَالَ: «دَعُهُ فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَفْرُوْنَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيمَهُ» (البخاري: 3610).

فهذا الرجل أعمل القرآن فقط، ولم يجعل فعل النبي ﷺ وسُنَّته مفسرة للقرآن، وهذا من أوصاف من يتبع المتشابه.

المثال (٢)

تَمَسَّكَ النَّصَارَى بِالْمُتَشَابِهِ لِتَأْيِيدِ ضَلَالَتِهِمْ

فمن المتشابه الذي ذُكِرَ أن النصارى احتجوا به على النبي ﷺ على التثليث أنهم وجدوا في القرآن ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ [الفتح: 1] (الفتاوى 234/5)، فوجدوا في هذه الألفاظ الضمير (نا) الدالة على الجمع، ونحو ذلك؛ فذمهم الله ﷻ، إذ تركوا المحكم من القرآن من الآيات الكثيرة التي تنص على أن الإله واحد، وتمسكوا بمثل هذه الألفاظ، والعرب تفهم من الضمير (نا) إما الدلالة على متعدد، وإما التعظيم، وهو المقصود في مثل هذه الآيات.

المثال (٣)

تَأُولُ الْمُشْرِكِ الرُّجُوعَ إِلَى الْآخِرَةِ إِذَا تَحَقَّقَ بِأَنَّهُ مِثْلُ الدُّنْيَا

فقال: ﴿وَلَمَّا رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ [الكهف: 36]، فهذا وإن ورد في قصة سابقة لنزول القرآن، إلا أن الفكر هو نفسه الذي استمر عليه بعض المشركين بعد نزول القرآن، كما قال الله تعالى عن أحد كفار مكة: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ [طه: 97] أَطْلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿[مريم: 77-78]﴾.

المثال (٤)

تَأْوِيلُ بَعْضِهِمْ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَصُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة: 105]

أنه لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر، وهذا من المتشابه الذي يرجع فيه إلى المحكم، وهو قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، ويكون معنى ﴿لَا يَصُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾: إن أمرتم ومهيتم فلم يُسمع لكم؛ لأن من الاهتداء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا أدى واجبه بالأمر والنهي، فلن يصيبه ضرر إن أصر الضال على عدم استماع نصحه كما قرر ذلك أبو بكر رضي الله عنه في هذه الآية.

المثال (٥)

تأولُ الزنادقة الآيات على غير ما هي عليه

فحكى مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ بن رزام الطَّائِي الكُوفِيُّ قَالَ: كُنْتُ بِمَكَّةَ حِينَ كَانَ الْجَنَابِيُّ -زَعِيمُ الْقَرَامِطَةِ- بِمَكَّةَ، وَهُمْ يَقْتُلُونَ الْحُجَّاجَ، وَيَقُولُونَ: «أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَكُمْ مُحَمَّدٌ الْمَكِّيُّ: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [أعمران: 97] فَأَيُّ أَمْنٍ هُنَا؟» فَقُلْتُ لَهُ: هَذَا خَرَجَ فِي صُورَةِ الْخَبَرِ، وَالْمُرَادُ بِهِ الْأَمْرُ أَيُّ: وَمَنْ دَخَلَهُ فَأَمَّنُوهُ، كَقَوْلِهِ: ﴿وَالْمُطَلَقَتُ يَتَرَبَّصْنَ﴾ [البقرة: 228] (سير أعلام النبلاء 323/15، التحرير والتنوير 262/3).

المثال (٦)

مَن تَمَسَّكَ بِدَلِيلٍ جَزْئِي فَاسْتَظْهَرَهُ عَلَى هَوَاهُ

كالحداثيين والعلمانيين وغلاة أهل البدع، والخوارج ومساعدى الظالمين الذين يتأولون النصوص للاعتداء على الأبرياء والصالحين.

ومثاله ما يتمسك به الخوارج كقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44]، ويقرنون معها: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: 1]، فإذا رأوا الحاكم يحكم بغير الحق، قالوا: قد كفر، ومن كفر عدل بربه، ومن عدل بربه فقد أشرك، فيخرجون فيقاتلون، لأنهم يتأولون هذه الآية. فهذا من الرأي الناشئ عن الجهل بالمعنى الذي نزل القرآن فيه (الاعتصام 692/2).

وعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وَذُكِرَتِ الْخَوَارِجُ (عِنْدَهُ) وَمَا يُلْقَوْنَ فِي الْقُرْآنِ، فَقَالَ: يَجِدُونَ رَقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ الْآيَةَ (مصنف عبد الرزاق: 21973).

الصف الثاني:

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [7]:

وهم فريقان:

الفريق الثاني

العلماء

العارفون بتأويله:

فَيَصِلُ الْقَارِئُ كَلِمَةَ ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ بِلَفْظِ الْجَلَالَةِ ﴿اللَّهُ﴾، وَالْمَعْنَى: وَمَا يَعْلَمُ تَفْسِيرَ الْمُتَشَابِهِ، وَرَدَّهُ إِلَى الْمُحْكَمِ، وَإِزَالَةَ مَا فِيهِ مِنَ الشَّيْثَةِ إِلَّا هُوَ تَعَالَى وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَعْلَمُونَ ذَلِكَ أَيْضًا حَالِ كَوْنِهِمْ قَائِلِينَ: ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾.

الفريق الأول

يؤمنون

بأن المتشابه كالمحكم حق، ولكنهم لا يعلمون تأويله؛ لقصور علمهم، أو لأن المراد بتأويل الآيات حقيقتها، وحقيقتها لا يعلمها إلا الله تعالى، فيسلمون الأمر لله عَزَّ وَجَلَّ، فيقولون: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [7]، وبصرتنا الآية بهم عندما يقف القارئ على لفظ الجلالة ﴿اللَّهُ﴾ في قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ﴿ءَامَنَّا بِهِ﴾ ويبدأ بما بعدها، ويكون ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ مبتدأ خبره ﴿يَقُولُونَ﴾.

لِلَّهِ دَرُّ الرَّاسِخِينَ وَعِلْمِهِمْ ... قَدْ آمَنُوا بِالذِّكْرِ وَالتَّنْزِيلِ
وَذَوُوا السِّقَامِ بَزِيغِهِمْ قَدْ حَرَّفُوا ... سَلَكَوا سَبِيلَ الشَّكِّ وَالتَّأْوِيلِ
وَبَغَوْا كِتَابَ اللَّهِ فِينَا فِتْنَةً ... وَسَعَوْا إِلَى الْعُوجَا بِكُلِّ سَبِيلٍ

(د/سعيد بن دحاج - وفقه الله-)

أشارت الآيات هنا إلى صفات الراسخين في العلم، فذكرت لهم (11) صفة:

معالجة القلب

صفة ١

ويبصرنا بها قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾. فحدد مكان الزيغ، وهو القلب، فيميل لشهوة أو شهية، فإذا كان هذا حال الزائغ، فالراسخ بعكسه.

القوة العلمية

صفة ٢

فوصفهم بأنهم ﴿الرَّسَّخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، والراسخ هو القوي الشامخ المتمكن في علمه.

معرفة التأويل

صفة ٣

ويبصرنا بهذا عَطْفُ ﴿الرَّسَّخُونَ﴾ على اسم الجلالة ﴿اللَّهُ﴾.

ووضع النبي ﷺ قاعدة عظيمة للتعامل مع المتشابه، فقال:

«مَهْلًا يَا قَوْمُ، هَذَا أَهْلَكَتِ الْأُمَمُ مِنْ قَبْلِكُمْ: بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمُ الْكُتُبَ بَعْضَهَا بِبَعْضٍ - أي يضربون هذه الآية بهذه الآية عمدًا أو لعدم معرفتهم لمعنى المتشابه فيها - إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ يُكَذِّبُ بَعْضُهُ بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ، فَأَعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ مِنْهُ، فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ» (أحمد: 6702، وقال محققو المسند: صحيح، وهذا إسناد حسن).

الإيمان الطارد للزيغ، والإعلان عن ذلك

صفة ٤

فقال الله ﷻ عنهم ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾.

صفة ٥ إعلانهم لفهمهم أن القرآن ينقسم إلى محكم ومتشابه

وهم يؤمنون بالكتاب كله، فقالوا: ﴿كُلُّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾
فتلذذوا بالإعلان عن إيمانهم بالمحكم والمتشابه.

صفة ٦ التذكُّر للحق الذي يصدر عن قوة العقل

﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾، والألبياب جمع لبِّ، وهو الخلاصة والأساس، فكانَّ غيرهم كالقشور
التي تجتمع حول اللب.

صفة ٧ طلب عدم الميل إلى الفساد، وسؤال الثبات على الهدى

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾؛ فَإِنَّ زَيْغَ الزَّائِغِينَ لَيْسَ بِسَبَبِ قَلَةِ الذِّكَاءِ، بل بعنادهم الذي يسبِّب
حرمانهم التَّوْفِيقَ

فعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان يُكثر في دعائه أن يقول:

«اللَّهُمَّ مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ».

قلت: يا رسول الله، أَوَإِنَّ الْقُلُوبَ لَتَتَقَلَّبُ؟! قال:

«نَعَمْ، مَا مِنْ خَلْقٍ اللَّهُ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ بَشَرٍ إِلَّا أَنْ قَلْبُهُ يَنْ أُصْبِعِينَ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ، فَإِنْ

شَاءَ اللَّهُ ﷻ أَقَامَهُ، وَإِنْ شَاءَ أَرَاغَهُ»

(أحمد: 26576، وقال الهيثبي في مجمع الزوائد 176/10: إسناده حسن).

سؤال الرحمة مع الثناء على الله ﷻ

صفة ٨

﴿وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨)، ومن أنواع الرحمة:

نُورُ الْإِيمَانِ والتعرف إلى الله ﷻ في القلب.

١

سُهولة سَكَرَاتِ الْمَوْتِ.

٣

ونسأل الله أن يجعلنا من الراسخين بفضلِهِ ورحمته.

٥

معاملة الفائزين بعد ذلك.

وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَدْعُو بِهَذِهِ الْآيَةِ فِي الرُّكْعَةِ الثَّلَاثَةِ مِنْ صَلَاةِ الْمَغْرِبِ بَعْدَ الْفَاتِحَةِ، أَيْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ (٨)

(الموطأ: 218، وصحح إسناده النووي في خلاصة الأحكام 387/1).

تَذَكُّرُ الْآخِرَةِ التي فيها الحساب على المواقف الدنيوية

صفة ٩

فلما طلبوا الرحمة ذكروا أعظم المشاهد التي يريدون فيها الرحمة، وهو مشهد يوم القيامة، فابتهلوا

قائلين: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ (٩).

تَدَبُّرُ الْقُرْآنِ المجيد

صفة ١٠

فتقسيمُ القرآن إلى محكمٍ ومتشابه، واقتراحه بهذا الدعاء يدفعان إلى:

«إِقْطَاظُ الْأُمَّةِ لِتَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ فِي تَدَبُّرِ كِتَابِهَا» (التحرير والتنوير 169/3).

التوسُّل بالإيمان بالرب العظيم

صفة ١١

للتوصل إلى رحمة الوهاب الكريم: فهم توسلوا في الابتداء عندما قالوا: ﴿ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [7]، وتوسلوا وسط الكلام باسمه الوهاب ﴿إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [8]، وتوسلوا في خاتمة الدعاء بأنه لا يخلف الميعاد، وكل ذلك ليتوصلوا إلى نيل رحمته.

قضايا مهمة في الإحكام والتشابه:

بَصِيرَةٌ
٦

ما الحِكم العظيمة من وجود المحكم والمتشابه في القرآن؟ لماذا لا يكون كلُّ القرآن محكمًا؟

القضية
الأولى

الجواب

لبيان مكانة العالم الراسخ من غيره، وببصرنا بذلك قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾، فالعالم يستخرج الأحكام والحِكم، ويستنبط القول الأقوم.

الحكمة
(١)

للابتلاء لتحقيق الإيمان، وببصرنا بذلك قوله: ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ﴾، فمن المتشابه ما يجب التسليم به كالتشريعات، وأخبار الغيب مثل الآخرة.

الحكمة
(٢)

للانطلاق من المحكم الواضح إلى الإيمان بالمتشابه، ليتضح انقياد العبد لربه في كلِّ الأحوال، وببصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾.

الحكمة
(٣)

إعمال العقل ليحدث التدبر، فيصل منه إلى الاتعاظ والتذكر، وببصرنا بذلك: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [٧].

الحكمة
(٤)

الحكمة
(٥)

للابتلاء، فيظهر الصادقون الذين يجتهدون في معرفة مراد الله تعالى، ويتبع
الشهو انيون أهواءهم لزيغ قلوبهم:

وعن محمد بن جعفر بن الزبير في قوله تعالى: ﴿مِنْهُ أَيْكُتُ مُحْكَمَتٌ﴾:

فمن حجة الربِّ، وعصمة العباد، ودفع الخصوم والباطل، ليس لها تصريف ولا تحريف
عما وضعت عليه. ﴿وَأُخْرُ مُتَشَبِّهَةٌ﴾ في الصدق، لمن تصريف وتحريف وتأويل، ابتلى الله ﷻ
فمن العباد، كما ابتلاهم في الحلال والحرام، لا يُصَرَّفَنَّ إلى الباطل، ولا يحرفن عن الحق

(تفسير الطبري: 177/6).

الحكمة
(٦)

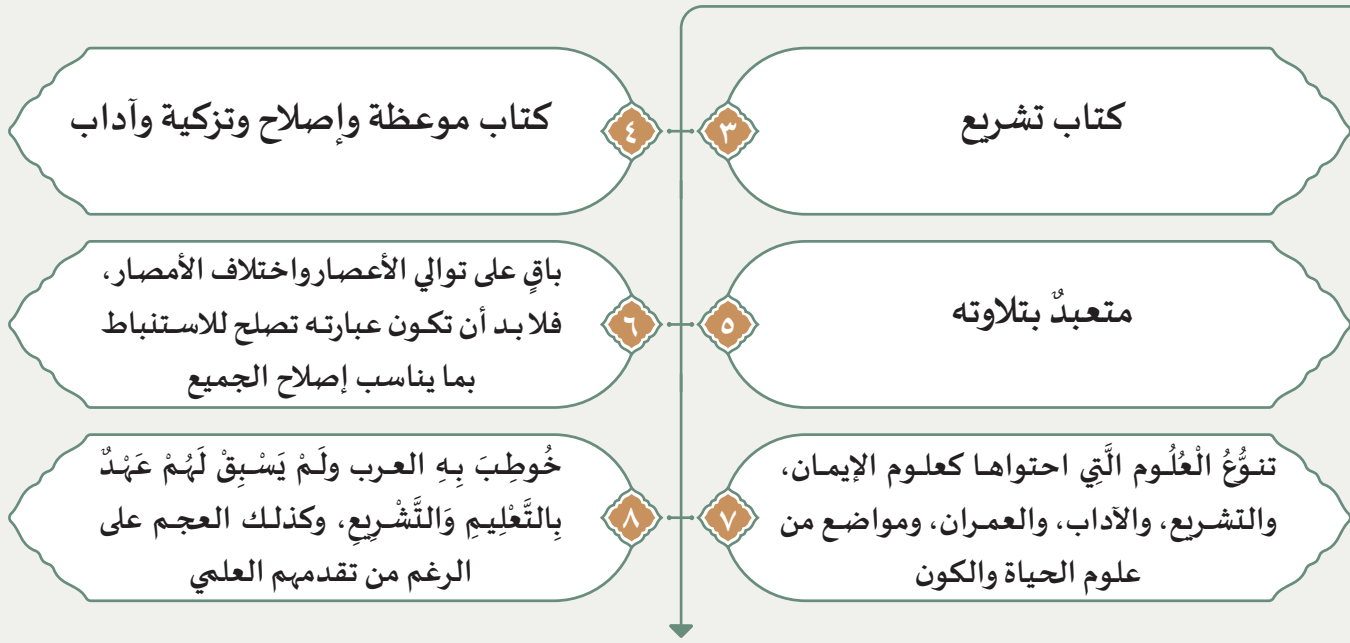
لتمييز التفاوت الإنساني في الفهم، وبصيرنا بذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾
[آل عمران: 7]، فوصف الراسخين بأنهم أولو الألباب، وهم خلاصة العالم من أذكيائه
وحكمائه، فينجذب إلى القرآن العامي، فيفهم محكمه ويؤمن بمتشابهه، فيصبح من
الراسخين في العلم، وينجذب إليه الذكي، فيدرك متشابهه.

الحكمة
(٧)

لاقتضاء الإعجاز القرآني أن ينقسم القرآن إلى محكم ومتشابه؛ فإنَّ وجود المتشابه
المحتمل في القرآن مما يؤهله لاكتناز المعاني والدلالات التي تتكشف بمرور الأوقات
وتطور الحياة، وظهور المكتشفات، فيكون للمتشابه سبُّق الإعجاز بما أشار إليه من
منصوصه، فالقرآن اتسم بالخصائص الثمان الآتية:

هداية

معجزة



فكان المناسب لتحقيق كل هذا أن ينقسم إلى محكم ومتشابه.

القضية الثانية

نسأل سؤالاً أثاره ذمُّ الذين يبتغون تأويل القرآن، وأثاره عدمُ وصلٍ لفظ الجلالة (الله) بما بعدها، ووجود مسائل استأثر الله ﷻ بعلمها: هل في القرآن شيء لا يُعرف معناه؟

الجواب: لا، بل القرآن مبينٌ في كل كلماته، وفصّل ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ (في مجموع الفتاوى 17/396) بعض متعلقات هذا الجواب، وخلاصته:

أولاً: ذمَّ الله ﷻ من يطلب التأويل عندما لا يكون أهلاً له، وإلا فقد مدح العلم والعلماء.

أولاً:

للفظ القرآن حالان:

ثانياً:

٢ أن يستطيع الإنسان معرفة تأويله أي: يعرف معناه، ولا يعرف كيفيته، فيفهم المعنى، ويُسلّم بعجزه عن إدراك الكيفية، فيؤمن بها، وهذا معنى عدم وصل لفظ الجلالة بكلمة ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ في الآية.

١ أن يستطيع الإنسان معرفة تأويله أي: معناه وحقيقته في الدنيا، وهذا معنى الوصل في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾.

وكلا النوعين ممدوح بدليل قول النبي ﷺ لابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُما: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل». (أحمد: 2397، وحسن إسناده الوادعي في الصحيح المسند: 697).

ثالثًا:

الذي لا يَعْرِف المعنى ينبغي أن يسأل عنه، ولذا يُمدح من سأل عن معنى المتشابه ليزيل الشبهة ما دام عالمًا بالمحكم متبعًا له مؤمنًا بالمتشابه لا يقصد فتنةً، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «يَقْرَأُ الْقُرْآنَ رَجُلَانِ:

ورجلٌ يقرؤه ليس فيه هوى ولا نية

أي يبحث عن الحق ليتبعه- يفلّيه فلي الرأس، فما تبين له منه عمل به، وما اشتبه عليه وكله إلى الله. ليتفقهن فيه فقها ما فقّهه قوم قط حتى لو أن أحدهم مكث عشرين سنة، فليبعثن الله له من يبين له الآية التي أشكلت عليه، أو يفهمه إياها من قبل نفسه» (مجموع الفتاوى 394/17).

فرجل له فيه هوى ونية

أي عنده شهوة، فيريد من القرآن ما يوافق هواه- يفلّيه فلي الرأس- يعني يبحث فيه كما يبحث في الشَّعَر- يلتمس أن يجد فيه أمرًا يخرج به على الناس- أي مما يوافق هواه لا ما يدل على ما هدى الله-، أولئك شرار أمتهم، أولئك يُعَمِّي الله عليهم سبل الهدى.

اللهم إنا نسألك أجمل العلم، ونسألك أن تبصرنا بكنوز كتابك يا أرحم الراحمين.

رابعًا:

كان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ إذا عرض لأحدهم شبهة في آية أو حديث سألوا عن ذلك، فسأل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ النبي ﷺ: «فَلِمَ نُعْطِي الدِّينِيَّةَ فِي دِينِنَا إِذَا» (البخاري: 2581)، فهذه شبهة أجاب عنها النبي ﷺ، وسأله عن قوله: ﴿وَلَمْ يَكْسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82]، فقالوا: أَيْنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ قَالَ: (لَيْسَ كَمَا تَقُولُونَ، ﴿وَلَمْ يَكْسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ بِشْرِكٍ، أَوْلَمْ تَسْمَعُوا إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِابْنِهِ: ﴿يَبْنَى لَا تَشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13] (البخاري: 3181).

ولما سمعت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا النبي ﷺ يقول: «مَنْ حُوسِبَ عُدْبٌ» سألتها: "أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ عز وجل: ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: 8] فأجابها: «إِنَّمَا ذَلِكَ الْعَرْضُ، وَلَكِنْ: مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ مِنْهُ» (البخاري: 103).

خامساً:

أجمع السلف على جواز تفسير جميع القرآن، فقال مجاهد رحمه الله: «عَرَضْتُ الْمُصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ثَلَاثَ عَرَضَاتٍ، مِنْ فَاتِحَتِهِ إِلَى خَاتِمَتِهِ، أَوْقَفَهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا» (الطبري 85/1)، وَتَلَقَّوْا ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السُّلَمِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: حَدَّثَنَا مَنْ كَانَ يُقَرِّئُنَا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَقَرِّئُونَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَشْرَ آيَاتٍ، فَلَا يَأْخُذُونَ فِي الْعَشْرِ الْآخَرِ حَتَّى يَعْلَمُوا مَا فِي هَذِهِ مِنَ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ، قَالُوا: فَعَلِمْنَا الْعِلْمَ وَالْعَمَلَ» (أحمد: 23482، وحسن محققو المسند إسناده).

سادساً:

أمر الله ﷻ بتدبر القرآن مطلقاً ولم يستثن منه شيئاً لا يتدبر، ولا قال: لا تدبروا المتشابه، ومعنى ذلك أن المتشابه يدخل في التدبر، والتدبر بدون الفهم ممتنع.

سابعاً:

المتشابه أمر نسبي إضافي، فقد يشتبه على إنسان ما لا يشتبه على غيره؛ ولأن الله ﷻ أخبر أن القرآن بيان وهدى وشفاء ونور ولم يستثن منه شيئاً عن هذا الوصف، ولا يكون كذلك بدون فهم المعنى.

ثامناً:

بين ابن تيمية رحمه الله في كلام عميق متين أنه لا يُعرف عن عالمٍ من علماء المسلمين أنه قال عن نصٍ احتج به محتجٌ في مسألة: إن هذا لا يعرف أحد معناه، فلا يحتج به، ونقل عن الإمام أحمد رحمه الله أنه قال: «المُحْكَمُ: مَا اسْتَقَلَّ بِنَفْسِهِ وَلَمْ يَحْتَجْ إِلَى بَيَانٍ، وَالْمُتَشَابِهُ مَا احتاج إلى بيانٍ»، وعن الشافعي قال: «المُحْكَمُ مَا لَا يَحْتَمِلُ مِنَ التَّأْوِيلِ إِلَّا وَجْهًا وَاحِدًا، وَالْمُتَشَابِهُ: مَا احْتَمَلَ مِنَ التَّأْوِيلِ وَجُوهًا، فَيُقَالُ حِينَئِذٍ: فَجَمِيعُ الْأُمَّةِ سَلَفُهَا وَخَلْفُهَا يَتَكَلَّمُونَ فِي مَعَانِي الْقُرْآنِ الَّتِي تَحْتَمِلُ التَّأْوِيلَاتِ» (الفتاوى: 417/17، 18).

وهذا نخلص إلى ضعف من ذهب إلى أن في القرآن ما لا يعرف معناه بالكلية، نعم يوجد فيه -كما قدمنا- ما لا تُعرف حقيقته وكيفيته، أما المعاني فهي معلومة بحسب ما تقضيه ألفاظ اللغة وتركيبتها وأساليبها، وبما يليق بمراد المتكلم به سبحانه ومقاصده من كلامه.

القضية
الثالثة

لَخَّصَ ابن عاشور رحمه الله (في التحرير والتنوير 158/3) التشابه في
عَشْرَ مَرَاتِبٍ، ويمكن إيجازها في الآتي:

الأولى

مَعَانٍ قُصِدَ إِيدَاعُهَا فِي الْقُرْآنِ، وَقُصِدَ
إِجْمَالُهَا، وَعُلِّمَتْ مَعَانِي أَلْفَظِهَا فِي الْجُمْلَةِ
لَا فِي التَّفَاصِيلِ لِعَدَمِ قَابِلِيَّةِ الْبَشَرِ لِفَهْمِ
حَقَائِقِهَا الْآنَ كَأَحْوَالِ الْقِيَامَةِ.

الثانية

مَعَانٍ عَالِيَةٍ ضَاقَتْ عَنْ إِيفَاءِ كُنْهَيْهَا اللَّغَةِ
الْمَوْضُوعَةُ لِأَقْصَى مَا هُوَ مُتَعَارَفٌ أَهْلِهَا،
فَعَبَّرَ عَنْ تِلْكَ الْمَعَانِي بِأَقْصَى مَا يُقَرِّبُ
مَعَانِيَهَا إِلَى الْأَفْهَامِ، وَهَذَا مِثْلُ أَكْثَرِ صِفَاتِ
اللَّهِ ﷻ نَحْوُ: الرَّحْمَنِ، الرَّؤُوفِ، الْمُتَكَبِّرِ،
نُورِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ.

الثالثة

أَلْفَازٌ مَفْهُومَةُ الْمَعَانِي إِلَّا أَنَّ الْأَفْهَامَ
قَصُرَتْ عَنْ تَفَاصِيلِهَا الدَّقِيقَةِ فِي بَعْضِ
أَحْوَالِ الْعُصُورِ، وَأُودِعَتْ فِي الْقُرْآنِ لِيَكُونَ
وُجُودُهَا مُعْجَزَةً قُرْآنِيَّةً عِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي
عُصُورٍ قَدْ يَضْعُفُ فِيهَا إِدْرَاكُ الْإِعْجَازِ
النَّظْمِيِّ، نَحْوَ قَوْلِهِ: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾
[يس: 38] ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾ [الحجر: 22] ﴿يُكَوِّرُ أَلْيَلٍ
عَلَى النَّهَارِ﴾ [الزمر: 5].

الرابعة

مُصْطَلَحَاتٌ شَرْعِيَّةٌ أَصْلُهَا أَلْفَازٌ عَرَبِيَّةٌ
مَعْرُوفَةٌ لَكِنَّا نَقَلْتِ إِلَى الْإِصْطِلَاحِ
وَالْعَرَفِ الشَّرْعِيِّ كَالْتَّيَمِّمِ، وَالزَّكَاةِ،
وَالرِّبَا.

الخامسة

أَسَالِيبُ عَرَبِيَّةٌ خَفِيَتْ عَلَى أَقْوَامٍ،
فَظَنُّوا الْكَلَامَ بِهَا مُتَشَابِهًا، كَالْمُشَاكَلَةِ فِي
قَوْلِهِ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النِّسَاء: 142]،

فربما ظنوها صفة ذم، وهي صفة
مدح عند المقابلة.

السادسة

آيَاتٌ جَاءَتْ عَلَى عَادَاتِ الْعَرَبِ، فَفَهِمَهَا
الْمُخَاطَبُونَ، وَجَاءَ مَنْ بَعْدَهُمْ فَلَمْ
يَفْهَمُوهَا، فَظَنُّوهَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ، مِثْلَ
قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ حَاجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ
عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا﴾ [البَقَرَة: 158]، كما قَالَ
عروة بْنُ الزُّبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَا أَرَى بَأْسًا عَلَى
أَحَدٍ إِلَّا يَطَّوَّفَ بِالصَّفَا وَالْمَرْوَةِ» (البخاري: 1561)،
فبينت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا له المعنى.

السابعة

أَفْهَامٌ ضَعِيفَةٌ جَعَلَتْ كَثِيرًا مِنَ الْآيَاتِ تَنْتَمِي لِلْمُتَشَابِهِ وَمَا هُوَ مِنْهُ،
كَأَفْهَامِ الْبَاطِنِيَّةِ، وَأَفْهَامِ الْمُشَبَّهَةِ، وَأَفْهَامِ الْمَعْطَلَةِ.



إذا كان الثابت التاسع قد يَبَيِّنُ انقسام الناس أمام آيات الكتاب إلى صنفين:
الزائعين، والراسخين، فما الثابت العاشر؟

جسراتصال

الثابت العاشر

الإيمان باليوم الآخر له المكان المركزي في بناء المجتمع المسلم

وينبغي ذكره عند التفاعل مع أهل الكتاب محاوره حرباً أو سلباً، وببصرنا بذلك قوله تعالى عن الراسخين: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ٩﴾، فالإيمان باليوم الآخر هو المحرك لسلوكنا، الباني لحياتنا، وفيه 5 بصائر:

بَصِيرَةٌ

﴿رَبَّنَا﴾

تكرر هذا اللفظ المبارك 3 مرات في ثلاث آيات هنا ليبصّرنا بتنمية الربانية في حياة الأمة، وتكرّر في سورة آل عمران 10 مرات، وهي أكثر سورة تكرر فيها، بعد سورة البقرة التي تكرر فيها 11 مرة، ويلفت النظر ورود كلمة ﴿رَبَّنَا﴾ [آل عمران: 79]، وكلمة ﴿رَبِّوْنَ﴾ [آل عمران: 146] في هذه السورة، ألا فلتتعلق النفوس بها، ألا فلتهتف بها في السروالعلن، ولنجعلها شعاراً لنا في كلّ موقف، وملاًداً لنا في كلّ ضيق. فهل وعينا هذا السر الرباني؟! وهل سعينا لتحقيق متطلبات الربانية في كل شؤون حياتنا؟! حياتنا؟!!

بَصِيرَةٌ

قدرة الله ﷻ المطلقة وحتمية اللقاء ﴿إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾

فتبصرنا بأنهم يؤكدون على إيمانهم باليوم الآخر بكلمة (إِنَّ)، وبوصف الله ﷻ بالقدرة الكاملة ﴿جَامِعُ النَّاسِ﴾ بصيغة اسم الفاعل للدلالة على ثبات صفة القدرة على الجمع، وللدلالة على وقوعه.

بَصِيرَةٌ

﴿لِيَوْمٍ﴾ إلى هناك المسير، فهي وجهة لا تحيد، وقصد لا يضل

فاللأم تبصرنا بأن الله ﷻ يجمع المليارات المتتابعة من الناس لذلك اليوم، فلا يمكن أن يفروا منه.

بَصِيرَةٌ

﴿لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾

تبصرنا بيقين يملأ القلوب، وبوعد الحق الذي لا يخلف أبداً، فقد وصفوا اليوم الآخر بأنه لا ريب فيه أي لا شك في وقوعه، ولا تهمة يمكن أن تتطرق لحدوثه، ولا قلق في أنه يمكن أن يتخلف، فوصفوه بأعظم درجات اليقين.

بَصِيرَةٌ

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾

وبذا يكون الإيمان القاطع الجازم باليوم الآخر أكبر ضمانٍ للالتزام بثوابت المجتمع الإسلامي، وأعظم حادٍ وسائقٍ للاستقامة على خطة الرشد القرآنية في إصلاح النفس والعالم والمجتمع البشري. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ ناقلاً عن غيره: «فَالْمَحَبَّةُ هِيَ الْمَرْكَبُ، وَالرَّجَاءُ حَادٍ، وَالْخَوْفُ سَائِقٌ، وَاللَّهُ الْمُوَصِّلُ بَيْنَهُ وَكَرَمِهِ» (مدارج السالكين 188/2) يصف رَحِمَهُ اللهُ رحلة المؤمن إلى الآخرة، فأشار إلى أن محبة الله هي مركب المؤمن تسوقه إلى ربه، وأن رجاءه فيما يطمح لتحقيقه حادٍ أي هاتفٌ يشجعه ويحفّزه لقطع الطريق، وأن الخوف من عواقب المعاصي أو التأخر عن ركب الصالحين سائقٌ له لتلايزغ أوقفتر.

جسر اتصال

فَصَلَّتْ المقدمة أهم الأسس الدستورية (الثوابت العشرة) التي تقوم عليها خير أمة أخرجت للناس، وتضمنتها الآيات [9-1]، فما أهم القضايا التي تنطلق منها لدعوة العالم إلى الخير؟

الجواب

هنا تأتي القضية الكبرى الأولى، وهي: شهادة الوحداية التي تتحقق في الإسلام دين جميع الأنبياء عليهم السلام أساس لتكوين أمة الخير في العالم، وفَصَلَتْها آيات المحاور الأربعة الأولى [آل عمران: ١٠-١٢٠]:

القضية الكبرى الأولى:

شهادة الوحدانية التي تتحقق في
الإسلام دين جميع الأنبياء ﷺ
أساس لتكوين أمة الخير في العالم

المحور الأول

الدين عند الله الإسلام، وأساسه
الشهادة الكبرى: شهادة الوحدانية،
وسنن الله في أهل الكتاب وسائر
الكافرين المتأمرين على أهل هذه
الشهادة [آل عمران: ١٠ - ٣٢]

المحور الأول

الدين عند الله الإسلام، وأساسه الشهادة الكبرى: شهادة الوحدانية، وسنن الله في أهل الكتاب وسائر الكافرين المتأمرين على أهل هذه الشهادة

[آل عمران: 10 - 32]

المناسبة والاتصال:

ذكر الله ﷻ في مقدمة السورة عشرة ثوابت تؤسس المجتمع المسلم، وتبني رؤيته الفكرية والحضارية، وتمثل أهم المضامين المعرفية لأجيال الإسلام على مدى الأزمان، وانتقل في هذا المحور ليبين الشهادة الكبرى التي تتضمن واحدية الله ﷻ في ألوهيته، وأن دينه هو الإسلام، وبناء على ذلك سيحدد معالم سنّته في الكافرين عمومًا، وفي أهل الكتاب خصوصًا عندما يصدون العالم عن الشهادة الكبرى والدين الذي ارتضاه ﷻ للعالمين، فيستطيلون بقواتهم وثرواتهم، ويسيطرون على المؤسسات المحلية والدولية لتغييب الدين الحق، ويحاربون الذين يأمرون بالقسط والعدالة الدولية، ويفصل الله ﷻ لنا كيفية التعامل معهم حوارًا وتفاعلاً.

أقسام هذا المحور

انقسم هذا المحور إلى ستة أقسام:



القسم الأول

سنن انهزام قوة الكافرين أمام قوة المؤمنين المؤيدين بنصر رب العالمين

[آل عمران: 10-14]

آيات هذا القسم، وتكوينه وبناءؤه:

تكوّن هذا القسم من 5 سنن إلهية تحكم العلاقات الدولية:

الآية ١١

تبصّرنا بالدليل المحسوس على صدق الآية السابقة، أي على مستقبل الكافرين الذي ذكره الله ﷻ فيها، فتبين أن سنة الله ﷻ في معاقبة المكذبين مستمرة لا تتغير، فكما جرّت على السابقين ستجري على اللاحقين ﴿كَذَابَ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾.

الآية ١٠

تبصّرنا بمستقبل قوة الكافرين في الدنيا، ومستقبلهم البائس في الآخرة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ۝﴾.

الآية ١٣

تبصّرنا بأن يخاطبهم الداعية إعلاميًا، ويخبرهم عن دليل واقعي قريب أيد الله ﷻ فيه المؤمنين بنصره، وهو وقعة بدر ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ آيَةٌ فِي فَعْتَيْنِ الْأَتْقَاتُ فَعَتُّ قَتْلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ۝﴾.

الآية ١٢

تبصّرنا بتطبيق ذلك في الواقع المعاصر للنبي ﷺ بأن يخاطب ﷺ إعلاميًا قوى الكفر الثلاث: المشركين، واليهود، والنصارى، ويخبرهم عن مستقبلهم ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُخْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝﴾.

الآية ١٤

تبصّرنا بأساس الصراع، وسبب الهلاك والارتفاع، وهو التنافس على شهوات الدنيا المُرْتَنَة في أعيننا بأجمل المتاع ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْخَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۝﴾.

السنة
الأولى

مستقبل قوة الكافرين في الدنيا إلى خسار، وعاقبتهم في الآخرة إلى عذاب النار

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾^(١)،
وفيه 8 بصائر:

بَصِيرَةٌ
١

الخسارة المضاعفة

تبصّرنا الآية بسنة واضحة تتعلق بالمستقبل الخاسر للكافرين في الدنيا ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ
تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾، وفي الآخرة: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾^(١)
وأكدت كلمة ﴿إِنَّ﴾ مصير هذا المستقبل.

بَصِيرَةٌ
٢

القوتان الخطيرتان

تبصّرنا الآية بأن الكافرين يلجؤون إلى قوتين ضخمتين:

٢

١

﴿أَوْلَادُهُمْ﴾

قوة الأعداد البشرية

﴿أَمْوَالُهُمْ﴾

قوة الثروات المالية والمادية

وهم يستعملون هاتين القوتين ليغطوا أنوار الكتاب المبين، لذا وصفهم بالكفر، فالغنى يَكُونُ
بِالثروات، وأهمها المَال، وَيَكُونُ بالجنود المَعْدِين لِلْقِتَالِ، وهم أبناء الدين أو البلاد أو النّسب.

بَصِيرَةٌ
٣

نهاية القوة

تبصّرنا كلمة ﴿لَنْ﴾ بأن المستقبل لن يكون في صالح ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، فكل القوى ﴿لَنْ تُغْنِيَ﴾
أي: لن يكون لهم غنى تقيم من فقرهم أمام قوة الله ﷻ، فلن تدفع عنهم ﴿شَيْئًا﴾ مهما قل،
فالتنكير للتحقير.

بَصِيرَةٌ

٤

تبصّرنا كلمتا ﴿مَنْ أَلَّه﴾ أن أهم أسس النصر:

الصِّلَّة التي يستمدّها الإنسان في نفسه، والأمة في مجموعها، والدولة في أنظمتها من الله ﷻ، فإذا ثبت المؤمنون على الثوابت الإسلامية فلن تضرهم الأخطار الخارجية.

بَصِيرَةٌ

٥

تبصّرنا الآية بضرورة الرد على تباهي الكفار وإرعابهم للعالمين بقولهم:

﴿مَنْ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ﴾ [سبأ: 35].

بَصِيرَةٌ

٦

تبصّرنا الآية بأن كَمَالَ الْعَذَابِ يكون بأن يزولَ عَنِ الْمُعَذِّبِينَ أسباب القوة والانتفاع

وهي الأموال والأولاد، وبأن تَجْتَمِعَ عَلَيْهِمُ أسباب الإيلام فيصبحون ﴿وَقُودُ النَّارِ﴾ كما

يقرّر الرازي رحمه الله. (تفسير الرازي: 152/7).

بَصِيرَةٌ

٧

تبصّرنا الآية أن أموالهم وأولادهم هي أهم أسباب اغترارهم بالباطل، واستغنائهم عن الحق.

بَصِيرَةٌ

٨

تربي الآية اليقين القاطع في قلوب المؤمنين بأخذ الله ﷻ للكافرين وجعل عاقبتهم إلى الخسران المبين.

السنة
الثانية

سُنَّةُ الْعُقُوبَةِ الَّتِي يَسْلُطُهَا اللَّهُ ﷻ عَلَى الْمَكْذِبِينَ مَاضِيَةٌ مُسْتَمِرَّةٌ، فَكَمَا حَلَّتْ عَلَى
السَّابِقِينَ سَتَعَصَفُ بِاللَّاحِقِينَ

وَيَبْصُرْنَا بِذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذَهُمُ اللَّهُ
بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝﴾ [آل عمران: 11]، فهذه الآية تُظهِرُ دَلِيلَ السُّنَّةِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ ﷻ
فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ، وَفِيهَا 8 بَصَائِرَ:

بَصِيرَةٌ
١

﴿كَذَّابٌ﴾ أي كالعادة المستمرة، فتبصّرنا بأن شأن المجرمين المعاصرين للنبي ﷺ وَمَنْ
بعدهم كالشأن المستمر لأمثالهم ممن قبلهم، ومن سيأتي بعدهم

فهي سُنَّةٌ جَارِيَةٌ مُلَازِمَةٌ لِحَالِ الْمَجْرِمِينَ؛ إِذْ يَظْهَرُ مِنْهُمْ الْاجْتِهَادُ وَالْإِصْرَارُ عَلَى نَصْرِ بَاطِلِهِمْ،
فِيَأْتِيهِمْ بِطَشِ اللَّهِ ﷻ الَّذِي لَا يُخْلَفُ.

وَالْمَعْنَى: عَادَةُ الْكَافِرِينَ الْمُتَأَخِّرِينَ وَاجْتِهَادُهُمْ كَعَادَةِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَاجْتِهَادُهُمْ
فِي الْكُفْرِ وَتَكْوِينِ الْوَسَائِلِ وَالْأَجْهَازَةِ الرَّهْبِيَّةِ لِلتَّكْذِيبِ بِآيَاتِ اللَّهِ ﷻ.

بَصِيرَةٌ
٢

﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ الآل: هم أشد الناس اختصاصًا بالمضاف إليه، والاختصاص هنا يكون في
المتابعة على أفكار القائد، ويكونون غالبًا من أقاربه ومقرّبي أصدقائه وأتباعه

بَدِيلُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَالْتَقَطَهُ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ ثم بين لنا في الآية نفسها
مَنْ هُمْ آلُ فِرْعَوْنَ، فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَمَلَنْ وَجُودَهُمَا كَأُنُوحٍ خَطِئِينَ ۝﴾ [القصص: 8].

بَصِيرَةٌ
٣

﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ تبصّرنا بأن فرعون كان يستمد سطوته وقوته من مؤسسته المحيطة به،
وهم آله أي: أقاربه وأتباعه الذين ترتبط مصالحهم بوجوده

وهم يشكّلون قوّته الضاربة، ويده الباطشة، فلا يكون الفرعون فرعونًا إلا إذا وجد من يُفَرِّغُهُ،
وَذَكَرَ الْآلَ وَلَمْ يَقُلْ (فِرْعَوْنَ)؛ لِأَنَّ إِقَامَةَ نِظَامِ طَاغُوتِي كَبِيرٌ لَا بَدَأَ أَنْ يَكُونَ مُؤَسَّسِيًّا، وَلَيْسَ فَرْدِيًّا.

بَصِيرَةٌ

٤

ذِكْرُ آلٍ يَشِيرُ إِلَى قُوَّةِ الْعَصْبِيَّةِ النَّسَبِيَّةِ وَالْمَصْلَحِيَّةِ لِإِقَامَةِ الدُّوَلِ وَالْكَيَّانَاتِ السِّيَاسِيَّةِ،
وَقَدْ تَقَدَّمَ الْعَصْبِيَّةُ النَّسَبِيَّةُ عَلَى الْحَزْبِيَّةِ وَالْعِرْقِيَّةِ الْجِنْسِيَّةِ

وخيّر من ذلك كله العصبيّة والحمية للدين لتقام به الدنيا، وتجد سعادتها في نظامه حيث العدل
مع الأقارب والأبعد. تصوّر أن أكبر دولة معاصرة تصر على إعطاء جنودها وخواصها حصانة
قانونية من أي جريمة يمكن أن يرتكبوها!

بَصِيرَةٌ

٥

﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾: تبصّرنا بأنهم جيّشوا الوسائل الخبيثة المجرمة لإظهار هذا التكذيب
وتعميمه في العالم

والباء تبصّرنا بأنهم استخدموا آيات الله ﷻ لا ليصدقوا بها، ولا ليهدوا الناس إليها، بل ليجعلوها
أدوات لخداعهم ومكرهم بالناس.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ﴾ تبصّرنا بملك الله الكامل، فالفاء تدل على وصول العقوبة في أجلها المسمى
عند الله، فكانها تحدث فوراً ولو تأخرت في حساب الناس

وكلمة ﴿أَخَذَ﴾ تبصّرنا بأنهم في متناول ربهم ﷻ، إذ تأتيهم العقوبة في الوقت المحدد متناولة لهم
تناولاً محكماً مستولياً لا يستطيعون منه فراراً.

بَصِيرَةٌ

٧

﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾ تبصّرنا بعدل الله ﷻ، فعدله المطلق يقارن ملكه الكامل، فلم يأخذهم إلا
لأنهم يستحقون.

بَصِيرَةٌ

٨

﴿وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ تبصّرنا بصورة من صور عزته وحكمه، فرحمته السابقة لا تعني
التهاون في الاستقامة على أمره، فهو شديد العقاب.

السنة
الثالثة

سنة الله ﷻ قائمة، وإرادته ماضية في أن يُغلبَ معسكر الكفر في الدنيا في آخر المطاف، ويُساق جنوده وأنصاره إلى عذاب النار في الآخرة

وبصّرنا بذلك قوله تعالى:

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: 12]،

وفها 10 بصائر:

بصيرة
١

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تبصّرنا بضرورة أن نخاطب الكفار إما لدعوتهم، وإما لكسر شوكتهم بإلقاء الرعب في قلوبهم، وإما لإظهار الاعتزاز الإسلامي أمام ضلالتهم

وإما لإحراجهم أمام شعوبهم بكشف حقيقتهم، وذلك يعني أن السياسة المسلمة لا يجوز أن تكون مدهنة في خطابها للكافرين، بل ينبغي أن يكون في غاية الوضوح، وفرق بين هذا وبين الإدارة المطلوبة في وقتها.

بصيرة
٢

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تبصّرنا بضرورة تفعيل الخطاب الإعلامي في المعركة، وليس ادعاء حياديته كما يزعم بعضهم

فإن هذه الحيادية المزعومة لا تكون نتیجتها إلا ترجيح جانب المجرمين والمعتدين والمتأمرين.

بصيرة
٣

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ﴾ قراءة الجمهور بقاء الخطاب تبصّرنا بأن نخاطب الكافرين المعتدين

ونخبرهم بأن نتيجة معاركهم التي يشعلونها ضد الإسلام والمسلمين وسائر العالمين محسومة في الدنيا: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾، فلن تغني عنهم الثروات المادية ﴿أَمْوَالُهُمْ﴾، ولا القوى البشرية ﴿أَوْلَدُهُمْ﴾، ونخبرهم بأن نتيجة معاركهم محسومة أيضاً في الآخرة ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: تُجمعون جمعاً يقشركم عن مواضعكم إلى أسوأ أماكن العقوبات العادلة، وهي جهنم، ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْيٌ سَائِغٌ وَهُمْ لَا يَسْعَوْنَ﴾ قراءة حمزة والكسائي وخلف العاشر بياء الغيبة تبصّرنا أن نُوجِّه الخطاب إلى المؤمنين ليزدادوا إيماناً، ولغير الكفار المحاربين

أي: قل للمؤمنين ولغيرهم أي أعلن لهم عن مصير حروب الكفار المستعرة في الدنيا ﴿سَيُغْلِبُونَ﴾، وعن مصيرهم في الآخرة ﴿وَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾، وهذا الإعلان يُخيفُ المنافقين والذين في قلوبهم مرض، ويثبت المؤمنين.

بَصِيرَةٌ

٥

تنوعُ القراءتين ﴿سَتُغْلِبُونَ وَيُحْشَرُونَ﴾، و﴿سَيُغْلِبُونَ وَيُحْشَرُونَ﴾ يبصّرنا بضرورة التركيز والتفنن والتنويع في الخطاب الإعلامي

فللجبهة الإسلامية الداخلية خطابها الذي يلائمها، ويخصها ويرفع من معنوياتها، ويحفظ عليها تماسكها، وللخارج المعادي خطابها الذي يفت في عضده ويخلخل صفوفه.

بَصِيرَةٌ

٦

الحرب الإعلامية جبهة لا تقل أهمية عن الجبهات الميدانية في مصالحة العدو ومغالbته؛ إذ هي السلاح الفتاك في الحرب النفسية، وكسر معنويات الأعداء، وتفريق شملهم.

بَصِيرَةٌ

٧

لا بد من تفعيل التذكير بالمصير الأخروي؛ إذ ذكر الله ﷻ هذا المصير في آيتين متتابعتين في أثناء خطابٍ سياسي عسكري موجّه للكفار

فقال الله ﷻ في الآية الأولى عن الكفار: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَٰرِقُونَ﴾ وقال هنا: ﴿وَيُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

بَصِيرَةٌ

٨

جهنم تمثل الحياة البائسة: ﴿وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ فتبصّرنا بأسوأ حياة يعيشها أصحاب جهنم، فالمهاد هو الموضع الذي يُمهّد أي: يُهيأ ليكون مكاناً للإقامة المريحة

فيكون لهذا التعبير العجيب معنيان: فبئس المهاد جهنم فراشاً لهم، أو: بئس ما مهدوا لأنفسهم في الدنيا ليجدوا ثمرته المرة في الآخرة، وإذا كان المهاد هو الموضع المريح، فالآية تهكم بهم! فبدلاً من أن يجدوا الراحة سيجدون الشقاء.

بَصِيرَةٌ

٩

تطمئن ورد: الآية تطمئن للمؤمنين الثابتين، ورد على المجرمين الزاعمين أنه لو كان هناك
آخرة فسيكون لهم الحسنى

كقول صاحب الجنة ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ
خَيْرًا مِمَّا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ [الكهف: 35، 36].

بَصِيرَةٌ

١٠

إعجاز: في الآية إعجاز إنبائي مستقبلي حدث للفرق الثلاث الكفار، وهي:



فقال ابن عباس رضي الله عنه: لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، فقدم المدينة، جمع يهود في
سوق بني قينقاع. فقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً». فقالوا: يا محمد، لا تغررك نفسك أنك قتلت نفراً من قريش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، وأنك لم تأت مثلاً! فأنزل الله ﷻ هذه الآية إلى قوله: ﴿لَأُولَى الْأَبْصَرِ﴾ ﴿١٣﴾ [آل عمران: 13] (تفسير الطبري: 227/6)، وتحقق ذلك، حيث غلب الله ﷻ الخائنين من قبائل اليهود في أرض العرب.

السنة
الرابعة

دليل التاريخ برهان على صحة السُّنة السابقة

فالاعتبار بحوادث الزمان، يؤكد أن الاعتماد على كثرة الحشود والأعوان لا يغني بالضرورة في الميدان عندما تنزل الكلمة الفصل من العظيم الديان، وببصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِتْنِ الْتَقَاتِ فَعَةً تُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: 13]، وفيها 5 بصائر:

السبيل الصادقة

بَصِيرَةٌ

﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ آيَةٌ﴾ أيها المسلمون أو أيها الكافرون ﴿فِي فِتْنِ الْتَقَاتِ﴾ يوم بدر، ﴿فَعَةً تُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ تبصّرنا بأن القوة تحفظ مصالح العالم والناس إن كانت في سبيل الله ﷻ، فلا ينبغي أن يكون القتال للعنصرية ولا لاغتصاب أموال الآخرين وأراضيهم، بل لأجل مرضاة الله، فهو في الله والله ومن الله ﷻ، وذلك يعني أن يدافعوا عن الحق والعدل، وأن يحموا المستضعفين والأبناء والديار، وأن يثقوا بأن الله ﷻ معهم يؤيدهم وينصرهم.

الكثرة الخاسرة

بَصِيرَةٌ

﴿وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَهُمْ رَأَى الْعَيْنِ﴾ المعنى: فئة مؤمنة تقاتل في سبيل الله، وأخرى كافرة تقاتل في سبيل الشيطان واغتصاب حقوق الآخرين، وتبصّرنا بأن الكثرة لا تعني الانتصار، فالمؤمنون رأوا الكافرين مثلهم في نهاية الأمر في بدر، وعلى الرغم من ذلك انتصر الإيمان على الكفر والطغيان.

بَصِيرَةٌ

٣

في ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ قراءة تبصرنا بثلاثة مشاهد:

المشهد الأول: الموعظة التاريخية للكفار: يبصرنا به قراءة نافع وأبي جعفر ويعقوب ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾ بالتاء أيها المؤمنون، أي: ترون الكفار مثلي أنفسكم رأي العين، وهذا المشهد موعظة تاريخية للكفار المتباهين بالقوة والثروة، ليُدركوا أن القوة الحقيقية ليست في موازين العدد المادية.

المشهد الثاني: الإيهام الإلهي في بدايات المعركة: يبصرنا به أيضًا قراءة الخطاب، والمعنى ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾ أيها الكفار، أي ترون المؤمنين مثلي الكفار رأي العين، وذلك في أول معركة بدر، ليقع في قلوبهم الرعب والوهن بسبب الإيهام الإلهي بمضاعفة عدد المؤمنين، فتضعف شوكتهم، كما بين الله ﷻ: ﴿إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا﴾ [الأنفال: 43].

المشهد الثالث: ثبات اليقين رغم الرؤية المادية: يبصرنا به قراءة الباقيين ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ بالياء، أي يرى المؤمنون أن عدوهم مثلهم بالفعل، لكن هذه الرؤية المادية لفارق القوة والعدد لم تُزلِّ يقينهم بالوعد الإلهي بالنصر.

تأييد إلهي

بَصِيرَةٌ

٤

﴿وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصَرِهِ مَن يَشَاءُ﴾ تبصرنا أن الله ﷻ بيده النَّصْرُ، يعطيه من يشاء لا وفق الكثرة والقوة والجنس، بل وفق حكمته لمن جمع شيئين: الاستعداد والاعتقاد، والنصر له أربعة وجوه: «نصرًا بالحجة، ونصرًا بالغلبة والمُحاربة، ونصرًا بعقاب العدو، ونصرًا بإكرام الولي بالثواب». (التيسير للنسفي (125/13))

الاعتبار يوسّع الإبصار

بَصِيرَةٌ

٥

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ﴾ تبصرنا بأن أصحاب العقول والذكاء يدرسون التاريخ دراسة متعمقة ليعتبروا به، والعبرة هي الفكرة التي يحصلها الأذكىاء ليعبروا بها من الجهل إلى العلم، ومن الخطر إلى الأمان، فأولوا الأبصار هم أصحاب العقول التي تبصر ما وراء الأحداث، ولا تكتفي بالنظر إلى الظاهر.

السنة
الخامسة

أساس الصراع أو الارتفاع: تزيين شهوات الدنيا، إما أن تكون وسيلة لنيل حسن المآب، وإما أن تكون غايةً يقتصر عليها الدنيويون وما هي إلا سراب

وَيُبَصِّرُنَا بِذَلِكَ قَوْلُ رَبِّنَا ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، ولذا كان التهالك على مُتَعِ الحياة الدنيا وزينتها أكبر عاملٍ لضلال الماديين، ولزيادة حب بعضهم للشهوات وغفلتهم عن حسن المآب تزداد أطماعهم، فيُنشئون المؤسسات المتوحشة لامتنصاص ثروات الأمم وشن الحروب على الأبرياء

تكوّنت هذه الآية من أربعة أركان: مقدمة، وستة أنواع من المشتبهيات وخاتمة، ونتيجة:

الركن
(1)

المقدمة هي: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ﴾، وهذه الجملة يتعلق بها مسألتان:

المسألة الأولى: تصوير قوة الاشتهااء لهذه الشهوات:

يَشْتَهِي الإنسان أنواعَ المُشْتَهِيَّاتِ.

الدرجة ١

يُحِبُّ شَهْوَتَهُ أَيِ اشْتِهَاءِهَا.

الدرجة ٢

تُزَيِّنُ محبته لها

الدرجة ٣

فيقرر الرازي رَحِمَهُ اللهُ
ثلاث درجات
لاشتهاء هذه
الشهوات:

فالتزيين تصوير الشيء زينا أي يعتقِدُ أَنَّ تِلْكَ الْمَحَبَّةَ حَسَنَةً وَفَضِيلَةً، وَلَمَّا اجْتَمَعَتْ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الدَّرَجَاتُ الثَّلَاثُ بَلَغَتْ الْعَايَةَ الْقُصْوَى فِي الشَّدَّةِ وَالْقُوَّةِ. (تفسير الرازي: 161/7)

هل علمت لماذا ينتصر الشيطان في إشاعة الشهوات المحرمة في عالم الإنسان؟ انظر لقوة الاشتهااء.



وهنا نسأل: هل حب هذه الشهوات فضيلة أم رذيلة؟

الجواب: بل هي فضيلة، والاقتصار عليها أو الغلو فيها رذيلة، وهنا تأتي:

المسألة الثانية: يُظهر لنا جمال هذه الكلمة القرآنية ﴿زَيْنَ﴾ أن الله ﷻ لم يذكر من المُرَّين ليحتمل جهتين:

الجهة الثانية

أن يكون الشيطان هو الذي يزِن للإنسان الغلو في محبتها حتى يُؤثرها على حسن المآب في الدنيا والآخرة كما قال ربنا ﷻ: ﴿وَإِذْ زَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال: 48]، وهنا يصبح التزين الشيطاني مدخلاً لهلاك الإنسان الشهواني، وإذا كان ذا إمكانات وطموحات وأطماع ولا يرى أمامه سوى الإكثار من التلذذ من أنواع الشهوات فإنه يشن سلسلة من الحروب الظالمة المجرمة لامتنصاص ثروات الشعوب وحقوق الضعفاء، ويسمى ذلك إنجازات.

الجهة الأولى

أن يكون الله تعالى هو الذي زينها في الفطرة الإنسانية رحمة بالإنسان ليستفيد منها في تحقيق رغباته وإعمار حياته، وجعلها وسيلة لرفعة درجاته في آخرته، على أن يصحبها ببذنه، ولا تملك قلبه، فتكون معبراً إلى الآخرة، ومتجرّاً يكسب بها الفوائد الفاخرة، كما قال ﷻ: «نِعْمَ الْمَالُ الصَّالِحُ لِلْمَرْءِ الصَّالِحِ»، (الأدب المفرد: 299. وصححه الوادعي في الصحيح المسند: 1006)، وقال ﷻ: «الْخَيْلُ لثَلَاثَةِ: لِرَجُلٍ أَجَرَ، وَلِرَجُلٍ سِتْرٌ، وَعَلَى رَجُلٍ وَزْرٌ» (البخاري: 2860).

وهذا يقتضي العمل الجاد الدائب على بيان مزايا حُسن الآخرة بما فيها من الشهوات الكاملة، وليس ضخ وسائل التوجيه والإعلام والتعليم لتغليب زينة الدنيا.

وفي (حلية الأولياء: 220/6) عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ قَالَ: "الدنيا مَطِيَّةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى رَبِّهِ، عَلَيْهَا يَرْتَحِلُ الْمُؤْمِنُ إِلَى رَبِّهِ، فَأَصْلَحُوا مَطَايَاكُمْ تَبْلُغَكُمْ إِلَى رَبِّكُمْ"، وَكَانَ الصَّاحِبُ بْنُ عَبَّادٍ رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: "شُرْبُ الْمَاءِ الْبَارِدِ فِي الصَّيْفِ يَسْتَخْرِجُ الْحَمْدَ مِنْ أَقْصَى الْقَلْبِ". (تفسير الرازي: 160/7) أي تذوق شهوة الماء البارد يثير الإنسان ليحمد الرحمن.

الركن
[٢]

أهم أنواع المشتريات ستة، فقله تعالى: ﴿مِنْ﴾ لبيان النوع:

النوع الأول

﴿مِنْ النِّسَاءِ﴾ متعة الأنس والنفس:

قَدَّمَهُنَّ لِأَتَمَّنْ أَعْظَمُ الْمُشْتَرِيَاتِ لِلرِّجَالِ، كَمَا أَنَّ الرِّجَالَ أَعْظَمُ الْمُشْتَرِيَاتِ لِهِنَّ، وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَى الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ» (البخاري: 5069)، وَكَثِيرًا مَا جَرَّ الْافْتِتَانُ بِالنِّسَاءِ الْمَرْءَ عَلَى خَوْضِ الْحَرْبِ وَسْفِكِ الدَّمِ الْحَرَامِ.

النوع الثاني

﴿وَالْبَيْنِ﴾ متعة الامتداد والقوة:

وَذَكَرَهُمْ دُونَ الْبَنَاتِ لَيْسَ لِلْحَصْرِ، بَلْ فِيهِ إِشَارَةٌ لِهِنَّ، فَلَا تَكْمُلُ حَيَاتُهُمْ دُونَهُنَّ، وَلَئِنْ اللَّهُ ﷻ ذَكَرَ النِّسَاءَ أَوَّلًا، وَالْبَنَاتِ أَصْلَ النِّسَاءِ، وَمَحَبَّةُ الْبَنِينَ فِي الصِّغَرِ "جُنُونٌ فِطْرِيٌّ، وَرَحْمَةٌ رَبَّانِيَّةٌ عَامَّةٌ" (تفسير المنار 3/199)، وَفِي الْكِبَرِ لِلْاعْتِزَازِ بِهِمْ، وَاسْتِمْرَارِ الْأَجْيَالِ.

النوع الثالث

﴿وَالْقَنْطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ﴾ متعة الثروة المالية:

الْقَنْطَارِ يُجْمَعُ الْقَنْطَارُ، وَهُوَ الصَّرَّةُ الْمُقَنْطَرَةُ مِنَ الْمَالِ أَيْ: الْمَحْكَمَةُ الْعَقْدُ، وَالْمَقْصُودُ الْمَالُ الَّذِي لَا يُعَدُّ لِكَثْرَتِهِ، أَيْ: الْكَثِيرَةُ الْمُتَكَثِّرَةُ، وَالْأَمْوَالُ وَسِيلَةُ التَّدِيرِ لِلْوَصُولِ لَشَهْوَتِي النِّسَاءِ وَالْبَيْنِ، وَلِذَا قَدَّمَهَا اللَّهُ ﷻ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَعَلَّمُوا أَنَّمَا آمَوْلَكُمُ وَأَوْلَدُكُمُ فَتَنَةٌ﴾ [الأنفال: 28].

النوع الرابع

﴿وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ متعة ثروة المراكب والآلات:

سُمِّيَتْ خَيْلًا لِخَيْلَانِهَا فِي مَشْيِهَا، وَلِكَلِمَةِ (مُسَوَّمَةٍ) مَعْنِيَانِ:

١- تُسَوَّمُ أَيْ: تَرْسَلُ فِي الْمِرَاعِي، فَتَزْدَادُ حُسْنًا، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فِيهِ نُسَيْمُونَ﴾ [النحل: 10].

٢- لِأَنَّهَا تُسَوَّمُ أَيْ: تُوَضَّعُ لَهَا عَلَامَةٌ بِالْهَيْئَةِ الْحَسَنَةِ كَقَوْلِهِ ﷻ: ﴿سَيِّمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ الْجُودِ﴾ [الفتح: 29]، وَقَالَ ﷺ: «مَا مِنْ فَرَسٍ عَرَبِيٍّ إِلَّا يُؤَدَّنُ لَهُ عِنْدَ كُلِّ سَحَرٍ بَدْعَتَيْنِ: اللَّهُمَّ خَوَّلْتَنِي مِنْ خَوَّلْتَنِي مِنْ بَنِي آدَمَ وَجَعَلْتَنِي لَهُ، فَاجْعَلْنِي مِنْ أَحَبِّ مَالِهِ وَأَهْلِهِ إِلَيْهِ». (النسائي: 3579. صحيح موقوف كما في العلل للدراطيني: 1123).

النوع الخامس

﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ متعة الثروة الحيوانية:

﴿الْأَنْعَامُ﴾: جَمْعُ نَعَمٍ، وَهِيَ الْإِبِلُ وَالْبَقَرُ وَالْغَنَمُ، وَتَشْكِلُ الثَّرْوَةَ الْحَيَوَانِيَّةَ الَّتِي تَنْبَثِقُ عَنْهَا اللَّحُومُ وَالْأَلْبَانُ وَالْأَجْبَانُ وَالْأَصْوَافُ وَغَيْرُهَا مِنْ لَوَازِمِ الْحَيَاةِ وَتَحْسِينَاتِهَا وَمَا يُوْدِي إِلَى الرِّفَاهِ وَالتَّنْعَمِ.

النوع السادس

﴿وَالْحَرْثُ﴾ متعة الثروة الزراعية الغذائية والجمالية:

وهي أساس الثروات السابقة واللاحقة كالثروة الصناعية، مَصْدَرُ حَرْثِ الْأَرْضِ إِذَا شَقَّهَا بِآلَةٍ لِيُزْرَعَ فِيهَا أَوْ يَغْرَسَ، وَأُطْلِقَ هَذَا الْمَصْدَرُ عَلَى الْمَحْرُوثِ، فَصَارَ يُطْلَقُ عَلَى الْجَنَّاتِ وَالْبَسَاتِينِ

وَحُقُولِ الزَّرْعِ. (التحرير والتنوير 3/ 183)



لماذا لم يذكر غيرها من الشهوات؟

الجواب:

٢

ولأنها لا يمكن لمحبتيها والالتذاذ بها أن تتغير في نفس الإنسان مهما بلغ تقادم الحياة، وتطورت الوسائل.

١

لأن هذه الشهوات الست مصدر جميع الشهوات والثروات الأخرى البشرية والمادية والصناعية.

الركن
[٣]

الخاتمة: ﴿ذَلِكَ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾:

أشار إلى الشهوات الست السابقة وما يترتب عليها مخاطبًا القارئ المستمع، وأول المخاطبين النبي ﷺ، وتبصّرنا كلمة ﴿مَتَعُ﴾ بامتدادها، وجودتها، ومنفعتيها، والتلذذ بها، وجاءت كلمتا ﴿الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لتبصّرنا بانقطاع هذه الشهوات وضعفها، فهي الأدنى مقارنة بما ينتظرنا في الآخرة التي هي الحياة العليا.

الركن
[٤]

النتيجة هي: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ۝١٤﴾:

أي زينت هذه الشهوات في قلوبكم وأنفسكم حتى صارت حسنة تُقبلون عليها، فاعلموا أن هناك حُسْنًا أعظم عنده إن اتبعتم منهجه، وهذه الخاتمة أشبه بالطابع الذي يُختتم به لترجيح كِفَّةِ الآخرة ومتاعها على الدنيا وزينتها.

بَصَرْنَا القسم الأول من هذا المحور بسنن انهزام قوة الكافرين أمام قوة المؤمنين المؤيدين بنصر رب العالمين، وذلك في الآيات [10-14]، فهذا يدفعنا إلى التساؤل: ما الشروط التي يكون بها التأييد من رب العالمين؟

جسراتصال

الجواب: هنا يأتي:

القسم الثاني

شروط المؤمنين الذين يؤيدهم الله ﷻ بنصره في المعركة المفروضة عليهم من قبل

المعتدين [آل عمران: 14-17]

آيات القسم:

﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ١٤﴾ * قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۖ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ١٧﴾

وهي أربعة شروط:

الشرط الثاني: أن يستحضر المؤمنون المآب الحسن، ويعملون له: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ١٤﴾ قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ... [آل عمران: 15-16].

الشرط الأول: أن يكون تمتع المؤمنين بمتاع الحياة الدنيا وسيلة للحصول على المآب الحسن، وليس غاية في ذاته: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14].

الشرط الرابع: أن يحققوا خماسية الاستقامة ليحظوا بأعظم الكرامة، وهي المذكورة في قوله ﷻ: ﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: 17].

الشرط الثالث: أن يتوصلوا ليتوصلوا، ويتألهوا ويتعبدوا ليتمكنوا ويتمجدوا: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ١٥﴾ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا... [آل عمران: 15-16].

الشرط الأول

أن يكون تمتع المؤمنين بمتاع الحياة الدنيا وسيلة للحصول على المآب الحسن، وليس غاية في ذاته، ويبصرنا بذلك قول ربنا ﷻ: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، فلم يذم الله ﷻ تلك الشهوات الست المزيّنة المذكورة في أول الآية، بل جعلها تشويقاً لحسن المآب أي: المآب الحسن.

المآب هو: المَرْجِعُ والمصير الذي يؤوب إليه صاحبه، فلا يفارقه.

بَصِيرَةٌ

قال ﷺ: ﴿حُسْنُ الْمَأْبِ﴾ بدلاً من أن يقول: "والله عنده المأب الحسن"؛ فقدم الصفة ﴿حُسْنُ﴾ على الموصوف، لتعمل عملها في إثارة المستمع المشتاق

وليظهر المعنى في أجمل صورة، فيكون التقدير: والله عنده كل حُسْنٍ للمرجع الذي تصيرون إليه إن أردتم مقارنة حسن الشهوات الستِّ في الدنيا بما عنده، فصارت هذه الجملة مع ذكر الشهوات محفزة للناس للبحث عن أكمل حُسْنٍ يجده الإنسان.

الشرط الثاني

أن يستحضر المؤمنون المأب الحسن، ويعملون له، ويبصِّرنا بذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَأْبِ﴾ ﴿١٤﴾ * قُلْ أُوتِيتُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَلِكَ لِّلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ﷻ [آل عمران: 15-16].

ليشوقنا ربنا عز وجل إلى المأب الحسن ذكر وجوهاً لتعظيمه:

﴿قُلْ﴾

الوجه (١)

كلمة تبصِّرنا أن نستخدم الوسائل التبليغية والتعليمية والإعلامية لإشاعة جمال المأب الحسن وملذاته بين الناس.

الوجه (٢) تهيج الخلق إلى معرفة المأب الحسن بمخاطبتهم بسؤال تشويقي ﴿أُوتِيتُكُمْ﴾

والنبا هو الخبر العظيم، أي: هل أخبركم خبراً ضخماً هائلاً عن مأب حسنٍ فيه شهوات خير من شهوات الحياة الدنيا؟

الوجه (٣)

ذَكَرَ الْمَأْبَ الْحَسَنَ الَّذِي فِيهِ نَعِيمُ الْآخِرَةِ بِصِغَةِ الْخَيْرِ ﴿يُخَيِّرُ مِّنْ ذَٰلِكُمْ ۖ

وكلمة (خير) إما أن تكون اسمًا محضًا، فكأن الخير كله موجود في المأب الحسن، وإما أن تكون للتفضيل المطلق ليقارن الإنسان، ويصل إلى الحقيقة.

بَصِيرَةٌ

لماذا كان مأب الآخرة أحسن المأب؟

١ لأن نِعَمَ الدُّنْيَا مَشُوبَةٌ بِالْمُضَرَّةِ، وَنِعَمَ الْآخِرَةِ خَالِيَةٌ عَنْ شَوْبِ الْمَضَارِّ بِالْكُلِّيَّةِ.

٢ لأن نِعَمَ الدُّنْيَا كَاللَّمْحَةِ مِنَ اللَّذَّةِ، وَنِعَمَ الْآخِرَةِ فِيهَا أَكْمَلُ اللَّذَّةِ.

٣ لأن نِعَمَ الدُّنْيَا مُنْقَطِعَةٌ لَا مَحَالَةَ، وَنِعَمَ الْآخِرَةِ بَاقِيَةٌ لَا مَحَالَةَ. (تفسير الرازي 7/ 164)

٤ لأن اجتماع كل الممذات الكاملة في الدنيا مستحيل، وأما اجتماعها في الآخرة فهو الأصل الأصيل، فكيف إذا اجتمع لها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟! اللهم إنا نسألك ذلك على خير وجهٍ يا أرحم الراحمين.

الوجه (٤)

تنوع متعلق السؤال لزيادة التشويق والحض على فعل العمل المناسب لحسن المأب:

٣ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ
لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ، ثُمَّ
يُنْتَدَأُ فَيُقَالُ: جَنَاتٌ.

٢ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِّنْ ذَٰلِكُمْ
لِلَّذِينَ اتَّقَوْا، ثُمَّ يُنْتَدَأُ
فَيُقَالُ: عِندَ رَبِّهِمْ جَنَاتٌ.

٢ فالمعنى: هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ
مِّنْ ذَٰلِكُمْ، ثُمَّ يُنْتَدَأُ
فَيُقَالُ: لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ
رَبِّهِمْ كَذَا وَكَذَا.

الوجه (٥)

تشریف الله ﷻ لهم بما أعده لهم وهو يرهم

إذ قال ﷻ: ﴿لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ﴾، فأضاف وصفه العظيم ﴿رَبِّ﴾ إِلَى ضَمِيرِ الْمُتَّقِينَ: إشعارًا بِفَضْلِهِمْ،

وَعِنَايَةِ مَنْ رَبَّاهُمْ. (تفسير المنار 3/ 204)

الوجه (٦)

ذكر أربعة مظاهر لأهم النعم الحسية المادية التي يتلذذون بها جسديًا:

١ ﴿جَنَّاتٍ﴾

فهذه تصور جمال البيئة المملوكة لهم.

٢ ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾

فهذه تصور تنوع هذه البيئة، ورواءها، ونداوة أرضها.

٣ ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾

فهذه تصور أمنهم من الانقطاع والتحول والتغير.

٤ ﴿وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ﴾

فهذه تصور نعمة الرفقة واللذة الحسية التي لا تكون إلا بوجود الأزواج

ووصفهن بقوله: ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ أي: من كل نقص وسوء خلقي وخلقي ودنس تنفر منه الطباع، أو تكرهه الأسماع.

الوجه (٧)

ذكر أهم نعمة معنوية يتلذذون بها نفسيًا: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: رضوان عظيم لا يعقبه سخط.

ختم الآية بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾

بَصِيرَةٌ
٣

تبصّرنا بأن من طلب في الآخرة حسن المآب، وأجزل النعيم وأفضل الثواب فليراع في الدنيا الأدب مع رب الأرباب، فليست التقوى بالدعوى، بل بالإخلاص الذي يعلمه ربنا الذي يعلم الجهر والنجوى.

الشرط الثالث

أن يتوسلوا ليتوصلوا، ويتألّوها ويتعبدوا ليتمكنوا ويتمجدوا، ويبصّرنا بذلك قول الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ۝﴾ [آل عمران: 15-16]، فتوسلوا بالإيمان إلى تحقيق هدفين: مغفرة الذنوب، والوقاية من عذاب النار:

بَصِيرَةٌ

١

﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝﴾ كأنه قيل: مَنْ هم؟

فأتى الجواب: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾، والله ﷻ بصير بهؤلاء وغيرهم، لكنه خصصهم بهذه الصفة؛ لبيان رعايتهم، وصحبته.

بَصِيرَةٌ

٢

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ تبصّرنا بأنهم يشغلون ألسنتهم بالذكر والدعاء، والتضرع والاستجداء، وسؤالهم المغفرة لا بد أن يكون بإخلاص، وإلا لم يتحقق المقصود منه.

بَصِيرَةٌ

٣

الاستغفار مقدمة للتمكين والانتصار، فهذه سنة من سنن النصر

فتوسلوا بالإيمان ﴿رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا﴾ لتحقيق هدفهم الأول، وهو طلب المغفرة ﴿فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾، وهذا يعينهم على تحقيق النصر الدنيوي، فلم يكن عجباً أن يُظهر لنا إحكام هذه السورة الارتباط بين طلب مغفرة الذنوب بإخلاص، وبين النصر، فقد ذكر الله ﷻ فيها أن طلب مغفرة الذنوب من الربانيين يمنح إشارة النصر على المجرمين، فقال: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَاثُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ۝ وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: 146-147]، ثم قال: ﴿فَاتَتْهُمْ اللَّهُ تَوَابُ الدُّنْيَا وَحُسْنُ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: 148].

بَصِيرَةٌ

٤

وتوسلوا بالإيمان لتحقيق هدفهم الثاني الأخروي، وهو الوقاية من النيران ﴿وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [١٦]، وبه ينالون الفوز الأخروي.

بَصِيرَةٌ

٥

تبصرنا هذه الآية أن الانتفاع بالاكْتِسَاب لا بالانْتِسَاب، فمن أراد حسن المآب فليكثر من دعاء الملك الوهاب، فإن الله ﷻ بصير به.

بَصِيرَةٌ

٦

انفردت سورة آل عمران بإظهار المفعول به وهو الذنوب بعد طلب المغفرة في ثلاثة مواضع:

٣

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٩٣].

٧

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧].

١

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا ءَامِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ [آل عمران: ١٦].

ولم يرد ذلك في سورة سواها، فهل ذلك لأن اسم هذه السورة "آل عمران"، فتعلق اسمها بالتاريخ الحقيقي لتأسيس الملة النصرانية المسلمة، وماذا حدث لها حتى انحرفت عن الإسلام، وكان من مظاهر انحرافها العظيمة أن يلزم القسس الفاسدون أتباعهم بأن يأتوا للاعتراف بذنوبهم إليهم! بدلاً من أن يطلبوا المغفرة من ربهم ﷻ، هل وجود هذه الصيغة من طلب مغفرة الذنوب لأجل التنبيه على ذلك؟

ويعضد هذا أن الله ﷻ ذكر من صفات المتقين هذه الصفة أيضاً في هذه السورة، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]، فأكد الله ﷻ على أنه هو الذي يغفر الذنوب، وذكر أنهم لم يصروا، وعادة من يعترف أمام القسس أن يرجع إلى جرائمه كما هو مشاهد.

ولم يرد هذا التعبير: (اغفر ذنوبنا) في غير هذه السورة، ولكن ورد ما يقاربه في غيرها مثل:

وفي سورة طه:

﴿إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطِيئَتَنَا وَمَا
أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾ [طه: 73].

سورة يوسف ﷺ:

﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا
خَاطِئِينَ﴾ [يوسف: 97]

الشرط الرابع

أن يحققوا خماسية الاستقامة ليحظوا بأعظم الكرامة، وهي المذكورة في قوله ﷺ:

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَنِتَّةِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾ (٧):

فضيلة (١)

﴿الصَّابِرِينَ﴾:

الصبر عبادة قلبية نفسية، وقدمه لأن الصبر أساس النجاح في بقية الصفات، وفي فعل الطاعات وترك المعاصي، فهو حبس النفس على ما يشق عليها احتمالها، فعندما تهب زوايع الشهوات، وتنزل النفس بالشبهات يثبت الله ﷻ النفوس بالصبر على الطاعات، وعلى ترك المعاصي والسيئات، وعلى الأقدار الموجهات.

فضيلة (٢)

﴿وَالصَّادِقِينَ﴾:

الصدق عبادة قلبية لسانية، وهو أساس معاملة الله ﷻ، وهو الذي يثمر الثقة في قلوب الخلق، فتتضبط به المعاملات، وتتوطد به العلاقات، وعند جمع الصفتين ينتج لنا أن نرى عبداً صالحاً صابراً صادقاً، فليس صبره ادعاءً، أو معبراً عن مظاهر كاذبة، أو أهداف خاطئة.

فضيلة
(٣)

﴿وَالْقَانِتِينَ﴾:

والقنوت عبادة قلبية جسدية، فهو الدوام على الطاعة مع الإحسان والخضوع والخشوع، فهذا العبد: صابر صادق قانت، وليس صابراً صادقاً غير قانت.

فضيلة
(٤)

﴿وَالْمُنْفِقِينَ﴾:

الإنفاق عبادة قلبية مالية متعديّة إلى الآخرين، والمال أخو النفس، فيبدلونه ويبدلون ما يستطيعونه من القوى والجاه لإعانة الخلق، فهذا العبد: صابر صادق قانت منفق، وليس صابراً صادقاً قانتاً غير مشفق على الخلق.

فضيلة
(٥)

﴿وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ﴾:

والاستغفار عبادة قلبية لسانية، فختم بها لأنهم يطيعون الحق مع إعانتهم الخلق، ولم يَمُنُّوا بأعمالهم بل خافوا الذنب والتقصير، فاستغفروا في أهمّ الأوقات رَهِمَ العلي الكبير، وهي الأسحار، وللسَّحَر دلالته على قوة العبودية، وكمال الإنابة حين ينادي الجليل جل جلاله: هل من تائب؟ هل من داع؟ هل من مستغفر؟

اللهم أذكنا من هذه الخماسية أوفر الحظ والنصيب.

بَحِيرَةٌ

جمعت الفضائل الخمس الأحوال السَّيِّئَة للطائفة المفلحة المرضية

فكما أحسنوا معاملة الخالق أحسنوا إلى الخلق، وكما أصلحوا ظواهرهم بالأعمال الصالحات عمروا بواطنهم بالأسرار الزاكيات.



ما سبب توسيط الواو بين هذه الصفات؟



الجواب:

أشار البيضاوي رَحِمَهُ اللهُ فِي تَفْسِيرِهِ (9/2) إِلَى أَنَّ ذَلِكَ لِحَكْمَتَيْنِ:

٢

«لِتَغَايُرِ الْمُوصُوفِينَ بِهَا»
أي: لا يضيع الله عَمَلُ الْعَامِلِ بِوَاحِدٍ مِنْهَا.

١

«لِلدَّلَالَةِ عَلَى اسْتِقْلَالِ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهَا
وَكَمَالِهِمْ فِيهَا»، لَكِنَّ أَكْمَلَ الْكَمَالِ أَنْ يَجْمَعُوا
بَيْنَهَا، وَمِنَ النِّقْصِ الْبَيِّنُ أَنْ يَتْرَكُوا الْإِتِّصَافَ
بِوَاحِدَةٍ مِنْهَا.



رَتَّبَ الصِّفَاتِ الْخَمْسَ تَرْتِيبًا سَنِيًّا، فَبَدَأَ بِالصَّبْرِ لِأَنَّهُ الَّذِي يَمْلِكُ بَقِيَّةَ الصِّفَاتِ

فَلَا يُمْكِنُ تَحْقِيقُ الصِّدْقِ، وَالْقَنُوتِ، وَالْإِنْفَاقِ، وَالِاسْتِغْفَارِ بِالْأَسْحَادِ دُونَ صَبْرِ، وَهَكَذَا يُمْكِنُ النَّظَرُ
إِلَى بَقِيَّةِ الصِّفَاتِ، وَخَتَمَهَا بِالِاسْتِغْفَارِ لِثَلَاثِ أَيْمَنَ الْمَرْءِ بِعِبَادَاتِهِ، فَيَرَى أَنَّهُ قَدْ أَكْثَرَهَا ﴿وَلَا تَمَنَّ أَنْ تَنْتَكِرُ﴾
﴿٦﴾ [المائدة: 6]، وَخَتَمَ بِالِاسْتِغْفَارِ مَعَهُودٌ فِي مَخَاطَبَةِ رَبِّنَا الْغَفَّارِ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْعِبَادَاتِ.



بَصَرْنَا الْقِسْمَ الثَّانِي مِنْ هَذَا الْمَحُورِ بِشُرُوطِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يُؤَيِّدُهُمُ اللَّهُ ﷻ بِنَصْرِهِ فِي
الْمَعْرَكَةِ الْمَفْرُوضَةِ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِ الْمُعْتَدِينَ، وَهِيَ 4 شُرُوطٍ، فَمَا الْخُطَوَاتُ الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ
نَتَّبِعَهَا فِي التَّفَاعُلِ مَعَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَنَحْنُ نَعْرِفُ أَنَّ قِيَادَتَهُمُ الْفَاسِدَةُ تَحَاوُلُ الْإِعْتِدَاءَ؟

جسر اتصال

الجواب: هنا يأتي:

القسم الثالث

أهم خطوات الجوار مع أهل الكتاب خصوصاً عند شعورنا بأنهم سيعتدون على أهل الحق: الجوار حول دين الله ﷻ في العالم، وأنه الإسلام، ونجد في هذا القسم تحذيراً لهم ولنا من جرائم المعتدين الذين يُعرضون عن إقامة الحجج على صحة الدين [آل عمران: ١٨-٢٢]، وتكون هذا القسم من ٨ خطوات:

الخطوة الأولى

تأسيس الدين الصحيح (المعتقد) بأن نعلن للعالم الشهادة العظمى

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ...﴾ [آل عمران: 18].

الخطوة الثانية

نتقل معهم إلى معرفة اسم الدين الحق الذي ارتضاه الله ﷻ ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: 19].

الخطوة الثالثة

أن نصارحهم بأن البغي هو سبب إصرار المخالفين منهم على عدم إظهار اسم الدين الحقيقي (الإسلام):

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا يَبِينُهُمْ﴾ [آل عمران: 19].

الخطوة الرابعة

التصريح لهم بأن إصرارهم على البغي برفض اسم الدين الذي رضيه الله ﷻ (الإسلام) يعني أنهم يكفرون بآياته

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: 19].

الخطوة الخامسة

إخبارهم بأن إصرارهم على المحاجة في الشهادة العظمى لن يؤثر على يقيننا بها

ولن يؤثر على اعتزازنا بالإسلام: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: 20].

الخطوة السادسة

بعد الاعتزاز بالإسلام يوجه الخطاب للعالمين من أهل الكتاب وغيرهم ليتركوا ما هم فيه من ضلال

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ﴾ [آل عمران: 20].

الخطوة السابعة

الوعي بانقسام المخاطبين بعد إقامة الحجة عليهم إلى فريقين: المسلمين، والرافضين للإسلام

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: 20].

الخطوة الثامنة

يُبَصِّرُنَا اللَّهُ ﷻ بالذي سيصير إليه أمر الفريق الرافض، ويذكِّرنا بقوة علمه بالعباد، فيقول:

﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 20].

تأسيس الدين الصحيح (المعتقد) بأن نعلن للعالم الشهادة العظمى

فنشهد أن الله ﷻ يتصف بأربع صفات كاملة، وبصّرنا بذلك قوله:
﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: 18]:

فكأن المسلم يقول للكتابي: هل في دينكم وصف رب العالمين بصفات تنافي هذه الصفات
الأربع؟ فلماذا لا تجتمعون معنا على ذلك؟

وحدانيته في ألوهيته سبحانه

صفة ١

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ كما شهدنا بوحدانيته في ربوبيته، وشهدنا بأنه
الخالق الرازق رب العالمين ومربيهم، كذلك نشهد أنه المعبود الواحد الأحد، فلا نتحاكم إلى غير شرعه:

كلمة ﴿شَهِدَ﴾ في العربية تعني: أخبر عن علمٍ بالمُشاهدةِ الحِسِّيَّةِ أو المَعْنَوِيَّةِ. (تفسير المنار 3/ 210)

بَصِيرَةٌ

ولا تكون الشهادة إلا عن علمٍ يقين بمنزلة المشاهدة للبصر، فأصل الإيمان الشهادة
للعظيم الديان بأنه المعبود، ولا معبود سواه في الأكوان.



فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ شَهِدَ بِهَذِهِ الصِّفَاتِ الْأَرْبَعِ الَّتِي اتَّصَفَ بِهَا، فَصَارَتْ شَهَادَتُهُ جَلَالًا حُجَّةً عَلَى الْخَلْقِ، وَلَكِنَّ السُّؤَالَ: كَيْفَ شَهِدَ اللَّهُ عَلَى أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ؟

الجواب: بأمرين:

٢

بأن أخبر بذلك في كتبه المنزلة، فلم يقول بعض عباده من أهل الكتاب وغيرهم ما لا علم لهم به من أن الله له شركاء؟

١

بأن نَوَّعَ الأدلة في الآفاق والأنفس على ذلك: وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أَنَّهُ وَاحِدٌ

أبو العتاهية في ديوانه (ص: 104)



ونسأل: أين وجدنا هذه الشهادة في كلامه سبحانه؟

الجواب:

أما في القرآن فهذه الشهادة من أعظم الأقباس النورانية انتشارًا في آياته، ولأن الحوار مع أهل الكتاب: فإننا ندكرهم أن توراتهم على الرغم من تحريفها إلا أننا نجد قريبًا من هذه الشهادة فيها في مواضع متعددة، ومنها ما جاء في سفر التثنية

(4: 6) «اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ: الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ.

(5: 6) فَتَحِبُّ الرَّبُّ إِلَهَكَ مِنْ كُلِّ قَلْبِكَ، وَمِنْ كُلِّ نَفْسِكَ، وَمِنْ كُلِّ قُوَّتِكَ.

(6: 6) وَلِتَكُنْ هَذِهِ الْكَلِمَاتُ الَّتِي أَنَا أُوصِيكَ بِهَا الْيَوْمَ عَلَى قَلْبِكَ.

(7: 6) وَقَصَّهَا عَلَى أَوْلَادِكَ، وَتَكَلَّمْ بِهَا حِينَ تَجْلِسُ فِي بَيْتِكَ، وَحِينَ تَمْشِي فِي الطَّرِيقِ، وَحِينَ تَنَامُ، وَحِينَ تَقُومُ.

وبدلاً من أن يشيعوا ذلك تشيع قياداتهم الفاسدة ما حرفوه من نقاء عنصرهم، وعصبيتهم الجنسية.

وكذلك نجد قريباً منها في الأناجيل المعاصرة على الرغم من تحريفها، ففي إنجيل مرقس (10: 29) قال عيسى عليه السلام: إِنَّ أَوَّلَ كُلِّ الْوَصَايَا هِيَ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ. الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبٌّ وَاحِدٌ. فإن فرضنا أن أصل هذه النصوص إلهية لم ينلها التحريف، وربما كان في ترجمتها ضعف، إلا أنها تقيم الحجة عليهم، وتشعرنا بعظمة النص القرآني الخاتم مقارنة بالكتب السابقة.



عرفنا كيف شهد الله على أنه لا إله إلا هو، ثم قال الله ﷻ: ﴿وَالْمَلَكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ﴾ أي: وشهد الملائكة وأولو العلم بأنه لا إله إلا هو، فكيف شهدوا؟



الجواب:

شهد الملائكة بوحدانية الله بأمرين:

٢

والإخبار لمن أمرهم الله ﷻ أن يوحوا إليه.

١

بالإقرار في أنفسهم

وشهد أولو العلم (وأولهم الأنبياء) بأربعة أمور:

٤

والاحتجاج لذلك في العالمين

٣

والتعليم

٢

والإخبار

١

بالإقرار

وشرف الله ﷻ أهل العلم بأن خصهم بالشهادة على أعظم مشهود عليه، وهو وحدانية الله ﷻ في إلهيته، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته.

﴿قَائِمًا بِالْقِسْطِ﴾

صفة ٢

ولها معنيان عظيمان:

المعنى الثاني:

شَهِدَ اللهُ ﷻ بِأَمْرَيْنِ: بِوَحْدَانِيَّتِهِ، وَبِقِيَامِهِ بِالْعَدْلِ، بَأَن تَكُونُ ﴿قَائِمًا﴾ مَنْصُوبَةً عَلَى الْحَالِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي قَوْلِهِ: ﴿إِلَّا هُوَ﴾.

المعنى الأول:

الشهادة بالتوحيد هي في ذاتها قيامٌ بالقسط، فالشهادة بالشرك أو الإلحاد ظلمٌ عظيم

وهو الذي تفعله اليوم قنوات الشرك والإلحاد الصادرة عن أهل الكتب الثلاثة وغيرهم، وهذا المعنى يظهر إذا كانت كلمة ﴿قَائِمًا﴾ مَنْصُوبَةً عَلَى الْحَالِ مِنْ اسْمِ الْجَلَالَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿شَهِدَ اللهُ﴾ أي: شهد الله بتوحيده حال كون هذه الشهادة هي القسط أي: العدل الذي يعطي لكل واحدٍ قِسْطَهُ في العالم.

كيف يكون الله ﷻ قائمًا بالقسط؟

بَحِيرَةٌ

الجواب:

٢

يقوم بالقسط في خلقه وتديره للكَوْنِ وَالطَّبِيعَةِ، مِنَ الدَّرَّةِ إِلَى الْمَجَرَّةِ، وَمِنْ عَالَمِ الذَّرَائِ إِلَى الْآخِرَةِ دَارِ الْمُسْتَقَرِّ.

١

يقوم بالقسط بما شرعه فِي الدِّينِ الَّذِي ارْتَضَاهُ، فَكُلُّ مَا شَرَعَهُ فِيهِ عَدْلٌ لِلْمَخْلُوقَاتِ مِنَ الصَّلَاةِ إِلَى إِمَاطَةِ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ إِلَى الْقَضَاءِ وَالْإِدَارَةِ وَالسِّيَاسَةِ.



ما الحكمة في أن الله ﷻ ذكر بأنه قائم بالقسط في هذه السورة خاصة، ولم يذكر هذه الصفة بهذا الأسلوب في غير هذا الموضع؟



الجواب:

يظهر لي أن من أعظم الحكمة الرد على المحرفين من النصارى الذين زعموا أن الله ﷻ ضحى بابنه للتكفير عن خطايا الناس تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً، فنسبة الولد إليه ظلم، ونسبة التضحية به افتداء للتكفير عن الناس ظلم، وكل منهما أعظم ظلماً من الآخر.

العزة والحكمة ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

صفة ٣-٤

أي وشهد الله وملائكته وأولو العلم أنه لا إله إلا هو العزيز الحكيم:



لماذا ذكر الله ﷻ التوحيد ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ مرتين؟



الجواب:

في المرة الأولى للشهادة بأن التوحيد يعطي للكون سعادته وقيم القسط فيه، والثانية للشهادة بأن التوحيد أساس عزة الله الكاملة وحكمته الشاملة، فقد تجد مخلوقاً عزيزاً، وحكيماً، ولكنه مخلوق، فعزته وحكمته ناقصتان.

رتَّب الصفات الأربع مع تكرير الأهم: صفة الوحدانية وكرَّرها، ثم القيام بالقسط، ثم العزة، ثم الحكمة: لتطمين العباد بالعدل في خلق الكون، وبأنه غير غافل عن ظلم الظالمين (قَائِماً بِالْقِسْطِ)

وغير عاجز عن معاقبتهم، ويدلنا على ذلك وصف (العزيز)، ولكنه يؤخرهم لحكمة الابتلاء وغيرها، ويبصرنا بذلك وصف (الحكيم).

فنقول: يا أهل الكتاب: فلم لا تعملون على نشر هذه الشهادة العظمى بهذه الصفات الأربع؟



عرفنا الخطوة الأولى من خطوات الجوار مع أهل الكتاب، وهي أن نعلن للعالم الشهادة

العظمى، فنشهد بأن الله ﷻ يتصف بأربع صفات كاملة، فإن شهدوا معنا بذلك،

فماذا نفعل؟

جسراتصال

الجواب:

الخطوة الثانية

ننتقل معهم إلى معرفة اسم الدين الحق الذي ارتضاه الله ﷻ

فنقول لهم: ينبغي أن نعرف اسم دينه الحق الذي يحقق هذه الشهادة العظمى، فبعد أن

عرّف الله ﷻ بنفسه يئن اسم دينه منذ آدم ﷺ فقال ﷻ: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

[آل عمران: 19].

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾

بَصِيرَةٌ ١

على قراءة الجمهور بكسر الهمزة على الهمزة على الاستئناف تبصّرنا بأن اسم الدين الحق عنده ﷻ هو الإسلام،

وبه أرسل الله الرسل أجمعين ليجمع حياة الناس قائمة بالعدل، فالأمر المستقر عنده سبحانه تسمية

الدين باسم الإسلام حتى قبل أن ينزل الوحي على الأنبياء.

﴿أَنَّ الدِّينَ بِفَتْحِ الْهَمْزَةِ عَلَى قِرَاءَةِ الْكَسَائِي﴾

بَصِيرَةٌ ٢

تبصّرنا بأن الله ﷻ شهد بأنّه لا إله إلا هو، وشهد بأنّ الدين عنده الإسلام، فصارت الشهادة على

خمس أمور: لا إله إلا هو، قائمًا بالقسط، لا إله إلا هو، العزيز الحكيم، والخامس: أن الدين عند الله

الإسلام، وأتى به على أسلوب البديل لبيان أن توحيد الله ﷻ يقتضي الدينونة بدين الإسلام.

﴿الدِّينَ﴾

بَصِيرَةٌ ٣

هو النظام الذي يسير عليه الإنسان ليُجازى به لاحقًا في الدنيا، أوفي الآخرة، من: دان به أي: التزمه ليجد جزاءه.

بَصِيرَةٌ

٤

عِنْدَ اللَّهِ

تبصرنا بأن العبرة في الدين والتدين أن يكون مرضياً عند الله ﷻ، وبهذا يسقط الحق عن سائر الديانات غير دين الإسلام.

بَصِيرَةٌ

٥

الْإِسْلَامُ

اسمٌ مميزٌ عظيم جمع عددًا من الصفات التي ندرکہا من خلال أصله اللغوي: فهو الاستسلام لله ﷻ بتوحيده وطاعته، والانقياد لأحكامه، والإخلاص في العمل له، والسكينة وعدم التشتت، وإلقاء السلام للعالم، والحرية من العبودية لأي مخلوق، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: 125]، وقال عن التحرر من عبودية المخلوقات ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 64].

عرفنا الخطوة الثانية من خطوات الحوار مع أهل الكتاب، وهي أن ننقل معهم



إلى معرفة اسم الدين الحق الذي ارتضاه الله، وهو الإسلام، فماذا نقول لهم إن لم يقبلوا؟

جسرات اتصال

الجواب: ننقل معهم إلى:

الخطوة
الثالثة

أن نصارحهم ولا نجاملهم

ونخبرهم بأن البغي هو سبب إصرار المخالفين منهم على عدم إظهار اسم الدين الحقيقي الذي ارتضاه الله ﷻ وهو الإسلام، وببصرنا بذلك قوله: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾ [آل عمران: 19]، وفي هذا القبس ٨ بصائر:

لم يذكر الله تعالى متعلق الاختلاف

بَصِيرَةٌ

فلم يقل: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ في كذا "لِيَشْمَلَ كُلَّ اخْتِلَافٍ مِنْهُمْ" (التحرير والتنوير 3/198)، وأعظم الاختلاف: اختلافهم في الإسلام، فقبله منهم بعضهم، وأكثرهم الفاسقون.

﴿بَعِيًّا بَيْنَهُمْ﴾

بَصِيرَةٌ

تبصّرنا بأن سبب اختلافهم هو البغي، وليس البحث عن الحق، والبغي يدل على نفسية مريضة خبيثة.

من أهم أنواع الاختلاف بينهم:

بَصِيرَةٌ

اختلافهم في اسم الدين المرتضى عند الله ﷻ، فقد ترك المتنفذون منهم الاسم الحق بالكلية، فبدلاً من اسم الإسلام نسب اليهود دينهم إلى اسم آخر، فقالوا: اليهود، وبدلاً من اسم الإسلام نسب النصارى دينهم إلى اسم مخلوق فقالوا: المسيحيون، وسيخبرنا الله ﷻ لاحقاً في هذه السورة أن إبراهيم عليه السلام كان مسلماً، ولم يكن على ملة من الملل الثلاث الأخرى التي قال عنها:

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67].

بَصِيرَةٌ

٤

قوله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

يبصرنا بأن البغاة من أهل الكتاب خالفوا الصادقين منهم الذين أسلموا لما عرفوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم كما قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْمُونَ﴾ (١٤٦) [البقرة: 146].

ويحي (مارك سلجاندر)-عضو الكونجرس سابقًا- حقيقة أن المسيح (كان مسلمًا)

وكتب لذلك كتابه: "سوء فهم قاتل"، وبحث عن جسور الهوية بين الإسلام والمسيحية، وأخبر أنه لما ذهب إلى مدرسة لاهوت مسيحية في بنسلفانيا، وسأل الطلاب: من منكم يريد أن يستسلم لله؟ فرفعوا أيديهم كلهم بدون استثناء، بمن في ذلك أساتذتهم، ولا يعلمون أن هذا هو جوهر اسم الإسلام، وأخبرهم عن إعجابه بالإسلام مع أنه لم يظهر إسلامه.

بَصِيرَةٌ

٥

ومن صور الاختلاف: أن أهل الكتاب اختلفوا فيما بينهم

حتى كفر بعضهم بعضًا، فقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ [البقرة: 113].

بَصِيرَةٌ

٦

كذلك اختلفت طوائف كل ملة منهم على فِرَقٍ

قال رسول الله ﷺ:

«افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَفَرَّقَتِ النَّصَارَى عَلَى إِحْدَى أَوْ ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَفَرَّقَ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً»

(أبو داود: 4596، وحسنه الوادعي في الصحيح المسند: 1317).

بَصِيرَةٌ

﴿وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُنْتُوا إِلَيْكَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

تبصرنا بأنه يجب أن يحذر المسلمون من الاختلاف في أصول الدين، وأن يحذوا من البحث عن اسم يخالف اسم "الإسلام" مثل: المحمديين، أو يحددوا نوع الإسلام مثل "الإسلام المعتدل"، أو أن يستبدلوه باسم يُنسب إلى الفرق أو الأحزاب، فالدين عند الله «الإسلام» هكذا وبدون قيد، فالإسلام مدح في ذاته.

بَصِيرَةٌ

﴿جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾

تبصرنا بأن العلم ليس سبب اختلافهم، بل البغي الذي اعتمد على العلم، فبعد أن علموا اتبع بعضهم مقتضى العلم، فأسلموا، ولم يعمل أكثرهم بهذا المقتضى، فعاندوا وكابروا وجحدوا، بل تعدوا ذلك، فبغوا، فعدم العمل بالعلم أدهى من الجهل كما قال البردوني:

أدهى من الجهل علمٌ يطمئن إلى *** أنصاف ناسٍ بغوا بالعلم واكتسبوا
قالوا: هم البشر الأرقى، وما أكلوا *** شيئاً كما أكلوا الإنسان أو شربوا

إذا كانت الخطوة الثالثة في حوارنا مع أهل الكتاب التصريح لهم بأن البغي هو

سبب إصرار المخالفين منهم على عدم إظهار اسم الدين الحقيقي الذي ارتضاه

الله وهو الإسلام، فكيف نتصرف معهم، ونحن نعلم أنهم قد بغوا؟

جسر اتصال

الجواب: هنا تأتي:

الخطوة
الرابعة

التصريح لهم بأن إصرارهم على البغي برفض اسم الدين الذي رضىه الله ﷻ وهو الإسلام يعني أنهم يَكْفُرُونَ بآياته التي أنزلها في التوراة والإنجيل والقرآن

ومهما ادَّعوا أنهم على دين، فدينهم هذا لا يرتضيه رب العالمين، ومقتضى ذلك أن يستعدوا للحساب الأخروي، وببصيرتنا بهذه الخطوة قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١٩﴾:

﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

بَصِيرَةٌ

قال قبل ذلك: ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، ولم يذكر الكفر، فما العلاقة بين البغي والكفر المذكور هنا؟
يكون المعنى: فإن لم تقبلوا الإسلام ديناً، وأصررت على البغي على من أسلم، فقد كفرتم بآيات الله، ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب.

﴿فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١٩﴾ لها معنيان:

بَصِيرَةٌ

المعنى الثاني:

سَيَعْلَمُهُ اللَّهُ ﷻ بِأَعْمَالِهِ وَمَعَاصِيهِ، وَأَنْوَاعِ كُفْرِهِ
بإحصاء سريع مع كثرة الأعمال.

(تفسير الرازي 7/ 173)

المعنى الأول:

سَيَصِيرُ الْبَاغِي إِلَى أَنْ يَكْفُرَ بِآيَاتِ اللَّهِ، وَالَّذِي
يَكْفُرُ بِآيَاتِ اللَّهِ سَيَنْتَقِلُ إِلَى رَبِّهِ تَعَالَى سَرِيعًا
مهما طال عمره، فعمره لا يساوي شيئاً أمام
الأبد أو الخلود، وإذا انتقل إلى الله ﷻ، فإن الله
سبحانه وتعالى سَيَحَاسِبُهُ أَيُّ: يَجْزِيهِ عَلَى كُفْرِهِ.

كلُّ هذا تحذير للذين بغوا من أهل الكتاب، فأبوا الإسلام

بَصِيرَةٌ

فقد قال النبي ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ! لَا يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَهُودِيٍّ وَلَا نَصْرَانِيٍّ، ثُمَّ
يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَّا كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». (مسلم: 153)

جسر اتصال

إذا كانت الخطوة الرابعة: التصريح لهم بأن إصرارهم على البغي برفض اسم الدين الذي رضىه الله وهو الإسلام يعني أنهم يكفرون بآياته التي أنزلها في التوراة والإنجيل والقرآن، فليستعدوا إذن لحساب الله لهم على ذلك، فما الخطوة الخامسة؟

الجواب:

الخطوة الخامسة

إخبارهم بأن إصرارهم على المحاجة في الشهادة العظمى لن يؤثر على يقيننا بها، ولن يؤثر على اعتزازنا بالإسلام

ولذلك نعلن دون مواربة أننا أسلمنا وجوهنا لله، وببصيرتنا بهذا قوله ﷺ:
﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ [آل عمران: 20]:

﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ﴾ تبصيرنا بنفسية المعاندين منهم

بصيرة ١

أي: فإن خاصمك أهل الكتاب خصام معاندة ومكابرة، وحاولوا تسويق شبهاتهم لتأييد صحة باطلهم، والاحتجاج لضلالهم، ومعنى ذلك أنهم لا يقرون أنهم على باطل، بل سيسعون بجميع الأساليب لتسويق شبههم بما يتوهمه من يسمعها أنها حجة ودليل وبرهان على صحة باطلهم.

﴿فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾

بصيرة ٢

ببصيرتنا الله تعالى بأن نترك المحاجة مع المعاندين، وهذا إرشاد إلى كيفية التعامل مع هذا الصنف الذي يصر على باطله، فلا نحرص على إقناعهم؛ لظهور البغي منهم، أي: فقل معترفاً بالإسلام: تركت مجادلتكم، لأنه لا فائدة منها، فلن تقتنعوا بالأدلة، لأن الذي يمنعكم من اتباع الحق هو الكبر، ويكفي أن أتبع الحق، كما قال الرازي رحمه الله: "فَإِنَّ الْمُحَقَّ إِذَا ابْتُلِيَ بِالْمُبْطِلِ اللَّجُوجِ يَقُولُ: أَمَّا أَنَا فَمُنْقَادٌ إِلَى الْحَقِّ". (تفسير الرازي 7/ 173)

بَصِيرَةٌ

٣

﴿فَقُلْ أَطَعْتُ اللَّهَ وَجْهِي لِلَّهِ﴾ تبصّرنا بالاعتزاز بملة إبراهيم عليه السلام

فإن هذا التعبير يشبه قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 79]، أي: فأنا على ملة إبراهيم دون الزيادات التي زدتموها عليها.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿أَطَعْتُ اللَّهَ وَجْهِي لِلَّهِ﴾ تبصّرنا بحركة المؤمن عقلاً وقلباً وجسداً

فمعنى ﴿وَجْهِي﴾ أي: نفسي، ففي الآية إدماج بين جملتين، والتقدير: أسلمت نفسي لله، ووجهت وجهي لله، أي: أسلمت نفسي متوجهاً لله ﷻ ابتداءً وعملاً وغايةً، فهي ملك له، تجري وفق أمره وشرعه، ليكون هواها وفق مراده، لا وفق الدعاوى الباطلة والأهواء المختزعة، ولذا قال الشاطبي رحمه الله: قصد الشارع أن يخلص العبد من داعية هواه حتى يكون عبداً لله. (الموافقات 2/328)

إذا كانت الخطوة الخامسة: إخبارهم بأن إصرارهم على المحاجة في الشهادة العظمى

لن يؤثر على يقيننا بها، ولن يؤثر على اعتزازنا بالإسلام، ولذلك نعلن لهم: أننا أسلمنا

وجوهنا لله ﷻ، فهل نتركهم، ونترك غيرهم في الضلال؟

جسر اتصال

الجواب: هنا تأتي:

الخطوة
السادسة

بعد الاعتزاز بالإسلام يوجه الخطاب للعالمين من أهل الكتاب وغيرهم ليتركوا ما هم فيه من ضلال

ويجب أن يكون خطابًا قائمًا على الثقة البالغة

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُ﴾ [آل عمران: 20]:

المعنى: فاترك مُحاجَّتَهُمْ ولا يقتضي ذلك أن تترك دَعْوَتَهُمْ

بل احرص على هدايتهم، وإقامة الحجة عليهم مهما نفروا.

بَصِيرَةٌ
١

﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ﴾

من مشركي العرب ومثلهم العجم، وهذا يبصرنا بتوجيه الخطاب للرأي العام العالمي، وإنشاء القنوات التي تتكفل بذلك.

بَصِيرَةٌ
٢

﴿أَسَلَّمْتُ﴾ السؤال بليغ جدًا

يعني في نهاية المطاف التوجيه والأمر، وتقدير الكلام: هل دينكم الآن كاليهودية والنصرانية يجعلكم مسلمين لله على الحقيقة؟ لا! إذن فأسلموا، ولا تتأخروا، فلستم مستسلمين لله دون القبول بالإسلام.

بَصِيرَةٌ
٣

إذا كانت الخطوة السادسة: توجيه الخطاب للعالمين بثقة بالغة ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا

الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُ﴾ فنترك مُحاجَّتَهُمْ ولا نترك دَعْوَتَهُمْ، فما المتوقع

حدوثه بعد هذا النداء العالمي؟

جسر اتصال

الجواب: هنا تأتي:

الوعي بانقسام المخاطبين بعد إقامة الحجة عليهم إلى فريقين:
المسلمين، والرافضين للإسلام

وَيَبْصِرْنَا بِذَلِكَ: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾ [آل عمران: 20]:

الفريق الثاني

الرافضون للإسلام

﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾

والفء تفصح لنا عن محذوف لا بد منه، ليصلح التقدير المناسب للأحوال المختلفة، مثل: وإن تولوا فقد ضلوا، أو فاجتهد في هدايتهم، أو فلا تقاتل الصنف الرافض للإسلام إذا لم يقاتلوك، بل عليك البلاغ، ﴿وَاللَّهُ بِصِيرِ الْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 20]، وهذه الجملة تتضمن وعدًا ووعدًا، فهو عَجَلٌ بصير بالمسلم والمُعْرِض.

الفريق الأول

المسلمون

﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾

كما قال هرقل لقومه: "يَا مَعْشَرَ الرُّومِ هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلَاحِ وَالرُّشْدِ، وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايَعُوا هَذَا النَّبِيَّ" (البخاري: 7)، وذكر الإسلام في هذه الآية ثلاث مرات؛ لأنه دين الأنبياء حقًا، وإنما جرَّ البغي أهل الكتاب إلى التبديل والتحريف.

إذا كانت الخطوة السابعة: الوعي بانقسام المخاطبين بعد إقامة الحجة إلى فريقين:
المسلمين، والرافضين للإسلام، فما الذي نتوقعه من الفريق الرافض؟

جسرات اتصال

الجواب: هنا تأتي:

الخطوة
الثامنة

يُبَصِّرُنَا اللَّهُ ﷻ بِالَّذِي سَيَصِيرُ إِلَيْهِ أَمْرَ الْفَرِيقِ الرَّافِضِ، وَيَذَكِّرُنَا بِقُوَّةِ عِلْمِهِ بِالْعِبَادِ

فيقول: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرُ بِالْعِبَادِ﴾، ولأنه بصير بهم أعطانا الوعي بأن فريق الرافضين المتولين عن الإسلام سينقسمون بدورهم إلى صنفين:

الصنف الثاني
المعتدي

يكفر، ويرسم استراتيجيات متعددة للاعتداء،
وبصرنا الله ﷻ بهذا الصنف في قوله بعد ذلك:
﴿وَاللَّهُ بِصِيرُ بِالْعِبَادِ﴾.

الصنف الأول
المسلم

فيكفر ولا يعتدي، فهؤلاء نستمر في تبليغهم،
وإقامة الحجة عليهم دون إكراههم على الإسلام،
وحسابهم على الله ﷻ، فهو بصير بهم.

بَصِيرَةٌ

كأن المعنى: وإن تولوا فلا تجبرهم على الإسلام فإنما عليك البلاغ

والله بصير بالعباد الذين اهتدوا والذين تولوا، ثم ذكر الله ﷻ فريقاً من المتولين يرتكبون ثلاث جرائم،
وقال عنهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ
بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾.

جريمة (1)

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

فالمُتَوَلُّونَ عَنِ الْإِسْلَامِ يكفرون جميعاً بآيات الله، فهذه الجريمة مشتركة بين: المسلمين والمعتدين.

بَصِيرَةٌ

كلمة ﴿يَكْفُرُونَ﴾ فعلٌ مضارع يصور:

ويجعلنا هذا الفعل نستحضر صورتهم البشعة
وهم يقومون بالكفر.

تجدد خططهم في إشاعة الكفر بآيات الله،
وتحويله إلى ثقافة ذات مؤسسات.

جريمة (٢)

﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾

فالواو للجمع بين هذه الجريمة وما قبلها، وبصرتنا أن من فريق المتوَلِّين صنفًا: يكفرون بآيات الله، ولكنهم لا يقتلون أي لا يعتدون على غيرهم من الأنبياء والصالحين، وأن صنفًا يجمع بين الكفر والاعتداء، فربما قتل الأنبياء والصالحين.

بَصِيرَةٌ

أتى بالمضارع ﴿يَقْتُلُونَ﴾ لثلاثة أسباب:

لبيان أن الأبناء يحملون وزر الآباء في حالة واحدة، وهي: عندما يعتقدون سَدَادَ مَا فَعَلَهُ أَسْلَافُهُمْ.

لبيان نبأ مستقبلي بمحاولتهم قتل سيد الأنبياء ﷺ مستقبلاً، وهو ما حدث فعلاً من بني النضير ثم أهل خيبر.

لاستحضار الصورة البشعة في هذه الجريمة، كأنهم يصنعونها الآن.

بَصِيرَةٌ

ما معنى قوله: ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾؟ وهل يعني ذلك أن هناك نبياً يُقتل بحق؟

الجواب:

الجواب: لا يمكن أن يوجد نبي يُقتل بحق، بل كلُّ نبي قُتل إنما قتل بغير حق، وذكر الله عز وجل هذا القيد ﴿بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ ليكون وصفاً إيضاحياً يصف الواقع؛ لزيادة تبشيع هذه الجريمة، ولذا قال ﷺ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ قَتَلَهُ نَبِيٌّ، وَإِمَامٌ ضَلَّالَةٌ...» (أحمد: 3868. وحسنه الألباني والأزناؤوط)

جريمة (٣)

﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾

أي يجمعون بين الكفر بآيات الله، وقتل الأنبياء، وقتل الذين يأمرون بالعدل في العالم:

بَصِيرَةٌ

١

مرتبة الدعاة إلى القسط - إن كانوا مسلمين -

تأتي بعد مرتبة الأنبياء ﷺ؛ لأن الله ﷻ ذكرهم هنا بعدهم.

بَصِيرَةٌ

٢

قد يكون الدعاة إلى القسط من غير المسلمين

فقوله: ﴿مَنْ النَّاسِ﴾ يُشْعِرُ بِشُمُولِ قَوْلِهِ: ﴿الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾ لكل داعٍ إلى القسط ولولم يكن مسلماً، وَفِي هَذَا تَعْظِيمُ شَأْنِ الْحِكْمَةِ وَالْعَدَالَةِ (تفسير المنار 3/216)، وأعظم العدل هو التوحيد.

بَصِيرَةٌ

٣

المعتدون يحرصون على قتل الذين يأمرون بالعدل في العالم

فيسكتون الذين يدافعون عن الحق، لأنهم يرونهم خطراً عليهم، فالمعتدون ظالمون، والذين يأمرون بالقسط يفضحونهم، والمعتدون يريدون أن تكون شهواتهم دينهم، ويريدون أكل أموال الناس وثرواتهم وقتلهم استكباراً وبغياً، والذين يأمرون بالقسط يقفون ضدهم.

بَصِيرَةٌ

٤

الآية تبين قيمة القسط في العالم

وتحذّر ممن يقاتل الذين يأمرون بالقسط.

بَصِيرَةٌ

٥

في الآية قراءتان تكملان المشهد

قراءة حمزة ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ تبصرنا بأنهم يُجَمَّزُونَ كل الوسائل لمعركة يعتبرونها مقدسة تنتهي بالقتال، ثم تأتي قراءة الجمهور ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ لتبصرنا بمدى إجرامهم وتعطشهم لدماء الأنبياء ومن يأمر بالقسط، فلا يكتفون بقتال الذين يأمرون بالقسط بل يتلذذون بقتلهم.

عقوبتهم الدنيوية والأخروية ثلاثة أنواع:

﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾

أي: أخبرهم متهمًا بهم بأن سيجنون ثمار جهودهم المجرمة، بأن يصحبهم في حياتهم الحقيقية عذابٌ يسلب منهم عذوبة الحياة، أليمٌ يوجعهم، فلا يملكون عنه انفكاكًا.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

﴿حَبِطَتْ﴾ أي: زالت الآثار التي يتوقعون نفعها من أعمالهم، فلا يجدون لذة دائمة لأعمالهم في الدنيا، ولا يجدون نعيمًا في الآخرة بسببها، فَالْحَبَطُ انْتِفَاحٌ يصيب بطون الإبل لكثرة الأكل يكون سببًا في موتها بدلًا من حياتها، وكذلك هؤلاء تنتفخ بطونهم وحياتهم من جهودهم المجرمة، ثم تكون تتوقف آثارها النافعة لهم، وتكون سبب عذابهم.

﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرٍ﴾ [آل عمران: 22]

فبين بالنوع الأول ﴿فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ اجتماع أسباب الآلام والمكروهات عليهم، وبين بالنوع الثاني ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ زوال أسباب المنافع عنهم بالكليّة، وبين بالنوع الثالث ﴿وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّصِيرٍ﴾ عدم وجود ناصر أو مدافع عنهم. (تفسير الرازي 7/ 177)

جسرات اتصال

عرفنا أن القسم الثالث يبصرنا بأهم خطوات الحوار مع أهل الكتاب حول دين الله ﷻ في العالم، وأنه الإسلام، ونجد في هذا القسم تحذيرًا لهم ولنا من جرائم المعتدين الذين يُعرضون عن إقامة الحجج على صحة الدين، فما أهم أساس في الحوار معهم، ونحن نشعر بأن المعتدين منهم ماضون في تنفيذ اعتدائهم؟

الجواب: هنا يأتي القسم الرابع

القسم الرابع

الدعوة لتحكيم كتاب الله ﷻ أساس مهم في الحوار مع أهل الكتاب، والتذكير بالإيمان باليوم الآخر الذي تناسوه، وهذا كفيلاً بإسقاط عظيم افتراءهم، وانكشاف خداعهم، ويبصّرنا بذلك [آل عمران: ٢٣-٢٥]:

آيات القسم:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

وتكون هذا القسم من ثلاثة مشاهد:

إعلان التحكيم

مشهد
(١)

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أَوْتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾

مشهد
(٢)

كشف السر: فيكشف القرآن المجيد سبب توليهم عن تحكيم كتاب الله ﷻ، وهو ارتباطهم بعقيدة فاسدة

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾

مشهد
(٣)

زوال الخداع

﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لَيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾

مشهد
[١]

1

إعلان التحكيم

فينبغي أن يعلن المسلمون لأهل الكتاب أنهم يطلبون منهم تحكيم كتاب الله الذي يدعون أنه مرجعهم (التوراة أو الإنجيل)، ويبصّرنا بذلك قوله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَّابُوا إِلَى اللَّهِ يَدْخُلُونَ فِي الْفَرِيقِ الْاَلَيْمِ﴾ (آل عمران: ١٠٠)، وفيه 7 بصائر:

بَصِيرَةٌ
١

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَّابُوا إِلَى اللَّهِ يَدْخُلُونَ فِي الْفَرِيقِ الْاَلَيْمِ﴾

عند خطاب أهل الكتاب ينبغي دعوتهم إلى أمرٍ يخرجهم أمام أنفسهم وأمام أتباعهم والرأي العام العالمي، وهو تحكيم كتاب الله الذي يدعون الانتساب إليه (التوراة والإنجيل)، ومما نحاكمهم إليه: تحريم الشرك، والزنا، والفاحشة، وقتل الأبرياء، ووجوب الحجاب، ووجوب المحافظة على الأسرة، وسنجد النصوص الموجودة عندهم حول كثيرٍ من هذا متناقضة بسبب تحريفهم لكتاب ربهم.

بَصِيرَةٌ
٢

﴿ثُمَّ تَوَلَّى فِرْقٌ مِّنْهُمْ مَّعْرُضُونَ﴾ (آل عمران: ٢٣)

تبصّرنا بأنه ينبغي التنبؤ المستقبلي بردة فعلهم، فعندما ندعوهم إلى تحكيم كتاب الله ﷻ سنجد فريقاً معرضين؛ لأنهم غير عاملين به، بل هم "مُبعضون" يختارون منه بعضاً يوافق أهواءهم، ويعرضون عن بعض، ولكن دعوتهم لذلك فيه إقامة حجة على عامتهم، وإحراج لهم أمام أحبارهم.

بَصِيرَةٌ
٣

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَّابُوا إِلَى اللَّهِ يَدْخُلُونَ فِي الْفَرِيقِ الْاَلَيْمِ﴾

معناه التقرير والتعجب، أي: انظر إلى هؤلاء المخلوقات العجيبة.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿أَتُونَا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ﴾ تنكير ﴿نَصِيبًا﴾ هنا تعبير عظيم معجز اختصر مشهدين:

﴿نَصِيبًا﴾ أي حظًا عظيمًا

وهم كبار الأخبار، فيعرضون عما علموه كبارًا أو حسدًا.

﴿نَصِيبًا﴾ أي حظًا قليلًا يسيرًا

فالكلام عن صغار أخبارهم المتعصبين، فهم لم يقرؤوا إلا شيئًا يسيرًا من كتابهم المقدس.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾: ﴿ثُمَّ﴾ لِلتَّارِخِ

تبصّرنا بأن التولي يحدث بعد مماطلة وتردد وعدم وضوح في موقفهم هل يقبلون أم لا؛ لأنهم يتخرجون أمام أتباعهم وأمام الناس من أن يرفضوا تحكيم كتابهم مباشرة، حتى لا تنكشف حقيقتهم.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمْ﴾ تبصّرنا بأن نكون منصفين في الكلام عنهم

والإنصاف والدقة قيمتان حاکمتان في القرآن الكريم فليس المتولي جميعهم بل فريق منهم، ولكنه الفريق الذي يدير الأمور الدينية والسياسية غالبًا.

بَصِيرَةٌ

٧

﴿وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ (٢٣) ما الفرق بين التولي والإعراض؟

التولي بالجسد، والإعراض بالقلب، وهما صفتان ثابتتان فيهم، فالتولي ليس عامًا لكل فرد منهم، فدل ذلك على أنهم فريقان: فريق يتولى بجسده، ويعرض بقلبه، لأن ارتباطه بكتابه المقدس ارتباطًا مصلحي خرافي لا عقدي، وفريق يقبل حكم الله، والغالب أن هذا الفريق مستضعف ولا أثر له كبير.

كشف السر

مشهد
[٢]

فيكشف القرآن المجيد سبب توليهم عن تحكيم كتاب الله ﷻ، وهو ارتباطهم بعقيدة فاسدة هي أكذوبة كبيرة افتروها على الله سبحانه وتعالى أنهم لن يعذبوا في النار إلا مدة قليلة، وببصرنا بذلك قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾، وفيه بصيرتان:

﴿ذَلِكَ﴾ تبصرنا هذه الكلمة بسبب توليهم عن تحكيم كتاب الله ﷻ

بصيرة
١

وهو قولهم: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾، قال بعضهم: سبعة أيام، وقال آخرون: أربعون يوماً قَدَرُ عبادتهم للعجل كما يذكرون، ولم يرد دليل صحيح يبين قدر عبادتهم للعجل؛ إذ لا دليل على أنهم اتخذوا العجل في اليوم الذي فارقهم فيه موسى ﷺ.

الافتراء يخدع المفترين: ﴿وَعَرَّهْمُ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾

بصيرة
٢

أي خدعهم في دينهم ما اخترعوه من أكاذيب مزخرفة مزيّنة، فصنعوا افتراءات ضخمة، وألصقوها بدينهم، ثم صارت هذه الافتراءات كأنها حقائق، مثل أنهم شعب الله المختار، وأنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودات، فتمسكوا بها، فخدعهم، وجعلتهم يرتكبون الجرائم اعتمادًا عليها.

زوال الخداع

مشهد
[٣]

إذ سينكشف لهم وللناس أنهم خدعوا أنفسهم عندما ظنوا أنهم لن تمسهم النار إلا أيامًا معدودات، وببصرنا بذلك: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَتْ لَهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل

عمران: 25، وفيه ٤ بصائر:

بَصِيرَةٌ

﴿فَكَيْفَ إِذَا جُمِعَ لَهُمْ يَوْمٌ﴾ تبصّرنا بفضاعة المصير، وانكشاف الكذب الخطير

فيوم القيامة ينكشف كذبهم بأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات، «وكيف» تدل على السؤال التّفظيحي، والمعنى أي: فكيف يكون حالهم إذا جمعهم الله ﷻ بقوته وعظّمته ليحاسيهم ويحكم عليهم في يوم عظيم هو يوم الجزاء الموعود.

بَصِيرَةٌ

﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي لا شك ولا تهمة تعتري تحقّقه القاهر

وعندها تنال كل نفس جزاء قولها وعملها وافيّاً دون أن يُظلموا منه شيئاً، فسينكشف لهم في ذلك اليوم الحكم الحق على توليهم عن حكم الله ﷻ، وسيُنكشف لهم العذاب الخالد الذي سيدوقونه.

بَصِيرَةٌ

هل هذه الآية التي نزلت في أهل الكتاب خاصة بهم؟

الجواب: لا! المسلمون وغيرهم مخاطبون بهذه الآية، فتزولها في أهل الكتاب لا يعني أن المسلمين لا يدخلون فيها لو تولوا عن حكم الله ﷻ، وقالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات، وفهم علي ﷺ ذلك، فقال أبو وائل رَحِمَهُ اللهُ: كنا بصيفين... فقال عمرو بن العاص لمعاوية رَحِمَهُ اللهُ: "أرسل إلى عليٍّ بمصحفٍ، وادّعه إلى كتاب الله، فإنه لن يأبى عليك". فجاء به رجل فقال: بيننا وبينكم كتاب الله ﷻ ﴿الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مَّعْرُضُونَ﴾ [آل عمران: 23]، فقال عليٌّ رَحِمَهُ اللهُ:

"نعم، أنا أولى بذلك، بيننا وبينكم كتاب الله". (أحمد: 1597، وإسناده صحيح على شرط الشيخين)

بَصِيرَةٌ

هذا الخطاب العظيم المرقق للقلوب

ينبغي استحضاره دائماً عند مخاطبة أهل الكتب الثلاثة خاصة وبقية العالم عامّة، وهو من أنفع ما قد يهز عناد المعاندين، وجحود الجاحدين.

إذا كان القسم الرابع قد بصّرنا بأساسٍ مهمٍّ في الحوار مع أهل الكتاب، وهو: أن ندعوهم

لتحكيم كتاب الله، وأن نذكّرهم باليوم الآخر الذي تناسوه، وذلك في الآيات [23-25]، فما

أعظم الأسس التي نذكّر أنفسنا ونذكّرهم بها، وهم يصرون على اعتدائهم؟

الجواب: هنا يأتي:



القسم الخامس

ببصَرنا بأعظم الأسس التي نذكرُ بها أهل الكتاب وهم يصرون على اعتدائهم، وهو الإيمان بأن الله مالك الملك والعزة يداولهما بين العالمين في عالم البشر، والعوالم الأخر، ويجب إبراز هذا الأساس في العلاقات والمفاوضات الدولية، وخصوصاً أمام المعتدين والمحرفين، وبصَرنا بذلك الآيتان [٢٦-٢٧]، وذكر الله ﷻ فيه سبعةً من أهم مظاهر ملكه للملك:

المظهر
الأول

﴿وَتُعْزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ * لتحكم في الأشخاص، فيحكم الله ﷻ بالإعزاز والإذلال، وهو الذي له القدرة على إعطائهما.

المظهر الثاني

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ فالله وعجل هو لا غيره يملك الخير، فلا يمكن أن يملك أحدٌ خيراً حقيقياً.

المظهر
الثالث

المظهر
الرابع

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ التحكم في الزمان.

المظهر
الخامس

المظهر السادس

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ﴿٢٧﴾ التحكم بالأرزاق.

المظهر السابع

آيتا القسم

﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ۚ يَدُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾

المناسبة والاتصال:

١ بعد أن ذكر الله ﷻ وجود المعتدين الذين يكفرون بآيات الله، ويقتلون النبيين، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، وذكر المحرفين الذين يخادعون جمهور الناس بما يفترونه في دينهم، ذكّر الجميع: المسلمين والمسلمين من أهل الكتاب والمعتدين والمحرفين منهم بأساس الإيمان، وهو ملك الله ﷻ لهذا العالم، وملكه لتقليب الأيام فيه.

٢ بين الله ﷻ هذه العقيدة العظيمة من خلال دعاءٍ فاخر عظيم يظهر فيه التمجيد وصفاء التوحيد، كأنه يقول له -كما يقرّر محمد رشيد رضا رَحِمَهُ اللهُ-: «إِذَا تَوَلَّى هَؤُلَاءِ الْجَاهِدُونَ عَنْ بَيَانِكَ، وَلَمْ يَنْظُرُوا فِي بُرْهَانِكَ، وَظَلَّ الْمُشْرِكُونَ مِنْهُمْ عَلَىٰ جَهْلِهِمْ، وَأَهْلُ الْكِتَابِ فِي غُرُورِهِمْ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَلْجَأَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَتَرْجِعَ إِلَيْهِ بِالْدُّعَاءِ وَالثَّنَاءِ، وَتَتَذَكَّرَ أَنَّهُ بِيَدِهِ الْأَمْرِ يُفْعَلُ مَا يَشَاءُ، فَهَذِهِ الْآيَةُ تَكْمِيلُ لِقَوْلِهِ: ﴿قُلْ لِلَّهِ كَفَرُوا اسْتَغْلَبُوا﴾ [آل عمران: 12]، فَمَيَّ تَتَضَمَّنُ تَأْكِيدَ الْوَعْدِ بِنَصْرِ النَّبِيِّ ﷺ». (تفسير المنار 3/222)

وذكر الله ﷻ في هذا الأساس الإيماني البصائر الآتية:

بَصِيرَةٌ

﴿قُلْ﴾ أَيَّ عَالَمٍ

قُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَيَا أَيُّهَا الْمُسْلِمُ مخاطبًا نفسك والعالم حولك، عَلِّمَهُمْ تعظيم ربك وتمجيده، وبلِّغَهُمْ، واجعل ذلك في التربية والثقافة والإعلام.

بَصِيرَةٌ

﴿اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾، جميع الأشياء مسخرة بيده مدبرة منه

لا تملك من التدبير شيئًا، فبيده سبحانه نقل الملك والعزة من قومٍ إلى قومٍ، وهو المتحكم بالكون، وليس ذلك بيد الكافرين ولا المسلمين، فلا يحرص المسلمون على خطب ود الكافرين، أو البحث عما يسمى الرضا الدولي والإقليمي طلبًا للتغيير مقابل ترك شريعتهم، بل ينبغي أن يكون شعارهم:
ما لنا غيرك يا الله.



وهنا يأتي سؤال: ما مظاهر ملك الله للملك؟

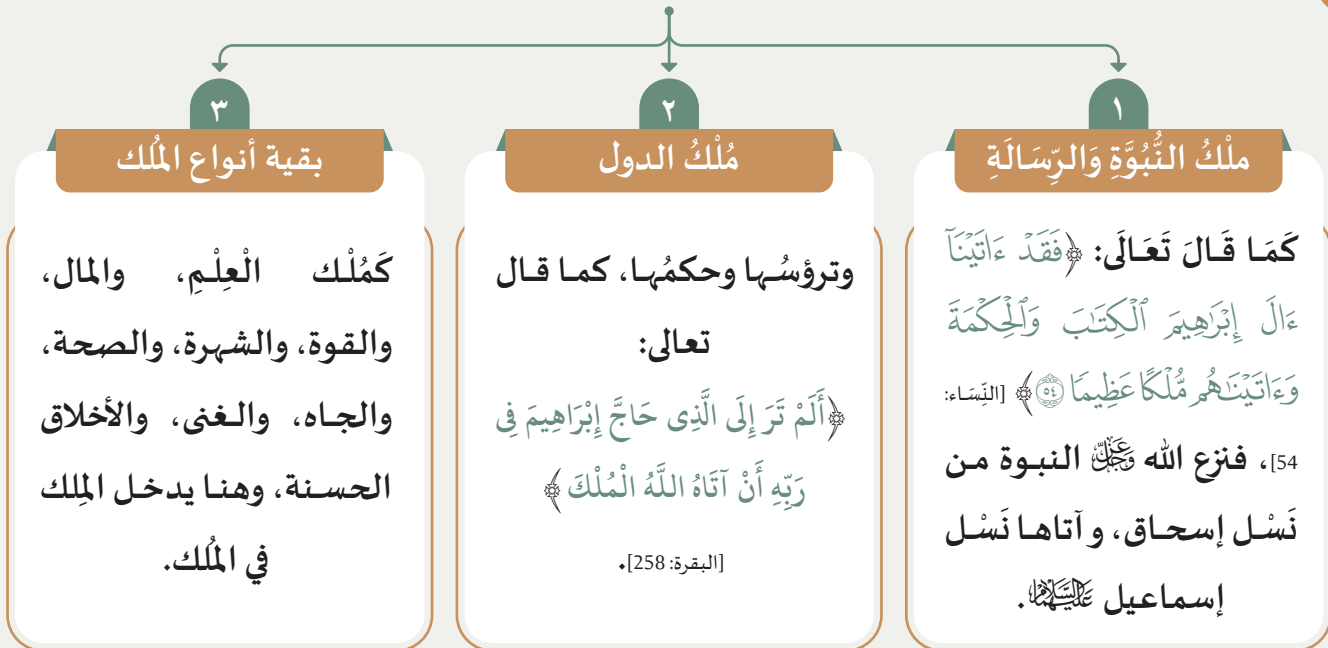
الجواب: ذكر الله ﷻ سبعة مظاهر من أهم مظاهر ملكه للملك:

المظهر
الأول

﴿تَوَاتَى الْمُلُوكُ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلُوكُ مِمَّنْ تَشَاءُ﴾

بيده تقسيم الملك وفق مشيئته، ومشيئته علمنا أنها تكون وفق حكمته ولذا تكرر اسمه الحكيم (97) مرة، ويقترن كثيرًا باسمه العزيز، واسمه العليم، واسمه الخبير:

من صور الملك:



ربما تسأل: إيتاء الملك لأحد، ونزعه من غيره هل يكون عبثاً؟

الجواب:

لا، بل يكون وفق سنن وحكم بالغة كما قال تعالى في هذه السورة: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَنَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ [آل عمران: 137]، و«لَمَّا فَتَحَتِ الشَّامَ عَلَى عَهْدِ عُمَرِ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أُصِيبَ جَبَلٌ فِيهِ غَارٌ، فَإِذَا عَلَى الْغَارِ قُفْلٌ، فَكُسِرَ الْقُفْلُ، فَوُجِدَ فِي الْغَارِ لَوْحٌ مِنْ حَدِيدٍ فِيهِ مَكْتُوبٌ بِمَاءٍ الذَّهَبِ:

ما اخْتَلَفَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا *** دَارَتْ نُجُومُ السَّمَاءِ فِي الْفَلَكَ
إِلَّا تَنَقَّلَ النَّعِيمُ مِنْ مَلِكٍ *** قَدْ انْقَضَى مُلْكُهُ إِلَى مَلِكٍ
وَمُلْكُ ذِي الْعَرْشِ دَائِمٌ أَبَدًا *** لَيْسَ بِفَانٍ وَلَا بِمُشْتَرِكٍ

قال: فُبِعِثَ بِاللَّوْحِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَقَرَأَهُ، ثُمَّ بَكَى، وَقَالَ: رَحِمَ اللَّهُ كَاتِبَ هَذَا، هَذَا مُؤْمِنٌ لَمْ يَجِدْ لِإِيْمَانِهِ مَوْضِعًا يَسْتُرُهُ فِيهِ إِلَّا هَذَا الْغَارُ». (تاريخ بغداد 12/7)

بَصِيرَةٌ

٣

﴿وَتَزْعُ﴾

تبصّرنا بأن للملك -إذا طال أمده واستوثق سلطانه- تمكّنًا في النفوس، وتجنّدًا في الواقع يقتضي تحويله من قوم لآخرين نزعًا وشدة، فلا يتنازل عنه صاحبه يُسرح حتى يُقلع منه قلعًا.

بَصِيرَةٌ

٤

المقابلة بين ﴿تُؤْتِي الْمُلْكَ﴾ و﴿وَتَزْعُ الْمُلْكَ﴾

تبصّرنا أنه الواحد الأحد الذي له التصرف في المتضادات والمتناقضات، فلا يخلو الإنسان من أن يكون معه ملك، كملك جسده، وملك حبيبته، وملك ماله، وهنا يتداخل الملك في الملك. فالله ﷻ هو الذي يؤتي، والله ﷻ هو الذي ينزع، ولذا قال النبي ﷺ في بيان كل ملك إنسان: «لَيَلْقَيْنَ أَحَدَكُمْ رَبَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُ لَهُ: أَلَمْ أُسَخِّرْ لَكَ الْخَيْلَ وَالْإِبِلَ؟ أَلَمْ أَذْرِكْ تَرَأْسُ وَتَرْبَعُ؟ أَلَمْ أُزَوِّجْكَ فَلَانَةً خَطَمَهَا الْخُطَّابُ، فَمَنَعْتُهُمْ وَزَوَّجْتُكَ؟» (مسلم 2968، ابن حبان: 7367، واللفظ له)، فكل هذه من مظاهر الملك يؤتها الله من يشاء، وينزعها ممن يشاء،

وقال ابن زريق:

أُوتِيَتْ مُلْكًا فَلَمْ أَحْسِنْ سِيَاسَتَهُ *** وَكُلُّ مَنْ لَا يُسُوسُ الْمُلْكَ يَخْلَعُهُ

وملكه الذي يتكلم عنه هورزقه بزوجه التي تركها في بغداد.

المظهر
الثاني

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ﴾

التحكم في الأشخاص، فيحكم الله ﷻ بالإعزاز والإذلال، وهو الذي له القدرة على إعطائهما:

بَصِيرَةٌ

﴿وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ﴾ أي: تحكم بالعزة، وتعطيها

أي: تحكم بالعزة، وتعطيها، والعزة كلمة تجمع القوة والشدة والغلبة والرفعة والامتناع، فهي حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب، حتى لا يكاد يُقدَّرُ عليه. (فاج العروس 219/15) "فإذا قُدِّرَ عليه، وتحكم غيره به دخل في الذلة. وأشرف العز عز الإيمان، وتظهر عزة المؤمن الموقن حتى لو لم تكن معه الدنيا كما قال المخبث:

أنا بالله ..عزِزٌ *** عزَّتِي في سَجْدَاتِي
أنا لله وليٌ *** لا لِعُزَى أو مَنْاةٍ
أنا عبدُ الله لا *** عبدَ الهوى والشَّهواتِ

بَصِيرَةٌ

﴿وَتُذِلُّ﴾ الإذلال يعني إيقاع المرء في الذلة

وهي كلمة تدل على الخضوع للآخرين على وجهٍ محمودٍ أو مكروه، فإن كان محموداً فيقترن بالصبر والحلم وابتغاء الأجر، وإن كان مكروهاً مذموماً فيقترن بالاستكانة والإهانة.

بَصِيرَةٌ

﴿مَنْ تَشَاءُ﴾ الإذلال يكون وفق المشيئة الإلهية ابتلاء أو عقوبة

فالله تعالى يذلُّ أعداءه في الدنيا نفسياً وقد يذلهم مادياً، وفي الآخرة نفسياً ومادياً.



فهل المصائب التي تحل بالمؤمنين من الذل؟

الجواب:

لا يذلُّ الله ﷻ أحداً من أوليائه في نفسه، وإن أذَّله بالفقر والمرض والحاجة؛ فهو يفعل ذلك ابتلاء؛ ليعز وليه في الآخرة بالعزة الفاخرة مادياً ونفسياً، فالمصائب تُظهر صدق المؤمن، فهي كالعلاقات الجراحية والحجامة، تؤلم في الحال لتتفعل في الاستقبال، ولا يقال فيها: إِنَّهَا تَعْدِيبٌ. (تفسير الرازي 8/189)

المظهر
الثالث

﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾

فإن الله ﷻ هو لا غيره يملك الخير، فلا يمكن أن يملك أحدٌ خيراً حقيقياً، والخير: كلُّ نفعٍ مستحسنٍ حالاً ومآلاً، تميل له النفوس وتحبه، فنسألك اللهم مفاتيح الخير وخواتيمه.



ولكننا نسأل: هل يعني ذلك أن الشريد غيره كما يقول المثوية أي الذين يعبدون إلهين: واحداً للخير، وواحداً للشر؟



الجواب:

الخير وضده تحت ملك ربنا ﷻ وتصرفه، وعدم ذكر الشر هنا اكتفاء، وذلك كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَرَّيْلَ تَقِيكُمْ الْحَرَّ﴾ [النحل: 81] أَي: وَالْبَرْدَ، وإنما لم يذكر الشر؛ لأنَّ الشَّرَّ كُلَّهُ يَرْجِعُ إِلَى عَدَمِ الْخَيْرِ، فيأتي الشر حين ينعدم الخير، فالصحة خيرٌ، فإذا انعدمت جاء المرض، وهو شرٌّ عقوبةً أو ابتلاءً.

المظهر
الرابع

﴿إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 26]

فأنت المتحكم بأسباب الكون، ولا يخرج عن تدبيرك وإرادتك وإدارتك شيء.

المظهر
الخامس

﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ التحكم في الزمان:

كلمة ﴿تُولِجُ﴾ لها مزية أعلى من مزية كلمة (تُدْخِلُ)، فهي تعني: تُدْخِلُ إدخالاً مقدراً الليل في النهار، والعكس مثل الدخول في مَضِيقٍ دون أن يقدر أحدٌ على منع ذلك، فيزيد هذا وينقص هذا ليتداخلاً تداخلاً لطيفاً، وذلك بحسب مطالع الشمس ومغارها.

المظهر
السادس

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾

كالبيضة من الطائر، والنبوة من
الشجر، والحب من الزرع، والكافر من
المؤمن كابن نوح من نوح عليه السلام.

﴿وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾

كالفرخ من البيضة، والحيوان من النطفة،
والشجر من النوى، والزرع من بذره،
والمؤمن من الكافر كإبراهيم عليه السلام من آزر.

المظهر
السابع

﴿وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

ترزق من تشاء مسلماً أو كافراً

بَصِيرَةٌ
١

أي: تعطي كل ما يُنتفع به، فهو ما يسد احتياجات الإنسان وضروراته، ويلتذ به في حياته مهما يكن نوع
العطاء الذي رزقه، مثل: الغذاء والمال والمسكن والماء والكنوز المدخرة، سواء أكانت الأرزاق ظاهرة أم
باطنة للقلوب والنفوس كالمعارف والعلوم.

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

بَصِيرَةٌ
٢

يقرر الرازي رحمته الله في تفسيره: (191/8) أن لها ثلاثة معانٍ فخمة:

٣
بغير حساب أي لا يحاسبك
على ذلك أحد، إذ ليس
فوقك ملك يحاسبك.

٢
وبغير حساب على المعطى له،
يعني على سبيل التفضل من
غير استحقاق، فتزق من
تشاء رزقاً واسعاً من حيث لا
يحتسب ولا يكتسب.

١
تَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ
للمعطى، بل تبسطه له
وتوسع عليه.

وهاتان الآيتان ينبغي أن تكونا مقدمتين للدعاء حتى يلقى المرء العطاء

فقد قال رسول الله ﷺ لمعاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «يَا مُعَاذُ، أَلَا أَعْلَمُكَ دُعَاءً تَدْعُو بِهِ؟ فَلَوْ كَانَ عَلَيْكَ مِنَ الدِّينِ مِثْلُ جَبَلٍ صَبْرٍ أَذَاهُ اللَّهُ عَنْكَ - وَصَبْرٌ جَبَلٌ بِالْيَمَنِ - فَادْعُ بِهِ يَا مُعَاذُ قُلِ: اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ، وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ، وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ رَحْمَنَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَحِيمَهُمَا، تُعْطِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُمَا، وَتَمْنَعُ مَنْ تَشَاءُ، ارْحَمْنِي رَحْمَةً تُغْنِيَنِي بِهَا عَنْ رَحْمَةِ مَنْ

سَوَاكَ». (الكبير للطبراني: 323، قال الهيثمي في المجمع 186/10: فيه نصر بن مزروع ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات، إلا أن ابن المسيب لم يسمع من معاذ).

إذا كان القسم الخامس قد بصّرنا بأعظم الأسس التي ندكرها أهل الكتاب، وهو الإيمان بأن الله مالك الملك والعزة يداولهما بين العالمين في عالم البشر، والعوالم الأخر، فما أثر الإيمان بذلك على حياتنا العملية، وخاصة على علاقتنا بالمعتدين والمحرفين من أهل الكتاب؟

جسرات اتصال

الجواب: هنا يأتي:

القسم السادس

الأثر السياسي العملي لهذه العقيدة الإيمانية، ويتمثل في تحريم ولاية المؤمنين للكافرين من المعتدين والمحرفين، وبصرنا بهذا القسم الآيات [٢٨-٣٢]:

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاتَهُ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ۝٢٨﴾ قُلْ إِنْ تَخْشَوْنَ مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْذَوْنَ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٩ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ ۝٣٠ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣١ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ۝٣٢﴾

المناسبة والاتصال:

١ لما بين الله ﷻ فيما سبق إعراض أهل الكتاب عن قبول الحق، وألحقه بتقرير ملكه وتصرفه المطلق في الخلق، فيؤتي الملك من يشاء وينزعه ممن يشاء، ويعز من يشاء ويذل من يشاء، أظهر هنا أهم الأحكام المترتبة على الإيمان بذلك، وهو أنه حرّم على المؤمنين موالاة أعدائهم المعتدين؛ فلماذا يوالون أعداءهم؟ أخوفاً منهم أم رغبة فيما عندهم؟! فالله مالك الملك بيده العزة المطلقة، والقوة الشاملة، فسفه أن يعتز مؤمن بغير كتابه، أو أن يلتجئ إلى غير جنابه، أو أن يذل في غير بابيه.

وفي هذا القسم ٦ قوانين:

قانون [١]

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

يحرم على المؤمنين أن يوالوا الكافرين من دون المؤمنين.

قانون [٢]

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾

فهذا الحكم الخطير فيمن يجعل الكفار حلفاء وأولياءه دون المؤمنين، فيخرج من ولاية الله ﷻ

قانون [٣]

﴿إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾

المعنى: يجوز أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء تقاةً، أي لتجنب مكرهه محقق.

قانون [٤]

هدد الله ﷻ الذين لم ينفذوا هذا الحكم التشريعي الكبير ستة أنواع من التهديدات

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ... وَاللَّهُ رَعُوفٌ بِالْعِبَادِ ٣٠﴾

قانون [٥]

يجب اتباع النبي ﷺ في كل شيء، وخاصة في عدم موالة الكافرين

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ... ٣١﴾

قانون [٦]

الطاعة الشاملة للرسول باتباع سنته علامة على طاعة الله ولزوم كتابه

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ... ٣٢﴾

قانون [١]

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

يحرم على المؤمنين أن يوالوا الكافرين من دون المؤمنين، ومن صور الموالاة: التحالف، والصدقة، والنصرة، والإمداد بالمال أو الدعم المباشر أو غير المباشر (اللوجستي).

وفيه ٦ بصائر:

بَصِيرَةٌ

﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ﴾

تبصّرنا بصورة يظهر فيها من ينتسبون للمؤمنين، وهم يتخذون الكفرة أولياء من دون المؤمنين، فيجعلونهم أحياءهم، وأهل مودتهم، فيكاشفونهم بأسرار المسلمين، أو يعاونونهم ضد المؤمنين.

بَصِيرَةٌ

حرف النهي ﴿لَا﴾ يدل على تحريم ولاية المؤمنين للكافرين من دون المؤمنين

وهذا يعني أن موالاة الكافرين تناقض الإيمان، وأن ذلك لا يتصوّر من المؤمنين أصلاً.

بَصِيرَةٌ

قيد الحرمة بقوله ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

أي تحرم موالاة الكافرين إذا كانت من دون المؤمنين، أي من غيرهم، أو من غير وجودهم في الحلف، فيدخل في ذلك عدة صور:

٢

١

أن توالي كافرًا ضد مؤمن، فتقدّم لهذا الكافر أنواع الدعم المادي ليُسقط المؤمن، كما فعل الملك إسماعيل ملك الشام الأيوبي ضد أخيه نجم الدين أيوب ملك مصر (ينظر: طبقات الشافعية للسبكي 210/8)، فهذا أشد حرمة، وأعظم فجورًا.

أن توالي كافرًا وتترك في الوقت ذاته مؤمنًا، فلا تواليه أصلًا حتى لو كانت موالاة الكافر ليست موجهة ضد المؤمن، ومن ذلك أن يقدم المساعدات للكفار، وإخوانه يموتون جوعًا.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾

تبصّرنا بأن المصلحة المشتركة للمؤمنين مقدّمة على أي تعاملٍ يخالفها، أو يعود عليها بالمعارضة، أو النقض.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ تبصّرنا بجواز موالة الكافرين إن لم تتعارض مع هذا النص

والحصر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: 55] حصرًا إضافيًا وليس حقيقيًا، فقد وردت نصوص أخرى تجيز موالة غير المؤمنين إن لم يتعارض ذلك مع قوله ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بناءً على ذلك:

هل يجوز لبعض المؤمنين موالة الكافرين إن لم تكن هذه الموالة ضد المؤمنين؟
ومثال ذلك: الدخول في منظمة عالمية لإنقاذ الأطفال، أو لمكافحة الأمراض، فتدخل في الحلف دولة مسلمة، ولو لم يكن معها في ذلك الحلف بقية الدول المسلمة.

الجواب: نعم يجوز، ويكون معنى القيد: أي لا يوالي المؤمنون الكافرين ولاية تكون ضد المؤمنين، فإن لم تكن ضد المؤمنين فيجوز، وهذا المعنى يوسّع التصرف، ولكنني لا أرى هذا المعنى مع صحته؛ لأن الواقع أثبت انحراف الدول التي اعتادت على الدخول في أحلاف دولية دون أن تنسق مع بقية الدول المسلمة.

﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾

قانون [٢]

فهذا الحكم الخطير فيمن يجعل الكفار حلفاء وأولياءه دون المؤمنين، فيخرج من ولاية الله ﷻ: أي: «فَلَيْسَ مِنْ دِينِ اللَّهِ فِي شَيْءٍ» (تفسير الرازي: 8/193)، فكأن «الْمُنْهَى عَنْهُ هُنَا ضَرْبٌ مِنْ ضُرُوبِ الْكُفْرِ»، كما يقرر ابن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسيره (3/217).

﴿إِلَّا أَنْ تَقُولَ مِنْهُمْ تَقَى﴾

قانون [3]

المعنى: يجوز أن يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء تقاةً، والتقاة والاتقاء والتقية بمعنى واحد، أي لتجنب مكرهه محقق، ولكن ذلك له ضوابط شديدة لا بد من توفرها:

٢

تَجُوزُ التَّقَاةُ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِدِينِ الْإِنْسَانِ، فَأَمَّا مَا يَرْجِعُ ضَرَرُهُ إِلَى الْغَيْرِ كَالْقَتْلِ وَالزَّانَا وَغَضَبِ الْأَمْوَالِ وَالشَّهَادَةِ بِالزُّورِ... فلا يجوز. (تفسير الرازي 8 / 194)، فكيف إن كان تحالف بعض المسلمين مع الكافرين لتدمير بلدان المسلمين؟!

١

التَّقَاةُ وَالتَّقِيَّةُ حَدُودُهَا اللِّسَانُ، فَلَا يَجُوزُ انْتِقَالُهَا إِلَى الْعَمَلِ أَوْ الْقَلْبِ، فَقَدْ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "لَيْسَ التَّقِيَّةُ بِالْعَمَلِ، إِنَّمَا التَّقِيَّةُ بِاللِّسَانِ". (تفسير ابن كثير: 30/2)، ولذا فلا يمكن تصور (تقاة) في الإسلام تؤدي إلى مساعدة مسلمين للكافرين ضد مسلمين.

٤

رخصة التَّقِيَّةِ هُنَا مَحْدُودَةٌ بِضُرُورَتِهَا، وَالْغَالِبُ أَنْ تَرْكُهَا خَيْرٌ مِنْ فِعْلِهَا، وَيَحْرَمُ غَالِبًا عَلَى الْمُقْتَدَى بِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ أَنْ يَسْتَخْدِمَ التَّقَاةَ؛ لِأَنَّهُ يَنْبَغِي أَلَّا يَخَافَ فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَائِمَةً، وَلَأنَّهُ مُؤْتَمِنٌ عَلَى الرِّسَالَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَخَشَوُا اللَّهَ﴾ [المائدة: 44]، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَصْحَابُهُ يَصْبِرُونَ عَلَى الْأَذَى. (تفسير المنار 3/ 230)

٣

يَكُونُ التَّحَالُفُ مَعَ الْكَافِرِينَ بِقَدْرِ فَائِدَةِ الْمُؤْمِنِينَ إِمَّا لِيَتَّقُوا شَرًّا، أَوْ لِيَجْلِبُوا خَيْرًا؛ وَهَذِهِ الْمُوَالَاةُ تَكُونُ صُورِيَّةً؛ لِأَنَّهَا لِلْمُؤْمِنِينَ لَا عَلَيْهِمْ، وَهَذِهِ الْمُوَالَاةُ لَا تَخْتَصُّ بِوَقْتِ الضَّعْفِ، بَلْ هِيَ جَائِزَةٌ فِي كُلِّ وَقْتٍ. (تفسير المنار 3/ 230)

٥

يدل على منع ديمومتها: الاستثناء والتأكيد بالمفعول المطلق ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولَ مِنْهُمْ تَقَى﴾، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهُ وَفَلْبُهُ وَمُطْمَئِنُّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: 106]، ومثل الحالة التي لقيها مسلمو الأندلس حين أكرههم النصارى على الكفر، فتظاهروا به إلى أن تمكنت طوائف منهم من الفرار.

قانون [٤]

هَدَّدَ اللهُ ﷻ الذين لم ينفذوا هذا الحكم التشريعي الكبير في العلاقات الداخلية والدولية

بسته أنواع من التهديدات:

التهديد [١]

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: إن خالفتم أوامرهم

وأول ما يدخل في المخالفة ما حدده السياق من موالاتة الكفار أو استمرار التقية؛ لأنها معادة للجبار تعالى. ولم يقل: "يحذركم غضبه" بل ﴿نَفْسَهُ﴾ ليشعر الإنسان بخطر مخالفته لربه جل جلاله حتى لو لم ينزل عليه عقوبة عاجلة.

التهديد [٢]

التهديد من المصير الحقيقي المنتظر ﴿وَالِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: 28]:

أي: مرجع العباد إلى الله ﷻ يوم التناد، فلا تعتزوا بالكافرين الذين لن يغنوا عنكم من الله شيئاً يوم الدين، وعند الحاكم (284) بسند حسن: عن معاذ بن جبل رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: (يا بني أود: إني رسولُ رسولِ الله ﷺ، تعلمون المعاد إلى الله، ثم إلى الجنة أو إلى النار، وإقامة لا ظعن فيه، وخلود لا موت في أجساد لا تموت).

التهديد [٣]

العلم الشامل

﴿قُلْ إِنْ تَحْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو يعلم حقائق المتلاعين بالدين باسم التقية والمصالح.

التهديد [٤]

القدرة الكاملة ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 29]

فالمهدد لا يحول بينه وبين تحقيق وعيده إلا أحد أمرين: الجهل بجريمة المجرم، أو العجز عنه، فلما أعلمهم الله ﷻ بعموم علمه وكمال قدرته، علموا أن الله ﷻ لا يفلتهم من عقابه.

التهديد [٥]

الحذر من صحائف الأعمال، وعدم الاعتماد على الإيمان الإجمالي، فذلك مجرد خيال

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ أي: ويحذركم الله ﷻ نفسه في كل وقت، خصوصاً يوم تجد كل نفسٍ ما عملت من خير محضراً، وما عملت من سوء...

التهديد [٦]

استحضار العظمة الإلهية دائماً ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: 30]

فأعاد تعالى تحذيرنا نفسه:

٢

وليجمع لنا بين الترغيب الموجب للرجاء والعمل
الصالح، والترهيب الموجب للخوف وترك
الذنوب.

١

رأفة بنا ورحمة؛ لئلا يطول علينا الأمد فتقسو
قلوبنا، ولئلا نتكل على سعة رحمته، وواسع
كرمه وعفوه؛

ولذا ذيلناه هنا بقوله: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ للتذكير بأن هذا التحذير لمصلحة المحذرين، فقد قال
الحسن رحمه الله: "وَمِنْ رَأْفَتِهِ بِهِمْ أَنْ حَذَّرَهُمْ نَفْسَهُ". (تفسير الرازي 196/8)

قانون [٥]

يجب اتباع النبي ﷺ في كل شيء، وخاصة في عدم موالة الكافرين

فهذا دليل صدق محبة الله ﷻ، ويبصرنا بهذا القانون قوله:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 31].

وفيه ٦ بصائر:

بَصِيرَةٌ

كلمة ﴿قُلْ﴾ تبصّرنا بوجوب أن نشيع حقيقة اتباع النبي ﷺ في العالم بالتبليغ

وعن طريق وسائل الإعلام والتربية.

بَصِيرَةٌ

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾ كلمة ﴿تُحِبُّونَ﴾ لا تتحقق دون عاطفة حقيقية

ومحبة الله ﷻ تستلزم محبة رسوله ﷺ، ومحبتهم لا يمكن تصورهما دون حركة في القلب، وعاطفة في
الصدر، إلا أن الله ﷻ يعلمنا في هذه الآية أن تنعكس هذه المحبة على الأعمال، فأوجب الاتباع للنبي ﷺ.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ تبصّرنا بأن المطلوب أن يكون الاتباع حقيقياً

لا أن يكون شكلياً، أو مجرد شعاراتٍ جوفاء، فربما وجدت قوماً ينتسبون للمسلمين وهم يعادون أتباع محمد الأمين ﷺ، ويوالون أعداءه، ويخادعون الناس بأن يشجعوا الشعارات والطقوس غير المشروعة التي يزعمون أنهم بها يحبون رسول الله ﷺ، قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: زَعَمَ قَوْمٌ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ، فَأَبْتَلَاهُمْ اللَّهُ -أي اختبرهم- بِهَذِهِ الْآيَةِ، فَقَالَ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. (تفسير ابن كثير: 32/2)

بَصِيرَةٌ

٤

رَتَّبَ عَلَى الْإِتِّبَاعِ مَكَافَأَتَيْنِ:

٢

١

مغفرة الله ﷻ للماضي

﴿وَيَغْفِرَ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٣١)

محبة الله ﷻ للمتبع في الحاضر والمستقبل
﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، فيشملكم برعايته،
ويمنحكم لطفه، ويجعلكم من أهل ودّه. اللهم
إنا نسألك محبتك.

فالاتِّبَاعُ يَسْتَرِ اللَّهُ ﷻ بِسَبَبِهِ مَا كَانَ مِنْ خَطَا أَوْ عَصِيَانٍ، وَيَمْحُو مِنَ النَّفْسِ ظُلْمَةَ الْبَاطِلِ، وَيُزِيلُ مِنْهَا
آثَارَ الْمَعَاصِي وَالرَّذَائِلِ.

بَصِيرَةٌ

٥

معلوم أن المحبة درجة أعلى من المغفرة

فمثلاً قد تغفر لإنسان خطأه في حقك، ولكنك لا تحبه، فالترتيب الحكيم -في عرفنا القاصر- أن يبدأ بالدرجة الأولى، وهي المغفرة، ثم يرتقي إلى الدرجة الأعلى، وهي المحبة، فما وجه الجمال والحكمة في الترتيب القرآني هنا؟
الجواب: هذا تبشير لكل من وقع في المعصية ألا يقنط من أن يحبه الله ﷻ. فإن حرص العبد على اتباع النبي ﷺ، اكتسب بذلك محبة الله ﷻ.

وإن أتى بذنوب ومعاصٍ، فليتبشّر وليستبشّر خيراً؛ لأن الله ﷻ وعد بمغفرتها -أي يسترها، فلا يراها الخلق ولا يلحقه شؤمها وعو اقمها في الدنيا والآخرة. فلا يكاد يوجد إنسان غير نبيٍّ إلا وقد ألمَّ بشيء من الذنب، وهذا الوعد هو باب الأمل والتوبة للمؤمنين."

ومن العظيم البديع أنك تجد في هذه السورة ما يزيد هذا المعنى إيضاحاً

إذ ذكر الله ﷻ المتقين، وبين أنهم قد يقعون في المعاصي، فقال: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: 135]، فلاحظ كيف جمع بين المحبة والمغفرة، ومن الجميل البديع أن الله ﷻ ذكر في هذه السورة أيضاً معاصي وقع فيها بعض الصحابة رضي الله عنهم في أحد، وبين أنه غفرها لهم، فلم تحل بينهم وبين محبة الله ﷻ.

وضع لنا هذا الموضع من السورة قاعدة ضخمة في التحقق من محبة الله ﷻ

ومحبة رسوله ﷺ، وهي: الاتباع دليل المحبة.

بَصِيرَةٌ

٦

الطاعة الشاملة للرسول باتباع سنته علامة على طاعة الله ولزوم كتابه

قانون [٦]

﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ وترك هذه الطاعة يقرب من الكفر ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [٣٢]

[آل عمران: 32] أي فإن تولوا عن طاعة الله والرسول فذلك كفر، والله لا يحب الكافرين.

وفيه ٣ بصائر:

بَصِيرَةٌ

١

ذكر الله طاعته ﷻ، وعطف عليها طاعة رسوله ﷺ ليكشف زيف بعض الفرق، ومنها ثلاث فرق:

٣
فرقة تدعي الإيمان برسول الله ﷺ ومحبته، ثم تطرح سُنَّته، ولا تعتبرها حجة أو مرجعاً.

٢
فرقة تدعي محبة رسول الله ﷺ ثم تقتل أتباعه، وتوالي أعداءه.

١
فرقة تدعي التوحيد، ثم تعصي الله ﷻ، فتوالي أعداءه وتعادي أوليائه.

بَصِيرَةٌ

٢

لا تتحقق طاعة الله ﷻ إلا بطاعة رسوله ﷺ

كما لا تُقبل دعوى محبة الله ﷻ مع مخالفة سُنَّة رسوله ﷺ.

بَصِيرَةٌ

٣

ما المناسبة والاتصال بين أول المحور وآخره؟

خَتَمَ اللَّهُ ﷻ المحور الأول من السورة بالنهي عن مَحَبَّةِ الْكَافِرِينَ رَدًّا لِلْعَجْزِ عَلَى الصِّدْرِ. (التحرير والتنوير 3/229)، كأنه يذكر بأول المحور، وهو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 10]، ففي أول المحور ذكر قوة الكافرين، التي ربما أغرت بعض أهل الإيمان بموالاتهم، وفي آخره شَنَعَ على من يوالهم ويترك طاعة الله ﷻ، وطاعة رسوله ﷺ حتى ليكاد أن يكون صنعه أقرب للكفر.

حدثنا المحور الأول عن كون الدين عند الله الإسلام، وأساسه شهادة الوجدانية، وسنن الله في أهل الكتاب المتآمرين على أهل هذه الشهادة [آل عمران: 10-32]، فأَي المتآمرين أكثر حشداً ضد المسلمين؟ وما قصة بدايتهم الحقيقية لنتحاور معهم؟

جسراتصال
بين المحور الأول
والمحور الثاني

الجواب: هنا يأتي:

المحور الثاني

القصة التاريخية الحقيقية لأسرة
آل عمران أسرة عيسى عليه
السلام، ومكانتها العظيمة عند
المسلمين، وحقيقة دينها
[آل عمران: 33-63]

المحور الثاني

القصة التاريخية الحقيقية لأسرة آل عمران عيسى عليه السلام،
ومكانتها العظيمة عند المسلمين، وحقيقة دينها

[آل عمران: 33-63]

وهذا المحور يكشف حقيقة هذه الأسرة المباركة للمسلمين والكتابيين والعالمين، وأنها عملت على تثبيت الشهادة الكبرى، ويُظهِرُ سبب كفر الذين يزعمون تعظيم عيسى عليه السلام بالشهادة الكبرى، بسبب كونهم لا يتبعونه:



وهنا يثور سؤال: ما المناسبة والاتصال بين هذا المحور وما قبله؟

الجواب:

لما يَبَيِّنُ الله -تعالى ذِكْرُهُ- أن الكافرين يحشدون أموالهم وأولادهم ضد الإسلام، ويزيفون الشهادة الكبرى، وأن الكتابيين سيتورطون في هذا الحشد المعتدي

وبَيِّنُ خطوات الحوار معهم حول هذه الشهادة، أوضح الحقائق التي يغيبها قادة النصارى الدينيين والسياسيين عن شعوبهم حول أمرين:

الثاني: حقيقة دين آل عمران كلهم، وكيف عبثت القيادات الدينية والسياسية الفاسدة بعد عيسى عليه السلام بدينه، فغيروا اسمه وأهم معالمه.

الأول: تعظيم المسلمين لمكانة عيسى وآل عمران عليه السلام، فالقادة الفاسدون يوهمون شعوب النصارى أن المسلمين لا يعظمون أسرة عيسى عليه السلام.

هذه الآيات تدل دلالة واضحة على صدق نبوة النبي ﷺ، ومصدرية الإسلام الإلهية، فهو دين الأنبياء عليه السلام جميعاً بما فيهم أنبياء بني إسرائيل

فكل هذا الثناء لهؤلاء الأنبياء عليه السلام إنما هو في معرض المناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم عليه السلام، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد ﷺ!

سبب التركيز على النصارى في هذا المحور دون اليهود واضح، فسورة البقرة كان التركيز فيها على اليهود، والنصارى يمثلون القوة التأثيرية الثانية كما يمثلون القوة التأثيرية الأضخم في الأرض.



فإن قلت: كم أقسام هذا المحور؟

الجواب: تكوّن هذا المحور من ستة أقسام:

القسم
الثاني

تعظيم آل عمران ببيان كرامات مريم عليها السلام

[آل عمران 35-37]

القسم
الأول

اصطفاء الله لأعظم قيادات البشر

[آل عمران: 33، 34]

القسم
الرابع

الإعلان الملائكي لاصطفاء مريم على العالمين، وبيان مقتضياته العظيمة التي تفصل واجبات العبودية التي تلزمها عليها السلام

[آل عمران 42-44]

القسم
الثالث

التأثير الإيماني الإيجابي لمريم على نبي الله زكريا عليه السلام حتى أكسبه الله عز وجل كرامات جديدة

[آل عمران 38-41]

القسم
السادس

الحقائق الأساسية في قصة عيسى عليه السلام وكشف إفساد المحرفين

[آل عمران 58-63]

القسم
الخامس

مراحل حياة عيسى عليه السلام وتبليغه رسالة الإسلام

[آل عمران 45-57]

القسم الأول

اصطفاه الله لأعظم قيادات البشر: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ [آل عمران: ٣٣، ٣٤]

وفيه ١٠ بصائر:

بَصِيرَةٌ ١

يظهر جمال كلمة ﴿اصْطَفَى﴾؛ إذ يعني أن الله ﷻ اختارهم ليكونوا صفوة خلقه

فكانه نقاهم من الكدورة، وصفاهم من الصفات غير الحسنة، وأبعد عنهم ما يعكر جمال شخصياتهم، وحلّاهم بأكمل الصفات الجسمية والخلقية، والقلبية، والعقلية. وكلمة ﴿اصْطَفَى﴾ لا تدل على التصفية إن كان الاصطفاء من مخلوق لمخلوق، أما إن كانت من الإله الحق لعبده، فلا يصطفيه إلا بعد أن يُصَفِّيَه.

بَصِيرَةٌ ٢

لأنه ﷻ صفاهم فقد اصطفاهم لدين الإسلام ليكونوا من أعظم قياداته

كما قال الطبري رحمه الله: "يعني بذلك جل ثناؤه: إن الله ﷻ اجتبي آدم ونوحًا واختارهما لدينهما، وآل إبراهيم وآل عمران لدينهم الذي كانوا عليه، لأنهم كانوا أهل الإسلام. فأخبر الله ﷻ أنه اختار دين من ذكرنا على سائر الأديان التي خالفته". (تفسير الطبري: 6/326)

بَصِيرَةٌ ٣

﴿اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٣٣﴾

ذكر الله ﷻ اثنين من أعظم قيادات البشر: آدم ونوح ﷺ، وأسرتين من أكرم أسر الدنيا: آل إبراهيم وآل عمران. وعمران قيل: والد موسى وهارون ﷺ، والصحيح أنه والد مريم ﷺ.

كلمة (آل) يظهر معناها حسب السياق

فقد يراد بها الرجل وزوجته وأولاده وأحفاده، ويدخل في آل إبراهيم أبناؤه كإسماعيل وإسحاق، والأنبياء من عقبه كموسى ومحمد ﷺ، ويدخل في (الآل) الأتباع المؤمنون، وبذا ينالون شرف الاصطفاء المذكور، بل هم أحق به وأولى، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ [آل عمران: 68].

يقول الطبري رحمه الله:

"وإنما عني (آل إبراهيم وآل عمران): المؤمنون، وقد دللنا على أن (آل الرجل) أتباعه وقومه، ومن هو على دينه". تفسير الطبري (326/6)

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ﴾ تبصرنا بأمر واضح

وهو أن الله ﷻ هو الذي اصطفاهم، فكيف عبَدَ بعضُ الناس المصطفى، وتركوا عبادة المصطفى ﷻ؟!

﴿عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ يدخل فيهم الملائكة والجن وسائر المخلوقات

ومن اصطفاهم أنه أخرج منهم محمداً ﷺ، وتبصرنا بأن الله ﷻ اصطفاهم على عالم زمانهم، وبهذا يتقرر أن الاصطفاء نسبي، وليس اصطفاءً مطلقاً، وذلك يقتضي أنه لا يُورَث، ولا يُورَث، ولا يناله الأبناء والذرية بمحض الانتساب، وإنما يُنال بالعمل الصالح والاكْتِسَاب، وقول زكريا ﷺ: ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ [مريم: 6]، وقول ربنا ﷻ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ﴾ [النمل: 16] كلام عن وراثة الكتاب بسبب الاصطفاء الإلهي، وليس عن الإرث المعروف بين الأجيال، وقد بين الله عز وجل ذلك بوضوح في قوله: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ﴾ [الأعراف: 169]، فهم لم يرثوه بالنسب بل بانتقال العمل به إليهم.

بَصِيرَةٌ

٧

كما اصطفى ﷺ آل عمران فقد اصطفى خلقاً قبلهم

فلماذا أله النصارى بعض آل عمران، ونسوا كلَّ البشر المصطفين من قبل؟! ولذا قال الله ﷻ بعدها: ﴿ذُرِّيَّةَ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 34]، فليس واحدٌ منهم إلهًا، بل هم مصطفون من قبل الإله الحق.

بَصِيرَةٌ

٨

﴿ذُرِّيَّةٌ﴾: من "ذراً" بمعنى: أوجد أساس الانتشار، فخلق هذا الأساس، وهو آدم ﷺ

ثم النطفة في أبنائه، ثم نماهم، ونشرهم في الأرض، كما تتصور ذرة البذرة في الأرض، ثم تنبت وتثمر، وأخرج الطبري بسندٍ حسنٍ عن قتادة قوله: ﴿ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ﴾ يقول: في النية والعمل والإخلاص والتوحيد لله ﷻ. (تفسير الطبري: 328/6)

بَصِيرَةٌ

٩

المقصود من ذكر الذرية:

تَذَكِيرُ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى بِشِدَّةِ انْتِسَابِ النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ لُحْمَةً وَمِنْهَجًا، فَمَا كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَجْعَلُوا مُوجِبَ الْقَرَابَةِ مُوجِبَ عَدَاوَةٍ وَتَفْرِيقٍ (التحرير والتنوير 3/ 231)

بَصِيرَةٌ

١٠

ختم الآيتين بقوله ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾:

﴿عَلِيمٌ﴾

يعلم من يستحق الفضل والتفضيل.

﴿سَمِيعٌ﴾

يسمع أقوال الأتباع، ويعلم ما يفعلونه من الاتباع، أو ما ينتجونه من الأقوال الباطلة والابتداع.

فأول الآية تشريف للمتبعين، وآخرها تحذيرٌ للمتبعين، أي: سَمِيعٌ بِأَقْوَالِ بَعْضِكُمْ فِي بَعْضٍ هَذِهِ الذُّرِّيَّةُ: كَقَوْلِ الْيَهُودِ فِي عِيسَى وَأُمِّهِ ﷺ، وَتَكْذِيبِهِمْ وَتَكْذِيبِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى لِمُحَمَّدٍ ﷺ

(التحرير والتنوير 3/ 231).



ذكر الله ﷻ في القسم الأول: اصطفاءه لأعظم قيادات البشر، ومنهم آل عمران،

فهل عرفنا أكثر بأنواع من هذا الاصطفاء لهذه الأسرة المباركة؟

جسراتصال

الجواب: نعم، وهنا يأتي:

القسم الثاني

تعظيم آل عمران ببيان كرامات مريم ؑ

[آل عمران 35-37]

آيات هذا القسم:

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُاْ أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾



فإن قلت: أكرم الله ﷻ مريم ؑ بكرامات عظيمة! فما تلك الكرامات الفريدة

التي أظهرتها الآيات في هذا القسم؟



الجواب: بصرتنا آيات هذا القسم بـ (10) كرامات لمريم عليها السلام، وهي:

الكرامة
الأولى

بداية الاصطفاء

﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ أي اذكر اصطفاءنا لمريم عليها السلام حين قالت أمها ما قالتها، فاصطفى الله ﷻ هذه المباركة اصطفاء خاصاً إضافة إلى كونها من آل عمران المذكورين بالاصطفاء في الآيتين السابقتين.

الكرامة
الثانية

الطموح العظيم لأمها امرأة عمران

والعناية الإلهية بها قبل الولادة، بجعلها محررة لله ﷻ: ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35].

بَصِيرَةٌ
١

الدعاء اصطفاء، فموقع ﴿إِذْ﴾ متصل بما قبلها

أي: واصطفى آل عمران إذ قالت امرأة عمران، و﴿إِذْ﴾ تفصيل لهذا الاصطفاء، فهي بدل اشتغال، وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران، بأن يتقبل ربه عز وجل منها نذرهما يبصرنا بقلب يعمره الإيمان، ونفس تتوقد باليقين وتمتلئ بالاطمئنان.

بَصِيرَةٌ
٢

﴿مُحَرَّرًا﴾ تبصّرنا بالمفهوم الحقيقي للحرية

فالمحرّر: هو الذي يُجعل حراً خالصاً، بأن يُعتق من رِقِّ العبودية لغير الله ﷻ، فصار الحر حقاً هو من عبد الله ﷻ وتحرّر عن دنس عبودية غيره، وأخرج الطبري رحمته الله بسند حسن عن قتادة رحمته الله قوله: "كانت امرأة عمران حرّرت لله ﷻ ما في بطنها، وكانوا إنما يحرّرون الذكور، وكان المحرّر إذا حرّر جُعل في الكنيسة لا يبرحها، يقوم عليها ويكنسها (تفسير الطبري: 332/6).

الكرامة
الثالثة

سَبَقُ تَقْدِيرِ اللَّهِ ﷻ، وَتَفَضُّلُهُ عَلَيْهَا قَبْلَ أَنْ تُولَدَ:

﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ [آل عمران: 36] في قراءة الجمهور ﴿وَضَعْتُ﴾، فتكون هذه الجملة والتي بعدها ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ من كلام الله تعالى، أي: الله سبحانه أعلم بما وضعت تعظيمًا لما وضعت، فلا داعي لأن تحزن، فسيجعل الله ﷻ فيما وضعت بركة عظيمة، أي وليس الذكر الذي طلبت أو تمنيت كالأُنْثَى التي وضعت، بَلْ هَذِهِ الْأُنْثَى خَيْرٌ مِّمَّا كَانَتْ تَرْجُو مِنَ الذَّكَرِ. (تفسير المنار 3/ 238).

وعلى القراءة الثانية قراءة شعبة وابن عامر ويعقوب ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ﴾

بَصِيرَةٌ
١

هذا كلامها، فقالت ذلك لتُعْظِمَ الله ﷻ ولتستعين به ﷻ على ما وضعت، ولم تقصد أم مريم الإخبار، بل التآلم والتَّحَسُّرَ وَالْإِعْتِذَارَ، لأن المرأة - كما قال قتادة رَحِمَهُ اللهُ -: لا تستطيع أن يُصْنَعَ بها ذلك يعني أن تحرر لعبادة الله ﷻ بصورة محضة، فتُجْعَل في الكنيسة تقوم عليها وتكنسها، فلا تبرحها مما يصيبها من الحيض والأذى، فعند ذلك قال: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ (تفسير الطبري 6/ 335).

على القراءة الثانية يكون قوله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى﴾ من كلامها إما تحزُّنًا واعتذارًا

بَصِيرَةٌ
٢

وإما مراجعة لنفسها، فتذكرت أن السميع العليم لن يخيب طموحها ورجاءها، حتى لو كانت التي وضعتها أنثى، ونحن نتذكر قولها قبل: ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: 35].

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتُ﴾

بَصِيرَةٌ
٣

تبصرنا بجمال الاتصال بالله ﷻ، وتشعرنا بحلاوة مناجاة الإنسان على هيئة شعره أنه لا يتصل إلا بالرحمن، فيحدثه بأحواله، وأعماله، وطموحاته، ويشكو إليه من التحديات والمصاعب التي يجدها في كل لحظاته، ويشعر برحمة ربه ﷻ، وهي توشك أن تخرجه من كربته إلى حال وده وقربه.

الكرامة
الرابعة

إلهام الله تعالى لها أن تسميها مريم: ﴿وَإِنِّي سَمِّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 36]:

ومعناه عند العبرانيين العابدة، وفي الآرامية: "ماري" أمة الرب، وهو الذي يعني: ﴿نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: 35] قيل: إنها سميتها على اسم أخت هارون عليه السلام، والآية تدل على أن التسمية للمولود تكون يوم ولادته، وقد قال رسول الله ﷺ: «وُلِدَ لِي اللَّيْلَةُ غُلَامٌ سَمَّيْتُهُ بِاسْمِ أَبِي: إِبْرَاهِيمَ» (مسلم: 2315).

بَصِيرَةٌ

﴿وَإِنِّي سَمِّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ تبصرنا بوجوب تخير أسماء الولد

وأن من الإحسان للأولاد تسميتهم بالأسماء المحببة كأسماء الصالحاء وأهل السبق بالخير والفضل.

الكرامة
الخامسة

حمايتها وذريتها من الشيطان الرجيم

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: 36] أي أَلجأ إليك ملتصقة بقوتك وعظمتك لتحميها وذريتها من الشيطان المرجوم باللعنة: قال ﷺ: «مَا مِنْ مَوْلُودٍ يُوَلَّدُ إِلَّا وَالشَّيْطَانُ يَمَسُّهُ حِينَ يُوَلَّدُ، فَيَسْتَهْلُ صَارِحًا مِنْ مَسِّ الشَّيْطَانِ إِيَّاهُ، إِلَّا مَرْيَمَ وَابْنَهَا». ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: و اقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ (البخاري 4548).

بَصِيرَةٌ

قد تسأل: كيف نجمع بين هذه الآية وبين وعد الله عز وجل بعدم تسلط الشيطان على عباده المخلصين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ [الحجر: 42، الإسراء: 65]، فلا تكون هناك خصوصية لمريم وابنها عليهما السلام؟

الجواب:

آية ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ تنفي سُلْطَانَ الشيطان على عباد الرحمن لا أَصْلَ الْوَسْوَسةِ، فَإِذَا وَسَّوَسَ الشَّيْطَانُ، وَلَمْ تُطْعَمْ وَسْوَستُهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ سُلْطَانٌ، والسلطان هو التسلط والاستحواذ على الشيء، وقد عصم الله ﷻ من سلك أسباب الاعتصام، ومن الأسباب على سبيل المثال: لجوء يوسف عليه السلام إلى ربه ﷻ واستباقه الباب، فعصمه الله تعالى، أما آية استعاذة أم مريم فخاصة لتطلب عصمة ابنتها وذريتها بصورة أكبر وأتم.

بَصِيرَةٌ

٣

لا يعني ذلك الأفضلية المطلقة لمريم وابنها ﷺ

ف«مَعْنَى الْحَدِيثِ أَنَّهُ لَمْ يَعُدْ لَهُ طَرِيقٌ إِلَى الْوَسْوَسةِ وَلَا إِلَى الْأَمْرِ بِالشَّرِّ قَطُّ، وَهَذِهِ مَرْتَبَةٌ عَلِيًّا لَا يَرْتَقِي إِلَيْهَا كُلُّ عِبَادِ اللَّهِ ﷻ» (تفسير المنار 3/239)، وهذا لا يدل على أفضليته على النبي ﷺ، فإن النبي ﷺ عُصَمَ مِنَ الشَّيْطَانِ أَيْضًا كَمَا فِي الْحَدِيثِ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وُكِّلَ بِهِ قَرِينُهُ مِنَ الْجِنِّ». قَالُوا: وَإِيَّاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «وَإِيَّايَ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعَانَنِي عَلَيْهِ فَأَسْلَمَ، فَلَا يَأْمُرُنِي إِلَّا بِخَيْرٍ» (مسلم: 2814).

بَصِيرَةٌ

٤

هذا الدعاء المُلحُّ من أم مريم ﷺ، يبصرنا بأن تبادر الأم إلى الدعاء لذريتها وهي في بطنها

وإذا دعت في هذه الحال فأولى أن تستمر على الدعاء بعد ذلك بخلاف الجهل العظيم من دعاء بعض الأمهات على ذريتهن في الغضب والرضا.

الكرامة
السادسة

تَقَبَّلُ اللَّهُ ﷻ لَهَا: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ [آل عمران: 37]:

قوله: ﴿بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ البَاءُ دخلت عَلَى الْمَفْعُولِ الْمُطْلَقِ لِيَصِيرَ كَالْأَلَةِ لِلتَّقَبُّلِ إِظْهَارًا لِلْعِنَايَةِ بِهَا فِي هَذَا الْقَبُولِ (التحرير والتنوير 3/235)، وكأن القبول صار كالفرش الذي ترفع بها. "ويجوز أن يكون معنى ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾: فاستقبلها، كقولك: تعجله بمعنى استعجله، وتقصاه بمعنى استقصاه، وهو كثير في كلامهم، من: استقبل الأمر، إذا أخذه بأوله وعنفوانه. ومنه المثل: «خذ الأمر بقوابله»، أي: فأخذها في أول أمرها حين ولدت بقبول حسن" (الكشاف 1/358)، وفي هذا دلالة على عاجل الرعاية الإلهية، واللفظ الرباني بها منذ كانت وليدة في المهد.

الكرامة
السابعة

تربية الله لها أحسن تربية ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 37]:

صَوَّرَ لَفْظُ الْإِنْبَاتِ مَرَاهِلَ نُمُوها الجسدية والعقلية والقلبية بأحسن صورة بما يصلحها في جميع أحوالها، كالنبات ينمو على أحسن الوجوه.

الكرامة
الثامنة

اختيار الله لها نبياً عظيماً يرعاها: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ [آل عمران: 37]:

وبذلك تتكون لها أسباب السعادة، فسيكون كافلها القدوة العظمى علماً وعملاً، ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ في قراءة الكوفيين بالتشديد أي: إن الله ﷻ جعل زكريا ﷺ كافلاً لها عندما وفقه، فجعل قلمه الفائز عند الاستهام، فقد أخرج الطبري رحمه الله بسند صحيح عن مجاهد رحمه الله: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ قال: "سَمَّيَهُمْ بِقَلَمِهِ" (تفسير الطبري: 350/6)، فأسند الله ﷻ كفالتها لني هوزكريا، فهل تقبل زكريا ﷺ كفالتها؟

بَصِيرَةٌ

تُصَوِّرُ قِرَاءَةَ نَافِعٍ وَمِنْ مَعَهُ ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ بِالتَّخْفِيفِ

أن زكريا عليه السلام تقبل ما أوكله الله ﷻ إليه، فقام بكفالتها حق القيام. وزكريا ﷺ هوزوج أخت امرأة عمران كما ورد في الصحيح:

«فَإِذَا يَبْحِي وَعِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهُمَا ابْنَا خَالَةٍ» (البخاري: 3430).

بَصِيرَةٌ

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ تبصرنا بأن من سعادة الوليد أن ينشأ في كنف مُربيٍّ صالحٍ مُصلحٍ من أبٍ شفيقٍ

أولي، أو وصيٍ ناصح.

الكرامة
التاسعة

رَزَقُ اللَّهِ ﷻ لَهَا رِزْقٌ غَيْرُ مَعْتَادٍ

﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: 37]:

فعن مجاهد رحمه الله قال: "عنباً وجدته زكريا عند مريم ﷺ في غير زمانه". (الطبري 355/6)، ويصح أن يكون المعنى وجد عندها زرقاً كثيراً عجباً في أيام جوع، والمِحْرَاب: هو الموضع العالي الشريف، مُشْتَقٌّ مِنَ الْحَرْبِ؛ لِأَنَّ الْمُتَعَبِدَ كَأَنَّهُ يُحَارِبُ الشَّيْطَانَ فِيهِ، فَكَأَنَّهُمْ جَعَلُوا ذَلِكَ الْمَكَانَ آلَةً لِحَرْبِ الشَّيْطَانِ -أي

لمحاربته- (التحرير والتنوير 237/3).

الكرامة
العاشرة

مَلَّءُ قَلْبِهَا بِالْيَقِينِ، وَتَحْرِيكَ لِسَانِهَا بِالْكَلَامِ الْمَحْكَمِ الْمُبِينِ

المشرق بأنوار حكمة الله ﷻ ذي القوة المتين: ﴿قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37]، فاحتفظت بسرّها متواضعة، وأثنت على ربّها ﷻ.

وقولها:

﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

أَيُّ: بِغَيْرِ حَصْرِ لِكَثْرَتِهِ، وَمِنْ غَيْرِ مَسْأَلَةٍ، فَكَيْفَ مَنْ يَسْأَلُ؟

بَصِيرَةٌ

من كمال العبودية لله ﷻ

نسبة الكرامات إليه، وهضم الذات في جنبه، والاستغراق في شكره، والثناء عليه، وإعادة سوابق الفضل إليه.

جسرات اتصال

عرفنا أن المحور الثاني يبين القصة الحقيقية لآل عمران، وهي أسرة عيسى وأمه ﷺ، وحقيقة دينهما، ومكانتهما العظيمة عند المسلمين [آل عمران 33-63]، وعرفنا أن القسم الثاني منه تحدث عن عظمة آل عمران، وكرامات مريم ﷺ، فهل أثرت كرامات مريم ﷺ على ما حولها؟

الجواب: هنا يأتي:

القسم الثالث

التأثير الإيماني الإيجابي لمريم على نبي الله زكريا عليه السلام حتى أكسبه الله تعالى كراماتٍ جديدة، ويظهر في هذا القسم تشابك حياة أسرتهما عليهما السلام [آل عمران 38-41].

وفيه مشهدان:

التأثير الإيجابي الإيماني المباشر لمريم على زكريا عليه السلام

مشهد
(1)

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ وَقَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ۝﴾

كرامات آل زكريا عليه السلام [آل عمران 39-41].

مشهد
(1)

مشهد

(١)

التأثير الإيجابي الإيماني المباشر لمريم على زكريا ﷺ

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ وَقَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ٣٨﴾
وفيه (١١) بصيرة:

بصيرة

١

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾

﴿هُنَالِكَ﴾ أي: في ذلك الزمان والمكان الذي رأى زكريا كرامات مريم ﷺ حدث له تغير، فدعا ربه ﷻ، وذلك لأن الحكمة ضالة المؤمن، فتدكر سعة رحمة الله ﷻ، ونبذ اليأس، وعلم أنه لا يوجد مستحيل أمام قدرة الله ﷻ، ولجأ إلى أعظم الأسباب الشرعية بعد انقطاع الأسباب الأرضية في طلب الذرية، وهو الدعاء الصادق.

بصيرة

٢

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ فيه إشارة إلى بعض مظان إجابة الدعاء، ومنها:

٢ تخير الأماكن والبقاع التي يستجاب فيها الدعاء.

١ تخير الأوقات الفاضلة التي يستجاب فيها الدعاء.

بصيرة

٣

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾

بصرتنا بالاستباق في مضمار الطاعات، والمنافسة في القرب من رب الأرض والسموات.

بصيرة

٤

﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾

تبصرنا بأن نستثمر الفرص، ونغتني الأوقات لاستنزال البركات من الله ﷻ عظيم الفضائل والهبات.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ﴾

تبصرنا بانتفاع الفاضل بحال المفضول أو مقاله، فهذا زكريا نبي الله ﷺ ألهم الدعاء في هذا الموطن لما رأى من حال مريم عليها السلام.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿هَٰذَاكَ دَعَا زَكْرِيَّا رَبَّهُ﴾

تبصرنا أن مخالطة أهل القرب من الله ﷻ تكون سبباً في أن تسري أنوارهم، وبركات أحوالهم إلى من يجالسهم ويصحبهم.

بَصِيرَةٌ

٧

دعا زكريا ﷺ لسببين:

٢

عين اليقين تزيد من إيمان المؤمنين

فلما رأى زكريا كرامة مريم عليها السلام ازداد شعوراً بأن الله ﷻ سيُليّ له رجاء غير معتادٍ تليّته، وهو الولد مع عقم المرأة، وكبر الرجل، فقلوه ﴿هَٰذَاكَ﴾ لا ينفي أنه كان قبل ذلك عالماً بقدرة الله ﷻ على إعطائه معجزةً بالولد

١

رؤية مريم عليها السلام

والله ﷻ يرزقها الرزق المادي، ويرزقها هذه الإجابة المدهشة عندما قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: 37]، فرؤية الأولاد النجباء تُشوق النفس، وتُهيّجُ الأمنية بأن يرزق الله ﷻ الإنسان مثلهم (تفسير المنار 3/ 243).

ويبين ابن عباس رضي الله عنهما ذلك بقوله: كفلها زكريا ﷺ، فدخل عليها المحراب، فوجد عندها عنباً في مكثٍ في غير حينه، قال زكريا ﷺ: ﴿أَنَّىٰ لَكَ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [٢٧] قال: إن الذي يرزقك العنب في غير حينه لقادر أن يرزقني من العاقر الكبير العقيم ولداً. (المستدرک: 3150، وصححه الذهبي).

بَصِيرَةٌ

٨

في هذا بيان أن محبة الولد وعاطفة الأبوة غريزة فطرية

لا ينفك عنها حتى الأصفياء من أنبياء الله ورسله ﷺ.

بَصِيرَةٌ

٩

﴿قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ﴾ يبصرنا بقدرة الله ﷻ على التحكم بالأسباب

لأن حُصُولَ الْوَلَدِ فِي الْعُرْفِ وَالْعَادَةِ لَهُ أَسْبَابٌ مَخْصُوصَةٌ، فَلَمَّا طَلَبَ الْوَلَدَ مَعَ فَقْدَانِ تِلْكَ الْأَسْبَابِ كَانَ الْمَعْنَى: أُرِيدُ مِنْكَ إِلَهِي أَنْ تَعَزِّلَ الْأَسْبَابَ فِي هَذِهِ الْوَاقِعَةِ، وَأَنْ تُحْدِثَ هَذَا الْوَلَدَ -مِنْ لَدُنْكَ- بِمَحْضِ قُدْرَتِكَ مِنْ غَيْرِ تَوَسُّطِ شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ. (تفسير الرازي 8/ 210).

بَصِيرَةٌ

١٠

﴿هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً﴾

تبصرنا كلمة ﴿طَيِّبَةً﴾ بربط أي سؤالٍ من خير الدنيا بما يؤدي إلى خير الآخرة، فسأل الله ﷻ «الذُرِّيَّةَ الطَّيِّبَةَ لِأَنَّهَا الَّتِي يُرْجَى مِنْهَا خَيْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ بِحُصُولِ الْأَثَارِ الصَّالِحَةِ النَّافِعَةِ». (التحرير والتنوير 3/ 238).

بَصِيرَةٌ

١١

﴿إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾

المراد بالسمع هنا الإجابة، فالله ﷻ يسمع كلَّ شيء، أي: أنت تجيب دعوة الداعي، فتوسَّل وتَحَبَّبَ إلى الله عز وجل بذكر هذه الصفة العظيمة.

مشهد
[٢]

كرامات آل زكريا ﷺ

[آل عمران 39-41]

آيات المشهد:

﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِّي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَذَكَرَ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَرِ ﴿٤١﴾﴾



قد تسأل: ما الكرامات التي أكرم الله ﷺ بها آل زكريا عليهم السلام؟

الجواب: بصرتنا آيات هذا المشهد بـ (١٠) كرامات لآل زكريا ﷺ، وهي:

الكرامة
الأولى

نداء الملائكة له ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [آل عمران: 39]

فليس ملكًا واحدًا بل أكثر.

الكرامة
الثانية

لزوم المحارب ليحقق في حياته ما يُستطاب

وببصرنا بذلك قوله: ﴿وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمَحَارِبِ﴾ [آل عمران: 39]، فأعظم الكرامة لزوم الاستقامة

و(المحراب) كلمة تبصرنا بحال المحبين في لزوم محراب العابدين على حد قول من ذاق فعرف:

بأشْرَ المحراب يشكو بئته *** وأمامَ الله موله وقَفْ
قائماً قدَّامه مُنْتَصِباً *** لهجاً يتلو بآياتِ الصُّحُفِ
راكعاً طَوَّراً وطَوَّراً ساجداً *** باكيّاً والدَّمْعُ في الأرضِ وكَفْ

(المحبة لله سبحانه لأبي إسحاق الخنّلي)

والمحْرَابُ يطلق على صدر البَيْتِ، وعلى أكرم مَوْضِعٍ فِيهِ، وهو سَيِّدُ المَجَالِسِ، ويطلق على المكان الشريف المخصص للصلاة أو المخصص لعبادٍ بعينه.

الكرامة الثالثة

التبشيرُ الإلهيُّ له بما يحب ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران: 39]

فالمبليغ الملائكة عليهم السلام، والمبشّر الله تعالى. تصور المشهد! كيف يكون سروره وفرحه بذلك؟! اللهم نسألك من فضلك ورحمتك.

الكرامة الرابعة

تسمية ولده يحيى من عند الله تعالى

وهو اسمٌ غير معتادٍ عند البشر ليدل على صفة الحياء والحياء:

قال قتادة رحمته الله: ﴿أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى﴾ [آل عمران: 39] "عبدُ أحياء الله تعالى بالإيمان" (تفسير ابن أبي حاتم: 641/2)، والكلمة تدل على الحياتين الجسدية والقلبية، فيحيا حياةً طيبةً في الجهتين، وقيل: بل هو من حيي حياءً، والحياء من الإيمان.

الكرامة الخامسة

﴿مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 39] أي: كَامِلُ التَّوْفِيقِ إِلَى التَّصْدِيقِ

فيعلن تصديقه بكلمة الله عيسى عليه السلام، فعيسى عليه السلام رَسُولٌ وُلِدَ بكلمة الله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ [النساء: 171]، وسُيِّيَ بذلك؛ لَأَنَّهُ خُلِقَ بكلمة الله تعالى دون سُنَّةِ البشر في التوالد.

الكرامة
السادسة

﴿وَسَيِّدًا﴾

في قول مجاهد وقتادة وغيرهما: السيد مَنْ جَمَعَ صفات السيادة في العبادة والحلم والعلم والورع والكرامة على الله ﷻ، والسيادة إشارة إلى أمرين:

٢

١

وَالثَّانِي: ضَبُطُ مَصَالِحِهِمْ فِيمَا يَرْجِعُ إِلَى مَصَالِحِ

الدنيا. (تفسير الرازي 8 / 213).

أَحَدُهُمَا: قُدْرَتُهُ عَلَى ضَبْطِ مَصَالِحِ الْخَلْقِ وَفَقِ

الدين.

الكرامة
السابعة

﴿وَحَصُورًا﴾ فَجَعَلَهُ اللَّهُ ﷻ حَصُورًا

وَهُوَ مَنْ يَحْبِسُ نَفْسَهُ عَنِ الذُّنُوبِ وَالشَّهَوَاتِ الْمَحْرُومَةِ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَيْهَا.

الكرامة
الثامنة

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 39]: فَجَعَلَهُ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ:

وذكر الصلاح مع أن النبوة أعلى مراتب الصلاح؛ لبيان تمام عبوديته وقدرته على فعل الصالح للخلق، فلم تجعله النبوة يتعاضم في نفسه، بل النبوة تزيد من صفة الصلاح فيه ليكون أصلح الصالحين في القرب من رب العالمين.

بَصِيرَةٌ

﴿وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ تبصرنا بأن الله ﷻ إذا أعطى أدهش بعطائه

فذكرنا ﷺ سأل ربه ﷻ أن يرزقه ولدًا، فجاءته البشارة بما طلب، وفوق ذلك بُشِّرَ بأن هذا الولد نبيٌّ يوحى إليه، وهذه البشارة الثانية - من دون ريب - أعظم من الأولى.

الكرامة
التاسعة

إكرام آل زكريا ﷺ بولادة يحيى على نحو غير معتاد بشرياً

إذ جاء على كبر أبيه، وعقر أمه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي كُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: 40].

بَصِيرَةٌ

﴿قَالَ رَبِّ﴾ تبصرنا بأن مناجاة الله ﷻ أنساً ومحبةً وتلذذاً تكشف الظلماء، وتبهر آفاق السماء

فالملائكة نادى زكريا عليه السلام بما سبق تشريعاً وتعظيماً، لكنه لما تعجب من تبشيرهم عاد إلى ربه عز وجل مؤثراً مناجاته ومناداته على ندائهم، ومع أنسه بملائكة ربه عز وجل إلا أن أنسه بالله ﷻ أعظم، فلذا ترك الكلام معهم إليه.

بَصِيرَةٌ

﴿إِنِّي كُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾

تبصرنا بأن الفرح برحمة الله ﷻ لا يمنع سؤال الكشف عن آياته، فهذا السؤال ليس للاستبعاد بل للتشوق إلى معرفة كيفية حدوث أمر غير معتاد عند البشر، فهناك أمران يمنعان من الإنجاب:

٢ عقر المرأة أي عدم قدرتها على الإنجاب

﴿وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ والعقر عدم الحمل، وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ: لَا يُنْبِتُ شَيْئًا.

١ كبر السن ﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ﴾

وحدد مدى كبره، فقال تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8] والعِتِيُّ: اليبس والقحول في المفاصل والعظام من شدة الكبر.

فمعنى السؤال: كيف ذلك مع كبر سني وعقر زوجتي؟ هل ذلك مع حالتنا هذه أم سيكون بترتيب آخر كإعادتي شاباً؟ فكان الجواب أن ذلك مع حالتك؛ لأن الله يفعل ما يشاء.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿وَقَدْ بَلَغَ الْكِبَرُ وَأُمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾ يبصرنا الترتيب للسببين هنا في سورة آل عمران

بأنه بدأ بذكر ما يعنيه من أسباب تخلف الولد قبل ذكر ما عند زوجته، وهذا عين الإنصاف والعدل؛ بخلاف صنيع أهل الجهل الذين يسارعون إلى تحميل المرأة وزر عدم وقوع الحمل بعد الزواج، رغم أن الحمل وعدمه في جميع الأحوال موكل إلى إرادة الله ﷻ العظيم المتعال.

بَصِيرَةٌ

٤

سنسأل متدبرين: كيف نجمع بين البصيرة السابقة، وبين ما ورد في سورة مريم ﷻ؛

إذ قال الله ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾

[مريم: 8]، فقدم ما يتعلق بامرأته على ما يتعلق به؟

الجواب:

٢

وأما ما يتعلق بالمعنى

فيظهر لي بادي الرأي أن موضوع إنجابه كبير، فكرر السؤال مرتين، قدّم في إحدهما ما يتعلق به، وفي الأخرى قدّم ما يتعلق بها، وسبب تقديمه في الأخرى لما يتعلق بها أن الرجل مهما كبر يحتمل أن ينجب بخلاف المرأة في العادة، أو أنه سأل مرة واحدة وأظهر في موضع آل عمران شيئاً وفي مريم شيئاً آخر.

١

أما بالنسبة لحفظ القرآن

لئلا يقع في الغلط بسبب التشابه، ففي سورة آل عمران -وهو اسم رجل- قدم ما يتعلق بالرجال، وفي سورة مريم -وهو اسم امرأة- قدم ما يتعلق بالنساء.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿وَقَدْ بَلَغَ الْكِبَرُ﴾ تبصرنا بأن الكبر يطلب الإنسان، فليعد له عدته

فقال: ﴿بَلَغَ الْكِبَرُ﴾، ولم يقل: بلغت الكبر، فكان الكبر يطارد الإنسان ولا يمكنه أن يهرب منه، والعبارة صيغت هذه الصياغة الرائعة تحذيراً للإنسان من أن يغتر بشبابه وفتوته، كقوله تعالى: ﴿يَتَمَتَّكُوا﴾ يُدْرِكُ الْمَوْتَ [النساء: 78]، فالموت هو الذي يطارد الإنسان، وهذا المعنى لا ينافي ما ورد في سورة مريم ﷻ؛ إذ قال زكريا ﷻ: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا﴾ [مريم: 8] لأنه هناك يصف نفسه، وأنه كما يطلبه الكبر، فسنة الله ﷻ أنه هو أيضاً سائر إليه، والمعنيان يجتمعان على حتمية ذلك، وأنه لا مفر منه، ولو استطاع الإنسان أن يغير سيره إلى الكبر لفعل، ولكنه لا يستطيع، فالحلهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا أبداً ما أبقيتنا، واجعله الوارث منا.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَأَمَرْتُ عَاقِرٌ﴾ يَبْنِي قُوَّةَ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْإِنْجَابِ

وفي الوقت نفسه يبصرنا ذلك بالمشهد العظيم: فبين يدي الله ﷻ وفي رحاب كرمه تُحطُّ الرحالُ، ويُحلُّ كلُّ إشكالٍ، وتُشكى أنواعُ الهمومِ، وتُبثُّ كلُّ الغمومِ، وتُطرحُ جميعُ المشكلاتِ، وتُعرضُ مختلفُ المعضلاتِ.

بَصِيرَةٌ

٧

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ يَبْنِي قُوَّةَ الْأَسْبَابِ الْمَانِعَةِ مِنَ الْإِنْجَابِ

تبصرنا بالتماس العذر لمن تذكره بالبدهييات عندما يصدر عنه ما يدل على عدم استحضارها، فإن زكريا عليه السلام يعلم أن الله يفعل ما يشاء، ولكن الله ﷻ خاطبه بذلك لتذكيره، فهو بشر قد ينسى مثل هذا، وما أكثر ما ننسى نحن، فإن نسينا فينبغي أن يذكر بعضنا بعضاً، ولا يقال عند محاولة إصلاح أحدٍ وبخاصة قيادات العمل الإداري أو الدعوي: هل تظن أنه لا يعرف ذلك؟
الجواب: قد يعرف ما نحاول تذكيره به، ولكنه بشر، ولن يكون خيراً من زكريا عليه السلام.

بَصِيرَةٌ

٨

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ تَبْصُرُنَا كَلِمَةً ﴿قَالَ﴾

أن الحوار لم يعد يجري بين زكريا والملائكة فيما يظهر، بل بين زكريا وربّه سبحانه ويحتمل أن يكون ذلك بواسطة الملائكة

الكرامة
العاشرة

جعل آية غير معتادة تدل على حمل أم يحيى به

﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا زَمْزَماً وَذَكَرَ رَبِّكَ كَثِيراً وَسَبِّحَ بِالنَّعِثِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾ [آل عمران: ٤١]، وفيها (٥) بصائر:

بَصِيرَةٌ

٩

﴿اجْعَلْ لِي آيَةً﴾

لِفَرْطِ سُرُورِهِ، وَثَقْتِهِ بِكَرَمِ رَبِّهِ ﷻ، أَحَبَّ أَنْ يَجْعَلَ لَهُ عَلَامَةً تَدُلُّ عَلَى حُصُولِ عُلُوقِ الْوَلَدِ بِرَحْمِ أُمِّهِ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبُهُ، وَيُبَشِّرَ أَهْلَهُ؛ لِأَنَّ الْعُلُوقَ لَا يَظْهَرُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ. (تفسير الرازي 215/8).

بَصِيرَةٌ

٢

﴿قَالَ آيَاتُكَ لَا تُكَلِّمُ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا وَادَّكَّرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾

أُخْبِرْنَا بِأَنَّ عِلَامَةَ حُصُولِ الْحَمْلِ أَنَّهُ سَيَفْقِدُ قُدْرَتَهُ عَلَى كَلَامِ النَّاسِ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، إِلَّا مِنَ الذِّكْرِ وَالتَّسْبِيحِ الْذَاتَيْنِ فِي وَقتَيْنِ: الْعِشِيِّ (مِنَ الزَّوَالِ إِلَى الْغُرُوبِ)، وَالْإِبْكَارِ (مِنَ الْفَجْرِ إِلَى الشُّرُوقِ)، فَإِذَا احْتَجَّ إِلَى خِطَابِ النَّاسِ أَوْ مِمَّا إِلَيْهِمْ إِيْمَاءً بِشَفْتِيهِ، أَوْ عَيْنِيهِ، أَوْ بِمَا يَكُونُ بِهِ الْإِيْمَاءُ، فَتَكُونُ بِشَارَتُهُ لِأَهْلِهِ بَعْدَ مُضِيِّ الثَّلَاثَةِ أَيَّامٍ. (تفسير المنار 3/246).

بَصِيرَةٌ

٣

وجه الآية (المعجزة) هنا عدم قدرته على مخاطبة آدميين

مع قدرته على الذكر والتسبيح، فهذا يدل على أنه صاحب طبيعة جسدية سليمة.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿وَسَبِّحْ﴾ يصح أن يراد التسبيح المعروف، وخص من الذِّكْرِ، من باب ذكر الخاص بعد العام

ويحتمل أن يكون المعنى: وَصَلٍ؛ لِأَنَّ الصَّلَاةَ تُسَمَّى تَسْبِيحًا (تسمية لكل بالجزء الأهم).

بَصِيرَةٌ

٥

﴿وَادَّكَّرَ رَبُّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعِشِيِّ وَالْإِبْكَرِ﴾

تبصرنا بأن تجدد النعم تستوجب ذكر المنعم وشكره وتسبيحه بالغدايا والعشايا، وفي جميع الأوقات.

جسر اتصال

عرفنا أن المحور الثاني يبين القصة الحقيقية لآل عمران، وهي أسرة عيسى وأمه عليهما السلام، وحقيقة دينهما، ومكانتهما العظيمة عند المسلمين [آل عمران 33-63]، وعرفنا أن القسم الثالث يُبرز لنا التأثير الإيماني الإيجابي لمريم على نبي الله زكريا عليهما السلام حتى أكسبه الله ﷻ كراماتٍ جديدة [آل عمران 38-41]، فما القسم الرابع؟

الجواب: هنا يأتي:

القسم الرابع

يظهر الإعلان الملائكي لاصطفاء مريم على العالمين، وبين مقتضياته العظيمة التي
تفصل واجبات العبودية التي تلزمها عليها السلام [آل عمران: ٤٢-٤٤].

آيات هذا القسم:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيءُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَمْرِيءُ
أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ
إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذِ اتَّخَذُوا صَوْمًا ﴿٤٤﴾﴾

وفيه ثلاثة مشاهد:

اصطفاء مريم عليها السلاممشهد
(١)

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرِيءُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: 42].

واجبات الاصطفاء

مشهد
(٢)

﴿يَمْرِيءُ أَقْنَتِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [آل عمران: 42].

القصص السابقة من أعظم براهين النبوة

مشهد
(٣)

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ...﴾ [آل عمران: 42].

مشهد
(1)

اصطفاء مريم عليها السلام:

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 42].

فذكر الله عز وجل خمسة مظاهر لاصطفائها:

المظهر الأول

اتصال تكريم مريم بكرامات آل زكريا عليهم السلام

وببصرنا بذلك الواو في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ﴾ [آل عمران: 42] فالواو وصلت ما بعدها بما قبلها، فبعد ذكر الحال العظيم الذي ظهر على زكريا تأثراً بمريم عليها السلام، والإعلان عن ولادة يحيى عليه السلام على هيئة معجزة، أراد الله عز وجل إظهار الإعلان العظيم الذي يوضح اصطفاء مريم عليها السلام على نساء العالمين.

المظهر الثاني

كلام الملائكة مع مريم مباشرة

وببصرنا بذلك قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا﴾ [آل عمران: 42]، وهذا يظهر مكانتها العظيمة، ولم يتكلم معها ملك واحد هنا، بل أكثر من ملك بحسب ظاهر الآية كما تكلم مع زكريا عليه السلام أكثر من ملك.

المظهر الثالث

اصطفاء الله عز وجل لها بصفاتها

﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ [آل عمران: 42]، فالله عز وجل هو الذي اصطفاهَا، أي: جعلك صفوة الموجودين، فاخترتك بما حباك به من الصفات المميزة.

المظهر الرابع

﴿وَطَهَّرَكِ﴾ أي من الآفات المنقصة، والرذائل الصغيرة والكبيرة

وقيل: طَهَّرَكِ بَعْدَ الْحَيْضِ، وليس صحيحاً؛ لأن الله عز وجل قد كتبه على بنات آدم، ويدخل فيهن بقية سيدات نساء العالمين، فلا وجه لاستثناء مريم عليها السلام دون دليل صريح، وإذا قيل طهر الله عز وجل فلاناً، فلا يعني هذا أن الأعراض البشرية لا تجري عليه، فقد قال الله -جل مجده- عن مريم وابنها عليهما السلام: ﴿وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: 75].

المظهر الخامس

اصطفأؤها على غيرها من النساء: ﴿وَأَصْطَفٰكَ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعٰلَمِيْنَ﴾ [آل عمران: 42]

«بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق»، فهي من سيدات نساء العالم؛ إذ قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمَلْ مِنَ الرِّجَالِ كَثِيرٌ، وَلَمْ يَكْمُلْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا أَسِيَّةُ امْرَأَةِ فِرْعَوْنَ، وَمَرْيَمُ بِنْتُ عِمْرَانَ، -وذكر في حديث آخر أيضاً خديجة وبدأ بها، وفاطمة ثم قال- وَإِنَّ فَضْلَ عَائِشَةَ عَلَى النِّسَاءِ كَفَضْلِ الثَّرِيدِ عَلَى سَائِرِ الطَّعَامِ». (البخاري: 3411).

فالاصطفاء الأول يبين أن الذي اصطفأها هو الله ﷻ، والاصطفاء الثاني يبين أن الاصطفاء عام على نساء العالمين، لكنه لا يشمل غير ذلك.



هنا يأتي السؤال: إن كان الله عز وجل قد اصطفاه، فهل يرفع ذلك عنها القلم، فتصنع ما يحلو لها؟

جسر اتصال

الجواب: لا! بل تزداد واجبات العبودية عليها بسبب هذا الاصطفاء، وهنا يأتي:

واجبات الاصطفاء

مشهد
[٢]

﴿يَمْرِمُ أَفْئَتِي لِرَبِّكَ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]، وفيه (6) بصائر:

بَصِيرَةٌ
١

﴿يَمْرِمُ أَفْئَتِي لِرَبِّكَ﴾ [آل عمران: 43]

النداء للتشريف والتكليف، والقنوت يعني دوام الطاعة في خضوع وخشوع.

بَصِيرَةٌ
٢

﴿وَأَسْجُدِي﴾ [آل عمران: 43] قَدَّم السجود؛ لأنه أدخل في الشكر، وأعظم دلائل العبودية وأبهاها

وليرد ﷺ على إجرام المحرفين لدين المسيح الأمين ﷺ ممن منع السجود لله ﷻ، وتصوران أتباع مريم اليوم لا يكاد يوجد واحد منهم يسجد لله ﷻ! فما أفضع هذا التحريف، فكيف يزعمون اتباع مريم وابنها ﷺ، وهم لا يتذوقون حلاوة السجود؟!

بَصِيرَةٌ
٣

﴿وَأَسْجُدِي﴾ [آل عمران: 43]

يرد الله -تعالى شأنه- بذلك على من رفعها فوق مقامها، وأعطاه شيئاً من الألوهية.

بَصِيرَةٌ
٤

قدم الله -تعالى مجده- القنوت على السجود ليبين خشوعها في سجودها

فليس هو مجرد حركة خالية من روح العبادة.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ يحتمل الركوع العبادي المعروف

وآخره لبيان أهمية السجود، ويحتمل أن يُراد به الركوع بمعنى التواضع، والجمع في قوله: ﴿مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ يحتمل أن يذكر الله ﷻ لها ذلك لتعلم أنها ليست أول راکعة، فما أكثر الراكعين في الأرض قبلها وبعدها ومعها، ويحتمل أن يُراد بذلك أن تشهد صلاة الجماعة في مكانها؛ لأن أمها نذرتها لتكون في مكان الصلاة.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾

تبصرنا بشرف الاندراج في سلك عباد الله ﷻ الراكعين، والانضمام إلى ركب الربانيين المتبتلين من الأولين والآخرين.

جسرات اتصال

انتقل الحديث من بيان خطاب الملائكة لمريم عليها السلام إلى التعليق على نقل هذه الأحداث، وهنا يأتي:

مشهد
[٣]

القصص السابقة من أعظم براهين النبوة

﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ [آل عمران: ٤٤]، وفيه (6) بصائر:

بَصِيرَةٌ
١

﴿ذَلِكَ﴾ القصص المتقدمة ﴿مِنْ﴾ بعض ﴿أَنْبَاءِ﴾ أخبار مهمة من ﴿الْغَيْبِ﴾ التي لم تحضرها فنقلناها لك صادقة ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ فنُعلِّمُكُ به إعلامًا يخفى عن حوكك، لتثق بصدق نبوتك، وارتفاع علمك الذي علمك الله ﷻ إياه.

بَصِيرَةٌ
٢

نفى عن النبي ﷺ علم الغيب ليؤكد على أنه يتلقى علمه من الله

وليقيم الحجة على أهل الكتاب وغيرهم، وليرد على المنكرين للنبوة:

٢ والملاحدون المستهزئون يقال لهم:

إن هذا الرجل أمي، وأميته دليل نبوته فآمنوا به، فلو كان عالمًا نحريًا، أو ذكيًا عبقريًا ل قيل: إنه اعتمد على ذكائه في التلفيق والافتراء، ولكن الله ﷻ ينفي عنه هنا العلم السابق بهذه التفاصيل.

١ فالكافرون من أهل الكتاب وغيرهم يقال لهم:

لقد أخبركم بتفاصيل لا يمكنه أن يعلمها من تلقاء ذاته، وما ذاك إلا بوحى من الله ﷻ، وأخبركم بتفاصيل أخفاها من زور تاريخ المسيح ﷺ من أعدائه، ومن الذين يزعمون أتباعه، فإن هذه التفاصيل ليست موجودة عند الفريقين.

مشروعية التنافس على الخير

بَصِيرَةٌ
٣

وببصرنا بذلك قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَمْ يَكْفُلْهُمْ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: 44]، فتنافس علماء بني إسرائيل، فاقترعوا فيها بأقلامهم أيهم يكفل مريم عليها السلام، وهم يكتبون الوحي. (تفسير الطبري 6/ 408).

بركة الدعاء، وببصرنا به قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾

بَصِيرَةٌ
٤

أي: «وَمَا كُنْتَ هُنَاكَ؛ إِذْ يَتَفَارَعُونَ عَلَى التَّكْفُلِ بِهَا، وَإِذْ يَخْتَصِمُونَ بِسَبَبِهَا، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ بِهَذَا الْاِخْتِصَامِ مَا كَانَ قَبْلَ الْإِقْرَاعِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ اخْتِصَامًا آخَرَ حَصَلَ بَعْدَ الْإِقْرَاعِ، فَلَمَقْصُودُ مِنَ الْآيَةِ شِدَّةُ رَغْبَتِهِمْ فِي التَّكْفُلِ بِشَأْنِهَا، وَالْقِيَامُ بِإِصْلَاحِ مُهْمَاتِهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِدُعَاءِ أُمِّهَا». (تفسير الرازي 8/ 220).

قصة زكريا وإنجابه ليحيى، وقصة اصطفاء مريم عليها السلام بهذه التفاصيل الرائعة لم ترد في الأنجيلبَصِيرَةٌ
٥

بل ورد في إنجيل لوقا شيء يسير عما دار بين الملك وزكريا عليه السلام، ولذا قال الله تعالى هنا: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾، فهو «إِيْمَاءٌ إِلَى خُلُوكَتِهِمْ عَنْ بَعْضِ ذَلِكَ، وَإِلَّا لَقَالَ: وَمَا كُنْتَ تَتْلُو كُتُبَهُمْ». (التحرير والتنوير 3/ 245).

من التفاصيل التي لا توجد في أناجيلهم:

بَصِيرَةٌ
٦

كون زكريا عليه السلام دعا ربه تعالى بعد رؤية كرامات مريم عليها السلام، والقصة في إنجيل لوقا (1: 20) مثلاً تذكر أن إمساك زكريا عن الكلام عقوبة بدلاً من أن تكون كرامة؛ إذ قال له جبريل عليه السلام: "وها أنت تكون صامتاً، ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذي يكون فيه هذا؛ لأنك لم تصدق كلامي".
قارن هذا الكلام الغريب بما أظهر الله -جل ثناؤه- في القرآن من عظمة هذا النبي وإعطاء الله تعالى له آية.

عرفنا أن القسم الرابع من المحور الثاني يظهر الإعلان الملائكي لاصطفاء مريم على

العالمين، ويبين مقتضياته العظيمة التي تفصل واجبات العبودية التي تلزمها عليها السلام [آل عمران: 42-44]، فما القسم الخامس؟

جسراتصال

الجواب:

القسم الخامس

مراحل حياة عيسى عليه السلام وتبليغه رسالة الإسلام [آل عمران ٤٥-٥٧].

وفيه ٥ مراحل تشمل حياته من الولادة إلى رفعه إلى السماء:

مرحلة ١

تفصيل كيفية ولادة عيسى عليه السلام

وفيها نرى مظاهر العظمة والإعجاز في ولادته عليه السلام [آل عمران: 45-47]

مرحلة ٢

تحدثنا عن نبوته ورسالته بعد أن نما النمو المعتاد

وفيها نرى (6) مظاهر لعظمة الرسالة الإسلامية لعيسى عليه السلام [آل عمران 48-49]

مرحلة ٣

تخبرنا عن الأركان التي امتازت بها الرسالة الإسلامية التي بعث الله ﷺ بها عيسى عليه السلام

[آل عمران: 50-51].

مرحلة ٤

تحدثنا عن ردة فعل بني إسرائيل على دعوة عيسى ونبوته عليه السلام

[آل عمران 52-53].

مرحلة ٥

نهاية الوجود الأول للمسيح عليه السلام على وجه الأرض

والأحداث المستقبلية التي ستقع بعد نهاية وجوده الأول [آل عمران 54-57].

مرحلة

تفصيل كيفية ولادة عيسى عليه السلام

وفيها نرى مظاهر العظمة والإعجاز في ولادته عليه السلام [آل عمران: 45-47]

وفيها ١١ مظهراً:

آيات هذه المرحلة:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: 45-47].

المظهر (١)

الملائكة تنقل إلى مريم البشارة بولادة ابنها عيسى عليه السلام:

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ [آل عمران: 45]، وذكرت الملائكة أن التبشير من الله ﷻ ليمثل الخطاب ما حدث لزكريا عليه السلام؛ إذ خاطبته الملائكة تخبره أن الله ﷻ يبشره بيحيى عليه السلام: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِيَحْيَىٰ﴾ [آل عمران: 39]، فكما كانت ولادة يحيى عليه السلام معجزة بتبشير الله ﷻ لأبيه، فكذلك ستكون ولادة عيسى عليه السلام معجزة.

المظهر (٢) خلقه الله ﷻ بكلمة (كُنْ)، فصار لقبه (كلمة الله) بناء على ذلك، وببصرنا بهذا قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾

والمُرَادُ مِنْ كَلِمَةٍ (مِنْ) فِي ﴿مِّنْهُ﴾ ابْتِدَاءُ الْغَايَةِ، وليس التبويض كما تزعم النصارى والحلولية، وهذا واضح، فنحن نقول على سبيل المثال: هذه كلمةٌ مني أي صدرت عني، ومثلها: كلمتي.

وإنما لُقِبَ بكلمة الله مع أن كلَّ شيءٍ في الكون يحدث بها

للمبالغة في وضوح أنه بكلمة الله ﷻ مع نقص الأسباب المعتادة، فكلُّ مولود يولد بكلمة الله ﷻ، إلا أن السبب المعتاد موجود، وهو وجود الأب والأم، بينما فُقِدَ وجود الأب بالنسبة لعيسى ﷺ.

المظهر (٣) الله تعالى هو الذي سمَّاه كما سَمَّى يحيى ﷺ إذ قال سبحانه: ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾

ونسبه سبحانه إلى أمه؛ لأنه خُلِقَ من نفخةٍ فيها، ولبيان عدم وجود عيب أو نقص أو ذم له عند نسبته إلى الأم، بخلاف غيره من بني آدم، فإنهم يجب نسبتهم إلى الأب.

لقَّبه الله ﷻ مَسِيحًا، وقيل سبب هذا اللقب:

المظهر (٤)

وعلى هذين القولين فمسيح فعيلٌ بِمَعْنَى: فَاعِلٌ، كَرَجِيمٌ بِمَعْنَى: رَاحِمٌ.

ويدل على ذلك قول النبي ﷺ في وصفه له: «كَأَنَّهُ أُخْرِجَ مِنْ دِيْمَاسٍ» - يعني حَمَامًا (أحمد: 7789). وقال محققوه: إسناده صحيح)، وقال في وصفه: «إِذَا طَاطَأَ رَأْسَهُ قَطَرَ، وَإِذَا رَفَعَهُ تَحَدَّرَ مِنْهُ جُمَانٌ كَاللُّؤْلُؤِ» (مسلم: 2937).

وعلى هذين القولين فمسيح فعيل بمعنى مفعول.

لِأَنَّهُ كَانَ يَمْسَحُ بِيَدِهِ الْمَرْضَى، فيشفهم الله ﷻ.

لِأَنَّهُ كَانَ يَمْسَحُ الْأَرْضَ أَي: يَقْطَعُهَا، وَمِنْهُ مِسَاحَةُ أَقْسَامِ الْأَرْضِ

لِأَنَّهُ مَسَحَ مِنَ الْأَوْزَارِ وَالْأَثَامِ، ويدل عليه أنه لا يَذْكُرُ ذَنْبًا فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

لِأَنَّهُ كَانَ مَمْسُوحًا بِدُهْنٍ طَاهِرٍ مُّبَارَكٍ يتحدر منه كالجمان

المظهر (٥)

عظم وجاهته بين الخلق في الدنيا والآخرة: ﴿وَجِيهَافِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

فهو من أولي العزم من الرسل، والْوَجِيه هو ذُو الْجَاهِ وَالشَّرَفِ وَالْقُدْرُ وَالْمَنْزِلَةُ الرَّفِيعَةُ، مأخوذ من الوجه؛ لِأَنَّ أَشْرَفَ أَعْضَاءِ الْإِنْسَانِ وَجْهَهُ. (التفسير البسيط 5/ 258).

بَصِيرَةٌ

﴿وَجِيهَافِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾

تبصرنا أنه لا مانع من أن يطلب العبد من الله ﷻ وجاهةً وشرقاً في الدنيا والآخرة على السواء، وهما مما يمكن أن يدخل في عموم الدعاء بحسنتي الدنيا والآخرة ﴿رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: 201].

وهذا يعني أنه لا مانع من أن يحرص المرء على المنصب أو الجاه؛ إن أراد به إصلاح الأوضاع كما طلب ذلك يوسف وسليمان ﷺ.

المظهر (٦)

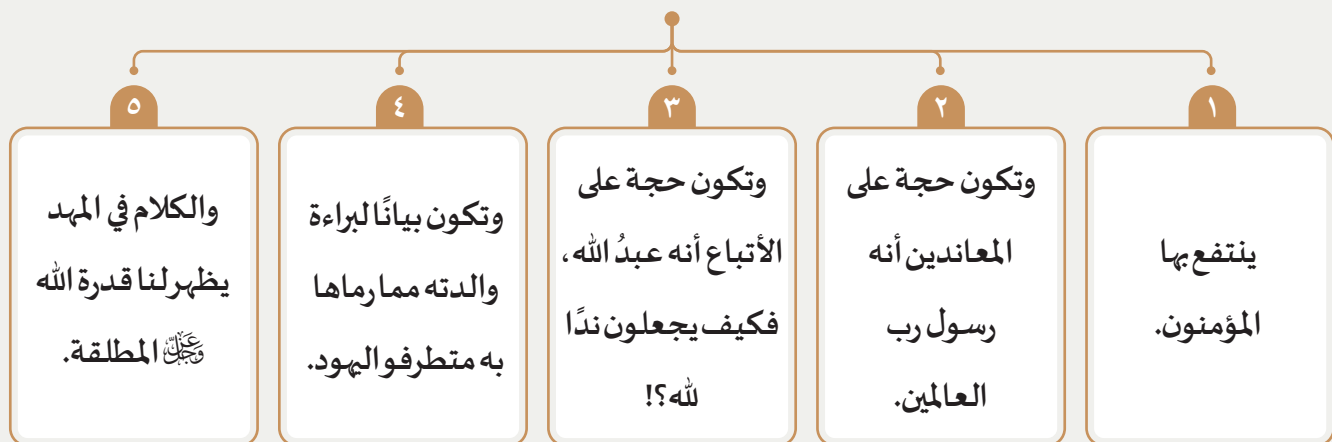
جَعَلَهُ اللهُ ﷻ فِي أَعْلَى مَنَاصِبِ الْمَرَاتِبِ ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾

وهم السابقون إلى ربهم ﷻ، فَلَيْسَ كُلُّ وَجِيهٍ يَكُونُ مُقَرَّبًا؛ لِأَنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ عَلَى مَنَازِلٍ وَدَرَجَاتٍ، وَلِذَلِكَ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ ﴿٧﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾.. (تفسير الرازي 8/ 224).

المظهر (٧)

كلامه للناس في المهد: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ [آل عمران: ٤٦]:

فالتكليم في المهد غير معتاد، فهو من المعجزات العظيمة التي تحقق عدة مقاصد:



بَحْثَةٌ



هنا لا بد أن نضع سؤالاً: لماذا لم يذكر النصارى أن عيسى عليه السلام تكلم في المهد؟

الجواب:

بسبب الجريمة الكبرى التي ارتكبتها قوم عيسى عليه السلام من اليهود آنذاك؛ إذ تأمروا على إخفاء معجزة تكليم عيسى عليه السلام في المهد، ولم يتبع عيسى عليه السلام إلا جمع قليل هم الحواريون، ثم شردوا وهربوا، وخفي معهم الإنجيل الحق إلا بقايا وحي موجود فيما يسمى الأناجيل اليوم، وهذا الحق يختلط بتحريف كثير، ولذا من الطبيعي أن يخفى تكليم عيسى عليه السلام على نصارى اليوم؛ إذ لا تجد لتكلم المسيح عليه السلام في المهد ذكراً في أناجيلهم، ومن النصارى الذين آمنوا بذلك النجاشي الذي قرئت عليه سورة مريم، فبكى.

بَحْثَةٌ



قد يسأل سائل: ما الذي يؤكد لنا أن عيسى عليه السلام تكلم في المهد من تاريخه نفسه غير القرآن الكريم؟

الجواب:

من أعظم ما يشير إلى أنه تكلم في المهد أن اليهود لم يقيموا عقوبة الرجم المكتوبة عندهم في التوراة على أمه، مع أنهم يجاهرون إلى اليوم بنسبتها إلى أفحش الأشياء، فنجد النص الآتي عن عقوبة من يزنى في سفر التثنية: 21: 22 "يُخْرِجُونَ الْفَتَاةَ إِلَى بَابِ بَيْتِ أَبِيهَا، وَيَرْجِمُهَا رِجَالُ مَدِينَتِهَا بِالْحِجَارَةِ حَتَّى تَمُوتَ؛ لِأَنَّهَا عَمِلَتْ قَبَاحَةً فِي إِسْرَائِيلَ بِزَنَاهَا".

وإذا كان الأمر كذلك، فما الذي منعهم من أن يقيموا عليها هذه العقوبة؟

لا جواب لذلك إلا أنهم بهتوا بسبب معجزة وقعت منعتهم من إقامة العقوبة، ولكنهم كتموها عن الأجيال، وتواطؤوا على ذلك، وهذه المعجزة بينها القرآن لنا هنا، وهي كلام المسيح عليه السلام في المهد، مع أن تكلمه في المهد حدث غريب جداً يحرص الناس على تناقله ونشره.

بَصِيرَةٌ

٣

صورة المسيح ﷺ في القرآن عظمة عالية

ترفعه إلى أعلى المنازل كما أخبر بذلك الله ﷻ دون غلو أو مبالغة، في حين يطعن اليهود فيه وفي أمه طعنًا قبيحًا؛ فعندهم "يُشار إلى المسيح (عيسى بن مريم ﷺ) بكلمة «يشو» العبرية، ويُشار إليه في التلمود بوصفه «ابن...» فيذكرون هنا أقبح الكلمات في حق أمه، كما يُشار إلى أن أباه جنديٌّ رومانيٌّ حملت منه مريم العذراء سَفَاحًا، أما كلمة «ماشِيح»، فإنها عند هؤلاء المحرفين تشير إلى المسيح المخلص اليهودي الذي سوف يأتي في آخر الأيام، ويشير التلمود إلى أن صُلِبَ المسيح ﷺ تمَّ بناءً على حكم محكمة حاخامية (السندرين) بسبب دعوته اليهود إلى الوثنية، وعدم احترامه لسلطة الحاخامات". (الموسوعة اليهودية، المسيري 436/14).

بَصِيرَةٌ

٤

لوعقل النصارى وأنصفوا لعرفوا للإسلام والمسلمين فضلهم

ولكانوا أقرب إليهم وأكثر مودة لهم بدلًا من أن يستسلموا للروايات الصهيونية القذرة.

المظهر (٨)

يكلم الناس كهلاً ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾:

الْكَهْلُ هُوَ مَنْ اجْتَمَعَتْ قُوَّتُهُ، وَكَمُلَ شَبَابُهُ، وَهُوَ مَا خُوِذَ مِنْ قَوْلِ الْعَرَبِ الْكَهْلُ النَّبَاتُ: إِذَا قَوِيَ وَظَهَرَ

جماله. (تفسير الرازي 224/8).



وهنا نسأل: عرفنا أن تكليمه للناس في المهد معجزة، فما وجه كون تكليمه الناس كهلاً من الكرامات مع أن الطبيعي في الإنسان أن يكلم الناس وهو كهل؟

الجواب:

٣ كلامه كهلاً معجزة عظيمة؛ إذ ذلك يدل على أنه سيُحفظ من ألد أعدائه من اليهود ممن قال فيه وفي أمه قولاً عظيماً، فسيبقى حتى يكلم الناس كهلاً.

٢ إشارة إلى رجعته بعد رفعه عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام، وذلك لإزالة شرائع الباطل وخاصة ما نُسب إليه، وليقتل الدَّجَال، وليكلم الناس بما فيه صلاحهم وخيرهم.

١ ذكر الله ﷻ ذلك للرد على النصارى الذين اتخذوه إلهاً، فهو يتقلب في الأحوال مِنَ الصَّبَا إِلَى الْكُهُولَةِ، ومحرفو النصارى زعموا أنه إله، فكيف يجوز عليه ذلك وَالتَّغَيُّرُ عَلَى الْإِلَهِ مُحَالٌ؟!

المظهر (٩)

كتابه في سجل الصالحين في الآخرة: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٦].



قد نسال: سبق أنه سيكون من المقربين، ومنزلتهم منزلة عليّة، بينما مرتبة الصالحين عامة، فلماذا ذكر له هذه المرتبة؟

الجواب:

ليبين ثباته على الصلاح، فأعظم الكرامة لزوم الاستقامة، فلا «رتبة أعظم من كون المرء صالحاً؛ لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتروك مواظباً على النهج الأصلح والطريق الأكمل، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين في أفعال القلوب وفي أفعال الجوارح» (تفسير الرازي 47/8)، وقال البقاعي رَحِمَهُ اللهُ: "ولما كانت رتبة الصلاح في غاية العظمة قال مشيراً إلى علو مقاديرها: ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ومعلماً بأنها محيطة بأمره، شاملة لآخر عمره، كما كانت مقارنة لأوله". (نظم الدرر 4/400).

المظهر (١٠)

صدق أمه وطهارتها ﷺ: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧].

قالت ذلك على سبيل إثبات تيقنهما من طهارتها، ولتظهر تعجبهما من أن يأتيها ولد دون الطريق المعتاد، ولتعبّر عن قلقها من المستقبل، وليس سؤالها وارداً على سبيل الشك في قدرة الله تعالى.

تعجبت مريم ﷺ هنا من أمر الولادة لا من كون المولود ذكراً

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾.

خاطبت ههنا ربها سبحانه وتعالى، ولم تخاطب جبريل

بينما بينت لنا سورة مريم أنها خاطبت جبريل ﷺ: ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ [مريم: 20]، فهذا يدل على وقوع كلا الأمرين ولكن الذي أجابها عنهما جبريل ﷺ، وهذا يبصرنا بأنها تراجع ربها ﷻ، وتناجيه مع أنها تسمع هذا الخبر المدهش، فيقينيها وثباتها ظاهر عندما نتعمق في الشعور بهذه الكلمات.

المظهر (١١)

جعل الله ﷻ خَلْقَ عيسى ﷺ دليلاً على تديره للكون كيف يشاء

فأجاب على سؤال مريم ﷺ

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ٤٧.



ما السر في مجيء كلمة ﴿يَفْعَلُ﴾ في جواب سؤال زكريا ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ ٥٠، وجاءت في

جواب سؤال مريم ﷺ ﴿يَخْلُقُ﴾ ٤٧ ﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ.....﴾ ٤٧؟



الجواب:

لأن أمر زكريا ﷺ داخل في الإمكان الذي يُتعارَف عليه وإن قلَّ، فمشكلته أقل صعوبة؛ إذ يمكن للكبير وللعاقِر إذا اجتمعا في النكاح أن يُنجبا ذرية، وإن كان ذلك مستبعداً في الأسباب المعتادة، أما قصة مريم عليها السلام فهي عند البشر من المستحيلات، فلفظ الخلق أقرب إلى وصف واقعها وأدل عليه.

(ينظر: المحرر الوجيز 1/437).



حَمَلُ امرأة زكريا وهي عاقِرٌ، وزوجها بلغ من الكبر عتياً أمر غريب مهَّد لما هو أغرب منه

وهو وجود عيسى ﷺ من أمِّ بلا أب؛ ليدل عباده على أنه الفَعَال لما يريد، وأن ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهنا نستحضر أن النبي ﷺ علَّم واحدة من بناته أن تقول حين تصبح:

«سبحان الله وبحمده، لا قُوَّةَ إلا بالله، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، أعلم أن الله على كل شيء قديرٌ، وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً، فإنه من قالهنَّ حين يُصْبِحُ حُفِظَ حتى يُمسي، ومن قالهنَّ حين يُمسي حُفِظَ حتى يُصْبِحَ».

(أبو دود: 5075، وفي إسناده ضعف).



﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ.....﴾ ٤٧

تبصرنا بالرد المباشر على من زعم تأليه عيسى ﷺ، أو أنه بعض من الله، فالله ﷻ يثبت أنه مخلوق من مخلوقاته.

تبصرنا هذه الآيات بالاحتراف والاهتمام الكبيرين لميلاد مريم ثم لميلاد ابنها ﷺ

وهو شأن لم نجده في غيرهما حتى في سائر الأنبياء والمرسلين إلا ما يتعلق بموسى عليه السلام، وذلك كله يوضح مكانة هذه الأسرة المباركة في الإسلام، ويوضح مقدار الأكاذيب التي ألصقها المفترون على هذه الأسرة، فالقرآن ينقل القصة الحقيقية لذلك الميلاد بما فيه من مظاهر التكريم، ولا نجد شيئاً من ذلك في أناجيلهم المحرفة، وعلى الرغم من ذلك يدَّعون أن عيسى ابن الرب وأنه هو الرب تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

عرفنا أن القسم الخامس من المحور الثاني من سورة آل عمران يحدثنا عن مراحل حياة عيسى ﷺ وتبليغه رسالة الإسلام [آل عمران 45-57]، وأن المرحلة الأولى فصلت كيفية ولادة عيسى ﷺ، وذكرت مظاهر العظمة والإعجاز في ولادته ﷺ [آل عمران: 45-47]، فماذا حدث بعد ولادته ونشأته؟

جسر اتصال

الجواب: هنا تأتي:

الثانية تحدثنا عن نبوته ورسالته بعد أن نما النمو المعتاد

مرحلة

وفيها نرى (٦) مظاهر لعظمة الرسالة الإسلامية لعيسى ﷺ [آل عمران ٤٨-٤٩].

آيات هذه المرحلة:

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَكُونُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي يَوْمِكُمْ ۖ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ۝٤٩﴾.

المظهر (١)

﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ والمراد به تعليم الكتابة

لأن الكتابة من أعظم نعم الله ﷻ التي يتواصل بها العالم عبر الزمان والمكان: والكتابة كانت قليلة عندهم، فتعليمه الكتابة من مظاهر تكريمه، وفي المقابل عدم معرفة النبي ﷺ بالكتابة من مظاهر صدق نبوته، وهكذا يختلف النظر إلى الفكرة الواحدة بحسب حال من دارت عليه.

المظهر (٢)

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي: ويعلمه الحكمة

والمعنى يعلمه معرفة أسرار الشرع، ووضع الأشياء في الواقع في مواضعها: لَأَنَّ كَمَالَ الْإِنْسَانِ فِي أَنْ يَعْرِفَ الْحَقَّ لِدَاتِهِ، وَالْخَيْرَ لِأَجْلِ الْعَمَلِ بِهِ، وَمَجْمُوعُهُمَا هُوَ الْمُسَمَّى بِالْحِكْمَةِ.

(تفسير الرازي 8/226).

المظهر (٣)

﴿وَالْتَّوْرَةَ﴾ أي: ويعلمه التوراة

فَبَعْدَ أَنْ صَارَ عَالِمًا بِالْخَطِّ وَالْكِتَابَةِ، وَمُحِيطًا بِالْحِكْمَةِ وَهِيَ الْفَضَائِلُ الْعَمَلِيَّةُ، يُعَلِّمُهُ التَّوْرَةَ، وَهُوَ الْكِتَابُ السَّابِقُ الْمَعْتَمَدُ فِي شُرَائِعِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَلِيَكُونَ حِجَّةً عَلَى الْأَحْبَارِ.

المظهر (٤)

﴿وَالْإِنْجِيلَ﴾ أي: ويعلمه الإنجيل

وهو الكتاب الذي اختصه الله ﷻ به، وهو آخر الكتب التي نزلت على بني إسرائيل، مصدقاً مكماً للتوراة.

المظهر (٥)

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

أي: أرسله إلى أفضل أقوام زمانه.

المظهر (٦)

﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي أيده الله ﷻ بآية تثبت صدق رسالته

وهي المعجزات التي جاء بها، ثم فصل هذه الآية المعجزة:

الآية المعجزة ١

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾ أي: أُصَوِّرُ وَأَقْدِرُ على نحو مستقيم ما يكون نفعه عائداً لكم، ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر ويعقوب على الواحد (طائراً)، والباقون: ﴿طَيْرًا﴾ على الجمع، والطير اسم جنس يقع على الواحد وعلى الجمع؛ ليناسب كثرة تلهف الذين يلقاهم عيسى ﷺ، فيطالبونه برؤية هذه المعجزات.

الآية المعجزة ٢

﴿وَأُتِرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ﴾

الأكمه: الذي يولد أعمى أو عمي بعد إصابته، أي: أجعله بريئاً من مرضه.
والأبرص: هو الذي أصابه داء البرص، وهو بياض مكروه يقع في ظاهر الجلد.

الآية المعجزة ٣

﴿وَأُحْيِ الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾

كرر ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ليبين عبودية عيسى ﷺ، وأنه لا يملك لنفسه شيئاً لولا تعظيم الله تعالى له.

الآية المعجزة ٤

﴿وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾

وهذه معجزة الإخبار ببعض الغيوب، فهو يخبرهم بما يأكلون، وما الذي يدخرونه.

بَصِيرَةٌ

آثار هذه المعجزات:

عند رؤيتهم لها فينبغي أن يؤمنوا ويطرحوا العناد، ولذا ختم الله ﷻ الآية بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 49]، ولكن لم يؤمن منهم إلا القليل جداً مما يدل على تأصل العناد والجحود، وغلبة التعصب والجمود، وتبعهم العامة، وفي مجمل ذلك ما يدل على مزية العرب الذين أقبلوا على الإسلام طوعاً، حتى لم يبق من المعاندين القرشيين إلا قلة قليلة رأت عظمة الاستجابة للنبي الأمين ﷺ عند فتح مكة فانقادوا للحق مدعين.

جسر اتصال

الجواب: هنا تأتي:



[آل عمران: ٥٠-٥١]، وتضمنت (٦) أركان:

آيات هذه المرحلة:

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحَدٍ لَّكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۝٥٠﴾ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾

رکن
(۱)

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيِّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾

لماذا ذكر عيسى عليه السلام هذا؟

بَصِيرَةٌ

الجواب:

«أي: أتيتُ بجنس ما جاءت به التوراة، وما جاء به موسى ﷺ»، وهذا دليلٌ على صدق عيسى ﷺ، وعلى إجرام الذين كفروا به من بني إسرائيل، فها هو أتى بجنس شريعة أعظم أنبيائهم، وهو موسى ﷺ، وعلامة الصادق أن يكون خبره من جنس خبر الصادقين، يخبر بالصدق، ويأمر بالعدل من غير تخالفٍ ولا تناقض، بخلاف من ادَّعى دعوى كاذبة، خصوصاً أعظم الدعاوى، وهي دعوى النبوة، فلا بد أن يظهر لكل أحدٍ كذب الكاذب فيها، ولا بد أن يظهر تناقضه ومخالفته لأخبار الصادقين، وموافقته لأخبار الكاذبين. (تفسير السعدي ص131).

بَصِيرَةٌ

٢

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾

تبصرنا بأن الداعية الصادق الناصح يقرب بفضل أهل السبق في طريق الدلالة على الله ﷻ، ويبني على بنائهم، ولا يعود عليه بالنقض والهدم.

ركن
(٢)

﴿وَلَا جُلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾

لبيان يُسر شريعته، وهذا كما هو بين عيسى وموسى ﷺ فكذلك الحال بينهما وبين محمد صلى الله عليهم وسلم.



فإن قلت: هل هذا الكلام مناقض لما قبله إذ صرح أنه يُحَلُّ بَعْضَ الَّذِي كَانَ مُحَرَّمًا عَلَيْهِ فِي التَّوْرَةِ، وَهَذَا يُنَاقِضُ قَوْلَهُ ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾؟

الجواب: لَا تَنَاقُضٌ؛ للأسباب الآتية:

السبب الثالث

قيل: كلمة ﴿حُرِّمَ﴾ مبني للمجهول والمقصود: أن الأخبارَ حرّموا أشياء ونَسَبُوهَا إِلَى مُوسَى ﷺ، فَجَاءَ عِيسَى ﷺ وَرَفَعَهَا وَأَبْطَلَهَا، وَأَعَادَ الْأَمْرَ إِلَى مَا كَانَ فِي زَمَنِ مُوسَى

ﷺ. (تفسير الرازي 8/ 230).

السبب الثاني

أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى كَانَ قَدْ حَرَّمَ بَعْضَ الْأَشْيَاءِ عَلَى الْيَهُودِ عُقُوبَةً لَهُمْ عَلَى بَعْضِ مَا صَدَرَ عَنْهُمْ مِنَ الْجِنَايَاتِ كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿فَظَلَمْنَا مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: 160]، ثُمَّ بَقِيَ ذَلِكَ التَّحْرِيمُ مُسْتَمِرًّا عَلَى الْيَهُودِ، فَجَاءَ عِيسَى ﷺ وَرَفَعَ تِلْكَ التَّشْدِيدَاتِ عَنْهُمْ.

السبب الأول

لِأَنَّ التَّصَدِيقَ بِالتَّوْرَةِ معناه اعتقادُ أَنَّ كُلَّ مَا فِيهَا حَقٌّ وَصَوَابٌ، إِلَّا أَنَّهُ يَخْبُرُ أَنَّ بَعْضَ مَا كَانَ مُحَرَّمًا فِيهَا أَبَاحَهُ اللَّهُ ﷻ بِإِخْبَارِ هَذَا النَّبِيِّ الْجَدِيدِ، فَلَا تَنَاقُضَ.

بَصِيرَةٌ

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾

التزام صارم بالخط الرسالي الأصيل الممتد من رسل الله الكرام السابقين وصولاً إلى موسى ﷺ، وقوله: ﴿وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ تيسير بعد شدة، وتنفيس بعد ضيق، وهذا وسم رسالات الله ﷻ وشرعته عبر مسيرة التاريخ الممتدة، فليست تفلُّتاً وخروجاً عن أصول الملة الحنيفية، كما أنها ليست أغلالاً مثقلة وقيوداً مقعدة.

ركن
(٣)

﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾

أي: «وجئتكم بحجة وعبرة من ربكم، تعلمون بها حقيقة ما أقول لكم». (تفسير الطبري 6/ 440)، فذكر (الآية) في الآية السابقة ليشير بها إلى المعجزات التي أيدها الله ﷻ بها، وذكر (الآية) هنا ليبين الدليل على صحة تبليغه، ووجوب طاعته، ولذا قال بعدها:

ركن
(٤)

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾

فطلب منهم أمرين: التقوى والطاعة:

الثاني

﴿وَأَطِيعُوا﴾

الطاعة تعني تطويع النفس على الاستقامة على مقتضيات التقوى، فهي داخلة في التقوى بالنسبة للمؤمن، وإنما ذكرها ليبين أهم أدوات التقوى، ومن لم يؤمن فإنه ينبغي أن يطيع النظام العام للشريعة التي جاء بها عيسى ﷺ، فيطيع قانونياً، وإن لم يؤمن، وهذا المعنى معنى تبعية أوردناه لبيان الفرق بين التقوى والطاعة.

الأول

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

التقوى تعني اتقاء المكروهات والمخافات في مقام رب الأرض والسموات ﷻ، ولا يمكن تصورها إلا من المؤمن، ولا يمكن أن يكون متقياً ولا يكون طائعاً، ولذا لا بد من بيان وجه الأمر الثاني مع دخوله في الأول.

فجمع بين الإيمان وعبر عنه بمرتبة عليّة من مراتبه هي مرتبة التقوى، وبين الالتزام والاستقامة، وعبر عنها بالطاعة، والطاعة تعني الالتزام القانوني، ولذا يمكن أن يدخل فيها غير المؤمن.

بَصِيرَةٌ

﴿وَأَطِيعُوا﴾

هنا جعل التقوى لله ﷻ، والطاعة له أي لرسول الله عيسى ﷺ؛ وذلك ليبين أن طاعة الرسول طاعة لله ﷻ كما هو مذكور في مواضع عدة في القرآن الكريم.

ركن (٥)

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ [آل عمران: 51]

فذكر هذا الركن ليؤكد أنه عبد تقي طائع، وليس إلهاً أو ابن إله كما يزعم المحرفون، واستدل بتوحيد الربوبية الذي يُقرببه كثير من العالم إجمالاً، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ ووصل منه إلى توحيد الألوهية الذي ينكره المشركون والمنحرفون، فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾.

ركن (٦)

﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

وهذا الركن يعني: ما جئكم به صراط مستقيم، وفيه حث على لزوم الصراط المستقيم، وهو الإسلام، فالصراط هو الطريق الواضح الموصل إلى المقصود، ووَصَفَه بأنه مستقيم ليبين أن العوج يكون في غيره مثل أن يتركوا عبادة الله ﷻ، ويعبدوا عيسى ﷺ أو غيره.

بَصِيرَةٌ

تأمل هذا الترتيب العجيب في ذكر أركان الرسالة الإسلامية التي جاء بها عيسى عليه السلام:

١ فبعد أن أورد الدليل العقلي الحامل لهم على الاقتناع والاتباع، فقال: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾.

٢ أودعه بالبشارة الجاذبة المغرية باتباعه: ﴿وَلِأَجْلِ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

٣ ثم أقام الحجة عليهم بالآيات والمعجزات التي أيده الله ﷻ بها: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾.

٤ ولأن كل هذه من أنواع المخاطبات العقلية والحجج المنطقية، ألحقها بدعوتهم إلى تقوى الله ﷻ وإصلاح القلوب والتزام أمر الله ﷻ ونهيهِ، فقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ [آل عمران: 50].

٥ ثم توصل بهذا كله لإقامة الحجة وتقرير ما يترتب عليه من وجوب توحيد الله ﷻ في ربوبيته وألوهيته: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾، فطاعة عيسى عليه السلام لا تعني أن يتخذ ربًّا.

٦ وهذا كله هو صراط الله المستقيم الموصل إلى رضوانه: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: 51]، وهو الذي ندعو أن يهدينا الله ﷻ إليه في سورة الفاتحة.

عرفنا أن المرحلة الثالثة من القسم الخامس تخبرنا عن الأركان التي امتازت بها الرسالة

الإسلامية التي بعث الله ﷻ بها عيسى عليه السلام [آل عمران 50-51]، فماذا كانت ردة فعل

بني إسرائيل، وهم يرون معجزات عيسى عليه السلام وبيناته؟

جسرات اتصال

الجواب: هنا تأتي:

مرحلة ٤ تحدثنا عن ردة فعل بني إسرائيل على دعوة عيسى ونبوته ﷺ

[آل عمران ٥٢-٥٣]

آيتا هذه المرحلة:

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾

بَصِيرَةٌ ١

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾

تبصرنا بأن الغالبية العظمى كفروا بعيسى ﷺ بغيا وحسداً وعناداً، وأشعرنا بأن الغالبية كفروا قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾، وهذا تعبير يشعرياً بجماعهم أو قريتهم من الإجماع، فليست (من) للتبعية.

بَصِيرَةٌ ٢

﴿أَحَسَّ عِيسَى﴾ تصور قوة شعور عيسى ﷺ بكفرهم

فالإحساس وجدان، أو علمٌ يظهر عن طريق الحواس، فوجد كفرهم وجداناً وصل إلى اليقين كما يتيقن الإنسان بالشيء عن طريق حواسه، فجعل الكفر محسوساً منهم مع أن الكفر مسألة معنوية.

بَصِيرَةٌ ٣

﴿مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ خاض المفسرون في قصص حول كفرهم

والأمرو واضح من القرآن، فعلى الرغم من هذه المعجزات العظيمة الظاهرات فإن العناد والحقد والحسد الذي ملأ قلوب الأخبار جعلهم يكفرون، ثم يعتدون.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ تبصرنا بأن تكثُل الكفار بدأ يخطط للاعتداء

ولذا لم يطلب عيسى عليه السلام مجرد الإيمان به، بل طلب مناصرته، وهذا يذكرنا بطلب النبي ﷺ من ينصره ليبلغ رسالة ربه ﷻ لما أبي تكثُل الكفار في قومه إلا منعه، والاعتداء عليه وعلى أصحابه، فقد بدأ النبي ﷺ يعرض نفسه في المواسم على القبائل، فيقول: «مَنْ يُؤْوِينِي؟ مَنْ يَنْصُرُنِي؟ حَتَّى أُبَلِّغَ

رِسَالَةَ رَبِّي، وَلَهُ الْجَنَّةُ» (أحمد: 14456، وصحح محققو المسند إسناداً).

بَصِيرَةٌ

٥

من أهم أعمال الداعية تكوين جماعة الخير الداعية إلى الله ﷻ

وببصرنا بذلك قوله: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من أنصاري في الطريق إلى الله ﷻ، أو «مَنْ أَنْصَارِي فِيمَا يَكُونُ قُرْبَةً إِلَى اللَّهِ، وَوَسِيلَةً إِلَيْهِ». (تفسير الرازي 8/233)، أي أن عيسى عليه السلام طلب من ينصره، وأكمل ما يظهر ذلك إنما يكون بإنشاء كيان جامع ناظم لأتباعه وأنصاره.

بَصِيرَةٌ

٦

سَخَّرَ اللَّهُ ﷻ الْحَوَارِينَ لِيُؤْمِنُوا بِهِ وَيَنْصُرُوهُ: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ حَسْبُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾

ومعنى الإضافة في العربية: نحن أنصارُ الله أي ننصر صاحب الحق لأجل الله، أو نحن أنصارُ في الله أي في الإيمان به ومحبه، أو نحن أنصارُ من الله أي أمدك الله ﷻ بنا، والمعاني الثلاثة صحيحة.

بَصِيرَةٌ

٧

الحرص على تكوين القيادات الداعية إلى الخير

إذ لُقِبَ الله ﷻ أنصار عيسى عليه السلام بالحواريين، والحواريون في اللغة هم المجموعة الخاصة والخالصة النقية الصافية من الناس، وَالْحَوَارِيُّ: النَّاصِرُ، كَمَا ثَبَتَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا نَدَبَ النَّاسَ يَوْمَ الْأَحْزَابِ، فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ ﷺ، ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ ﷺ، [ثُمَّ نَدَبَهُمْ فَانْتَدَبَ الزُّبَيْرُ ﷺ]

رَوَاهُ ﷺ [فَقَالَ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيٌّ، وَحَوَارِيُّ الزُّبَيْرُ»]. (البخاري: 7261).

بَصِيرَةٌ

٨

افتخروا بالتسمية الحقيقية لدين المسيح ﷺ

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٥٢)

فاسمهم بعد الإيمان: مسلمون، وليسوا مسيحيين.

بَصِيرَةٌ

٩

من كمال الإيمان بالله ﷻ: الاعتزاز به وإظهار الانتماء إلى دينه

ودعاء الله ﷻ بأن يتقبل هذا الانتساب العظيم، لذا قالوا:

﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٣) [آل عمران: 53].



ما معنى هذه الدرجة التي طلبوها ﴿الشَّاهِدِينَ﴾؟

بَصِيرَةٌ

١٠

الجواب:

﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٣) تذكرنا بالآية (١٨) التي ذكر الله ﷻ فيها الشهادة العظمى، ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥٤)، والحواريون هنا ينالون شرف هذه الشهادة أي: "أثبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقرؤا لك بالتوحيد، وصدقوا رسلك، واتبعوا أمرك ونهيك، فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، واجلنا محلهم، ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصدَّ عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك". (تفسير الطبري ٤٥٢/٦).

الشاهد هو الذي يعبد الله ﷻ كأنه يشاهده، فانتقلوا من مقام الاستدلال إلى مقام الشهود والمُكاشفة، أي: اجعلنا ممن يكون في شهود جلالك، حتى نصير مستحقين لكل ما يصل إلينا من المشاقِّ والمتاعِبِ، فيسهل علينا الوفاء بما التزمناه من نُصرة رسُولك ونبيك. (تفسير الرازي ٢٣٥ / ٨).

٣

هذا تأكيدٌ منهم على اتباع عيسى عليه السلام رسولاً، فلم يجعلوه ربّاً؛ إذ توجّهوا بدعواتهم إلى الله سبحانه وإليه، ولو كانوا يعتقدون عيسى عليه السلام إلهاً لتوجهوا إليه بالدعاء.

٤

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [٥٣] قال: (مع أمة محمد ﷺ). (تفسير ابن كثير ٤/٦٧). وقال: "هذا إسناد جيد"، ويشهد لهذا المعنى من كتاب الله قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿هُوَ سَمَّاكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨]، ويؤيده من السنة ما جاء من أن أمة محمد ﷺ تشهد للأنبياء والرسول السابقين بالصدق والبلاغ.

عرفنا أن المرحلة الرابعة من القسم الخامس حدثتنا عن ردة فعل بني إسرائيل



على دعوة عيسى ونبوته عليه السلام [آل عمران 52-53]، فماذا كان مصير التدافع بين عيسى عليه السلام وأنصاره، وبين الكفار المعتدين؟

جسر اتصال

الجواب: هنا تأتي:

نهاية الوجود الأول للمسيح عليه السلام على وجه الأرض



مرحلة

والأحداث المستقبلية التي ستقع بعد نهاية وجوده الأول [آل عمران ٥٤-٥٧]، وفيها (٦) بصائر:

آيات هذه المرحلة:

﴿وَمَكُرُوا وَكَمَرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾ [٥٤] إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ إِلَى مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ [٥٥] فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ [٥٦] وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ [٥٧].

﴿وَمَكُرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾

مَكْرُ الماكِرين يقابله مكررب العالمين للمؤمنين، فقد تأمر المجرمون الكافرون على المسيح ﷺ وعلى أتباعه، فالمكر هو التدبير الخفي لتحقيق أمرٍ قد يكون خيرًا، وقد يكون شرًّا، وإنما يكون مذمومًا إن أُطلق دون مقابلة لمكرسيء، فيُستدرج فيه الممكوره في آخر التدافع بين الطرفين إلى ما يحذر من الضر على هَيْئَةٍ يَحْسِبُهَا مَنَفَعَةً. (التحرير والتنوير 24/9).

فمكر المجرمون من اليهود والرومان المكر السيء، وأرادوا قتل عيسى ﷺ، ومكر الله ﷻ بهم المكر المحمود الذي يبطل مكرهم، فنجا عيسى ﷺ، وشبه لهم أنهم قتلوه، وعرف أصحابه أنهم لم يفعلوا.

أخبر الله تعالى عيسى بخمسة أمور تتعلق بمصيره ﷺ ومصير أتباعه:

الثاني

تطمينه بأنه سيستكمل حياته دون أن يُقتل

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَلْعَسَىٰ إِنَّي مُتَوَفِّكَ﴾: أي مُتَمِّمٌ عُمْرِكَ، فَحِينَئِذٍ أَتَوَفَّاكَ. (تفسير الرازي 8 / 237)، فأتوفاك أي بقبض روحك حقيقة، وهذا هو المعنى الثاني، ويكون بهذا من المقدم الذي حقه التأخير، فجمعنا بين المعنيين (النوم أو الوفاة الحقيقية).

الأول

تطمينه بما سيحدث له، فالله ﷻ سيُلقي عليه النوم قبل رفعه

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَلْعَسَىٰ إِنَّي مُتَوَفِّكَ﴾ أي: سأتوفي روحك بأن أجعلك تنام، وليس المراد قبض الموت؛ إذ ذلك أدعى لهدوء البال وسكون النفس، فالتَّوْمُ وفاة كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: 60]، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يقول -إِذَا قَامَ مِنَ النَّوْمِ-: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَحْيَانَا بَعْدَ مَا أَمَاتَنَا» (البخاري: 6312). وهذا المعنى لقوله: ﴿مُتَوَفِّكَ﴾ يعني أن الكلمة في موضعها.

الرابع

﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

أي: مخلصك منهم، وجعل معنى التخليص بلفظ التطهير ليشير إلى مدى نجس الكفر، وتنجيسته للحياة، وليعلن طهارة عيسى ونقاءه ﷺ من أن يمسّه دنس المجرمين، ومؤامرات المعتدين؛ وإلا فإن "طهارة عيسى ﷺ هي هي، ولكن لوسلّط عليه أعداؤه لكان ذلك إهانة له". (التحرير والتنوير 3/259).

الثالث

﴿وَرَأْفُكَ إِلَيَّ﴾

أي: بعد أن أتوفاك، وتظل في المكان الذي رُفعت إليه حتى تنزل مرة أخرى كما قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَيُوشِكَنَّ أَنْ يَنْزَلَ فِيكُمْ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا مُقْسِطًا، فَيَكْسِرَ الصَّلِيبَ، وَيَقْتُلَ الْخَنَازِيرَ، وَيَضَعَ الْجِزْيَةَ، وَيَفِيضَ الْمَالُ حَتَّى لَا يَقْبَلَهُ أَحَدٌ». (البخاري: 2222).

الخامس

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾

أخبره الله ﷻ بمصير أتباعه، ورفعهم على من كفر به:

٢

معنى إضافي تبعي لفوقية أتباعه المسلمين: "فوقية روحانية دينية وهي كونهم أحسن أخلاقاً، وأكمل آداباً، وأقرب إلى الحق والفضل، وأبعد عن الباطل والاعتداء؛ فإن فوقية الفضائل والآداب هي التي كانت وستبقى كذلك ما دامت السموات". (تفسير المنار 3/261)، والمقصود بأتباعه: المسلمون، وليسوا الذين يؤلهونه.

١

والمعنى الحقيقي لفوقية أتباعه: أن النصارى المنتسبين لعيسى ﷺ علواً على أعدائه وغلبيهم، وسيبقون كذلك كما هو الواقع، فعلى الرغم من اضطهاد الكفار للنصارى زمن المسيح، فقد تمكنوا من نشر دعوته في الشام حتى وصلوا إلى روما، حتى بعث الله نبينا محمداً ﷺ، فكان المسلمون هم المتبعين لعيسى ﷺ حقيقة، فأيدهم الله ﷻ ونصرهم على طوائف الكفر بمن فيهم من حرّف دين الإسلام الذي جاء به المسيح ﷺ، وإنما يحصل في بعض الأزمان إدالة الكفار على المسلمين، حكمة من الله، وعقوبة على تركهم لاتباع الرسول ﷺ.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [آل عمران: 55]

أخبره الله تعالى بالمصير الحقيقي الختامي للعالم، فكلهم لا بد أن يرجع إلى الله ﷻ ليجدوا الحكم الفصل الفاصل فيما اختلفوا فيه من الإيمان والكفر.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَابُهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ [آل عمران: 55]

فالعذاب الشديد سيكون المصير الختامي للكفار، ولن ينصرهم أحدٌ، أما عذاب الدنيا، فهو ما أصابهم الله ﷻ به من العقوبات المشاهدة الجزئية، وأما عذاب الآخرة فهو المصيبة العظمى، حيث سيعذبون في جهنم ﴿وَمَا لَهُمْ مِّن نَّاصِرِينَ﴾ فلا قواتهم تدفع، ولا أجهزة مخابراتهم ومؤسساتهم الأمنية تنفع، ولا ثرواتهم، ولا عباداتهم الباطلة، ولا معبوداتهم الخرافية تشفع.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ﴾

سيجد المؤمنون أجورهم في الدنيا بشرط أن يكونوا عاملين للأفعال الصالحات، فيحصل لهم ثواب لأعمالهم من الإكرام والإعزاز والنصر والحياة الطيبة، ولكن هذه الأجور لن تكتمل وافية إلا يوم القيامة، فيعطي ﷻ كل عامل منهم أجر عمله، ويزيدهم من فضله وكرمه.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 57]، فالكفر يؤدي إلى الظلم ويجر إلى الاعتداء

وببصرنا اسم الفاعل ﴿الظَّالِمِينَ﴾ أن الله ﷻ لا يحب الظالم الراسخ في ظلمه، أما الذي يظلم ثم يتوب دون تلاعب، فهو قريب من علام الغيوب.

عرفنا أن القسم الخامس من المحور الثاني فصل لنا مراحل حياة عيسى ﷺ وتبليغه رسالة الإسلام [آل عمران 45-57]، في خمس مراحل تشمل حياته من الولادة إلى رفعه إلى السماء، وبذلك استوعبنا بصورة مفصلة أن الأقسام الخمسة التي تكون هذا المحور اكتملت في بيان كل جوانب حياة عيسى ﷺ، فهل بقي شيء في هذا المحور؟

جسر اتصال

الجواب: نعم! بقي التعليق على أهم ما يتعلق بهذه القصة العظيمة، وهنا يأتي:

القسم السادس

ليختم بذكر الحقائق الأساسية في قصة عيسى عليه الصلاة والسلام ويكشف

إفساد المحرفين لدعوته [آل عمران: 58-63]

وذكر الله -جلّ مجده- فيه (٦) حقائق:

كلام الله ﷻ في القرآن هو مصدر التاريخ الحقيقي، وببصرنا بذلك قوله:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 58]

الحقيقة
الأولى

﴿إِن مِّثْلَ مَثَلِ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

[آل عمران: 59]

الحقيقة
الثانية

﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

فمصدر الحق إنما هو الله ﷻ، وليس تحريف المجرمين.

الحقيقة
الثالثة

ينبغي أن نعلم أن الإقناع العقلي لا يستجيب له المعاندون، والمستكبرون، فنلجأ

عند اللزوم إلى المباهلة معهم ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ...﴾

الحقيقة
الرابعة

﴿إِنَّ هَذَا هُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ...﴾ فالقصة الحقيقية للمسيح ﷺ

تؤدي إلى التوحيد وليس إلى الخرافة والشرك.

الحقيقة
الخامسة

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾

إفساد المعرضين عن الشهادة الكبرى سينتشر.

الحقيقة
السادسة

آياتها القسم:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨) إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ
 ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٦٠﴾ فَمَنْ
 حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ
 وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا
 مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾

كلام الله ﷻ في القرآن هو مصدر التاريخ الحقيقي، وببصرنا بذلك قوله:

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ (٥٨) [آل عمران: 58]

الحقيقة
الأولى

فيلزم أن يكون القرآن هو المصدر الأول والفيصل في معرفة حقائق تاريخ عيسى عليه السلام وغيره، ويجب
 على أتباع المسيح أن يراجعوا أنفسهم، فهم يعتمدون على مصادر مشكوك فيها بإقرارهم.

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ﴾

بَحِيرَةٌ

﴿ذَلِكَ﴾ القصص العظيم ﴿نَتْلُوهُ﴾ نقرؤه بقراءة الملك عليك قراءة تلاوة متأنية ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ القرآنية،
 وهي علامات حقيقية على نبوة النبي ﷺ وعلى ما تحتاج البشرية إلى أن تفهمه.

بَصِيرَةٌ

٢

﴿وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ﴾

﴿وَالذِّكْرُ﴾: الذي يُذَكِّرُك ﴿الْحَكِيمُ﴾: الحاكم على غيره، المحكم في ذاته، فلا يعتريه نقص، وهو ذو الحكمة في إirاده، فلا يعترى إirاده لعب، أو عبث، وهو ذو الحكمة في تفصيل ما ينفع الناس في الشؤون الاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والفكرية.

فالقرآن يبين القصة، ويوضح مقاصدها التذكيرية الحكيمة التي تعطي حق العبادة لله ﷻ، وحق السعادة لمن يعبد.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ﴾

تبصرنا بأن القصص الحق من أعظم الوحي وأجل الهدى الذي ينزله الله ﷻ على عباده تزكية لهم وتربية، وتبصرة لهم وترقية.

الحقيقة
الثانية

﴿إِن مِّثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ وَمِنْ تُرَابٍ قُلُوبًا لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: 59]

فالكون كله -بما فيه ولادة عيسى ﷺ- نشأ بكلمة الله ﷻ

ولن يكون عيسى ﷺ في ولادته من غير أب أعجب من آدم ﷺ الذي خلقه الله ﷻ من غير أم وأب.

بَصِيرَةٌ

١

لا يوجد في حياة عيسى ﷺ ما يقتضي تأليهه، بل هو مخلوق لله ﷻ

وعلى أن خلقه إن كان معجزة غير معتادة فإن خلق آدم ﷺ كان أيضًا معجزة غير معتادة أشد عجبًا بالنسبة للبشر.

بَصِيرَةٌ

٢

لماذا قال الله ﷻ: ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ﴾ مع أن خلق آدم ﷺ أعظم إعجازًا في عرفنا البشري؟

الجواب:

لأن كل الأمور مهما عظمّت عندنا فهي في قدرة الله ﷻ وتديره واحدة، ولذا قال: ﴿قُلْ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ﴿٥٩﴾
أتى بصيغة المضارع ﴿فَيَكُونُ﴾ للدلالة على وقوع الأمر فور أمره منه تعالت قدرته، وجلت عظّمته.

الحقيقة
الثالثة

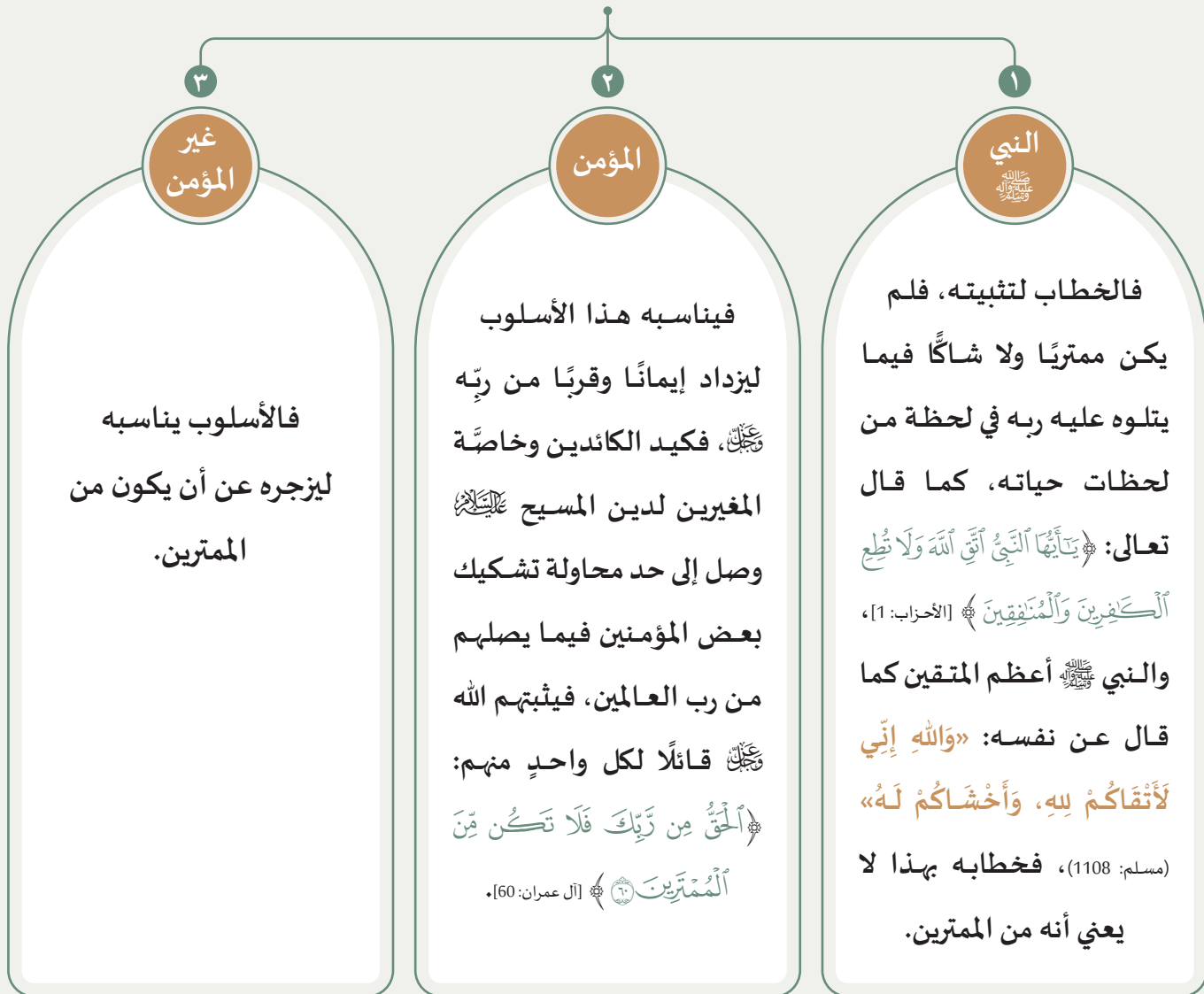
﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: 60] مصدر الحق إنما هو الله ﷻ،
وليس تحريف المجرمين من مغيري الإيمان وأتباع الشيطان:

بَصِيرَةٌ

ما الحكمة من هذا الخطاب: ﴿فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾؟

الجواب:

الخطاب للمستمع أو للتالي كلام الله ﷻ، وهذه قاعدة عظيمة أن القرآن بيان لجنس الإنسان بغض النظر عن إيمانه أو كفره، فيدخل في الخطاب ثلاث جهات:



بَصِيرَةٌ

٢

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُؤْمَرِينَ﴾

الممتري هو الذي يمارس المراء أي الجدل الشديد في مسألة واضحة، والمعنى لا تجادل مجادلة شديدة في مسألة واضحة، فلا تقارن الأخبار المحرفة التي نقلها الغلاة عن عيسى عليه السلام بما قصصت عليك هنا، فالحق هو ما تسمعه من الله ﷻ في قصة عيسى وغيره لا فيما يليق به مغيرو الأديان، ومتبعو الشيطان، والنبي ﷺ بلغ هذه المعلومة بدقة من خلال تبليغ القرآن، وزاد الأمر تأكيداً في سنته في أحاديث كثيرة، ومنها قوله: «وَأَنَّهُمْ -أي البشر- أَتَهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَهُمْ عَنْ دِينِهِمْ» (مسلم: 2865) أي غيرت دينهم، كأنها أخذتهم في جولة بعيداً عن الحق.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُؤْمَرِينَ﴾ المراء جدال، ولكنه جدال شديد، فهو أعلى مراتب الجدل

والله -عزَّ جاره- يبصرنا هنا بأن الجدل لا بأس به، ولكن المراء منهي عنه فيما قد اتضح من القضايا، ومن ذلك نبوة المسيح عليه السلام، وكونه عبداً لله، فلا هو إله، ولا هو ابن إله تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بَصِيرَةٌ

٤

ما قامت الأدلة على أنه حق فيجب الجزم بأن كل ما عارضه فهو باطل

وكل شبهة تُورد عليه فهي فاسدة، سواء قدر العبد على حلها أم لا، فلا يوجب له عجزه عن حلها القدح فيما علمه، لأن ما خالف الحق فهو باطل، قال تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ﴾ [يونس: 32]، وبهذه القاعدة الشرعية تنحل عن الإنسان إشكالات كثيرة يوردها المتكلمون، ويرتبطها المنطقيون، إن حلها الإنسان فهو تبرع منه، وإلا فوظيفته أن يبين الحق بأدلته ويدعو إليه.

6

الثالث

الثاني

الأول

﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ
يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ
وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٦٦) ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا
تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ (١٦٧) ﴿البقرة:

فناسب في هذه المواضع الثلاثة الإتيان بنون التوكيد الثقيلة؛ لأنها أشد في الإنكار على من يمكن أن يمارى في هذه الحقائق الثلاث.

الحقيقة
الرابعة

ينبغي أن نعلم أن الإقناع العقلي لا يستجيب له المعاندون، والمستكبرون،
وأصحاب المصالح المرتبطة بتجهيل النصارى بدينهم

ولذا لا نطمح أن يقر الجميع بقضية رسالة عيسى ﷺ، وكونه عبداً لله ﷻ، وكونه لا يمكن أن
يكون إلهاً، فنلجأ عند اللزوم إلى المباهلة مع المعاندين المشوشين لحقائق الدين:
(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاتَنَا كُفْرًا وَنِسَاءَنَا كُفْرًا
وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾) [آل عمران: 61].

بَصِيرَةٌ

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ) تبصرنا الفاء بالنتيجة المتفرعة عما سبق

فبعد بيان القصة الحقيقية للمسيح ﷺ، المبنية على العلم لا على الخرافة، وبعد إعلانها للعالمين
ينبغي لهم أن يقبلوا هذا العلم العظيم، فإن أصروا على الاحتجاج المعاند فاطلب منهم المباهلة، أي:
فَمَنْ حَاجَّكَ بَعْدَ هَذِهِ الدَّلَائِلِ الْوَاضِحَةِ، والبيانات اللَّائِحَةِ فَاقْطَعْ الْكَلَامَ مَعَهُمْ، وَعَامِلُهُمْ بِمَا
يُعَامَلُ بِهِ الْمُعَانِدُ، وَهُوَ أَنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْمُلَاعَنَةِ. (تفسير الرازي 8 / 245).

بَصِيرَةٌ

المباهلة والائْتِهَالُ يُعْنِيَانِ الْإِجْتِهَادَ فِي الدُّعَاءِ

وقد يكون الدعاء عامًّا، وقد يكون بِلَعْنِ الظَّالِمِ الْكَاذِبِ. (تفسير الرازي 8 / 245).

بَصِيرَةٌ

(فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَابْنَاتَنَا كُفْرًا وَنِسَاءَنَا كُفْرًا وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾)

فدعاهم النبي ﷺ إلى المباهلة، فجاء من أهل نجران آنذاك العاقب والسيد إلى رسول الله ﷺ
يريدان أن يباهلاه أي يلاعناه -بأن يدعو كل فريقٍ بالعذاب على المبطل- فقال أحدهما لصاحبه: لا
تفعل، فوالله لئن كان نبياً، فلاعننا لا نفلح نحن ولا عَقِبُنَا من بعدنا. فقالا: إنا نعطيك ما سألتنا -أي
الصلح على الجزية- وابعث معنا رجلاً أميناً، ولا تبعث معنا إلا أميناً. فقال: «لَأَبْعَثَنَّ مَعَكُمْ رَجُلًا أَمِينًا
حَقَّ أَمِينٍ». فاستشرف له أصحابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فقال: «قُمْ يَا أَبَا عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ». فَلَمَّا قَامَ
قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هَذَا أَمِينٌ هَذِهِ الْأُمَّةُ». (البخاري: 4380).

لوباھلوا لأصابتهم اللعنة

بَصِيرَةٌ
٤

وإن كان لا يوجد عندنا ما يدل على أن تلك الإصابة لا بد أن تكون فورية، على أن الفورية قد تحدث لمن يقاوم النبي ﷺ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قال أبو جهل: لئن رأيت رسول الله يصابني عند الكعبة، لأتبعه حتى أطأ على عنقه. قال: فقال: "لوفعل، لأخذته الملائكة عياناً، ولو أن اليهود تمنوا الموت، لماتوا، ورأوا مقاعدهم من النار، ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ، لرجعوا لا يجدون مالا ولا أهلاً» (أحمد: 2225، وصححه محققو المسند).

المؤمن حقاً الممتلئ يقيناً لا يخشى مناظرة المبطلين ومباھلتهم

بَصِيرَةٌ
٥

لأنه على ثقة من نصر الله إياه وحفظه له.

﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ﴾

بَصِيرَةٌ
٦

ذكر الأبناء والنساء ينصرف إلى أبناء الإنسان، ونسائه، ونساؤه يدخل فيهن أزواجه وبناته ومجارمه من النساء، وتحديد هم لإظهار خطر المباھلة، وأن اللعنة فيها لن تقتصر على الكاذب، بل ستشمل ذويه ممن قبل أن يكون معه.

الحقيقة
الخامسة

﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢)

[آل عمران: 62]

تبصرنا بأن القصة الحقيقية للمسيح ﷺ تؤدي إلى التوحيد وليس إلى الخرافة والشرك:

بَصِيرَةٌ
١

جمع الله ﷻ بين القصص الحق، وبين الشهادة الكبرى التي سبق ذكرها في الآية المركزية رقم (١٨)

ومعنى ذلك أن القصص الباطلة التي تردها قيادات النصرانية الآن هي السبب في إفساد النصراني، وإضلالهم عن الشهادة الكبرى حتى جعلوا عيسى إلهًا أو ابن إله.

بَصِيرَةٌ
٢

أشار الرازي رحمه الله (في تفسيره ٢٥١/٨) إلى أن قول الله ﷻ:

﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٦٢)

فيه إشارة إلى الجواب عن شبهات النصراني، وذلك لأن اعتمادهم على أمرين:

وَالثَّانِي:

أَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّهُ كَانَ يُخْبِرُ عَنِ الْغُيُوبِ وَغَيْرِهَا، فَيَكُونُ إِلَهًا، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: هَذَا الْقَدْرُ مِنَ الْعِلْمِ لَا يَكْفِي فِي الْإِلَهِيَّةِ، بَلْ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ حَكِيمًا، أَيُّ: عَالِمًا بِجَمِيعِ الْمَعْلُومَاتِ وَبِجَمِيعِ عَوَاقِبِ الْأُمُورِ حَتَّى يَكُونَ حَكِيمًا، وَهُوَ لَمْ يَعْلَمْ بِأَنْ أَعْدَاءَهُ أَحَاطُوا بِهِ.

أَحَدُهُمَا:

أَنَّ عِيسَى ﷺ قَدَرَ عَلَى إِحْيَاءِ الْمَوْتَى، وَإِبْرَاءِ الْأَكْمَةِ وَالْأَبْرَصِ، فَكَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: هَذَا الْقَدْرُ مِنَ الْقُدْرَةِ لَا يَكْفِي فِي الْإِلَهِيَّةِ، بَلْ لَا بُدَّ وَأَنْ يَكُونَ عَزِيزًا غَالِبًا لَا يُدْفَعُ وَلَا يَمْنَعُ، وَأَنْتُمْ قَدْ اعْتَرَفْتُمْ بِأَنَّ عِيسَى ﷺ مَا كَانَ كَذَلِكَ، وَكَيْفَ وَأَنْتُمْ تَقُولُونَ: إِنَّ الْيَهُودَ قَتَلُوهُ؟

الحقيقة
السادسة

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: 63] تبصرنا بأن إفساد المعرضين عن الشهادة الكبرى سينتشر، ويهددهم الله عز وجل بمصيرهم المنتظر الذي أخبر به المسيح ﷺ

فאלله ﷻ علیم بهم، ولن يستطيعوا أن يختبئوا منه.

بَصِيرَةٌ
١

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ عن الحق الذي جئت به، وخصوصاً ما يتعلق بالمسيح ﷺ

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ الذين أفسدوا الأرض بنشر أكاذيب عن المسيح ﷺ تشجع على أن يتخذه الناس إلهًا، فهم يسببون للناس الآلام، ويفترفون الآثام، ويرتكبون الإجرام، وكذلك سائر المفسدين.

بَصِيرَةٌ
٢

﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾ [آل عمران: 63]

تبصرنا بأن الانحراف العقدي أو الفكري أساسٌ لأسوأ الشرور.

بَصِيرَةٌ
٣

الآية تبصرنا بواجبٍ عظيمٍ قصرنا فيه

وهو: التبليغ بإنشاء الأجهزة الإعلامية والثقافية المتعددة لتشكل محور السياسة الخارجية الأساسي لمخاطبة العالم، ولتبين للعالم هذه الحقائق، ولذا قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ مِنْ فِعْلِ السَّيِّئَاتِ فَقَطْ، كَمَا يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ الْجُهَّالِ، لَا يَتَصَوَّرُونَ التَّوْبَةَ إِلَّا عَمَّا يَفْعَلُهُ الْعَبْدُ مِنَ الْقَبَائِحِ كَالْفَوَاحِشِ وَالْمُظَالِمِ؛ بَلِ التَّوْبَةُ مِنْ تَرْكِ الْحَسَنَاتِ الْمَأْمُورِ بِهَا أَهَمُّ مِنَ التَّوْبَةِ مِنْ فِعْلِ السَّيِّئَاتِ الْمَنْهِيِّ عَنْهَا". (الفتاوى 228/1)، ومن الحسنات المأمور بها: التبليغ.

كشف المحور الثاني للعالمين القصة الحقيقية لأسرة آل عمران أسرة عيسى وأمه،

وحقيقة دينها [آل عمران: 33-63]، وهنا نتساءل: فهل دينها يختلف عن دين بقية الأنبياء اسمًا ومعنى؟

جسر اتصال

الجواب: هنا يأتي:

المحور الثالث

ميثاق الأنبياء، وخلاصته: الإسلام هو
دينهم عليهم الصلاة والسلام، وكلهم
يبشر بالنبى الخاتم، وهذا يوجب الحوار
مع المنصفين من أتباعهم، والتعاون
على محاصرة مكر المحرّفين
[آل عمران: ٦٤ - ٩١]

المحور الثالث

ميثاق الأنبياء، وخلاصته: الإسلام هو دينهم عليهم الصلاة والسلام، وكلهم يبشر بالنبى الخاتم، وهذا يوجب الحوار مع المنصفين من أتباعهم، والتعاون على محاصرة مكر المحرّفين

[آل عمران: 64- 91]

وانقسمت آياته إلى ٧ أقسام:

يُظهر لنا دعوة أهل الكتاب -وخصوصًا النصارى- إلى الحوار، ويبين أُسسَه [آل عمران: 64].

فالقسم
الأول

يحدّد أساسًا من أهمّ أسس الحوار، وهو الحوار حول دين إبراهيم عليه السلام، وأنه الإسلام، وهو أساس دين موسى وعيسى ومحمد ﷺ [آل عمران: 65-68]، ويوضح ذلك في ثمان خطوات.

والقسم
الثاني

فصّل لنا محاوراتٍ صريحة لأهل الكتاب تكشف تأمرقيات المحرّفين منهم، وجرائمهم ليُضلوا العالم، خصوصًا في معرفة أن دين الله هو الإسلام [آل عمران: 69-73]، وذكر الله ﷻ فيه ستّ جرائم ضخمة تعكس أزمة نفسية عند المتطرفين من أهل الكتاب.

والقسم
الثالث

ذكر الله ﷻ فيه ردودًا قوية على جرائم المحرّفين الست [آل عمران: 73-74]، وبلغت اثني عشر ردًا من الردود على حيلهم وجرائمهم السابقة وخاصة الأخيرة.

والقسم
الرابع

فصّل لنا سباعية أنواع كذب المحرّفين من أهل الكتاب، وهي الأنواع التي أسست لاستغلال العالمين، وإلغاء اسم (المسلمين)، وهو اسم أتباع موسى وعيسى وجميع الأنبياء ﷺ [آل عمران: 75-80].

والقسم
الخامس

يكلّمنا عن أهمّ أسس دين الإسلام الذي يجب أن يبينه الأنبياء والأخبار والعلماء [آل عمران: 80-85].

والقسم
السادس

يفصّل أربعة أصناف للذين ابتغوا غير الإسلام دينًا من أهل الكتاب وغيرهم [آل عمران: 86-91].

والقسم
السابع

القسم الأول

يُظهر لنا دعوة أهل الكتاب - وخصوصًا النصارى - إلى الحوار، وبين أسسه [آل عمران: ٦٤]:

آية هذا القسم:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤]

وفيه ٧ أسس:

١. أساس ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا﴾ تبصرنا بمشروعية دعوة أهل الكتاب إلى الحوار.

٢. أساس التلطف في الحوار: فقد خاطبهم الله تعالى هاهنا بقوله تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

٣. أساس ﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ تبصرنا بالاجتماع على أهم عناصر الحوار، وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون.

٤. أساس ﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾ تبصرنا بإعلان البحث عن العدل والإنصاف وليس اللجاج والاعتساف.

٥. أساس تتمثل الكلمة السواء في ثلاثة أركان: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا﴾.

٦. أساس الاعتزاز بالإسلام والافتخار بالإشهاد عليه عند إعراض أهل الكتاب عن الاتفاق على الكلمة السواء ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤].

٧. أساس هذه الآية من أعظم الأدلة التي تمنع وجود طبقة تتحكم بالتحليل والتحريم بغير هدى من الله ﷻ.

أساس

1

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا﴾ تبصرنا بمشروعية دعوة أهل الكتاب إلى الحوار.

بصيرة

1

تظهر المناسبة والاتصال بين هذا المحور والذي قبله بوضوح

فبعد أن ذكر الله تعالى القصة الحقيقية التي تبين حياة عيسى وأمه عليهما السلام، وأن الاسم الذي ميّز دين أتباعه كان الإسلام، وأن اسمهم المسلمون، أكّد في هذا المحور للنصارى وللعالم أن الإسلام هو دين الأنبياء العظام الكرام، وفي مقدمتهم إبراهيم وعيسى وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، ويبيّن الله عزّ وجلّ أن أهل الكتاب انقسموا إلى مسلمين ومسلمين ومحاربين، وبصّرنا بكيفية التعامل مع الجميع.

بصيرة

2

﴿قُلْ﴾

تقتضي تفعيل كل وسائل التواصل والتربية والإعلام والدعوة والثقافة والتعليم لتحقيق البلاغ.

بصيرة

3

﴿قُلْ﴾ أي: وليسمع العالم ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ خصصهم بالخطاب

﴿تَعَالَوْا﴾ اجتمعوا بنا اجتماعاً مباشراً أو غير مباشر لنقيم حواراً حول حقيقة الدين الذي أرسل الله عزّ وجلّ به المرسلين.

بصيرة

4

كلمة ﴿تَعَالَوْا﴾ تكرّرت سبع مرات في القرآن، ولم يقل: أقبلوا مثلاً

وذلك لأنها تصوّر الذي يستجيب للنداء وقد ارتفع وتعالى تاركاً وإقعة الضالّ، وهي مشتقة من العلو، وتعبر عن الخير الذي نطلبه لمن نناديهم بهذه الكلمة، فهذا أصل استعمالها.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿تَعَالَوْا﴾ تبصرنا بأن نجري هذا الحوار بأي وسيلة

فقد يكون عبر المراسلات، واللقاءات والزيارات المتبادلة، وقد يكون عبر وسائل الإعلام والاتصال، ولكن ينبغي أن تكون أُسُسُهُ كما أمر الله تعالى لا كما تزينه المجاملات الفارغة، والنفاق الاجتماعي.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا﴾

تبصرنا بضرورة الأخذ بزمام المبادرة بتوجيه الدعوة الصريحة لأهل الكتاب إلى معرفة الحق، ولزوم العدل والإنصاف الموصّلين إلى هدى الله ﷻ ورضوانه؛ إذ من عرف الحقيقة ووقع على كنز الهدى حريٌّ به أن يسارع إلى إيصالها للآخرين ليستنقذهم من مهاوي الضلالات والردى.

أَسَاسٌ

٢

التلطف في الحوار

فقد خَاطَبَهُمُ اللهُ تعالى هاهنا بقوله تعالى:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

وَهَذَا الْإِسْمُ مِنْ أَحْسَنِ الْأَسْمَاءِ، وَأَكْمَلِ الْأَلْقَابِ؛ حَيْثُ جَعَلَهُمُ أَهْلًا لِكِتَابِ اللَّهِ. (تفسير الرازي 8/251).

وطبق النبي ﷺ هذا الأدب في مخاطبة الملوك ومقدمي الأقوام في عصره

فأرسل إلى هرقل: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ: سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ أَسْلِمَ تَسْلَمَ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الْأَرِيسِيِّينَ، وَ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾» (البخاري: 7، الأريسيون: الفلاحون والأتباع)

أساس

٣

﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾

تبصرنا بالاجتماع على أهم عناصر الحوار، وهي الكلمة التي اتفق عليها الأنبياء والمرسلون. ولم يخالفها إلا المعاندون والضالون، وليست مختصةً بأحد أطراف الحوار دون الآخر، بل هي مشتركة بيننا وبينهم.

بَصِيرَةٌ

١

﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾

تبصرنا بأن ندعو إلى حوار مثمر لا إلى مجرد مجاملات، وأعظم ما ندعوهم إليه هو المشتركات التي تجمع بيننا وبينهم، فمعنى الآية إلى كلمة وسط مستواً أمرها بيننا وبينكم.

بَصِيرَةٌ

٢

﴿إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾

تبصرنا أن نجُزَّ المتحاورين إلى ما ينفعنا وينفعهم لا أن نجُزُّونا إلى خرافاتهم وأوهامهم كالحوار الذي يُخرج المسلمين مما كان عليه نبيهم ﷺ، والصحابة رضي الله عنهم إلى البدع المحدثه.

أساس

٤

﴿تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ﴾

تبصرنا بإعلان البحث عن العدل والإنصاف وليس اللجاج والاعتساف؛ لأن معنى ﴿سَوَاءٍ﴾ أي كلمة ذات سواءٍ، أي عادلةٌ مُستقيمةٌ مُستويةٌ.

فَإِذَا آمَنَّا بِهَا نَحْنُ وَأَنْتُمْ كُنَّا عَلَى السَّوَاءِ وَالِاسْتِقَامَةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ حَقِيقَةَ الْإِنْصَافِ: إِعْطَاءُ النَّصْفِ، كَأَنَّهُ سَوَى يَبْنِي نَفْسَهُ وَيَبْنِي غَيْرَهُ وَحَصَلَ الْإِعْتِدَالُ. (تفسير الرازي 8/ 252).

تتمثل الكلمة السواء في ثلاثة أركان:

الركن ١

﴿الَّا نَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ﴾ توحيد الله ﷻ في عبادته.

فيقال لهم: أنتم تزعمون أنكم لستم وثنيين، فلا بد من أن يكون التوحيد أهم أساس بيننا.

الركن ٢

﴿وَلَا نُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا﴾

نفي أن نشرك بالله ﷻ غيره مهما كان هذا الشريك.

بَصِيْرَة

هذا تأكيدٌ للتوحيد، لأن الإيمان بالله إلهًا واحدًا أعظمُ قضايا الوجود

فلا بد من التأكيد عليه، وكلمة ﴿شَيْئًا﴾ تمنع الإشراك بأدنى شيء، فلا نعبد المسيح أو محمدًا أو إبراهيم عليهم السلام، فضلًا عن غيرهم من البشر والحجرو سائر المخلوقات، ولا نشرك بالله ﷻ في حكمه.

بَصِيْرَة

عندما ندعوهم لهذا فإننا ندعوهم لدينهم نفسه

ففي سفر الخروج من كتابهم المقدس كما يزعمون:

(2:20) أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية.

(3:20) لا يكن لك آلهة أخرى أمامي.

(4:20) لا تصنع لك تمثالاً منحوتًا، ولا صورةً ما مما في السماء من فوق، وما في الأرض من تحت، وما في الماء من تحت الأرض.

(5:20) لا تسجد لهم ولا تعبدهم.

وفي إنجيل يوحنا (3:17): "وَهَذِهِ هِيَ الْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ: أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الْإِلَهَ الْحَقِيقِيَّ وَحَدَكَ وَيَسُوعَ الْمَسِيحَ الَّذِي أَرْسَلْتُهُ" هذا عندهم: فاعيسى ﷺ مرسلٌ من ربه ﷻ، وليس إلهًا، فما هذا التحريف الكبير، والإجرام الهائل الذي اقترفوه في حق أنفسهم وشعوبهم؟!

الركن ٣

﴿وَلَا يَتَّخِذْ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾

والتعبير بالاتخاذ في غاية الجمال، فكأن الإنسان الذي يظلم نفسه هو من يختار معبودًا غير الله ﷻ، بينما الرب الحق -رب العالمين- هو من يدرك العاقل أنه الوحيد الجدير بالعبادة، فلا يملك أمامه إلا أن يخضع له ويعبده.

بَصِيرَةٌ ١

من صور اتخاذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله تحليل الحرام وتحريم الحلال

فعن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: «يَا عَدِيُّ، اطْرَحْ عَنْكَ

هَذَا الْوَتْنَ». وسمعتة يقرأ في سورة براءة: ﴿اتَّخِذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: 31]

قال: «أَمَّا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحْلَوْا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحْلَوْهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا

حَرَّمُوهُ» (الترمذي: 3095، وحسنه بمجموع طرقه الألباني في الصحيحة: 3293).

بَصِيرَةٌ ٣

ذكر الله ﷻ هذه الأركان الثلاثة لأسباب منها:

٢

١

ذَكَرَ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ؛ لِأَنَّ النَّصَارَى جَمَعُوا بَيْنَ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، فَيَعْبُدُونَ غَيْرَ اللَّهِ ﷻ وَهُوَ الْمَسِيحُ، وَيُشْرِكُونَ بِهِ غَيْرَهُ، وَذَلِكَ لِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: إِنَّهُ ثَلَاثَةٌ: أَبُ وَابْنُ وَرُوحُ الْقُدُسِ، فَأَثْبَتُوا ثَلَاثَةَ أَقَانِيمَ قَدِيمَةً سَوَاءً، وَاتَّخَذُوا قُسُسَهُمْ أَرْبَابًا فِي تَحْلِيلِ الْحَرَامِ وَتَحْرِيمِ الْحَلَالِ، بَلْ إِنَّهُمْ يَسْجُدُونَ لَهُمْ.

يحرم على الرسل عليه السلام فضلًا عن غيرهم أن يُعْطُوا بعض صفات الربوبية، وهذا سبب بيان القصة الحقيقية للمسيح عليه السلام.

بَصِيرَةٌ ٤

فائدة الاتفاق على هذه الأسس في الحوار

إرجاع المشتبهات إليها، فما ورد في إنجيلهم الموجود الآن من لفظ الابن -إن قلنا بأنهم لم يدخلوه في- يُفهم بشكل لا يؤدي إلى نقض التوحيد وإثبات الشرك.

أساس

الاعتزاز بالإسلام والافتخار بالإشهاد عليه عند إعراض أهل الكتاب عن الاتفاق على الكلمة سواء

٦

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 64].

بَصِيرَة

١

فإن لم يقبلوا بالأسس الثلاثة للحوار فأشهدوهم أنكم مسلمون معترفون بذلك

وحرف الشرط ﴿إِنْ﴾ يبصرنا بتوقع نتيجة الدعوة إلى هذا النوع من الحوار؛ إذ سيتولى كثير منهم عن الحق، فلا تتعجبوا منه بل استعدوا له نفسياً.

بَصِيرَة

٢

ميزة أمة محمد ﷺ وأتباع الأنبياء الحقيقيين أنهم مسلمون

أي مستسلمون لله، متحررون عن عبادة ما سواه، فالإسلام يمنع عبادة الحاخام (الراباي)، كما يمنع تقديس القسيس، ويحرم طاعة العالم والحاكم في معصية الله ﷻ، فيتحرر الإنسان من عبادة ما سوى الله ﷻ، ويعتز باستسلامه، وعبوديته له -جل مجده- حيث يجد العدل والسكينة والسعادة.

بَصِيرَة

٣

﴿اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤]

تبصرنا بأن يكون الإسلام هو المحرك لجميع الفعاليات المجتمعية، وهو الكلمة المتكررة في جميع وسائل التوجيه والتثقيف والإعلام، وإن القلب ليتقطع أسفاً وألماً، وإن الصدر ليتققع حسرةً على تنحية الإسلام عن الخطاب الثقافي والسياسي إلا ما يكون على استحياء في النادر للمجاملة.

أساس

٧

هذه الآية من أعظم الأدلة التي تمنع وجود طبقة تتحكم بالتحليل والتحريم بغير هدى من الله ﷻ

فمنهم: الغلاة الذين يزعمون أن الضر والنفع بيد الأولياء، ومنهم الذين يعطون البشر مرتبة عدم السؤال عما يفعلون، أو يمنحون أئمتهم القيام بتدبير الكون، ومنهم الذين يزعمون أن اعتبار المصالح المتوهمة أو المظنونة يمكن أن يكون على حساب القواعد الشرعية المقررة، والمقاصد المعلومة.

جسر اتصال

عرفنا أن المحور الثالث يحدثنا عن ميثاق الأنبياء، وأن الإسلام هو دين سائر الأنبياء

ﷺ، وعلمنا أن القسم الأول منه يُظهر لنا دعوة أهل الكتاب إلى الحوار، وبين أسسه

[آل عمران: 64]، فكيف يمكن تعزيز أسس الحوار؟

الجواب: هنا يأتي:

القسم الثاني

من أهم أسس الحوار التي تؤكد ما سبق: الحوار حول دين إبراهيم ﷺ، وأنه الإسلام، وليس اليهودية ولا النصرانية، وأولى الناس بإبراهيم ﷺ أتباعه

المسلمون إلى يوم القيامة [آل عمران: ٦٥-٦٨]:

آيات هذا القسم:

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ٦٥ هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ٦٦ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ٦٧ إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ٦٨﴾

ولتقرير حقيقة دين إبراهيم ﷺ تبصرنا الآيات بالخطوات الثمان الآتية في حوارنا مع أهل الكتاب:

خطوة
(١)

نتفق معهم أولاً على التقدم الزمني لإبراهيم ﷺ على اليهودية والنصرانية:
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ...﴾ (٦٥).

خطوة
(٢)

التلطف لا يعني عدم التنبيه بقوة ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (٦٥).

خطوة
(٣)

﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ...﴾ (٦٦) ذكر الله ﷻ قاعدة عظيمة في الحوار، وخلاصتها: لا يحتج الجاهل بجهله على العالم.

خطوة
(٤)

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦) نقول لهم: بما أنه لا علم لكم بحال إبراهيم عليه السلام، فيجب أن تتبعوا فيه ما قاله الله ﷻ مما أوحاه إلى محمد رسوله ﷺ.

خطوة
(٥)

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾، تبصرنا بأن نُحرّر محل النزاع معهم.

خطوة
(٦)

إذن لا بد أن تكون ديانة إبراهيم ﷻ هي ذاتها ديانة مَنْ قبله وَمَنْ بعده من الأنبياء
﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾.

خطوة
(٧)

عند سماعهم أن إبراهيم ﷻ كان حنيفاً ربما قالوا: هل تعنون بهم مشركي العرب؟
لأنهم كانوا يُدْعَوْنَ بذلك، فيأتي الجواب: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧).

خطوة
(٨)

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ...﴾ (٦٨) نقول لهم: بحسب ما سبق يستبين
مَنْ هم أحق الناس بإبراهيم ﷻ.

خطوة
(١)

نتفق معهم أولاً على التقدم الزمني لإبراهيم عليه السلام على اليهودية والنصرانية:
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾ [آل عمران: 65].

بَصِيْرَة
١

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

نداء متلطف للتواصل والمناظرة بتذكيرهم بأن لهم ميزة عن غيرهم بوجود كتاب منزل، وإن كان محرّفاً، ووصفهم بذلك يقتضي تذكيرهم بواجبات حمل الكتاب الذي يُنسبون إليه، ومدى جريمة الخيانة إن لم يبينوا ما فيه، ويُطهّروه من المحرّف.

بَصِيْرَة
٢

﴿لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ﴾

تبصرنا بأن نثير الشك في ثوابتهم بواسطة السؤال، فإبراهيم عليه السلام لا يمكن نسبته إلى اليهودية والنصرانية؛ إذ كيف ينسبونه إلى شريعة أنبياء من ذريته، وإلى كتبٍ نزلت بعده؟

بَصِيْرَة
٣

الإسلام دين السابقين واللاحقين

فيقال لهم: إبراهيم هو أبو إسماعيل وإسحاق، فهو أبو إسرائيل وموسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، فما دينه؟

الجواب: قطعاً ليس اليهودية ولا النصرانية؛ لأن التوراة والإنجيل لم تنزلا إلا من بعده. فإن قالوا: كذلك الإسلام جاء من بعد، فالجواب: بل الإسلام دين الأنبياء ابتداء من آدم عليه السلام، وموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم وسلم ساروا على ملة إبراهيم عليه السلام.

وتبصرنا الآية بأن ننتقل إلى الخطوة الثانية:

خطوة
(٢)﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ التلطف لا يعني عدم التنبيه بقوة، فهنا نقرر لهم أن الإصرار على نسبة إبراهيم عليه السلام إلى اليهودية أو النصرانية يدل على فقدان العقل.

أي: أَفَلَا تَعْقِلُونَ أَنَّ الْمُتَقَدِّمَ عَلَى الشَّيْءِ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يَكُونَ تَابِعًا لَهُ. (تفسير المنار 3/271).

ثم ننتقل إلى الخطوة الثالثة:

خطوة
(٣)

﴿هَآأَنْتُمْ هَآؤُلَآءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [66]

ذكر الله -جل مجده- قاعدة عظيمة في الحوار يُقَدِّفُ بها أهل الحق على الباطل، وخلاصتها: لا يحتج الجاهل بجهله على العالم.

هذه قاعدة عامة، فيقال لمن يجادل في أمرٍ لم يحط به علمًا:

هنا قبلنا جدالك في ما قد علمت، فلم تتجراً على الخوض في أمرٍ لم تقف على حقيقة علمه؟ ومثل ذلك يقال لمن سخر من الحجاب وتقسيم الموارد والحدود والمعاملات الاقتصادية: ما هذا الجهل؟ تجادلون في شيءٍ لا تعلمون نفعه وعظمته، هل تفتخرون بجهلكم؟!

بَصِيرَةٌ
١في موضوع إبراهيم عليه السلام: مهما ذكروا حول إلصاقه بمِلَّتِهِمْ يقال لهم:هذا قولٌ بلا علم، فهنا أنتم هؤلآءِ حاججتم فيما لكم به علمٌ ما، وهو خبر عيسى عليه السلام، فقامت عليكم الحجة بأن منكم من غلا في الإفراط إذ قال: إِنَّهُ إِلَهٌ، ومنكم من غلا في التفريط: إذ قال: إِنَّهُ دَعِيَ كَذَّابٌ، ولم يكن علمكم القليل به عاصمًا لكم من الخطأ في الحكم عليه، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم فتزعمون أن إبراهيم كان يهوديًا أو نصرانيًا. (تفسير المنار 3/271).بَصِيرَةٌ
٢

ثم ننتقل بهم إلى الخطوة الرابعة:

خطوة
(٤)

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٦٦)

تبصرنا أن نقول لهم: بما أنه لا علم لكم بحال إبراهيم عليه السلام، فيجب أن تتبعوا فيه ما قاله الله عز وجل مما أوحاه إلى محمد رسوله ﷺ، فهو الذي يعلم وأنتم لا تعلمون.

ثم ننتقل إلى الخطوة الخامسة:

خطوة
(٥)

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾

تبصرنا بأن نحرر محل النزاع معهم، فنقول: لا يمكن أن ينتمي إبراهيم عليه السلام إلى هاتين الملتين لأنهما جاءتا بعده.

ثم ننتقل إلى الخطوة السادسة:

خطوة
(٦)

إذن لا بد أن تكون ديانتها هي ذاتها ديانة من قبله ومن بعده من الأنبياء
﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾.

﴿مُسْلِمًا﴾

بَصِيرَةٌ

٢

هذه الكلمة تبين أن نسبة إبراهيم عليه السلام في دينه الإسلام، وهي نسبة كل الأنبياء عليهم السلام إلى الإسلام.

﴿حَنِيفًا﴾

بَصِيرَةٌ

١

أي: مستقيماً، وقول العرب: «أحنف» لمن كان في قدميه عوج تفاؤل باستقامتهما.

ثم ننتقل إلى الخطوة السابعة:

خطوة
(٧)

وعند سماعهم أن إبراهيم عليه السلام كان حنيفاً ربما قالوا: هل تعنون بالحنفاء مشركي العرب؟ لأنهم كانوا يُدْعَوْنَ بذلك، فيأتهم الجواب: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧).

بَصِيرَةٌ

١

كلمة ﴿الْمُشْرِكِينَ﴾ تعريضٌ بمن أشرك مع الله ﷻ في ذاته أو صفاته

فهو تعريضٌ بالعرب الوثنيين، فإبراهيم عليه السلام لم ينتم إليهم، وكذلك تعريضٌ باليهود في تشبيهه الله ﷻ بخلقه؛ إذ نسبوا إليه التعب والصفات غير اللائقة، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وأيضاً تعريضٌ بالنصارى إذ قالوا بألوهية المسيح عليه السلام.

بَصِيرَةٌ

٢

فالمعنى:

إبراهيم عليه السلام المتفق على تعظيمه عند أهل الملل الثلاث (اليهود والنصارى ومشركي العرب) لَمْ يَكُنْ عَلَى مِلَّةٍ أَحَدٍ مِنْهُمْ، بَلْ كَانَ مُسْتَقِيمًا مَائِلًا عَنْ شِرْكِهِمْ وَعِبَتِهِمْ مُسْلِمًا خَالِصًا لِلَّهِ تَعَالَى.

بَصِيرَةٌ

٣

قد يعترض معترض، فيقول: الشريعة الإسلامية التي جاء بها محمد ﷺ جَاءَتْ مِنْ بَعْدِ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام

كَمَا كَانَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ مِنْ بَعْدِهِ، فكما لا تصفون إبراهيم عليه السلام بأنه يهودي أو نصراني، فكذلك لا ينبغي أن تصفوه بالإسلام؟

الجواب: بل نصفه بالإسلام؛ لأنه الدين الذي تعبد الله ﷻ به العالمين منذ آدم عليه السلام، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِكَوْنِهِ مُسْلِمًا أَنَّهُ كَانَ عَلَى مِثْلِ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدٌ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمَا وَعَلَى آلِهِمَا وَسَلَّمَ- مِنَ الشَّرِيعَةِ بِالتَّفْصِيلِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام كَانَ مُتَحَقِّقًا بِأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْأَسَاسِيَةِ، وَكَانَ مُتَحَقِّقًا بِمَعْنَى الْإِسْلَامِ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ لَفْظُهُ، وَهُوَ التَّوْحِيدُ وَالْإِخْلَاصُ لِلَّهِ فِي عَمَلِ الْخَيْرِ. (تفسير المنار 3/271).

ثم ننتقل إلى الخطوة الثامنة:

خطوة
(٨)

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨)

فتبصرنا أن نقول لهم: بحسب ما سبق يستبين من هم أحق الناس بإبراهيم عليه السلام: إنهم الذين اتبعوه في زمنه وبعده، ومنهم النبي الخاتم عليه السلام والمؤمنون.

بَصِيرَةٌ
١

﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾

تبصرنا بأن الإسلام ليس مجرد نسب بل هداية عملية، واتباع تطبيقي، فقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ وَلاَةٍ مِنَ النَّبِيِّينَ، وَإِنَّ وَلِيَّيَ أَبِي وَخَلِيلُ رَبِّي إِبْرَاهِيمُ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ أَوَّلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لِلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٦٨)»، (الترمذي 2995، ورجاله ثقات، إلا أن أبا أحمد الزبيري، قد خالفه وكيع وغيره، فرووه

منقطلاً بإسقاط مسروق).

بَصِيرَةٌ
٢إبراهيم عليه السلام هو إمام الموحدين للملأ الثلاث

فقد قال: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأنعام: 79]، وأعلن براءته من الشرك فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ﴾ [الزخرف: 26]، وَ أَقَامَ بِنَاءً يرمز إلى تعظيم شعائر الله ﷻ، وَهُوَ الْكَعْبَةُ، أَوَّلُ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ، وَفَرَضَ حَجَّهُ عَلَى النَّاسِ ارْتِبَاطًا بِمَغْرَاهُ، وَسَأَلَ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَرِيهِ الْمَنَاسِكَ الَّتِي بِهَا يَكُونُ مُسْلِمًا لَهُ، فَقَالَ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَكَ وَتُبْ عَلَيْنَا﴾ [البقرة: 128]، وَسَأَلَ اللَّهُ ﷻ أَنْ يَجْعَلَهُ مُسْلِمًا بِقَوْلِهِ: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾ [البقرة: 128]. (التحرير والتنوير 3/275).

أتباع إبراهيم عليه السلام هم من استقام على ملته

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ يَسْأَلُ عَنِ الدِّينِ وَيَتَّبِعُهُ، فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ الْيَهُودِ، فَسَأَلَهُ عَنْ دِينِهِمْ، فَقَالَ: (إِنِّي لَعَلِّي أَنْ أَدِينَ دِينَكُمْ فَأَخْبِرْنِي) فَقَالَ: لَا تَكُونُ عَلَى دِينِنَا حَتَّى تَأْخُذَ بِنَصِيْبِكَ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ. قَالَ زَيْدٌ: مَا أَفْرُ إِلَّا مِنْ غَضَبِ اللَّهِ، وَلَا أَحْمِلُ مِنْ غَضَبِ اللَّهِ شَيْئًا أَبَدًا، وَأَنْتَى أَسْتَطِيعُهُ؟ فَهَلْ تَدُلُّنِي عَلَى غَيْرِهِ؟ قَالَ: مَا أَعْلَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ حَنِيفًا، قَالَ زَيْدٌ: وَمَا الْحَنِيفُ؟ قَالَ: دِينُ إِبْرَاهِيمَ لَمْ يَكُنْ يَهُودِيًّا، وَلَا نَصْرَانِيًّا، وَلَا يَعْبُدُ إِلَّا اللَّهَ، فَخَرَجَ زَيْدٌ فَلَقِيَ عَالِمًا مِنَ النَّصَارَى فَذَكَرَ مِثْلَهُ، فَلَمَّا رَأَى زَيْدٌ قَوْلَهُمْ فِي إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ خَرَجَ، فَلَمَّا بَرَزَ رَفَعَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ دِينَ إِبْرَاهِيمَ.

(البخاري: 3827).

جسر اتصال

عرفنا أن المحور الثالث يحدثنا عن ميثاق الأنبياء، وأن الإسلام هو دين سائر الأنبياء ﷺ، وعلمنا أن القسم الثاني فصلٌ أساسًا من أهم أسس الحوار، وهو الحوار حول دين إبراهيم ﷺ، وأنه الإسلام [آل عمران: 65-68]، وبصرتنا الآيات بثمان خطوات في حوارنا مع أهل الكتاب، وهذه الخطوات عقلية حكيمة، ولكننا نسأل: إذا لم يُسلّموا بذلك، فما المتوقع من قياداتهم المُحرّفة؟

الجواب: هنا يأتي:

القسم الثالث

فصلٌ لنا محاورات صريحة لأهل الكتاب تكشف تأمر قيادات المحرفين منهم، وجرائمهم ليُضلوا العالم، خصوصًا في معرفة أن دين الله هو الإسلام [آل عمران: 69-73]، وذكر الله ﷻ فيه ستّ جرائم ضخمة تعكس أزمة نفسية عند المتطرفين منهم:

آيات هذا القسم:

﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ٧٠ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ٧١ وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ٧٢ وَلَا تَتُومِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دِينَكُمْ ٧٣﴾

بين الله ﷻ في هذا القسم بعض أبرز تحركاتهم المراوغة، ومسالكتهم المجرمة في التعامل مع المسلمين، وهي مسالك تمثل أزمات نفسية وجرائم حقيقية، فذكر (٦) جرائم، وذلك كما يأتي:

الرغبة العارمة في إضلال المسلمين ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩)، وهذه الجريمة أساس كل المصائب.

الجريمة
الأولى

الإصرار على الكفر بآيات الله ﷻ مع علمهم أنها من الله ﷻ ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠).

الجريمة
الثانية

الكذب على العالم بلّبس الحق بالباطل ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ...﴾ (٧١).

الجريمة
الثالثة

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (٧١)
كتمان الحق مع العلم به.

الجريمة
الرابعة

يقوم بعضهم بحيلة خبيثة، فيظهرون اعتناق الإسلام، أو شيئاً من الحق الذي عند المسلمين، ثم يتراجعون: ﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ...﴾ (٧٢).

الجريمة
الخامسة

إشعال نار التعصب العرقي الديني للباطل مهما ظهر الحق عند الآخرين: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبَعَ دينَكُمْ...﴾ (٧٣).

الجريمة
السادسة

الجريمة الأولى

الرغبة العارمة في إضلال المسلمين ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩)، وهذه الجريمة أساس كل المصائب، وفيها (١٢) بصيرة:

بَصِيرَةٌ ١

﴿وَدَّتْ﴾ كلمة تصور شدة رغبة هذه الطائفة الشريرة، وحرصها على إضلال المسلمين

فالوُدُّ مَحَبَّةٌ ملازمة ثابتة، ويصحها رغبة أو أمنية عارمة أن يتحقق ما يودُّه الإنسان، فيخطط لتحقيق ذلك، وينفذ، فهذه جريمة سبها نفسي يُوْزُّه الشيطان، ويدفعه العناد والتعصب، حتى أن بعضهم يسرون في الأرض عراة، ويحاربون اللباس الذي يميز الإنسان من الحيوان، وبدلاً من أن يُسلموا للحق نراهم يَجْتَهُدُونَ في إضلال المؤمنين بالتعذيب أو بِإِلْقَاءِ الشُّبُهَاتِ. (تفسير الرازي 8/ 255).

بَصِيرَةٌ ٢

﴿وَدَّتْ﴾ تبصرنا بأن إرادة السوء إذا استحكمت في الباطن وصارت عزماً أكيداً وقراراً جازماً

فإنها حينئذ تتحول إلى جرائم تنفيذية يستحق صاحبها العقوبة، وهذا مما يغفل عنه كثير من الناس، فلا يحسبون تمكن ذنوب الباطن واثامه مما يستوجب اللوم والعقوبة.

بَصِيرَةٌ ٣

﴿طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ ﴿طَائِفَةٌ﴾:

هم مجموعة يطوف بعضهم على بعض يتناصرون في فكرة محددة كالحزب والنقابة في أيامنا، وفي سورة البقرة ذكر الله ﷻ حجم هذه الطائفة، وأنهم كثير، فقال: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّوكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا﴾ [البقرة: 109]، وفائدة معرفتنا لذلك أن يحذر المسلمون منهم، فلا يتعاملون بسداجة وبراءة معهم، فهم يصرون على استهداف هوية المسلمين.

بَصِيرَةٌ ٤

﴿مِّنْ﴾ تبصرنا بضرورة التعامل مع أهل الكتاب وغيرهم بالعدل والإنصاف

فقد ذكر الله ﷻ أنهم طائفة ﴿مِّنْ﴾ أهل الكتاب، وكلمة ﴿مِّنْ﴾ هنا للتبويض، ولم يعمهم بالحكم؛ لِأَنَّ منهم محايدون، وَمِنْهُمْ مَّنْ آمَنَ، وَأَتَى اللَّهَ ﷻ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: 66] ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران: 113]. (تفسير الرازي 8/ 255).

بَصِيرَةٌ

٤

﴿مَنْ﴾ تبصرنا بضرورة التعامل مع أهل الكتاب وغيرهم بالعدل والإنصاف

فقد ذكر الله ﷻ أنهم طائفة ﴿مَنْ﴾ أهل الكتاب، وكلمة ﴿مَنْ﴾ هنا للتبعية، ولم يعمهم بالحكم؛ لأنَّ منهم محايدون، ومنهم مَنْ آمَنَ، وَأَتَى اللَّهَ ﷻ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: 66] ﴿مَنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ [آل عمران: 113] • (تفسير الرازي 8/255).

بَصِيرَةٌ

٥

﴿لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ أي: لويوقعونكم في الضلال، ومن أساليب إضلالهم:

٣

نشر وسائل الفسق المؤدية إلى الزنا أو الفاحشة أو القمار، وجعلها من حقوق الإنسان.

٢

تشكيكهم في الثوابت الإسلامية مثل: الطعن في ألوهية رب العالمين، وحياته، وقِيُومِيَّتِهِ، أو الطعن في النبي ﷺ، أو في الصحابة رضي الله عنهم.

١

تحريف المفاهيم إلى ضدها، فلا تتضح المفاهيم الإسلامية الأساسية مثل: الحق والعدل، والإيمان، والكفر، والاعتدال والوسطية، والصراط المستقيم والطريق المعوج، والتحليل والتحریم، فتحاول هذه الطائفة وحلفاؤها من المنافقين أن يقرروا مفاهيم باطلة لكل هذه المصطلحات.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿وَمَا يَضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ تبصرنا بنوع من الرد عليهم

لتطمين المؤمنين، ولتبليغ الكافرين، وإعلام أصحابهم الذين لا يعرفون حقيقة ما يفعلون، فيقال لهم: كلُّ جهودكم في إضلال المسلمين إنما تضلون بها أنفسكم، والضلال: التَّيُّهُ والهلكة، فكيف تقبلون أن تهلكوا أنفسكم؟!

بَصِيرَةٌ

٧

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ تبصرنا بأن هذه الطائفة تمضي بحماسٍ شديد لإضلال المسلمين؛

لأنها لا تشعر أن ذلك يعود عليها بالخسارة المحققة؛ بل يظنون أنهم يحققون الإنجازات، وتصوِّرون بعضهم يستبيح الكذب وقتل الأبرياء من الرجال والأطفال والنساء، وسرقة ثروات الشعوب، ويجعلون ذلك إنجازات يُتفاخرون بها!

بَصِيرَةٌ

٨

هذا يعني ضرورة تبليغهم مخاطر ما يفعلون، وترك المجاملات السياسية والثقافية فمثلاً عندما ينشرون الفاحشة أو الربا في العالم، ويجعلون المنظمات الدولية قائمة على ذلك، فهم يضلون أنفسهم، ولكنهم ما يشعرون بذلك، فكأن الله ﷻ يقول: ذَكِّرُوا هَؤُلَاءِ الْمُضِلِّينَ، وقولوا لهم: إنكم تضلون أنفسكم، ونحن نشفق عليكم، لأنكم لا تحسُّون لفرط غروركم وحمقكم وجهلكم.

بَصِيرَةٌ

٩

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٨﴾ ربما نفى شعورهم لأن عواطفهم تبلدت، وفطرتهم غطَّتْها معاصيهم حتى صاروا لا يشعرون بالجرائم التي يرتكبونها كما ترى في تأييدهم لما يفعلونه بالأطفال، وأيضاً لأنهم ما هم في جرائمهم؛ لَأَنَّ الْمُثْمِرَ فِي الشَّيْءِ لَا يَكَادُ يَفْطِنُ لِعَوَاقِبِهِ وَآثَارِهِ. (تفسير المنار 3/ 273).

بَصِيرَةٌ

١٠

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ ﴿٦٩﴾ الشعور يكون بما يدرك فطرةً حتى يشترك في إدراك حسنه أو قبحه العقلاء وغير العقلاء، وحينما يُنفى عنهم هذا المعنى فإنه يُنبئ أنهم قد وصلوا إلى مرتبة أسوأ من الحيوانات والهائم.

بَصِيرَةٌ

١١

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة أسساً للحوار فيبصرنا اتصالها بهذه الآية بأنه بعد الحوار العقلي معهم لا بد من تسليط الأضواء الإعلامية على أساليب قياداتهم المخادعة، مع إبقاء الخطاب نحوهم قائماً ليَعْلَمَ عوامُهم ضعف حججهم، وشدة عدوانهم، وتحريفهم لديانتهم التي يزعمون أنهم يتبعونها.

بَصِيرَةٌ

١٢

وجدنا أسلوب صياغة الآية أسلوباً حوارياً هادئاً فهو سبحانه يحاورهم بالطف أسلوب، ولكنه يبين في أثناء ذلك مسالك قياداتهم المجرمة وشدة الكيد والمشاريع الهدامة التي يخططون لها، أو ينفذونها، مما يعطينا بُعداً في كيفية التفريق بين التعامل الثقافي وتبني الخطاب الرسالي مع عوامهم، والخطاب السياسي مع القائمين على المؤسسات الظالمة المجرمة من قياداتهم، والتدرب على الحوار في العلاقات الدولية وفق هذه الأسس.



جسراتصال: عرفنا أن الآية (69) بصرتنا بالجريمة الأولى التي يرتكها الفاسدون من أهل الكتاب، وهي محبة إضلال المسلمين، فما الجريمة الثانية؟

جسراتصال

الجواب: هنا يأتي:

الجريمة الثانية

الإصرار على الكفر بآيات الله ﷻ مع علمهم أنها من الله ﷻ:
﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠)، وفيها (٦) بصائر:

بَصِيرَةٌ ١

تظهر المناسبة والاتصال بين الآية السابقة وهذه الآية بصورة محكمة عظيمة

فبعد أن كشف الله ﷻ حقيقة عاطفتهم الجامحة المحبة لأن يضلوا المسلمين ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ ناداهم بكلماتٍ تحتوي على إنكارٍ عليهم، ويلقيها المحاور إما بقوة تناسب الإنكار، وإما بهدوء يزيد الإنكار قوة، فيصنع المناسب للموقف: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾.

بَصِيرَةٌ ٢

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

تبصرنا أن نناديهم في محاوراتنا بأجمل الأسماء في المواقف التي تقتضي اللين، وذلك إما للتأثير عليهم، أو للتأثير على عامتهم، وإعادة نداءهم بقوله: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ يفيد أيضاً قصد التوبيخ، وتسجيل باطلهم عليهم. (التحرير والتنوير 279/3)، ولإلزامهم بما يقتضيه كتابهم.

بَصِيرَةٌ ٣

﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾

الباء تبصرنا أن نقول:

بدلاً من أن تؤمنوا جعلتم آيات الله ﷻ سبباً لكفركم مع أنكم تشهدون صدقها وأنها حق، والسؤال هنا يُوَجِّهُ نظرهم إلى موقفهم المريب المعيب.

بَصِيرَةٌ

٤

المراد من قوله ﴿يَايَاتِ اللَّهِ﴾:

٢ ما فهمنا من أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا.

١ الآيَاتُ الْوَارِدَةُ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ الْمُتَضَمِّنَةُ لظهور أمر محمد ﷺ وأنه حق.

٤ ما فهمنا من أمور الحق والعدل التي يخالفونها.

٣ ما فهمنا من أَنَّ الدِّينَ هُوَ الْإِسْلَامُ.

٦ آيات القرآن الكريم، فهي تناديهم إلى الإيمان، ويدخل في ذلك هنا تبعًا للمعجزات المادية.

٥ ما رأوه من الآيات الدالة على رسالة النبي ﷺ وكفروا به.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ تبصرنا بمعنيين حسب معنى كلمة (آيات):

تشهدون آيات الله ﷻ وهي العلامات الدالة على صحة الإسلام ونبوة النبي ﷺ

المعنى
الأول

فقد سَمِعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ الْخَبَرَ الْمَهُودِي بِقُدُومِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ: إِنِّي سَأُثَلِّثُ عَنْ ثَلَاثٍ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ - فذكرها - فَقَالَ ﷺ: «أَخْبِرْنِي بِمَنْ جِبْرِيلُ أَنْفَأَ» قَالَ: جِبْرِيلُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قَالَ: ذَاكَ عَدُوُّ الْمُؤَدِّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ - وهذا يدل على نبوته ﷺ - فأسلم الخبر، وقال: إِنَّ الْمُؤَدِّ قَوْمٌ هُبَّتْ، وَإِنَّهُمْ إِنْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي قَبْلَ أَنْ تَسْأَلَهُمْ يَهْتُونِي، فَجَاءَتِ الْمُؤَدِّ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّ رَجُلٍ عَبْدُ اللَّهِ فِيكُمْ؟» قَالُوا: خَيْرُنَا، وَابْنُ خَيْرِنَا، وَسَيِّدُنَا، وَابْنُ سَيِّدِنَا، قَالَ: «أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ؟» فَقَالُوا: أَعَاذَهُ اللَّهُ مِنْ ذَلِكَ، فَخَرَجَ عَبْدُ اللَّهِ فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالُوا: شَرُّنَا، وَابْنُ شَرِّنَا، وَانْتَقَصُوهُ، قَالَ: فَهَذَا الَّذِي كُنْتُ أَخَافُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. (البخاري: ٤٤٨٠).

المعنى
الثاني

تشهدون آيات الله ﷻ وهي آيات القرآن

وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠) يَعْنِي: أَنْكُمْ تُنْكِرُونَ عِنْدَ الْعَوَامِّ كَوْنَهُ الْقُرْآنَ مُعْجِزًا، ثُمَّ تَشْهَدُونَ بِقُلُوبِكُمْ وَعُقُولِكُمْ كَوْنَهُ مُعْجِزًا. (تفسير الرازي ٢٥٦/٨)، ولوقال: تشهدون أن القرآن حق بدلًا من معجز لكان الأولى في هذا الموضع.

الالتفات في هذه الآية

بَصِيرَةٌ
٦

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ (٧٠) إلى الخطاب من الغيبة في التي قبلها: يبصرنا بضرورة مكاشفتهم ومصارحتهم بما هم عليه من الكفر بآيات الله ﷻ، وتوجيه دعوة صريحة إليهم لا مواربة فيها إلى التسليم لأمر الله ﷻ والإيمان بدينه الحق، فمجاملاتهم في الحوار لا معنى لها.



عرفنا أن الآية (70) بصرتنا بالجريمة الثانية التي يرتكها الفاسدون من أهل الكتاب، وهي الإصرار على الكفر بآيات الله ﷻ مع علمهم أنها من الله، فما الجريمة الثالثة؟

جسراتصال

الجواب:

الكذب على العالم بلّس الحق بالباطل

الجريمة
الثالثة

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ...﴾ (٧١)، وفيها (٦) بصائر:

بَصِيرَةٌ

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

يتكرر النداء ليبصرنا بأهمية الحوار معهم، والتبليغ لهم، وإقامة الحجة عليهم.

بَصِيرَةٌ

﴿لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ جاءت بعد مدحهم بوصفهم أهل كتاب

ليبصرنا الله ﷻ ويبصرهم بالتناقض بين أن يكونوا أهل الكتاب، ويرتكبوا هذه الجريمة الكبيرة في حق أنفسهم وحق العالم.

بَصِيرَةٌ

﴿لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ تصور ببلاغة مدهشة كيفية فعلهم لهذه الجريمة

فهم يأتون ببعض الحق ويخلطونه بشيء من الباطل، فيجعلون الحق لباساً للباطل، فالظاهر حق، والباطن باطل، فانظر لخفاء التزوير، فلواتوا بالحق كله لظهر الحق، ولواتوا بالباطل كله لظهر الباطل.

بَصِيرَةٌ

من أمثلة لِبْسِهِمُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ:

يُسْمِعُونَ النَّاسَ بَعْضًا مِنَ الْحَقِّ مِثْلَ صَدَقَ نُبُوءَ مُوسَى أَوْ عِيسَى ﷺ، ويخلطون به كذبًا كبيرًا كإنكار

نبوة محمد ﷺ.

٢

الكلام عن حقوق الإنسان ويعنون بها حقوق الإنسان الذي اغتصب أراضي الآخرين، أو أراد استباحة شهوات الفاحشيين، وهذا لعبٌ شيطاني يدمر الأفكار والعقائد والتصورات، فالباطل المختلط بالحق يرفع الثِّقَّةَ بِجَمِيعِهِ.

٣

أن يخلطوا المُنَزَّل من التوراة والإنجيل بالمُحَرَّف الذي يخلقه، أو يؤولونه من عند أنفسهم.

٤

يتكلمون عن حقوق الإنسان، ثم يشاركون أو يتسترون على قتل مئات الآلاف وهم يضحكون، وقد يكون ذلك بغطاء من منظمات دولية ترفع شعار الحق والعدل.

٥

يخلطون الحق كمبدأ الجهاد في سبيل الله، بالباطل الذي ألصقه به من الإجرام الذي يسمونه هذه الأيام الإرهاب.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾

كما أن فيها معنى خلط الحق بالباطل فإن فيها معنى ستر الحق أو بعضه بحيث يخفى، كما يقول الراغب رَحِمَهُ اللهُ: "وأصل اللبس ستر الشيء، ويقال ذلك في المعاني، يقال: لبستُ عليه أمره، قال تعالى:

﴿وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ٩﴾ [الأنعام: 9]، وقال: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ [البقرة: 42]". (المفردات ص: 447).



عرفنا أن الآية (71) بصرتنا بالجريمة الثالثة التي تمارسها القيادات المُحَرِّفة، وهي الكذب على العالم بلِّس الحق بالباطل، فما الجريمة الرابعة؟

جسر اتصال

الجواب:

الجريمة
الرابعة

﴿وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعَاْمُونَ﴾ (٧١)

كتمان الحق مع العلم به، وفيها (٤) بصائر:

بَصِيرَةٌ

أمثلة ذلك:

١

يجهدون في إخفاء كل ما يدل
على عبادة الله ﷻ، ولزوم
حكمه.

٢

يجهدون في إخفاء نبوة النبي
ﷺ، وصحة الإسلام.

٣

يجهدون في إخفاء الحق في مجال
نصرة الإنسان، وإغاثة المستضعفين
من الرجال والنساء والولدان.

بَصِيرَةٌ

﴿وَأَنْتُمْ تَعَاْمُونَ﴾ (٧١)

أي: تعلمون الحق، ولكنكم تتركونه عنادًا وحسدًا مع أنكم أصحاب معرفة لا أصحاب جهل وخرافة.

بَصِيرَةٌ

كان الواجب عليهم أمام هاتين الجريمتين

جريمة لبس الحق بالباطل، وجريمة كتمان الحق: أن يميزوا الحق من الباطل بدلًا من لبسه، وأن يظهروا
الحق أمام الرأي العام، وفي وسائل الإعلام بدلًا من كتمانهم ليسطيع الناس الاختيار.

بَصِيرَةٌ

رغم أن الكتمان موقفٌ سلبى، لا يعدوا أن يكون سكوًا

لكن السكوت عن حق يجب إظهاره وبيانه: لا يقل جرمًا عن خلط الحق بالباطل.

جسرات اتصال

عرفنا أن الآية (71) بصرتنا بالجريمة الثالثة التي تمارسها القيادات المُحرّفة، وهي
الكذب على العالم بلبس الحق بالباطل، وبالجريمة الرابعة، وهي كتمان الحق مع
العلم به، فما الجريمة الخامسة؟

الجواب:

الجريمة
الخامسة

يقوم بعضهم بحيلة خبيثة، فيظهرون اعتناق الإسلام، أو شيئاً من الحق الذي عند المسلمين، ثم يتراجعون عن ذلك قولياً أو عملياً

﴿وَقَالَتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٦﴾﴾، وذلك لتشكيك المؤمنين في الإيمان، أو في الحق الذي عندهم، ولصدِّ العقلاء الذين يؤيدون ذلك الحق، وفيها (٤) بصائر:

لهذه الحيلة صور، منها:

بَصِيرَةٌ
١

الصورة الأولى

يقولون: ادخلوا في دينهم على وجه الخديعة في وقت كأول النهار، ثم أظهروا تكذيبه في وقت كآخر النهار، فَإِنَّ النَّاسَ مَتَى شَاهَدُوا هَذَا التَّكْذِيبَ، قَالُوا: هَذَا التَّكْذِيبُ لَيْسَ لِأَجْلِ الْحَسَدِ وَالْعِنَادِ، وَإِلَّا لَمَا ءَامَنُوا بِهِ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ، بل هَذَا التَّكْذِيبُ لِأَجْلِ أَنَّهُمْ بَحْثُوا عَنْ دَلَائِلِ نُبُوتِهِ، فوجدوها غير مكتملة.

الصورة الثانية

قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: إِنَّ كَذَّبْتُمُوهُ فِي جَمِيعِ مَا جَاءَ بِهِ فَإِنَّ عَوَامَّكُمْ يَعْلَمُونَ كَذِبَكُمْ؛ لِأَنَّ كَثِيرًا مِّمَّا جَاءَ بِهِ حَقٌّ، وَلَكِنْ صَدَّقُوهُ فِي بَعْضٍ، وَكَذَّبُوهُ فِي بَعْضٍ حَتَّى يَحْمِلَ النَّاسُ تَكْذِيبَكُمْ لَهُ عَلَى الْإِنْصَافِ لَا عَلَى الْعِنَادِ، فَيَقْبَلُوا قَوْلَكُمْ.

(تفسير الرازي 8/ 257).

فوائد فضح هذه الحيلة الخبيثة:

بَصِيرَةٌ
٢

هَذِهِ الْحِيلَةُ كَانَتْ مَخْفِيَةً فِيمَا بَيْنَهُمْ، فَلَمَّا أَخْبَرَ الرَّسُولُ ﷺ عَنْهَا كَانَ ذَلِكَ إِخْبَارًا عَنِ الْغَيْبِ، فَيَكُونُ مُعْجَزًا.

لَمَّا أَطَّلَعَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عَلَى تَوَاطُفِهِمْ عَلَى هَذِهِ الْحِيلَةِ لَمْ يَحْصُلْ لِهَذِهِ الْحِيلَةِ أَثَرٌ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ.

لَمَّا فَضَحَ اللَّهُ ﷻ حِيلَتَهُمْ صَارَ ذَلِكَ رَادِعًا لَهُمْ عَنِ الْإِقْدَامِ عَلَى أَمْثَالِهَا مِنَ الْحِيلِ وَالتَّلْبِيسِ.

(تفسير الرازي 8/ 258).

بَصِيرَةٌ

٣

هذه الحيلة ما تزال تتكرر في هذه الأيام بصور مختلفة

فأصبح هناك جيشٌ ضخْمٌ من العملاء، ولكنهم في صور إعلاميين وأساتذة وفلاسفة ودكاترة وباحثين، وشعراء وفنانين، وربما علماء، يحملون أسماء مسلمة، ولكنهم يطعنون عميقاً في الثوابت الإسلامية. ومن أمثلة تكرّر هذه الحيلة ما فعله (نابليون بونابرت) عندما أراد احتلال مصر، أرسل منشوراً يُقرأ بين يديه يتضمن إعلان إسلامه.

بَصِيرَةٌ

٤

بتأمل هذه الجرائم المتوالية يلفتنا تنوعها

والتفنن في توزيع الأدوار بين أصحابها لإغواء المسلمين والعالم من خلالها، ويبصرنا ذلك بالعمل الدائب الذي تقوم به قوى الضلال للتشكيك في الحق والمبادئ المستقيمة.

عرفنا أن الآية (72) بصرتنا بالجريمة الخامسة التي تقوم بها القيادات المحرفة، فيقوم

بعضهم بحيلة خبيثة، إذ يظهرون اعتناق الإسلام، أو شيئاً من الحق الذي عند المسلمين، ثم يتراجعون عن ذلك قولياً أو عملياً، فما الجريمة السادسة؟

جسرات اتصال

الجواب:

إشعال نار التعصب العرقي الديني للباطل مهما ظهر الحق عند الآخرين، ويبصرنا بها قول الله - تعالى - عنهم: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ...﴾ (٧٣)، وفيها ٦ مشاهد بصائية:

الجريمة السادسة

مشهد

[1]

يشيعون في لقاءاتهم الخاصة ويؤكدون على إظهار أن الحق مرتبط بهم لعرقهم أو ملتهم

وأن المسلمين مهما ظهر عندهم من خير فلا ينبغي إثباته، فيقول بعضهم لبعض: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، والتعبير بالإيمان مع تعديته باللام يكشف عددًا من المشاهد بأسلوب بياني مدهش؛ إذ ضَمَّنَ فعل ﴿تُؤْمِنُوا﴾ معاني أخرى، فمنها: أنهم يقولون: لا تصدقوا مقرين بأي حقٍ يظهر عند غيركم إلا أن يكون ممن تبع دينكم.

مشهد

[2]

كأنهم يقولون لبعضهم:

لا تظهروا إيمانكم بأي شيءٍ لأحدٍ إلا لمن تبع دينكم، فإن شريعتكم التوراتية يستحيل نسخها.

مشهد

[3]

ومشهدٌ ثالثٌ نبصره من التعدية باللام ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ﴾

كأنهم قالوا: لا تطمئنوا إلا لمن تبع دينكم حتى لو كانوا على باطل.

مشهد

[4]

ومشهدٌ رابعٌ منها: كأنهم قالوا: لا تقروا لأحدٍ بحيلتكم ومكركم مع زعمكم أنكم على حقٍ إلا لمن تبع دينكم

وهذا المعنى يظهر عندما نصل هذه الآية بما قبلها

﴿وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهُ النَّهَارِ وَكُفُّوا ءَاخِرَهُ، لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ﴾.

مشهد

[5]

﴿تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ ولم يقولوا لأصحاب دينكم

وهذا يدل على أنهم لا يثقون حتى في أبناء دينهم ممن يكونون محايدين أو غير متعصبين، بل هم يريدون من تبع دينهم الخرافي المحرف، فقد يوجد يهود أو نصارى لا يتبعون خرافات الصهيونية، وهؤلاء يكونون محاربين من أصحاب الدين الخرافي.

مشهد

[6]

تكشف الآية حرصهم على إرباك المجتمع المسلم

إذ إن بعض المسلمين يحرص على التواصل الظاهر أو الخفي مع هذه الفئة الماكرة بمعرفة لخطرهم أوبدون معرفة، فتلین قلوب هؤلاء المسلمين لهم مع الأيام، ويعتقدون صدقهم وطيبتهم، فيحدث التخلخل في التفكير، والاختراق في التصرف والتدبير، حتى يصل الأمر إلى التعادي بين أفراد المسلمين بسبب هذا المكر.

جسراتصال

عرفنا أن القسم الثالث من هذا المحور فصل لنا محاورات صريحة لأهل الكتاب تكشف تأمر قيادات المحرفين منهم، وجرائمهم ليضلوا العالم، وخصوصاً في معرفة أن دين الله هو الإسلام [آل عمران: 69-73]، وذكر الله ﷻ فيه ستّ جرائم ضخمة تعكس أزمة نفسية عند المتطرفين منهم، فهل ذكر كل هذه الجرائم دون ردّ عليها؟

الجواب: هنا يأتي:

القسم الرابع

ردود قوية على جرائم المحرفين الست [آل عمران: 73-74]، علّمنا الله ﷻ اثني عشر ردّاً من الردود على حيلهم وجرائمهم السابقة وخاصة الأخيرة:

آيتا القسم:

﴿قُلْ إِنْ أَلْهَدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنْ أَلْفَضَلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ۝٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ۝٧٤﴾

رد
(1)

﴿قُلْ﴾ أي يجب عليك أن ترد عليهم

ولم يقل كما سبق: قل يا أهل الكتاب، ليرينا الله ﷻ على الانتصار في الحوار مع المبطلين، فالرد ليس ليستمعه أهل الكتاب فقط، بل يهدف الرد إلى تعزيز الثقة الدينية عند المسلمين، وإعلام العالمين، والرد على المحرفين.

رد
(2)

﴿إِنَّ الْهُدَىٰ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ لا هدى فئة، أو جهة، أو حزب، أو شعب.

وجه الرد عليهم: أنتم تقولون: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، فمن أين أتيتم بأن الذي أنتم عليه دين؟ أهو من عند أنفسكم أم من عند الله؟! إن قلتم: من عند أنفسنا، فأنتم بهذا تصرحون بأنكم لا تتبعون دينكم الذي جاء به الأنبياء ﷺ، وإن قلتم: من عند الله ﷻ، فتذكروا أن الله ﷻ الذي أمركم بما جاء به موسى وعيسى ﷺ هو الذي يحدد الدين ولستم أنتم، فهو أمر أن تتبعوا موسى وعيسى ﷺ، وكذلك أمر أن تتبعوا محمداً ﷺ، فوجب أن تتبعوه؛ لأنه أتى بهدى من عند الله ﷻ، فكيف تقولون: ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم؟ لَأَنَّ الدِّينَ إِنَّمَا صَارَ دِينًا بِحُكْمِ اللَّهِ ﷻ وَهَدَايَتِهِ لَا بوضعكم، فَحَيْثُمَا كَانَ حُكْمُهُ وَجَبَتْ مُتَابَعَتُهُ. (تفسير الرازي 8/ 259).

رد
(3)

كشفنا حقيقتكم فأنتم تقولون: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾

لأنكم تصرون على التمييز بين الناس بما تزعمون من اختصاصكم -زوراً- بالفضل والدين الحق: ﴿أَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ﴾، أي تقولون: لَأَنْ لَا يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ، وقصدهم من هذا الكلام تثبيت أنفسهم على باطلهم.

رد
(4)

كشفنا حقيقة أخرى عنكم أمام العالم

فأنتم تقولون لبعضكم مستنكرين: أَأَنْ يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ؟ وهذا المعنى يظهر عندما نقرأ بهمزتين على قراءة ابن كثير، وأرادوا بهذا: إنكار أن يؤتى أحد النبوة كما أوتيا أنبياء بني إسرائيل. و"المعنيان (3، 4) أشار إليهما ابن عاشور في (التحرير والتنوير 3/ 282).

رد
(5)

إجرامكم دافعه الحسد، وهذا معنى ثانٍ لقوله: ﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ﴾

على قراءة ابن كثير أي: أن يؤتى أحدٌ مثل ما أُوتيتُم يا أهل الكتاب حسدتم وعاندتم، وأنكرتم اتباعه، ثم أفضى بكم الأمر إلى البغي وتدمير الحيل المجرمة المخادعة حبًّا في إضلال المسلمين، فالمعنيان الأولان باعتبار هذا الكلام من كلامهم، وهذا المعنى باعتباره من كلام الله ﷻ.

رد
(6)

﴿أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيْتُمْ﴾ أي: الهدى هدى الله ﷻ

فما المانع أن يؤتى غيركم الهدى كما آتاكموه الله ﷻ من قبل؟ وهذا المعنى الرابع لهذا القبس على أن هذه ليست من كلامهم.

رد
(7)

﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ أي: تصرون على الباطل وتحتالون على إيقاع المسلمين في الضلالة

لئلا يُحَاجَّكُم المسلمون عند ربكم عزوجل إن ثبتوا هم على الحق وأصررتُم أنتم على الباطل مع معرفتكم به وكتمانكم له، لذلك أردتم إزالة حاجتهم بأن تودُّوا لهم الضلالة وتردوهم عن دينهم.

رد
(8)

﴿أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ وهذا معنى ثانٍ لهذا القبس أي:

لماذا تصرون على إيقاع المسلمين في الضلالة وأنتم تزعمون الإيمان: ألا تخافون أن يحاجوكم عند ربكم؟

رد
(9)

﴿قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ...﴾ (٧٣)

أي: أنتم تزعمون أنكم مؤمنون بموسى وأبيه وبـعيسى عليه السلام، فالله عز وجل هو الذي أرسلهما، وهو الذي يرسل غيرهما، فلماذا تحاولون أن تتحكموا بما حُكمه إلى الله عز وجل؟ والمراد بِالْفَضْلِ: الرِّسَالَةُ، والفضل: الزِّيَادَةُ، لأن النبوة أمرٌ زائد على وصول الهداية للإنسان، فالأساس وصول الهداية، فقد يزيد الله عز وجل بعض عباده بأن يختصهم بالرسالة أي: بأن يهتدوا ويكونوا أداة لإيصال الهدى، والمراد أن النَّبُوَّةَ تَحْصُلُ بِالْفَضْلِ لَا بِالِاسْتِحْقَاقِ، فليس لكون أتباع موسى أو أتباع عيسى أتباعاً لهدى النبيين يقتضي الأمر أن يكون منهم آخر الأنبياء بل يختار الله عز وجل لذلك من فضله هو سبحانه، ويدخل في الفضل ما يؤتيه الله بعض عباده من زيادة رحمة في دينه أو علمه أو ماله أو حاله، ولذا نسأل مبتلين خاشعين ربنا من فضله.

رد
(10)

﴿وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (٧٣) ﴿فَكُونَهُ وَاسِعًا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْقُدْرَةِ وَعَظْمَةِ الْفَضْلِ

وَكُونَهُ عَلِيمًا يَدُلُّ عَلَى كَمَالِ الْإِحَاطَةِ بِالأَحْوَالِ الْجَلِيَّةِ وَالْخَفِيَّةِ، فهو عليم بمن لم يشكر فضله، ومن يستحق فضله، ولذا يسع فضله أن يشمل غير أهل الكتاب بإعطاء النبوة، وعلمه يقتضي ذلك بما يدل على كمال الحكمة. وإصرارهم على أن يكون الأنبياء منهم فقط تحكُّم في قدرة الله عز وجل وملكه، وهذا ينافي الإلهية.

رد
(11)

﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ (٧٤) ﴿فهو -جل مجده- الذي يختار الأنبياء والصالحاء

ومن يهدي العالم في الليلة الظلماء، وهو الذي يقسم فضله ورحمته على من يشاء، وليس لكم من الأمر شيء، وهذا يذكرنا بسبب قول الله لنبيه عليه السلام لاحقاً ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: 128].



ما الفرق بين الفضل والرحمة؟

بَصِيرَةٌ

الجواب:

وَالرَّحْمَةُ

أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ الْفَضْلِ، فَإِنَّ هَذِهِ الرَّحْمَةَ زَيْمًا بَلَغَتْ فِي الشَّرَفِ وَعُلُوِّ الرُّتْبَةِ إِلَى أَنْ لَا تَكُونَ مِنْ جِنْسِ مَا آتَاهُمْ، بَلْ تَكُونُ أَعْلَى وَأَجَلَّ مِنْ أَنْ تُقَاسَ إِلَى مَا آتَاهُمْ. (تفسير الرازي 8 / 257).

الفضل

هو: الزيادة من جنس المزيد، فَيَبَيَّنْ بِقَوْلِهِ ﴿إِنَّ الْفَضْلَ يَدُّ اللَّهُ﴾ أَنَّهُ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُؤْتِيَ بَعْضَ عِبَادِهِ مِثْلَ مَا آتَاهُمْ مِنَ الْمَنَاصِبِ الْعَالِيَةِ، وَيَزِيدَ عَلَیْهَا مِنْ جِنْسِهَا، ثُمَّ قَالَ: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وَيَحْصُلُ مِنْ مَجْمُوعِ الْآيَتَيْنِ أَنَّهُ لَا نِهَآيَةَ لِمَرَاتِبِ إِعْزَازِ اللَّهِ ﷻ وَإِكْرَامِهِ لِعِبَادِهِ، وَأَنَّ قَصْرَ إِنْْعَامِهِ وَإِكْرَامِهِ عَلَى مَرَاتِبِ مُعَيَّنَةٍ، وَعَلَى أَشْخَاصٍ مُعَيَّنِينَ جَهْلُ بِكَمَالِ اللَّهِ ﷻ فِي الْقُدْرَةِ وَالْحِكْمَةِ. (تفسير الرازي 8 / 262).

رد

(12)

﴿وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ (٧٤) فلا يتعاضله شيء

فكيف حصرتم فضله ورحمته على شعبٍ محدد؟! يذكرنا هذا بردّ النبي ﷺ على الأعرابي الذي قال: اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي وَمُحَمَّدًا، وَلَا تَرْحَمْ مَعَنَا أَحَدًا. قال النبي ﷺ له: «لَقَدْ حَجَرْتَ وَاسِعًا» (البخاري: 6010)، يُرِيدُ رَحْمَةَ اللَّهِ ﷻ.

بَصِيرَةٌ

تعقّب جرائم محرفي أهل الكتاب بالردود المفنّدة

يبصرنا بوجوب رصد الشبهات والأغلوّطات التي تصدّرها مؤسسات الضلال والإضلال، ومن ثمّ تسليط معاول الحق عليها هدمًا وإسقاطًا.



عرفنا أن القسم الرابع من هذا المحور فصلّ لنا ردودًا قوية على جرائم المحرفين الست [آل عمران: 73-74]، فعلمنا الله ﷻ اثني عشر ردًا من الردود على حيلهم وجرائمهم السابقة وخاصة الأخيرة، فأسقط باطلهم، وكشف زيف دعاويهم، فما القسم الخامس؟

جسر اتصال

الجواب: هنا يأتي:

عَبْدُ السَّلَامِ وَقَبْلُ الْحِزْبِ



نَسَبُ سُرَّةِ الْعِمَلِ وَوَصَائِيهَا (الوسيط)

القسم الخامس

فصل لنا سباعية أنواع كذب المحرفين من أهل الكتاب، وهي الأنواع التي أُسِّست لاستغلال العالمين، وإلغاء اسم (المسلمين)، وهو اسم أتباع موسى وعيسى وجميع الأنبياء ﷺ [آل عمران: ٧٥-٨٠]

النوع الأول

الخيانة

﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا...﴾ (٧٥)

النوع الثاني

إباحة الإجرام في حق غيرهم

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

النوع الثالث

تشريع نقض العهود، وعدم اتقاء الرب المعبود

﴿بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦)

النوع الرابع

بيعون عهد الله ﷻ وأيمانهم مقابل أي ثمن يجدونه أمامهم

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا...﴾ (٧٧)

النوع الخامس

ينسب فريق قيادي من الطائفة الخائنة إلى كتاب الله ما ليس منه

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُؤْنَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ...﴾ (٧٨)

النوع السادس

توجيه العوام إلى عبادة البشر

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ...﴾ (٧٩)

النوع السابع

الدجل بإشاعة الدعوة إلى عبادة الملائكة أو عبادة الأنبياء

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا...﴾ (٨٠)

آيات هذا القسم:

﴿ وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ ﴾

النوع الأول

الخيانة: فجعلوا الخيانة مبدأً استراتيجيًا في التعامل مع الآخر

وسرقة أصغر ثروات المسلمين والعالمين فضلًا عن أكبرها، وببصرنا بهذا النوع قول ربنا الملك الحق: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا...﴾ وفيه 8 بصائر:

بصيرة ١

﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾ بصيرة التوازن في التعامل مع الأشخاص

فتبصرنا كلمة ﴿مَنْ﴾ بأن إجرامهم لا يعني عدم وجود طائفة منهم ذات أمانة وصدق، ووجود الطائفة الأمانة لا يعني عدم الانتباه إلى جرائم الطائفة الماكرة المجرمة، بل هي الأصل الذي تقود مسيرتهم غالبًا، فذكر الله ﷻ الطائفة الأمانة، فقال: ﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾، ثم ذكر الطائفة الخائنة، فقال: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بدينارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾، ثم أكمل الكلام عن جرائمهم.

بصيرة ٢

﴿مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقَنْطَارٍ﴾ القنطار إشارة إلى المال الكثير

فقد قال عنه رسول الله ﷺ: «الْقَنْطَارُ اثْنَا عَشَرَ أَلْفَ أُوقِيَّةٍ، كُلُّ أُوقِيَّةٍ خَيْرٌ مِمَّا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» (أحمد: 8758، وضعفه محققو المسند)، والمقصود بالحديث الأجر في العبادات، وأما الذي في الآية فيقصد به الأموال الكثيرة.

بصيرة ٣

﴿وَمَنْ أَهْلُ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَّهُ بِقَنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ﴾ لماذا قدّم الله ﷻ ذكر الطائفة الأمانة؟

الجواب

٣ بصرنا الله ﷻ بعظمة أمانة هذه الطائفة حتى لا نياس من أن نخاطبهم الخطاب الدعوي المناسب، وحتى لا تغطي جرائم المفسدين منهم على الصالحين بينهم.

٢ لئلا يحجب عدوان الفئة المعتدية من أهل الكتاب وجود الفئة الأمانة، وذلك لأن المعتدين هم الذين يمسون بزمام القرارات، فربما ظن الإنسان أنه لا يوجد فهم أمناء.

١ لبيان أصالة الإنصاف والقسط والعدل في الإسلام في تعامله مع غير أبنائه، فكيف مع أبنائه؟!

بَصِيرَةٌ

٤

قَدَّمَ الْخَبَرَ ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ عَلَى الْمُبْتَدَأِ ﴿مَنْ﴾

للتعجيب من أمانة هذا الصنف مع قوة دواعي الخيانة مثل كثرة المال الذي هو أمانة عنده، وكذلك قدم الخبر في الصنف الثاني للتعجيب من الخيانة مع قوة دواعي الأمانة مثل كونهم من أهل الكتاب، وقلة المال الذي هو أمانة عنده.

بَصِيرَةٌ

٥

تَبَصَّرْنَا الْبَاءَ فِي قَوْلِهِ ﴿يَقْنَطَارُ- يَدِينَارٍ﴾ بِالْحَذَرِ فِي التَّعَامُلِ مَعَهُمْ

سواء صغرت المعاملة أو كبرت، لأن هذا الفعل ﴿تَأْمَنُهُ﴾ يَتَعَدَّى بِعَلَى كَقَوْلِهِ: ﴿هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [يوسف: 64]، فالمعنى أي: من تأمنه على القنطار والدينار، وتعامله به بيعاً وشراءً. (التحرير والتنوير 3/ 286)، وهذا يؤكد التحذير من الاستثمار معهم، ومن الشركات عابرة القارات.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾ تَبَصَّرْنَا بِطَرِيقَةِ التَّعَامُلِ مَعَ الطَّائِفَةِ الْخَائِنَةِ

فلا بد أن تكون على مالك قائماً، والتعبير بهذه الكلمات، وبقوله: ﴿قَائِمًا﴾ دون سواها يقتضي ثلاثة أمور:

٣ الثبات في استيفاء الحقوق وليس الغفلة عنها كما قال أَبُو عَلِيٍّ الْفَارِسِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: الْقِيَامُ فِي اللُّغَةِ بِمَعْنَى الدَّوَامِ وَالتَّثَابُتِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ: ﴿دِينًا فِيمَا﴾ [الأنعام: 161] أَي: دَائِمًا ثَابِتًا لَا يُنْسَخُ، فَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿إِلَّا مَا دُمْتُ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾: دَائِمًا ثَابِتًا فِي مُطَابَقَتِكَ إِيَّاهُ بِذَلِكَ الْمَالِ.

(تفسير الرازي 8/ 263).

٢ التشديد في دقة الإجراءات والعناصر القانونية حتى لا يتلاعب بها عند التقاضي، فالقيام يقتضي الإلحاح وَالْخُصُومَةَ وَالتَّقَاضِي وَالْمُطَالَبَةَ كَمَا قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: "أصله أن المطالب بالشيء يقوم فيه ويتصرف، والتارك له يقعد عنه". (تاويل مشكل القرآن ص 115).

١ الحذر والمتابعة والمطالبة الملتصقة به، حتى لو اقتضى ذلك أن تكون قائماً على رأس الشريك أو المؤتمن بالاجتماع معه وَالْمُلَازِمَةِ لَهُ.

بَصِيْرَة

٧

ذِكْرُ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَتَقْسِيمُ التَّعَامُلِ الْمَالِيِّ مَعَهُمْ إِلَى طَائِفَتَيْنِ:

الأمينة، والخائنة لا يعني أن ذلك لا يحدث مع المسلمين، وقد ذكر الله ﷻ ضوابط التداين، والاستثمار، والائتمان مع المسلمين في آيتي التداين في سورة البقرة.

بَصِيْرَة

٨

قِصَّتَانِ تَوْضِّحَانِ أَنْمُودَجًا لِكُلِّ طَائِفَةٍ:

القصة الثانية: أنموذج الطائفة الخائنة:

يوسف بن إسماعيل (صموئيل) بن نغرالة وزيرٌ يهودي لباديس بن حبوس ملك غرناطة، فعُيِّنَ الوزير بحال الدولة، وخان أمانته، حتى دس السمَّ لبلقين ابن الملك لما شعر أنه يريد إراحة البلاد منه، فنظم أبو إسحاق الألبيري قصيدة يذكّر المسلمين من صنهاجة بالإجرام الذي يقترفه هذا الوزير الخائن، فقال:

أباديسُ أنت امرؤٌ حاذقٌ
تصيبُ بظنِّكَ نفسَ اليقينِ
فكيف اختفتُ عنك أعيانهم
وفي الأرضِ تُضربُ منها القُرُونُ
وكيف استنمت إلى فاسقٍ
وقارنته وهوَ بيسَ القرينِ
وقد أنزلَ اللهُ في وحيه
يحذّرُ عن صحبةِ الفاسقينِ
وهم أُمَّاكُم على سِرِّكُم
وكيف يَكُونُ خَوْنُ أُمِينٍ؟!

فشعر الوزير الخائن بتزايد السخط الشعبي ضده فدعا إلى تدخل خارجي، والانقلاب على ملك غرناطة، فكان ذلك سببًا في انهيار مشروع هذا الوزير الخائن.

(ينظر: الإحاطة في أخبار غرناطة 1/ 243-244).

فأنموذج الطائفة الأمينة:

ائتمان يهودي على روح مسلم، فقد ذكر الذهبي رحمه الله أن الحَكَم بن هشام ملك الأندلس تجاهر بالمعاصي، وسفك الدماء، فحرّض بعض العلماء عليه، فقتل سبعة وسبعين رجلًا منهم، وزهاء أربعين ألفًا من العامة -فيما ذكروا- وممن أفتى ضده: طالوت بن عبد الجبار المعافري الذي اختفى في بيت يهوديٍّ عامًّا كاملاً، ثم قصد الوزير (أبا البسام) من تلامذته ليشفع له، فوشى به، فأحضره الأمير، فذكّره طالوت الله، فتذكر، وعفا عنه، وقال لوزيره الخائن: لقد حفظه يهوديٌّ وستر عليه، لمكانه من العلم والدين، وغدرت به إذ قصدك، وخفرت الذمة، لا أراي الله يوم القيامة وجهه إن رأيتُ لك وجهًا، وطرده، وكتب لليهودي كتابًا يتعلق بإعفائه من الجزية، وزاد في إحسانه، فلما رأى اليهودي ذلك

أسلم مكانه. (سير أعلام النبلاء 8/ 258).

النوع الثاني

إباحة الإجرام في حق غيرهم:

فتشرع الطائفة الخائنة منهم جرائمهم العالمية بالكذب على الله تعالى؛ إذ ينسبون إلى الله ﷻ أنه أباح لهم أن يصنعوا ما يشاؤون من الإجرام مع غيرهم، ومن ذلك أن يسطوا على حقوق الآخرين، وببصرنا بذلك قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥).

وفيه ٨ بصائر:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾

تبصرنا بأنهم يجهرون أمام بعضهم وربما أمام غيرهم بأن لهم الحق في القيام بكل الجرائم في حق غيرهم لهذا السبب الذي سيذكرونه.

بَصِيرَةٌ ١

﴿الْأُمِّيِّينَ﴾ يعنون غيرهم من العالم

فهم يسمونهم "الجوييم"، ومعناها عندهم: "وثنيون وكفرة وبهائم وأنجاس" (الخطر اليهودي ص 54)، وأحياناً يخصون بهذه الكلمة العرب عندما يخافون من غيرهم، وتبصرنا هذه الكلمة بسخريتهم واستهزائهم واحتقارهم لغيرهم وخاصة العرب، وهذا قائم على قاعدة وضعوها أنهم شعب الله الخاص أو المختار.

بَصِيرَةٌ ٢

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾

أي: سبب جرائمهم أنهم يكذبون على شعبيهم، وعلى النصاري الصهاينة الذين يؤيدونهم، فيقولون لهم: قد أخبرنا الله ﷻ الذي جعلنا الشعب المختار بأنه لن يحاسبنا على ما نفعله بغيرنا من الشعوب التي تقاومنا.

بَصِيرَةٌ ٣

بَصِيرَةٌ

٤

﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ﴾ قَدَمٌ متعلق كلمة ﴿سَبِيلٌ﴾، وهو قوله: ﴿فِي الْأُمِّيِّنَ﴾

والتقدير: قالوا: ليس علينا سبيلٌ في الأميين، وسبب التقديم بيان فريستهم، وأنهم جعلوا الأميين محلاً لإجرامهم، ودل ذلك على أنهم يظهرون الاهتمام بأبناء جنسهم، ويرون أن الله ﷻ سيحاسبهم لو أجرموا في حق شعبيهم، ولكنه لن يحاسبهم إن أجرموا في حق الآخرين.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿فِي الْأُمِّيِّنَ﴾ لم يبينوا ما هو الذي لا يحاسبون عليه في الأميين

فلم يقولوا: ليس علينا سبيل في أكل أموالهم، أو استباحة دماءهم، وذلك ليبصروا ربنا ﷻ بأنهم يستبيحون كلَّ شيء عند غيرهم.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّنَ سَبِيلٌ﴾ تبصروا بأنهم يكذبون

فيزعمون بأن ما يفعلونه يُعدُّ مهمةً إلهية، ويكذبون ويقولون: إن الله ﷻ فضلهم وخصَّهم بأن سمح لهم أن يأكلوا ثروات الآخرين وممتلكاتهم، وأن يقتلوا من شأؤوا من أهالي البلدان التي يتغلبون عليها، وأنه يحل لهم أن يقتلوا الأطفال والنساء، وقد كذبوا على الله ﷻ، فوضعوا نصوصاً في التوراة تقشعر منها الأبدان مثل هذه النصوص الخطيرة:

في سفر التثنية:

(15:13) فَضَرْبًا تَضْرِبُ سُكَّانَ تِلْكَ الْمَدِينَةِ بِحَدِّ السَّيْفِ، وَتَحَرِّمُهَا بِكُلِّ مَا فِيهَا مَعَ بَهَائِمِهَا بِحَدِّ السَّيْفِ.
(16:13) تَجْمَعُ كُلَّ أَمْتِعَتِهَا إِلَى وَسْطِ سَاحَتِهَا، وَتُحْرِقُ بِالنَّارِ الْمَدِينَةَ وَكُلَّ أَمْتِعَتِهَا كَامِلَةً لِلرَّبِّ إِلَهِكَ، فَتَكُونُ تَلًّا إِلَى الْأَبَدِ لَا تُبْنَى بَعْدُ.

وفي سفر يشوع:

(21:6) وَحَرَّمُوا كُلَّ مَا فِي الْمَدِينَةِ مِنْ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، مِنْ طِفْلٍ وَشَيْخٍ، حَتَّى الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالْحَمِيرِ بِحَدِّ السَّيْفِ.

وفي سفر صموئيل:

(2:15): هكذا يقول رب الجنود... (3:15) فَالآن اذْهَبْ وَاضْرِبْ عَمَالِيقَ، وَحَرِّمُوا كُلَّ مَا لَهُ وَلَا تَعْفُ عَنْهُمْ
بَلِ اقْتُلْ رَجُلًا وَامْرَأَةً، طِفْلًا وَرَضِيعًا، بَقْرًا وَغَنَمًا، جَمَلًا وَحِمَارًا».
فمتى يستفيق عقلاؤهم ليطالبوا بإزالة هذا التحريف المشين؟!

بَصِيرَةٌ

٧

﴿قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ تبصرنا بمعجزة قرآنية تفضح حقائقهم

فقد كانوا يزعمون أنهم لن يُحاسبوا على أي جريمة يرتكبونها، فيستحلون حرمة غيرهم، ولا يرون غيرهم بشرًا، فيقولون عن غيرهم -كما يقولون اليوم-: إنهم حيوانات بشرية، وما زلنا نذكر أن منهم سفيرًا سابقًا قال في حرب الخليج (1990م): "إننا ذهبنا لتصحيح خطأ الرب؛ حيث جعل الثروة هنا، بينما العالم المتحضر في مكان آخر"، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

بَصِيرَةٌ

٨

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥)

تبصرنا بأن الأساس الذي انبثقت منه جميع الشرور التي أحدثها مفسدو أهل الكتاب هو جرأتهم في الكذب على الله ﷻ؛ لتمير مخططاتهم، وتسويق جرائمهم، مثل: نظرية الشعب المختار التي إنما جاءت لأنهم يقولون على الله الكذب وهم يعلمون، والقول بالوهمية عيسى عليه السلام الذي جاء كذلك لأنهم يقولون على الله الكذب وهم يعلمون، وهكذا جميع الشرور.

النوع الثالث

تشريع نقض العهود، وعدم اتقاء الرب المعبود

وببصرنا بذلك قوله: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ (٧٦)، فإن الآية تشير بمفهوم المخالفة إلى أن الطائفة الخائنة من أهل الكتاب لم يفوا بعهد الله ﷻ، ولا بالعهود التي بينهم وبين البشر، ولم يتقوا ربهم ﷻ، وعندما نجمعها بالآية السابقة نجد أنهم جعلوا ذلك تشريعاً في حياتهم.

وفيه ٥ بصائر:

رد الله ﷻ عليهم قبل هذه الآية في خاتمة الآية السابقة

فقال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٥) فليس عندهم نص من الله ﷻ أنه تجوز لهم الخيانة، وليس عندهم نص من الله ﷻ أنه ليس عليهم إثم في إجرامهم في حق الأمم، بل هم يكذبون على الله ﷻ مصرين على هذا الكذب، ولخطر كذبهم الكبير، ولأنهم يتاجرون به ويضحكون به على العالم وخاصة العالم النصراني ومن يدعون بالمسيحيين الصهاينة جاء الرد عليهم مباشرة.

بَصِيرَةٌ ١

﴿بَلَىٰ﴾ أدت دوراً عظيماً عجبياً؛ إذ تضمنت أن الله ﷻ رد على تشريعهم للكذب عليه

وعلى آثار هذا الكذب من نقض العهود وعدم التقوى؛ وتضمنت في الوقت ذاته الثناء على من صدق مع الله ﷻ، فوفى بعهدده و اتقاه مهما كان جنسه أو نسبه، فقوله: ﴿بَلَىٰ﴾ أي: ليس الأمر كما تزعمون أنه ليس عليكم في الأميين حرج، بل عليكم في ذلك أعظم الحرج وأشد الإثم.

بَصِيرَةٌ ٢

﴿مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ﴾ الوفاء جزء من حقيقة الاتقاء

فالعطف عطف للعام وهو التقوى على الخاص وهو الوفاء، ولكن الله ﷻ ذكره أولاً لأهميته الخاصة؛ لأنهم جعلوا العهد الأهم شيئاً مكذوباً، وهو تفضيلهم باعتبار جنسهم، ولأن الله ﷻ أخذ ميثاقهم مراراً، فقد ذكر الله ﷻ أخذ الميثاق عليهم في سورة البقرة 4 مرات.

بَصِيرَةٌ ٣

بَصِيرَةٌ

٤

العهد هو الوعد الملزم، ويشمل العهد الذي بين العبد وربّه ﷺ وهو جميع ما أوجبه الله ﷻ على العبد من حقه، ويشمل العهد الذي بينه وبين العباد، ويدخل في العهد هنا: كُتِبَ الله ﷻ المنزلة التي يجب أن ينشرها الناس، ويعملوا بها.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ الآية تضمنت ردًا آخر عليهم بوضع قاعدة عامة الوفاء بالعهود وِاتِّقَاءِ الْإِخْلَافِ وَسَائِرِ الْمَعَاصِي وَالْخَطَايَا هُوَ الَّذِي يُقَرِّبُ الْعَبْدَ مِنْ رَبِّهِ عَزَّوَجَلَّ، وَيَجْعَلُهُ أَهْلًا لِمَحَبَّتِهِ لَا الْإِنْتِسَابَ لَشُعْبٍ أَوْ جَهَةٍ. (تفسير المنار 3/281).

النوع الرابع

٤

يبيعون عهد الله ﷻ وأيمانهم مقابل أي ثمن يجدونه أمامهم

وببصرنا بذلك قوله ﷻ:

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 77].

وفيه ٩ بصائر:

بَصِيرَةٌ

١

السياق ببصرنا بأن الذين اشتروا بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا هم الطائفة الخائنة من أهل الكتاب، ولكن الصياغة الجميلة البديعة للآية تنبهنا إلى دخول كل من يفعل ذلك، ولو كان مسلمًا.

بَصِيرَةٌ

٢

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ الفرق بين هذا النوع وما قبله: أن النوع السابق يشير إلى نقضهم للعهد وعدم اتقاء الرب المعبود، وهذا النوع يشير إلى شرائهم بعهد الله ثمنًا ما، ووصفه الله ﷻ بأنه قليل، لأن الثمن من الفِلس إلى الدنيا كلها يعد قليلًا مقارنة بعظمة عهد الله ﷻ، والأجر الذي ينتظره الموفون بالعهد.

بَصِيرَةٌ
٣

﴿وَأَيِّمَنِ هُمْ﴾: تبصرنا بقوة اليمين في تأكيد العهد

تبصرنا بقوة اليمين في تأكيد العهد، فالأَيِّمَانُ جَمْعُ يَمِينٍ، وهو الحَلِفُ؛ لِأَنَّ الحَالِفَ يَضَعُ يَمِينَهُ فِي يَمِينِ الآخر ليوثق كلامه، قال أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَّا وَقَالَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ» (أحمد: 12383، وحسنه البغوي في شرح السنة: 38).

بَصِيرَةٌ
٤

كيف ظهرت قوة كلمة ﴿يَشْتَرُونَ﴾ وكيف برز جمالها؟

الجواب:

وتشعر بقوة التصوير لهذه الكلمة ﴿يَشْتَرُونَ﴾ عندما ترى الآن أن كلَّ شيءٍ للبيع عند عبید الدنيا، فيبيع الناس ويشترون: الجيش، والحُكم في القضاء، والكلمات في الإعلام والمنابر، والأوطان، والأرض، وربما العِرض، ويبيعون ولاءهم لمن يدفع أكثر، بل ربما باعوا بناتهم وأبناءهم مقابل المخدرات مثلاً.

تظهر كلمة ﴿يَشْتَرُونَ﴾ جمالاً مهراً؛ إذ صورت ناكث العهد واليمين بصورة الطمّاع الجشع المستعجل الذي باع مبادئه وآخرته مقابل قبضه لثمن في الدنيا.

بَصِيرَةٌ
٥

﴿بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيِّمَنِ هُمْ﴾

جمع - جل مجده - بين عهده وأيمانهم، مع أن اليمين عهدٌ يعاهد به الإنسان غيره، ولعل الجمع بين عهد الله وأيمانهم يبصرنا بتذكير صاحب اليمين أن حَلِفَهُ ليس كلمة تخرج، بل هو عهد يعاهد الله ﷻ به، ويجعل الله ﷻ أمامه فيما ينازع فيه، ولذا نسب الله - تعالى مجده - العهد إليه، فقال: ﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾، ونسب اليمين لقائلها، فقال: ﴿وَأَيِّمَنِ هُمْ﴾، وعهد الله ﷻ يدخل فيه كل معاني الإيمان، وفي مقدمتها الإيمان بالله ﷻ، وتوحيده، وتوقيره، وتعظيمه، والحالف كاذباً كأنه باع ذلك كله.

بَصِيرَةٌ

٦

من صور المشتري بعهد الله وأيمانهم ثمنًا قليلًا:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ:

٣

«وَرَجُلٌ سَاوَمَ رَجُلًا بِسِلْعَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ، فَحَلَفَ بِاللَّهِ لَقَدْ أَعْطَى بِهَا كَذَا وَكَذَا فَأَخَذَهَا». (البخاري: 2527)

ومعنى قوله: «لَقَدْ أَعْطَى». أي: اشتراها البائع بكذا، وفي لفظ: «أُعْطِيَ» أي: عرض عليه بعض المشتريين سعرًا معينًا.

٢

«وَرَجُلٌ بَايَعَ رَجُلًا لَا يُبَايِعُهُ إِلَّا لِلدُّنْيَا، فَإِنْ أَعْطَاهُ مَا يُرِيدُ وَفَى لَهُ، وَإِلَّا لَمْ يَفِ لَهُ»

١

«رَجُلٌ عَلَى فَضْلِ مَاءٍ بِطَرِيقٍ يَمْنَعُ مِنْهُ ابْنُ السَّبِيلِ»، وهذا يمثل الذين يستولون على الخيرات المشتركة، فيحتكرونها، فكيف بمن يغتصب أرض غيره، وينهب خيراتها؟!!

بَصِيرَةٌ

٧

ومن الصور التي توضح دخول من يحلف ليأخذ مال غيره

ما رواه الْأَشْعَثُ بْنُ قَيْسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَبِينًا فَهَمَّ الصَّحَابَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ لِنَزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ فِي هَذِهِ الصُّورِ: كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ أَرْضٌ، فَجَحَدَنِي، فَقَدَّمْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَيْكَ بَيِّنَةٌ». قَالَ: لَا، قَالَ: فَقَالَ لِلْيَهُودِيِّ: «أَحْلِفْ». قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِذَنْ يَحْلِفُ وَيَذْهَبَ بِمَالِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77] إلى آخر الآية». (البخاري: 2416).

بَصِيرَةٌ

٨

كلمة (قَلِيلًا) هنا: صفة إيضاحية

تبصرنا بأن كل ثمنٍ مقابل بيع عهد الله فهو قليل، فمهما بلغ هذا الثمن في الكثرة جأها أو مالا أو شهوةً حتى لو كان يساوي الدنيا كلها، فهو قليلٌ مقابل ما سيفقده الإنسان في الآخرة.

هناك خمس عقوبات خطيرة تنتظر المشتري بعهد الله وأيمانهم ثمناً

لم يتوعد الله ﷻ باجتماعها زانياً، ولا سارقاً، وهذا يبصرنا بخطورة هذه الكبيرة:

العقوبة 1:

﴿أُولَئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾

أي: لا نصيب لهم ولا حظ في الآخرة، وفي هذا إشارة إلى أن لهم حظاً من الدنيا فلا يغترون به، ويوضح ذلك أن رجلاً من كندة يُقال له: امرؤ القيس بن عابسٍ خاصم رجلاً من حضرموت إلى رسول الله ﷺ في أرضٍ، فَقَضَى عَلَى الْحَضْرَمِيِّ بِالْبَيِّنَةِ، فَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَيِّنَةٌ، فَقَضَى عَلَى امْرِئِ الْقَيْسِ بِالْيَمِينِ. فَقَالَ الْحَضْرَمِيُّ: إِنَّ أَمَكْنَتُهُ مِنَ الْيَمِينِ يَا رَسُولَ اللَّهِ ذَهَبَتْ -وَرَبِّ الْكَعْبَةِ أَرْضِي- فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ لِيَقْتَطِعَ بِهَا مَالَ أَحَدٍ لَقِيَ اللَّهَ ﷻ وَهُوَ عَلَيْهِ غَضَبَانٌ»، وَتَلَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: 77] الآية. فَقَالَ امْرِؤُ الْقَيْسِ: مَاذَا لِمَنْ تَرَكَهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: «الْجَنَّةُ» قَالَ: فَاشْهَدْ أَنِّي قَدْ تَرَكْتُهَا لَهُ كُلِّهَا. (أحمد: 17716، وصحَّح إسناده ابن حجر في الإصابة 263/1).

العقوبة 2:

﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ﴾

أي لا يكلمهم كلام لطف وإعتاب يوم القيامة غضباً عليهم وسخطاً.

العقوبة 3:

﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾

أي لا ينظر إليهم نظرة رحمة ولطف جزاءً وفاقاً على قسوة قلوبهم، فعَنْ مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تَعَالَى عِبَادًا لَا يُكَلِّمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُرَكِّبُهُمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ» قِيلَ: وَمَنْ أُولَئِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مُتَبَرِّمٌ مِنَ الْوَالِدِ رَاغِبٌ عَنْهُمَا، وَمُتَبَرِّمٌ وَلَدِهِ، وَرَجُلٌ أَنْعَمَ عَلَيْهِ قَوْمٌ، فَكَفَرَ نِعْمَتَهُمْ، وَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ» (أحمد: 15636، وضعف إسناده ابن مفلح في الآداب الشرعية 314/1).

العقوبة 4:

﴿وَلَا يَزَكِّيهِمْ﴾

أي: لا يطهرهم من ذنوبهم فيما بينه وبينهم، ولا يزيل عيوبهم أمام الآخرين في الدنيا والآخرة

العقوبة 5:

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

أي: ﴿عَذَابٌ﴾ يسلمهم عذوبة العيش، و﴿أَلِيمٌ﴾ أي: مؤلم موجه للقلوب والأبدان.

جسر اتصال

إذا كان النوع الرابع يصور لنا أن الطائفة الخائنة من أهل الكتاب يبيعون عهد الله وأيمانهم مقابل أي ثمن يجدونه أمامهم، فما النوع الخامس؟

الجواب:

النوع الخامس

ينسب فريق قيادي من الطائفة الخائنة إلى كتاب الله ما ليس منه

وذلك بطريقتين:

الطريقة الأولى

التمويه بليّ اللسان، فيظن السامع أن ما يقولونه من الكتاب

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُونِ السُّنَّةَ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ...﴾

بَصِيرَةٌ

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا﴾ (من): تبعية أي: وإن بعضاً منهم

فتبصرنا بأن مجرمهم فرق عاملة متعددة تتعاون في طمس الحق، وإبعاد العالم عما يرضاه الله لعباده من الدين الذي ارتضاه وهو الإسلام.

بَصِيرَةٌ

٢

كلمة (مِنْ) تبصرنا بأمرهم أيضاً هو التدقيق في حال هؤلاء المجرمين

ومعرفة تخصصاتهم الإجرامية، وتأثيراتهم، ومرجعياتهم، وتنوع أساليبهم في تدمير الهوية الإسلامية، وكذلك ينبغي أن نعرفه لاتقاء شرورهم، ومعرفة التعامل مع فرقهم المتعددة.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿يَلُونُ السَّنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ﴾

اللِّي: عطف اللسان أثناء الحديث بأسلوب يجعل السامع يظن اللفظ أو المعنى غير واقعته بتغيير نغمة الصوت، وإظهار الخشوع ليحسبه السامع من الكتاب فيقبله. (تفسير المنار 3/ 284)، كمن يقرأ من المسلمين جملاً بالتجويد القرآني ليؤهم الجاهل أنه من القرآن.

بَصِيرَةٌ

٤

هذه الظاهرة اتبعها تجار الدين في أمة الإسلام

وقد حذر النبي ﷺ من ذلك، فقال: «هَذَا أَوَانُ يُخْتَلَسُ الْعِلْمُ مِنَ النَّاسِ حَتَّى لَا يَقْدِرُوا مِنْهُ عَلَى شَيْءٍ» فَقَالَ زِيَادُ بْنُ لَبِيدٍ الْأَنْصَارِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَيْفَ يُخْتَلَسُ مِنَّا وَقَدْ قَرَأْنَا الْقُرْآنَ فَوَاللَّهِ لَنَقْرَأَنَّهُ وَلَنَقْرِئَنَّهُ نِسَاءَنَا وَأَبْنَاءَنَا، فَقَالَ: «تَكَلِّتُكَ أُمُّكَ يَا زِيَادُ! إِنْ كُنْتُ لَأَعِدُّكَ مِنْ فَقَهَاءِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، هَذِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى فَمَاذَا تُغْنِي عَنْهُمْ؟». (الترمذي: 2653، وقال: حسن غريب، وصححه الألباني في صحيح الجامع: 6990)، وهذا يعني أنه قد يحصل في هذه الأمة ما حصل عندهم مع أن القرآن محفوظ.

بَصِيرَةٌ

٥

من أمثلة لِيّ اللسان:

2

تغيير مظاهر التصويت بحروف كلمة (الفارقليط):
ففي إنجيل يوحنا: "الفارقليط لا يجيئكم ما لم
أذهب، وإذا جاء وبَّخ العالم على الخطيئة، ولا يقول
من تلقاء نفسه، ولكنه مما يسمع به، ويكلّمكم
ويدسوسكم بالحق، ويخبركم بالحوادث والغيوب".

1

نقل كتبة كتابهم المقدس أن سَيِّدِنَا عِيسَى - عَلَيْهِ
السَّلَامُ - سَمَّى اللَّهَ أَبَا لَهُ، وَأَبَا لِلنَّاسِ مجازاً في معنى
الربوبية - فإن صحَّ هذا - فقد لَوَاهُ بَعْضُهُمْ، فَنَقَلَهُ
إِلَى الْحَقِيقَةِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمَسِيحِ وَحْدَهُ. (تفسير المنار 3/

(284).

فمن هذا الفارقليط المذكور هنا؟

اختلفت تفاسيرهم لكلمة الفارقليط اليونانية (بيريكلتوس) (PERIQLYTOS)؛ وهم غيروا بعض حروف هذه الكلمة دون أن يؤثر عليها في الشكل العام ليكون ترجمتها عندهم (المُعْزِي)، وعند البحث عن الحروف الأصلية نجد أنها كلمة يونانية تعني وفق الترجمة الحرفية: (أحمد) كما يقرر عبد الأحد داود في كتابه: "محمد ﷺ في الكتاب المقدس" (ص 222)، وذكر الأستاذ عبد الوهاب النجار أنه سأل العلامة الكبير الدكتور (كارلونيون) المستشرق الإيطالي -وكان من أعضاء المجمع العلمي الإيطالي، والمجمع اللغوي بمصر- ما معنى بيريكلتوس؟ فأجابه بقوله: إن القسس يقولون: إن هذه الكلمة معناها (المُعْزِي). فقال له: إني أسأل الدكتور كارلونيون الحاصل على الدكتوراة في آداب اللغة اليونانية القديمة، ولستُ أسأل قسيساً. فقال: إن معناها الذي له حَمْدٌ كثير. فقال له: هل هذا يوافق فعل التفضيل من (حمد)؟ فقال: نعم. فقال له: إن رسول الله ﷺ من أسمائه

أحمد. (قصص الأنبياء عبد الوهاب النجار ص 473).

الطريقة الثانية

تصريحهم الكاذب لأتباعهم أن ما يفترونه هو من عند الله تعالى، وببصرنا بذلك قوله: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (٧٨).

يفترون الشيء كإباحة قتل الأبرياء حتى الأطفال ويقولون هو من عند الله

بَصِيرَةٌ

والله ﷻ يرد عليهم، فيقول: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، ومن أبرز مظاهر ذلك أن وزيراً لدفاع إحدى الدول التي تنشر الشرف في الأرض وضع وشماً على جسده فيه: هذه إرادة الرب، وهو يعني أن إبادة الأبرياء إرادة الرب -تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً-.

بَصِيرَةٌ

٢

أخطر ما في كذبهم أنهم يعلمون أن ما يقولونه كذب على الله ﷻ

وفضح الله ﷻ ذلك، فقال: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾، حتى الذين لا يعرفون نصوص التوراة والإنجيل الصحيحين والمحرفين فإن الأمر واضح أمام أعينهم: فهل رب العالمين الذي خلق الخلق من نفس واحدة يُقرُّ الظلم بقتل الأبرياء كما يفعلون الآن ومن قبل؟ تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

بَصِيرَةٌ

٣

هذا أعظم جرماً ممن يقول على الله ﷻ بلا علم

لأن هؤلاء يقولون على الله الكذب، فيجمعون بين نفي المعنى الحق، وإثبات المعنى الباطل، وتنزيل اللفظ الدال على الحق على المعنى الفاسد، مع علمهم بذلك.

بَصِيرَةٌ

٤

الفرق بين هذا الطريق وما قبله أن يكون المراد من الكتاب التوراة مثلاً

فإن وجدوا قوماً من الجاهلين بالتوراة نسبوا ذلك المحرّف إليها، وإن وجدوا قوماً عقلاء أذكىاء زعموا أنه موجود في كتب سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين جاؤوا بعد موسى ﷺ، مثل: الكلام عن أنهم شعب الله المختار مهما عملوا، والكلام عن حرب هرمجدون، وطبيعته، وهامهم ملايين من الصهاينة النصراني متحمسون لحرب الإبادة التي يسمونها هرمجدون أكثر من الصهاينة أنفسهم.

جسر اتصال

إذا كان النوع الخامس يخبرنا أن فريقاً قيادياً من الطائفة الخائنة ينسب إلى كتاب الله ما ليس منه، وذلك في الآية [78]، بطريقتين، فما النوع السادس؟

الجواب:

النوع السادس

توجيه العوام إلى عبادة البشر

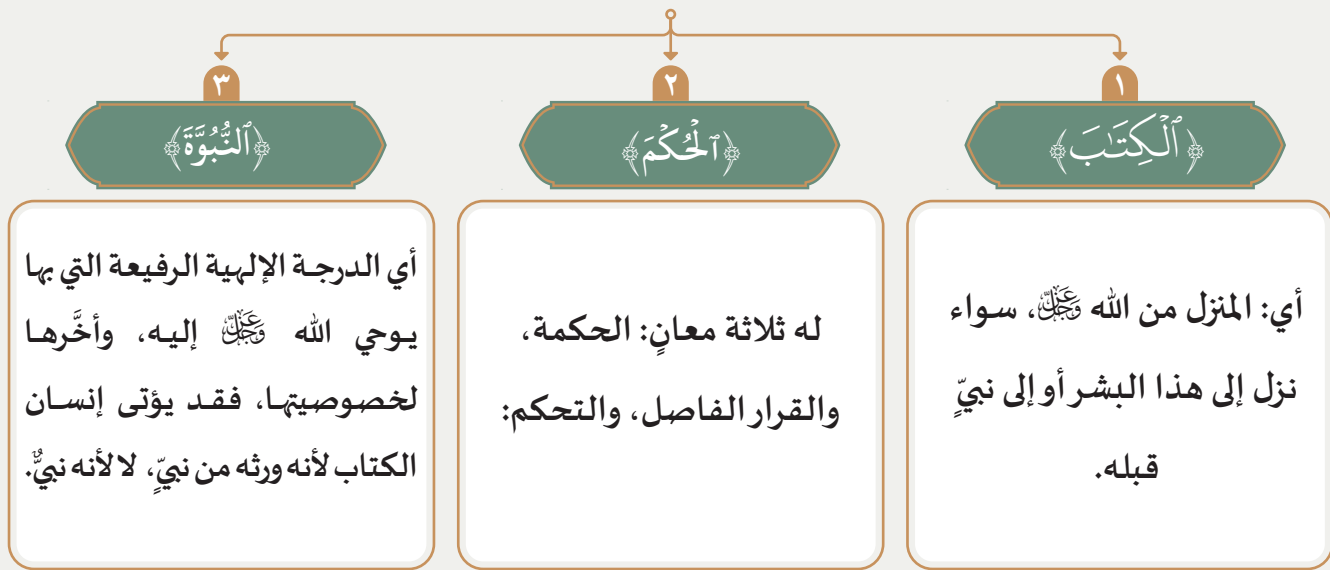
فبعد أن نسبوا إلى كتاب الله ما ليس فيه، تجرأوا على رفع مرتبة قياداتهم الدينية أو السياسية إلى مرتبة التشريع والتحكم بالمغفرة والألوهية، فرفعهم العامة فوق مكانتهم البشرية، وبصرنا بذلك بطريقٍ مضاد قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [آل عمران: 79].

وفيه ٩ بصائر:

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ﴾

بَصِيرَةٌ

تبصرنا بأن الله ﷻ يصطفي من يشاء من عباده، فيؤتي الواحد منهم ثلاثة أشياء:



فيؤتي الله ﷻ هذا البشر الحكمة الموفقة التي تتضمن العلم النظري والسنة التطبيقية القولية والفعالية والتقريرية التي يؤيد الله عز وجل بها الأنبياء ﷺ، وهذه السنة تبين معنى الكتاب، وبها يؤتى الإنسان الحكم أي: القرار المناسب في كل لحظة، ثم يؤتاه الله ﷻ الحكم أي: القدرة على التحكم في أتباعه أي: السمع والطاعة له من الآخرين.

بَصِيرَةٌ

٢

﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾

تبصرنا بأنه يستحيل على بشر اصطفاه الله ﷻ أن يدعو الناس لعبادته من دون الله ﷻ، فكيف يجعل قُسس أو علماء البشر عبيدًا لهم، يتبعونهم في تأليه عيسى ﷺ، أو في إخفاء اسم الدين الذي جاء به من الله ﷻ، أو تحريم ما أحله الله، أو تحليل ما حرمه؟!

بَصِيرَةٌ

٣

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هذا القيد صفةٌ إيضاحية وليست تأسيسية

فلو قال: «كونوا عبادًا لي» دون زيادة يكون كلامه كفرًا، ولتبشيع هذا الكفر قال الله ﷻ: ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ ليبين أن طلب هذا البشر أن يكون الناس عبادًا له يعني أن يخرجوا عن عبادة الله إلى عبادته.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تشمل أن يكونوا عبادًا له مع الله ﷻ

لأن حقيقة الشرك بالله تعني ترك عبادة الله كما قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءَ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكُهُ» (مسلم: 2985)، - وفي روايةٍ عند (أحمد: 7999) - «فَأَنَا بَرِيٌّ مِنْهُ، وَهُوَ لِلَّذِي أَشْرَكَ».

وكل هذا إشارة إلى السلطات المطلقة التي منحها القيادات الدينية والسياسية الفاسدة لأنفسهم في التحليل والتحريم، مثل تلك التي تزعم أنها تتبع موسى أو عيسى أو محمد ﷺ، وهم يخالفونهم، وقد سمعنا اليوم منهم من يبيع الربا، والعلاقات المحرمة خارج نطاق الزواج الشرعي.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّينَ﴾ تحقيق مرتبة الربانية من أعظم المقاصد الرسالية والقرآنية

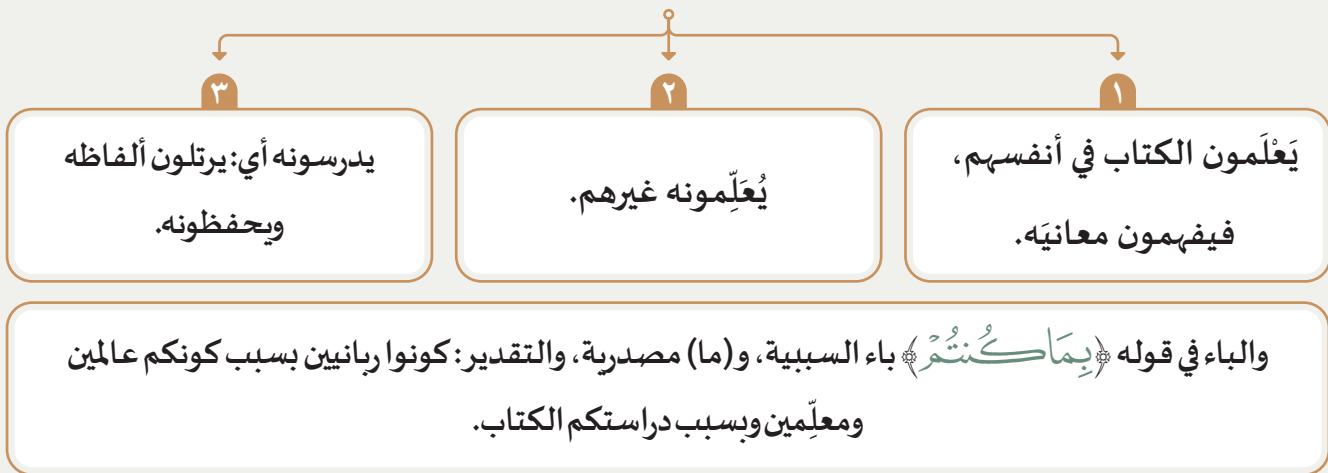
أي: ولكن هذا البشر الذي آتاه الله ﷻ الكتاب والحكم والنبوة يأمرهم بأن يكونوا ربانيين، والرباني كلمة لها جمالها الأخاذ، فهو المنسوب إلى الرب مباشرة دون واسطة، ولذا ينكر المسلمون أي تسمية شخصية لهم أولغيرهم، فينكرون تسمية (محمديين) في وصف المسلمين، و(مسيحيين) في وصف النصاري.

بِسْمِ اللَّهِ

٦

﴿بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾

في ﴿تَعْلَمُونَ﴾ قراءتان: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ من العلم وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو والبصري وأبي جعفر ويعقوب، والثانية: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ من التعليم وهي قراءة ابن عامر والكوفيين (النشر 2/240)، فبصرتنا بثلاث وسائل تحقق مرتبة الربانية:



بِسْمِ اللَّهِ

٧

الربانية الحق حراسة للمبادئ، وثبات على القيم

واستعلان بالتوحيد في وجه من يريد أن يتلصص بأي صورة من صور الشرك، ويروج لها في أوساط المسلمين.

بِسْمِ اللَّهِ

٨

نزلت هذه الآية ردًا على أربع فئات ضالة:

الثانية: على أهل الكتاب الذين جعلوا الأخبار والرهبان معبودين من دون الله، فيحلون الحرام ويحرمون الحلال، وأخذ ذلك جعل الكنائس تشرف على تشريع الفاحشة.	الأولى: على النصارى الذين زعموا أن عيسى هو الله أو ابن الله وعبدوه.
الرابعة: على من فعل ذلك من أمة النبي ﷺ بأن جعل بعض العلماء أو الأمراء أو الأقوياء أربابًا يحلون له الحرام كالربا والقتل، ويحرمون عليه المشروع كولاية المؤمنين.	الثالثة: على من قال من أهل الكتاب للنبي ﷺ لما أمرهم بالإيمان به ودعاهم إلى طاعته: أتريد يا محمد أن نعبدك مع الله؟

أعظم الناس استهداء بهذه الآية النبي ﷺ

فقد قال: «لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَبَ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ فَقُولُوا: عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ».

(البخاري: 3445).



إذا كان النوع السادس يخبرنا عن نوع من أنواع كذب المحرفين، وهو توجيه العوام إلى عبادة البشر، ورفع مرتبة قياداتهم الدينية أو السياسية إلى مرتبة التشريع والتحكم بالمغفرة والألوهية، فما النوع السابع؟

جسراتصال

الجواب:

الدجل بإشاعة الدعوة إلى عبادة الملائكة أو عبادة الأنبياء

النوع السابع

فإن الانحراف بمثل ذلك يجر إلى الانحراف بعبادة غيرهم مثل عبادة القُسس، ويبصرنا بذلك بطريق مضاد قراءة ابن عامر وعاصم وحمزة وخلف ويعقوب بنصب راء ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

وفيه ٤ بصائر:

ما المناسبة والاتصال بين الآية وما قبلها؟

الجواب:

وهذه الآية تنمة لذلك، فبعض الدجالين لا يدعون الناس إلى عبادتهم لكنهم يدعونهم إلى عبادة غيرهم من الملائكة والأنبياء عليهم السلام، كمن دعا لتأليه عيسى عليه السلام.

الآية السابقة تبرئ الأنبياء عليهم السلام من أن يقولوا للناس: كونوا عباداً لنا من دون الله، وهذا يعني أن بعض الدجالين يزعمون أمام الناس أنه يُوحى إليهم، ويدعون الناس إلى عبادتهم بصورة مباشرة أو من خلال شرك التشريع بأن يحلوا ما حرم الله، ويحرموا ما أحل الله.

بَصِيرَةٌ

٢

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾

تبصرنا بأن البشر الذي يؤتیه الله الكتاب والحكم والنبوة لا يمكن أن يقول للناس: كونوا لي عبادًا لي من دون الله، ولا يمكن أن يأمرهم أن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا، وفهمنا ذلك من قراءة النص ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ لأنها معطوفة على قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ﴾، والتقدير: مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ، ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كونوا عبادًا لي من دون الله، وَلَا أَنْ يَأْمُرَكُمْ، بِمَعْنَى: وَلَا كَانَ لَهُ أَنْ يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا. (تفسير الطبري 5/ 534).

بَصِيرَةٌ

٣

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا بَلَّغُوا الْكُفْرَ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

تبصرنا همزة السؤال بالإنكار الإبطالي الشديد لفرية أن يأمر بشرأتاه الله الكتاب والحكم والنبوة الناس أن يكونوا عبادًا له، أو أن يتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا؛ لأنه إن فعل ذلك فقد أمر بالكفر، وذلك لا يتصور أن يحى منه، فهو أرسل بالإسلام، فكيف يأمرهم بالكفر، والآية تبصرنا أن اسم الدين الذي يرسل به الأنبياء هو الإسلام.

بَصِيرَةٌ

٤

ما أقبح أن يصدر التضليل وقلب المفاهيم

وتزييف الحقائق ممن أوّتمن على دين الناس ممن آتاه الله ﷻ الكتاب والحكم؛ فإن آتاه الله ﷻ النبوة فوق ذلك، فهذا يعني أنه لا يمكن أن يأمر بغير ما أرسله الله ﷻ.

عرفنا أن القسم الخامس من المحور الثالث فصل لنا سباعية أنواع كذب المحرفين من

أهل الكتاب، وهي الأنواع التي أسست لاستغلال العالمين، وإلغاء اسم (المسلمين)، وهو اسم أتباع موسى وعيسى وجميع الأنبياء ﷺ [آل عمران: 75-80]، فما القسم السادس؟

جسرات اتصال

الجواب:

القسم السادس

يحدد أهم أسس دين الإسلام الذي يجب أن يخبر به الأنبياء والأحبار والعلماء العالم

[آل عمران: ٨٠-٨٥]، وفيه ٤ أسس:

الإسلام هو الاستسلام لله رباً معبوداً، وبصّرنا بهذا الاستئناف في قراءة الرفع في قوله

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا...﴾ (٨٠).

الأساس
الأول

الإعلان العالمي عن ميثاق النبيين:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ...﴾ (٨١).

الأساس
الثاني

الإعلان عن المعالم التي يجب أن يؤمن بها من يطبق ميثاق النبيين أمام العالمين:

﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا...﴾ (٨٢).

الأساس
الثالث

لا يوجد دين أنزله الله ﷻ يسمى بغير اسم الإسلام:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٨٥).

الأساس
الرابع

آيات هذا القسم:

﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٠) وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ وَاسِعُونَ (٨٥) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)﴾

وبصّرنا بهذا الاستئناف في قراءة الرفع في قوله ﷺ: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ، فقراءة النصب ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ تصل هذه الآية بالقسم السابق، وقراءة الرفع ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾، وقرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو والكسائي وأبو جعفر، كأنه مبتدأ بها، فهي بداية القسم السادس (وتصلح أن تكون من القسم الخامس)، وهذا الأساس يعني أن نشهد أن لا إله إلا الله.

الأمر بالكفر والدعوة إليه قبيحان على أي حال، ولكن السؤال هنا إنكارِيٌّ إبْطالِيٌّ يَصِرُّنا بِعِظَم قبح الأمر بالكفر بعد الإسلام.

الأساس
الثاني

الإعلان العالمي عن ميثاق النبيين، وهو الميثاق الذي أخذه الله ﷻ على الأنبياء ﷺ
ليؤمنوا بالرسول الخاتم ﷺ

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآءَآتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا
وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾، وهذا الأساس يعني أن نشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ.

وفيه ١٠ بصائر:

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ﴾ أي واذكر إذ أخذ الله ﷻ ميثاقًا على النبيين

فتبصّرنا الآية بأن الله تعالى أخذ على جميع أنبيائه ﷺ الميثاق بأن يؤمنوا بالرسول الخاتم محمد ﷺ، الذي يأتي مصدقًا لما معهم، فكلهم ينتظره، ويخبر أصحابه عنه، ويصح أن يدخل في المعنى أن المتقدم منهم يؤمن بالمتأخر إلى أن يصل الأمر إلى خاتمهم ﷺ.

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ يظهر جمال هذه الكلمة ﴿مِيثَاقٌ﴾ عندما نتصور معناها

فهي تعني عقدًا مؤكدًا شديد الإحكام يُربط بيمينٍ وعهد، ويقتضي أن المعاهد يلتزم للأخذ أن ينقذ فحوى الميثاق.

﴿مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ﴾ يظهر جمال عظيم لهذا التعبير

فالمصدر ﴿مِيثَاقٌ﴾ يجوز إضافته إلى الفاعل وإلى المفعول، فلهذا المصطلح القرآني معنيان:

على الإضافة إلى الفاعل

أي ميثاق الله ﷻ الذي أوثق به النبيين عليهم السلام أن يصدقوا بمحمد ﷺ باعتبار أنه الخاتم المصدق لما معهم، وأن ينصروه، ويدخل في ذلك أن يصدق بعضهم بعضًا.

على الإضافة إلى المفعول

٢

أي أخذ الله ﷻ ميثاقاً أوثقه النبيون ﷺ على أممهم بأنه إذا بُعث محمد ﷺ فإنه يجب عليهم أن يؤمنوا به وأن ينصروه، «وَالْمَقْصُودُ مِنْ ذَلِكَ إِعْلَامُ أُمَّمِهِمْ لِيَكُونَ هَذَا الْمِيثَاقُ مَحْفُوظًا لَدَى سَائِرِ الْأَجْيَالِ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ: ﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ﴾ [آل عمران: 82]؛ إِذْ لَا يَجُوزُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ التَّوَلَّى وَالْفِسْقُ، وَلَكِنَّ الْمَقْصُودَ أُمَّمَهُمْ كَقَوْلِهِ: ﴿لَيْتَ أَشْرَكْتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]» (التحرير والتنوير 3/ 298) أي: لئن أشرك أحدٌ من بلغتهم.

﴿لَمَّا أَتَيْنُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ﴾

بَصِيرَةٌ

٤

تبصرنا بالدافع الكبير لتحقيق الميثاق، وهو أن الله ﷻ أتى أنبياءه ﷺ أمرين:

الحكمة

وهي تطبيق الكتاب في موضعه الصحيح.

الكتاب

وهو كل مكتوب أنزله الله ﷻ.

فيجب عليهم نظراً لهذه المعرفة العليا بالكتاب والحكمة أن يؤمنوا بالني الخاتم ﷺ، فاللام في قوله: ﴿لَمَّا﴾ لام التوطئة للقسم؛ لأن أخذ الميثاق في معنى الاستحلاف، و﴿مَا﴾: مَوْصُولَةٌ مُبْتَدَأٌ، و﴿أَتَيْنُكُمْ﴾: صَلْتُهُ. (الكشاف 1/ 379).

﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾

بَصِيرَةٌ

٥

تبصرنا بالإعلان العظيم عن مجيئ الرسول الكريم ﷺ، فالأمم التي تتبع الدين الذي جاء به الأنبياء تنتظره بلهفة ومحبة وشوق كما ورد ذلك في حديث إسلام سلمان الفارسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

﴿مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ﴾ تبصرنا بأن الأنبياء يصدر عن مصدر واحد

بَصِيرَةٌ

٦

فما يجيء به اللاحق لا بد أن يكون مصدقاً للسابق إذا لم يحرف بعض أتباع السابق ما جاءهم به أنبياءهم عليهم السلام، وهذا يشير إلى عبث مجرمي المحرفين من أهل الكتاب.

بَصِيرَةٌ

٧

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ اللَّامُ فِيهِ لَامٌ جَوَابُ الْقَسَمِ

وَقَرَأَهُ حَمْزَةً: بِكُسْرِ لَامٍ ﴿لِمَا آتَيْتُكُمْ﴾ فَتَكُونُ اللَّامُ لِلتَّغْلِيلِ، وَتَتَعَلَّقُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ أَيُّ:

لَتُؤْمِنُنَّ شُكْرًا عَلَى مَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ. (التحرير والتنوير 3/ 299).

بَصِيرَةٌ

٨

﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ﴾ وَلَتَنْصُرُنَّهُ

تَبَصَّرْنَا بِالْوَاجِبِ الَّذِي يَنْبَغِي أَنْ يَقُومَ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ ﷺ وَأَتْبَاعُهُمْ عِنْدَمَا يُبْعَثُ النَّبِيُّ الْخَاتَمُ ﷺ، وَهُوَ الْإِيمَانُ بِهِ، وَلَا يَكْتَفُونَ بِذَلِكَ بَلْ يَجِبُ أَنْ يَنْصُرُوهُ، فَلَمَّا ذَا يَعَادِيهِ مِنْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ يَتَّبِعُونَ مُوسَى وَعِيسَى ﷺ، وَيَخَالِفُونَ هَذَا الْمِيثَاقَ؟!

بَصِيرَةٌ

٩

بقايا هذا الميثاق موجودة في التوراة المعاصرة على الرغم من تحريفها

فِي سِفْرِ التَّنْيَةِ (18-18) قَالَ مُوسَى ﷺ: «قَالَ لِي الرَّبُّ: أَقِيمْ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسْطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلْ كَلَامِي فِي فَمِهِ، فَيَكْلِمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ». وَإِخْوَةُ بَنِي إِسْرَائِيلَ هُمْ بَنُو إِسْمَاعِيلَ ﷺ كَمَا هُوَ مَعْلُومٌ.

بَصِيرَةٌ

١٠

ثم ذكر الله ﷻ 7 مؤكّادات تُعْظِمُ هَذَا الْمِيثَاقَ:

المؤكد 1: تأكيد الطلب منهم أن يقرؤا بالميثاق

﴿قَالَ أَقْرَأْتُمْ﴾ الْإِقْرَارُ مِنْ: قَرَأَ الشَّيْءَ يَقْرَأُ: إِذَا ثَبِتَ وَلَزِمَ مَكَانَهُ، وَالْمُقْرَأُ بِالشَّيْءِ يُقْرَأُ عَلَى نَفْسِهِ أَيْ: يُثَبِّتُهُ. (مقاييس اللغة 7/5)، وَالسُّؤَالُ فِي قَوْلِهِ: ﴿قَالَ أَقْرَأْتُمْ﴾ يَعْنِي الْإِلْزَامَ لَهُمْ أَيْ: أَقْرَأُوا وَالتَّزَمُوا.

المؤكد 2: ﴿وَأَخَذْتُ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي﴾

أَيْ: قَبِلْتُمْ عَهْدِي، وَشَبَّهَ شِدَّةَ قَبُولِهِمْ بِالْأَخْذِ الشَّيْءِ، وَسَمَّى الْعَهْدَ إِصْرًا؛ لِأَنَّهُ مِمَّا يُؤْصَرُ أَيْ: يُشَدُّ وَيُعْقَدُ، وَمِنْهُ الْإِصْرَارُ أَيْ الْحَبْلُ الَّذِي يُعْقَدُ بِهِ، وَيُحَكَّمُ الْكِيسُ، فَيَسَمَّى صِرَةً. (مقاييس اللغة 111/1، مفردات الراغب ص 19).

المؤكد 3:

إقرارهم على أنفسهم لفظاً

﴿قَالَ أَقَرَّرْتُمْ﴾ فأعلنوا القبول بألسنتهم.

المؤكد 4:

﴿قَالَ فَاشْهَدُوا﴾

أي قال الله ﷻ لهم: فاشهدوا، وبصّرنا بصورة عجيبة وكلام جامع بأربعة معاني أي:

وليجعل كلُّ أحدٍ نفسه شاهداً على نفسه.

٢

فليشهد بعضكم على بعضٍ بالإقرار.

١

و﴿فَاشْهَدُوا﴾ أيها الملائكة.

٤

واشهدوا على أمتكم.

٣

المؤكد 5:

﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾

وشهادة الله تعالى معهم لزيادة التأكيد وتقوية الإلزام وطلب الالتزام، وإقامة الحجة العادلة، لأنه يحتاج إلى ذلك الإشهاد.

وكلُّ ذلك يدل على عظمة أمر الإيمان بمحمد ﷺ، ويدل على أن موضوع الإيمان به كان تعليمًا راسخًا حاضراً في كلام النبيين ﷺ مع أقوامهم.

المؤكد 6:

﴿فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾

فالخطاب للأنبياء ﷺ، والكلام عن أتباعهم ليحذر الله ﷻ العالم من تَوَلَّى أتباع الأنبياء عن اتباع النبي الخاتم ﷺ، أي: فمن نكث هذا العهد واتخذ الدين آله للتفريق والعدوان ولم يؤمن بالنبي الخاتم، ولم ينصره ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ أي: الخارجون من ميثاق الله، الناقضون لعهدِهِ.

(تفسير المنار 3/ 291).

وهنا نسأل: إلى متى تظل قيادات اليهود والنصارى يسارعون في هوى الشيطان ويحاربون الحق المبين الذي يعرفونه كما يعرفون أبناءهم؟!

المؤكد 7: الإعلان بأن الكفر بالنبى الخاتم ﷺ كفر بدين الله الحق

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: 83].

مانوع السؤال؟

السؤال للإنكار التوبيخي، والمعنى: لماذا تبغون غير دين الله ﷻ يا أهل الأرض، يا أهل الكتاب خاصة، ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣)؟ مالكم تشذون عن هذا الكون العظيم؟ والمراد الأصلي بدين الله تعالى هنا الإيمان بالدين الذي ارتضاه الله ﷻ، وهو الإسلام، والإيمان بمحتوى ميثاق النبيين ﷺ، وأعظم شيء فيه: الإيمان بالنبى الخاتم ﷺ.

تظهر في الآية صورة رائعة للكون المسلم

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٣) إنها صورة تأخذ بالمشاعر، وتأسر الأبصار والبصائر، وترتجف لها الضمائر، وتظهر جمال الكون وتناغم قوانينه المستسلمة لله ﷻ.

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ﴾ تبصرنا بحالة الاستسلام الهائلة لله ﷻ لا لغيره

وهي حالة تظهر على مخلوقات الكون، أي: وله أسلم لا لغيره، فهذا سبب تقديم الجار والمجرور على متعلقهما، كقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: 15].

﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾

إسلام الطوع والكراه هو إسلام التكوين والتكليف لجميع المخلوقات، ولم يخرج عن ذلك إلا شذمة قليلون من الثقلين أعطاهم الله ﷻ الاختيار، فأبوا إلا اختيار غير دين الله ﷻ.

بَيِّنَات

وفي الآية ثلاث قراءات يوضحن ثلاثة مشاهد:

مشهد
[1]

يظهر عندما نقرأ بالياء في قراءة حفص ويعقوب: ﴿يَبْغُونَ﴾، ﴿يُرْجَعُونَ﴾

ويعقوب على أصله في فتح التاء وكسر الجيم، فالخطاب للنبي ﷺ وأمته من بعده يثبّتهم الله ﷻ على دينه، ويبين لهم جريمة محرفي أهل الكتاب عندما تركوا الإسلام، وكفروا بميثاق الأنبياء ﷺ في الإيمان بخاتمهم ﷺ.

مشهد
[2]

يظهر في قراءة الجمهور، فيقال لهم: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ تَبْغُونَ... وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

فالخطاب لأهل الكتاب -وللمسلمين من بعدهم- ليكون ذلك أحد أدوات الحوار المستعملة معهم، وفيها صراحة مشفقة عليهم من شدة العقوبة عندما يرجعون إلى الله ﷻ في يوم الحساب.

مشهد
[3]

يظهر من قراءة أبي عمرو بالغيب في ﴿يَبْغُونَ﴾، والخطاب في ﴿تُرْجَعُونَ﴾

فالخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين يحدثهم الله ﷻ عن جريمة محرفي أهل الكتاب ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ﴾، لتعجيب المسلمين من حالهم، ثم يعاد الخطاب لهم وللمسلمين فيقال: كيف لا تدينون بدين الإسلام الذي هو دين الله الحق ﴿وَلَهُ أَسْمَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طُوعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾؟

الأساس الثالث

الإعلان عن المعالم التي يجب أن يؤمن بها من يطبق ميثاق النبيين أمام العالمين، فلا
يكتفي بالإيمان القلبي

وببصرنا بذلك قوله:

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾.

وذكر الله ﷻ هنا ٦ معالم:

﴿قُلْ﴾ تبصرنا بضرورة الإعلام والإعلان عن حقيقة الإيمان والاعتزاز به، والتعليم للمسلمين، ولغيرهم،
ويظهر منها ضرورة افتخار القائل واعتزازه بالإسلام.

المعلم
(١)

﴿ءَامَنَّا بِاللّٰهِ﴾ قدّم الإيمان بالله ﷻ على غيره؛ لأن الإيمان بالله ﷻ أصل سائر الأركان.

المعلم
(٢)

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ قدّمه على غيره؛ لأنه الأصل في معرفة ما أنزل على غيرنا، والمثبت له، ولا طريق
لإثباته سواه. (تفسير المنار 3/ 294)

المعلم
(٣)

ولم يذكر الإيمان بالملائكة وغيرها من أركان الإيمان؛ لأن مقصود الآية: الحوار حول الدين الذي ارتضاه الله ﷻ،
ونجد أصله في الكتب التي أنزلها.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ﴾

المعلم
(٤)

بَصِيرَةٌ

١

ذكر سبعة من الأنبياء الذين يعترف أهل الكتاب بهم

وهم أعظمهم عند اليهود والنصارى، فكثير من اليهود لا يعترف بسليمان عليه السلام نبياً على سبيل المثال بل يجعله ملكاً.

بَصِيرَةٌ

٢

استعمل لفظ ﴿أُنْزِلَ﴾ في: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ...﴾،

بينما عبّر بلفظ ﴿أُوتِيَ﴾ في: ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَى﴾؛ لأننا لا نعلم تفاصيل الوحي التي أُنْزِلَتْ على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط عليهم السلام بينما نعاين بقايا الوحي الذي أوتيه موسى وعيسى عليهما السلام، وهما التوراة والإنجيل، وكذلك المعجزات التي آتاها الله تعالى موسى عليه السلام، كَمَا قَالَ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: 101].

بَصِيرَةٌ

٣

ما الحكمة في استعمال ﴿عَلَىٰ﴾ في هذه الآية: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾

واستعمال ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ...﴾ [البقرة: 136]؟

الجواب: هنا ترى الإحكام القرآني العجيب؛ فإن الكلام في السورتين يصور لنا الحوار مع أهل الكتاب، وكلمة ﴿عَلَىٰ﴾ في هذه الآية: ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾، يوضح المنزل على النبي بصورة مباشرة، وناسب هذا بدء الآية بقوله: ﴿قُلْ﴾، والتقدير: قل يا أيها الرسول، بينما جاء الحرف ﴿إِلَىٰ﴾ في آية البقرة ليضمّن الكلام فعلاً آخر هو الإيصال، فيناسب ذلك البدء بكلمة: ﴿قُولُوا﴾، والتقدير: قولوا أيها المؤمنون: آمنا بالله وما أنزل على إبراهيم... مما وصل إلينا.

المعلم
(٥)

﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾

٣

تنبيهًا على أن أفعال
أهل الكتاب متهافة
معتدية؛ إذ يؤمنون
ببعض الأنبياء
ويكفرون ببعض.

٢

تطبيقًا لميثاق النبي المأخوذ،
وهنا أخذ الميثاق على محمد
ﷺ بأن يؤمن بكل من أتى قبله
من الرسل فحسب، لأنه لن
يأتي بعده نبي.

١

هذا المعلم من أعظم المعالم تأثيرًا في الدعوة إلى
الإسلام؛ لأنه يوضح أن المرسل واحد -جلّ
مجده-، وتظهر إيمان المسلمين بكل من أرسلهم
رب العالمين ليبلغوا رسالة واحدة ذات أصول
متفقة، وهذا المعلم لا يوجد عند أهل الكتابين
مما يضعف موقف المحرفين منهم إلى حد بعيد.

المعلم
(٦)

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾

٢

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة إسلام الطّوع
والكره: ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
طَوْعًا وَكَرْهًا...﴾ (٨٣)، وهنا ذكر أن المسلمين
أعلنوا طوعًا إسلامهم لله ﷻ لا لدين اخترعوه
أو غيروه، بل لدين أسلمت له الكائنات، وأنزل
إليها كما أنزل إلى الأنبياء ﷺ من قبل.

١

أي: يشعرون بالسلامة في إدارة حياتهم وفق أمر
الله ﷻ، فتتحقق مصالحهم الدنيوية والأخروية
باستسلامهم لشرعه.

الأساس
الرابع

لا يوجد دين أنزله الله ﷻ يسمى بغير اسم الإسلام، فلا يمكن أن تسمى الدين الذي ارتضاه الله ﷻ الدين الإبراهيمي أو أن تسميه بأي اسم آخر غير اسم الإسلام

فالحكم العام في من يتخذ ديناً سوى الإسلام عدم القبول منه، وحصول الخسارة له في الآخرة،
وببصرنا بذلك قوله:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85].

وفيه ٤ بصائر:

الحكم القاطع والبلاغ العام

بَصِيرَةٌ

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ تبصرنا بالحكم الفصل فيمن يدين بدين سوى الإسلام، ﴿وَمَنْ﴾ الواو عاطفة وصلت ما بعدها بما قبلها، فكأن الله ﷻ قال: الإسلام هو دين الله ﷻ الذي بعث به كل الأنبياء ﷺ، والذي يبتغي غيره من الأديان، فهذا حكمه، وكلمة ﴿مَنْ﴾ لفظٌ يعمُّ كلَّ عاقل ذكراً كان أم أنثى.

والإعلام هنا للعالمين، وفي مقدمتهم المتدينون من الأحرار والرهبان، وأتباع الكنائس ورعاياهم، ويجب نشر هذا الإعلان لإنقاذ البشرية من الخسائر التي يسببها أتباعهم للضلالات.

أساس الحكم: الاختيار

بَصِيرَةٌ

فقوله: ﴿يَبْتَغِ﴾ يظهر جمال هذه الكلمة في أن معناها: يطلب بنفسه طلباً مجتهداً، وتصوّر لنا هذه الكلمة عدل الله ﷻ: إذ إن هذا الفعل ﴿يَبْتَغِ﴾ يدل على اختيار المكلف لا على إجباره.

بَصِيرَةٌ

٣

ذكر الله ﷻ حُكْمِينَ لِمَن يَبْتَغِي غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا

حكم 2

﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾ (٨٥) ﴿جمع المذكر السالم﴾ ﴿الْخَسِرِينَ﴾ يبصرنا بأن من يبتغي غير الإسلام دينًا سيكون من الراسخين في الخسارة، فسيخسر كل شيء بما في ذلك النعيم العظيم الكريم المقيم في جوار الرب الرحمن الرحيم.

حكم 1

عدم القبول: ﴿فَلَن يَقْبَلَ مِنْهُ﴾ فمن طلب باختياره غير الإسلام دينًا يخضع له ويمشي وفق نظامه في حياته فلن يقبل منه أي عمل صالح يعمل، ولن يقبل دينه مهما كان، حتى لو زعم أن نبيًا من الأنبياء بُعث به.

بَصِيرَةٌ

٤

ما الحكمة من تقييد الخسارة بالآخرة ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَسِرِينَ﴾؟

الجواب: ليبصرنا أن هذا الكافر بالإسلام قد يكون له حظٌ من الدنيا مما يجعله مغرورًا فخورًا، وهو ما بينه الله تعالى في آياتٍ أخرى في هذه السورة وغيرها مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ [آل عمران: 10، 116]، ومثل قوله: ﴿لَا يَغْنَصُكَ أَتْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبَلَدِ﴾ (١٩٦)

[آل عمران: 196].



عرفنا أن القسم السادس يحدّد أهمّ أسس دين الإسلام الذي يجب أن يخبر به الأنبياء والأحبار والعلماء العالم [آل عمران 80-85]، فما القسم السابع؟

جسراتصال

الجواب:

القسم السابع

يفصل أربعة أصناف للذين ابتغوا غير الإسلام ديناً من أهل الكتاب وغيرهم

[آل عمران: ٨٦-٩١]؛

الصنف
الأول

قوم كفروا بعد إيمانهم، وأصروا على كفرهم، وذكرهم الله ﷻ في [آل عمران: 86-88].

الصنف
الثاني

قوم كفروا بعد إيمانهم، إلا أنهم استدرکوا أمرهم بالتوبة في الدنيا:
﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

الصنف
الثالث

﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا...﴾.

الصنف
الرابع

من كفروا كافرين دون توبة حقيقية سيواجهون العذاب الأليم في الآخرة [آل عمران: 91].

آيات هذا القسم:

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ
 الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ
 وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٨٨﴾
 إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ
 إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٩١﴾﴾

قوم كفروا بعد إيمانهم، وأصروا على كفرهم، وذكرهم الله ﷻ في [آل عمران: 86-88]،

وتبصرنا بحالهم 4 بصائر:

الصف
الأول

ذكر الله ﷻ حكمهم المخيف قبل ذكر أوصافهم

بَصِيرَةٌ

فقال: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾ السؤال لاستبعاد هدايتهم، ولاستبشاع كفرهم، فلم يعودوا
 يستحقون توفيق الله ﷻ بأن يهديهم.

استحقوا هذا الحكم؛ لأنهم اتصفوا بأربع صفات مجتمعة:

الأولى

﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ أي بَعْدَ الْإِيمَانِ بِنَبِيِّهِم السابق مثل إبراهيم أو موسى أو عيسى عليه السلام، فانتقلوا للكفر بالنبى الخاتم ﷺ فكانهم كفروا به وبنبيهم معاً، ويدخل في الوصف من كان مسلماً مؤمناً بالنبى الخاتم ﷺ ثم بدّل دينه كفرًا، واخترع له دينًا ملفّقًا بين الإسلام والكفر، فربما سمّاه الإبراهيمية، وربما سمّاه الإسلام وفق فهم خاص به.

الثانية

﴿وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ فهذه صفة مؤمن لكن الله ﷻ ذكرها لتبشيع حالهم؛ لأنهم عرفوا الحق، والمعنى: شهدوا مُقَرِّين وقائمين بأن الرَّسُولَ حَقٌّ إما بشهادتهم لرسولهم بأنه حقٌّ كأن شهدوا لموسى ﷺ بالرسالة، فكيف يكفرون بما جاء به موسى من ميثاق النبيين أو تسمية الدين الذي جاء بهم بنبيهم بالإسلام.

الثالثة

﴿وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ أي كفروا بعد أن رأوا البينات على صدق نبوته ﷺ.

الرابعة

ظلموا أنفسهم والناس، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ ^(٨١)، وعرف الراغب الظلم بأنه وَضْعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ الْمُخْتَصِّ بِهِ؛ إمَّا بزيادةٍ أو بنقصانٍ، وإمَّا بعدُولٍ عَنْ وَقْتِهِ وَمَكَانِهِ. (المفردات: ص 315)، فظلموا من ثلاث جهات:

١

جهة علاقتهم بالحق؛ إذ كفروا بدين الله الحق، وبالبيّنات التي جاءتهم.

٢

من جهة أنهم استبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير، فلم يضعوا الأمور في مواضعها.

٣

جهة علاقتهم بالخلق؛ إذ تعاملوا معهم بال المكر السيئ والإجرام لابسين لبوس بني الإنسان.

بَصِيرَةٌ

٣

هذه الآية لخصت العقوبة الدنيوية لهم

والمعنى: كيف يمكن أن يوفّق الله ﷻ بالهداية قومًا أظهروا الإيمان برسولهم سواء أكان موسى أم عيسى عليهما الصلاة والسلام، ورأوا البينات على يديه، ومنها أن يؤمنوا بنبي آخر الزمان ﷺ، ثم كفروا بنبي آخر الزمان محمد ﷺ، رغم رؤيتهم للبينات معه، فاستبدلوا إيمانهم السابق بالكفر.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ﴾ أي: حكمهم الذي يناسب ما قاموا به، وبصرتنا بأربعة أنواع لعقوبتهم:

النوع الأول

﴿أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (٧٧)

﴿أَجْمَعِينَ﴾

تبصرنا أن جميع الناس يلعنونهم حتى من هو كافرٌ مثلهم، كما قال ربنا ﷻ:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ [العنكبوت: 25].

﴿لَعْنَةَ اللَّهِ﴾

بالإبعاد من الرحمة والجَنَّةِ، وتعذيبهم، واللَّعْنَةُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ ومن الناس بالدعاء عليهم بأن يفعل الله ﷻ بهم ذلك.

النوع الثاني

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾: وهذه أشد

فالخلود: ثبات الشيء على حالٍ واحدة لمدة طويلة ربما بقيت إلى الأبد، وكلمة: ﴿فِيهَا﴾ أي في اللعنة، فيبقون فيها، فلا يغير الله ﷻ حالهم، وَلَا يَزَالُ الخلق يلعنونهم، ويخلدون في آثار اللعن، وهو العذاب الذي سيحلُّ بهم، فهل يخفف عنهم العذاب؟ هنا يأتي الجواب:

٣

النوع الثالث

عدم نقصان عذابهم ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ﴾

وهذا يعني أنهم لا يألفونه؛ فَإِنَّ الْفَ الشَّيْءَ يعني التطبع معه، والتطبع معه تخفيف.



وهنا يأتي سؤال: كيف نجمع بين عدم التخفيف، وما ثبت في الآيات الأخرى من كلامهم مع بعضهم ومع خزنة جهنم؟

الجواب:

هذا يعني أن الوقت الذي يتكلمون فيه مع بعضهم في النار أو مع مالك خازن النار أو مع خزنة جهنم يكون العذاب مستمرًا عليهم في أثناءه إلا أن دَوَّقَهُمْ له لا يمنعهم من الوعي بما حولهم، وإلا لكان عدم الوعي تخفيفًا، كما أن حسرتهم في أثناء تبادلهم للاتهامات بينهم أو بعد كلامهم مع خزنة جهنم عذابٌ نفسيٌّ آخر. نعوذ بالله من ذلك.



فهل يمكن أن يُؤخَّرَ عنهم العذاب؟

فيأتي الجواب:

٤

النوع الرابع

﴿وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾

أي لا يُمهَّلون ولا يؤخَّرون؛ لأن زمن الإمهال قد مضى، فالعذاب اللاحق للكافر مَضَرَّةٌ خَالِصَةٌ عَنْ

شَوَائِبِ الْمَنَافِعِ دَائِمَةٌ غَيْرُ مُنْقَطِعَةٍ، نَعُوذُ مِنْهُ بِاللَّهِ. «تفسير الرازي» (285/8).

الصنف
الثاني

قوم كفروا بعد إيمانهم، إلا أنهم استدرکوا أمرهم بالتوبة في الدنيا، وذكرهم الله ﷻ في قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: 89]، ويبصرنا بحالهم (٤) بصائر:

بَصِيرَةٌ
١

تبصرنا الآية بأنه لا يأس من رحمة الله ﷻ

فجلم الله ﷻ عظيم، وعفوه يسع حتى من كفر به إذا أناب وعاد إلى رحاب الإسلام.

بَصِيرَةٌ
٢

﴿تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾

بصرتنا بأن لقبول توبتهم شرطين:

الثاني

أن يُصْلِحُوا ما أفسدوه بثلاثة أمور:

الأول

التوبة من هذا الإجرام والعناد والإضلال.

٣

الإصلاح مع الخلق بحسن
المعاملات.

٢

إصلاح باطنهم لله ﷻ بالمراقبات،
وظاهرهم مع الخالق بالعبادات.

١

بيان أنهم كانوا ضالين، والاعتراف
بأن الإسلام هو الدين الحق حتى
لا ينخدع بكفرهم منخدعون.

بَصِيرَةٌ
٣

وعند ذلك ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾

غُفُورٌ لِقَبَائِحِهِمْ فِي الدُّنْيَا بِالسَّتْرِ فَكَأَنَّهُمْ لَمْ يَكْفُرُوا، رَحِيمٌ فِي الْآخِرَةِ بِالْعَفْوِ، أَوْ غُفُورٌ بِإِزَالَةِ الْعِقَابِ،
رَحِيمٌ بِإِعْطَاءِ الثَّوَابِ. (تفسير الرازي 8/ 285).

ومما يوضح هذه الآية ما جاء عن ابن عباسٍ رضي الله عنهما قال:

«كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ أَسْلَمَ، ثُمَّ ارْتَدَّ وَلَحِقَ بِالشِّرْكِ، ثُمَّ تَنَدَّمَ، فَأَرْسَلَ إِلَى قَوْمِهِ: سَلُوا لِي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: هَلْ لِي مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَجَاءَ قَوْمُهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: إِنَّ فُلَانًا قَدْ نَدِمَ، وَإِنَّهُ أَمَرَنَا أَنْ نَسْأَلَكَ هَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَانْزَلَتْ: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾» [آل عمران: 86-89]، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا كَذَبَنِي قَوْمِي عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا كَذَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى اللَّهِ ﷻ وَرَسُولِي، وَاللَّهُ أَصْدَقُ الثَّلَاثَةِ، فَرَجَعَ تَائِبًا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَبِلَ ذَلِكَ مِنْهُ، وَخَلَّى سَبِيلَهُ». (النسائي: 4068، السنن الصغير للبيهقي:

3178، وصححه الوادعي في الصحيح المسند: 591).

الصف
الثالث

﴿كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ [آل عمران: 90]، وتبصرنا بحالهم بصيرتان:

بَصِيرَةٌ

هذه الصف يغاير ما قبله، فالذي قبله تاب بعد الكفر، وهذا ازداد كفرًا

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾.



كيف يزداد كفرهم؟

الجواب:

بأن يستمروا على كفرهم، وينشروا الكفر في العالم، ويستوعبوا الناشطات والناشطين في
الشبهات والشهوات.

ويدخل فيهم:

٢

المتلاعبون بالدين، المتبعون للأهواء ونزوات
الشياطين، فذكر ابن عباس رضي الله عنهما أَنَّ قَوْمًا أَسْلَمُوا
ثُمَّ ارْتَدُّوا، ثُمَّ أَسْلَمُوا ثُمَّ ارْتَدُّوا، فَأَرْسَلُوا إِلَى قَوْمِهِمْ
يَسْأَلُونَ لَهُمْ، فَذَكَرُوا ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَزَلَّتْ
هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا
كُفْرًا لَّنْ تَقْبَلَ تَوْبَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾

(عزاه ابن كثير في تفسيره 72/2 إلى البزار، وقال: "وَأَسْنَدُهُ جَيِّدٌ").

١

المنافقون وأهل الكتاب الذين كانوا مُؤْمِنِينَ
بِمُحَمَّدٍ ﷺ قَبْلَ مَبْعَاثِهِ، ثُمَّ كَفَرُوا بِهِ عِنْدَ
الْمُبْعَاثِ، ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا بِسَبَبِ طَعْنِهِمْ فِيهِ فِي
كُلِّ وَقْتٍ، وَنَقَضِهِمْ مِيثَاقَهُ، وَفَتَنَتِهِمْ لِلْمُؤْمِنِينَ.

(تفسير الرازي 8/ 286).

ذكر الله ﷻ لهم حكمين:

الحكم 2

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾

أي الْمُتَمَكِّنُونَ مِنَ الضَّلَالِ حَتَّى كَانَتْ مَحْصُورِيهِمْ، وَحَسْبُكَ بِضَالٍّ لَا تُرْجَى هِدَايَتُهُ وَلَا تُقْبَلُ تَوْبَتُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الْخِذْلَانِ. (تفسير المنار 3/303).

الحكم 1

﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾



وهنا نسأل: كيف نجمع بين قوله: ﴿لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ﴾ والآيات المبينة لقبول التوبة؟

الجواب:

المعنى: إنهم لن يتوبوا حتى يموتوا، فيُمنعون من التوبة عند الموت كما قال تعالى:

﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْخَيْرَ﴾

[النساء: 18].

سيعلنون التوبة يوم القيامة، ولن ينفعهم ذلك، ولذا قال الله ﷻ:

﴿وَالَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: 18].

أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أَزْدَادُوا كُفْرًا بَارْتِكَابِ الْجَرَائِمِ بِالإِضَافَةِ إِلَى كَوْنِهِمْ كُفَرًا أَصْلًا، كَمَا فِي حَالِ جَبَابَرَةِ النَّصَارَى الَّذِي يَظُنُّونَ أَنَّ اللَّهَ ﷻ لَا يَأْخُذُهُمْ عَلَى جَرَائِمِهِمْ فِي إِبَادَةِ غَيْرِهِمْ لِمَجْرَدِ أَنْ يَطْلُبُوا مِنَ الْقَسِ أَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ، أَوْ يَقْدَمُوا بَعْضُ الْأَعْمَالِ الْخَيْرَةِ لِلنَّصَارَى، وَمِثْلِهِمْ بَعْضُ الْجَبَابَرَةِ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ لِلْإِسْلَامِ زُورًا وَكَذِبًا، يَعِثُّونَ فِي الْأَرْضِ فُسَادًا وَبَاطِلًا، ثُمَّ يَزِينُونَ ذَلِكَ بِفَعْلِ بَعْضِ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ كِبْنَاءِ بَعْضِ الْمَسَاجِدِ.

الصف
الرابع

من كفرومات كافرًا دون توبةٍ حقيقية سيواجهون العذاب الأليم في الآخرة [آل

عمران: 91]، وفيه 4 بصائر:

بَصِيرَةٌ

١

تعريفهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ﴾

فعندما جاءتهم البينات كفروا أي: اختاروا الكفر، ثم أصروا عليه حتى ماتوا دون توبة.

بَصِيرَةٌ

٢

يظن الواحد منهم أنه يستطيع أن يفترق نفسه بأموالٍ كان يملكها في الدنيا

فيأتيه الجواب: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾: أي: لو كان عنده ملء الأرض ذهبًا فلن يقبل منه، فلو أتى بوزن برّها وبحرها وجبالها وتلالها وغاباتها ومدنها وخرائبها لم يقبل منه، وهذا على سبيل المستحيل، فلن يملك أحد ذلك، فالعمل الصالح هو الذي ينجي برحمة الله ﷻ، وليس المال والجاه.

ويوضح ذلك النبي ﷺ، فيقول: «يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِأَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ: لَوْ أَنَّ لَكَ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ أَكُنْتَ تَفْتَدِي بِهِ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ. فَيَقُولُ: أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ بِي شَيْئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا أَنْ تُشْرِكَ بِي». (البخاري: 6557).

بَصِيرَةٌ

٣

﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

أي لهم عقوبة شديدة تُذهب عنهم عذوبة الحياة، وتشعرهم بالألم أي الوجع الشديد.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ﴾

عندما يرون التوبة يوم القيامة لا تنفع، ويرون الفدية لا يمكن أن تُدفع، وحينها يبحثون عن ناصرين، فيبين الله ﷻ أنهم لا يجدون ناصرًا يشفع.

المحور الرابع

يحدد خطة الفلاح
الاستراتيجية الشاملة
لندعو العالم إلى الخير
[آل عمران: ٩٢-١٢٠]

جسرات اتصال

حدثنا المحور الثالث عن ميثاق الأنبياء، وخلاصته: الإسلام هو دينهم عليهم الصلاة والسلام، وكلهم يبشر بالني الخاتم، وهذا يوجب الحوار مع المنصفين من أتباعهم، والتعاون على محاصرة مكر المحرّفين [آل عمران: 64-91]، فكيف يمكن أن نشيع الخير في العالم؟

الجواب: هنا يأتي:

المحور الرابع

يحدد خطة الفلاح الاستراتيجية الشاملة لندعو العالم إلى الخير

[آل عمران: 92-120]

في هذا المحور جوابٌ على السؤال العظيم الذي يطرحه الأذكىاء، ويتداوله المهتمون بسبب شيوع هذا الظلم الهائل في العالم: كيف السبيل إلى الخروج من هذه المآسي والمآزق المتكررة في ديار المسلمين وغيرهم؟

ف"وَالْعَلَّاجُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ، فَمَتَى يُبْصِرُونَ! وَالطَّبِيبُ يُنَادِيهِمْ، فَأَنَّى يَسْمَعُونَ؟ عَسَى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ قَرِيبًا". (تفسير المنار 4/42).



فإذا كان العمل بمحتوى ميثاق النبيين خيراً للعالمين، فكيف نوصِل ذلك إلى العالم؟

هنا يأتي هذا المحور وأقسامه ثمانية:

يصور لنا أن إسلام النفس لله ﷻ، وتزكيتها بأعظم الأعمال حتى نوصِلها إلى أقصى درجات البر هو أساس خطة الفلاح، فالإنفاق يمثل قدرة المسلمين على الاستفادة من سنن الانتصار في مواجهة المعتدين، وببصرنا بذلك قوله ﷻ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 92]، وفيه 8 بصائر.

فالقسم
الأول

يكشف لنا عن بينات واقعية تدل على صدق النبي الخاتم ﷺ، وتجعل المؤمنين أكثر ثقة بدينهم، وأكثر قوة في عرضه على غيرهم، وتدفعهم لإعداد خطة الفلاح لتبليغ الخير الذي عندهم للعالم [آل عمران: 93-97]، وفيه ثلاث بينات كبرى.

القسم
الثاني

قرر الله ﷻ لنا فيه خطة الفلاح التي تقتضي إعلام أهل الكتاب بأكبر كارثتين أو مصيبتين يرتكبهما الفاسدون منهم أمام بينات الرسول ﷺ [آل عمران: 98-99].

القسم
الثالث

يفصّل الله -جلّ مجده- لنا فيه الأسس الأربعة عشر لخطة الفلاح الاستراتيجية الشاملة التي تهدف إلى دعوة العالم إلى الخير [آل عمران: 100-109].

القسم
الرابع

يقرر لنا أن الأمة الإسلامية مصدر سعادة العالمين، فهي خير أمة أخرجت للناس، وببصرنا بهذا القسم هذه الآية المركزية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110]، ويمكنك أن تجعل هذه الآية مركز السورة كلها، فهي آية محورية عظيمة تقدم لنا كلماتها 16 بصيرة.

القسم
الخامس

القسم
السادس

موقف أهل الكتاب من خير أمة أخرجت للناس؛ لأنها تدعو إلى الخير وتطبقه [آل عمران: 110-115]،
وتكوّن هذا القسم من ثلاثة فصول: الأول: ذكر الله ﷻ فيه الموقف العام لأهل الكتاب من
إيمان خير أمة أخرجت للناس [آل عمران: 110]، والثاني: فصل الله ﷻ فيه واقع الفاسقين منهم [آل
إمران: 111-112]، والثالث: ذكر الله ﷻ واقع المؤمنين منهم [آل عمران: 113-115].

القسم
السابع

خسارة الفاسقين من أهل الكتاب وغيرهم من الكافرين في مواجهتهم لخير أمة أخرجت للناس
إن استمسكت هذه الأمة بشروط الخيرية الثلاثة [آل عمران: 116-117]، وفيه 14 بصيرة.

القسم
الثامن

خسارة الكافرين أمام خير أمة أخرجت للناس قد تنقلب إلى نصر في الدنيا إن اتخذهم المؤمنون
بطانة، أو اتخذوا من يواليهم بطانة من عملائهم ومن الفساق، وبصرنا الله ﷻ بذلك في الآيات
[آل عمران: 118-120]، وجاء هذا القسم للتحذير من بطانة السوء؛ لأنها تمنع بدسائسها الخفية الفلاح
في الخطة الاستراتيجية لدعوة الخير الإسلامية في العالم، وفي هذا القسم 5 قوانين.

القسم الأول

يصور لنا أن إسلام النفس لله ﷻ، وتزكيته بأعظم الأعمال حتى نوصلها إلى أقصى درجات البر هو أساس خطة الفلاح، فالإنفاق يمثل قدرة المسلمين على الإفادة من سنن الانتصار في مواجهة المعتدين، وببصرنا بذلك قوله ﷻ:

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٩٢]

وفيه ٨ بصائر:



ما المناسبة والاتصال بين هذه الآية وما قبلها؟

بَصِيرَةٌ

الجواب: تتضح المناسبة والاتصال من الآتي:

١ بما أن المسلمين يعلمون ميثاق النبيين، فيجب أن يوصلوه للعالمين، ولا يمكن تحقيق ذلك دون إنفاق على الأفراد والمؤسسات العلمية والتعليمية والإعلامية والتربوية التي تنشر ذلك.

٢ في الآية السابقة قال ربنا ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ [91]، فبصرنا الله ﷻ بعدم قدرة الكافر على افتداء نفسه يوم القيامة من العذاب، وأرشد سبحانه في هذه الآية إلى ما يجب على المؤمن اليقظ من الإعداد لنفسه بأعظم وسائل النصر في ذلك اليوم، ومن أهمها: الإنفاق مما يحب، فهو يدل على صدق إسلام الإنسان.

﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ مَنِ الْمَخَاطَبُ؟

بَصِيرَةٌ

الجواب: المؤمنون، فكل خطاب تكليفي في القرآن ينبغي أن يكون للمؤمنين ابتداءً، وهو هنا ليقوموا بإشاعة ميثاق النبيين في العالم بعد أن أمرهم بإعلان الإسلام للعالمين، أخبرهم أن إنفاق المحبوبات وبذل المشتريات هو أهم أساس عملي للقيام بخطة الفلاح في دعوة العالم إلى الخير، وأهم خير ينبغي أن يعلموه: معرفة ميثاق النبيين، وأن الإسلام الدين الذي ارتضاه رب العالمين.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿الْبِرُّ﴾: كلمة بديعة عظيمة

ف"الْبِرُّ خلاف البحر، وتُصَوِّرُ منه التوسع، فاشتق منه البرُّ، أي: التوسع في فعل الخير" (المفردات: 114)، وسيي فاعله (الْبِرُّ)، وهو: إيفاء الحقوق بصدق، ثم يتوسع في قيامه بالفضل والإحسان والزيادة، حتى يزيد على إعطاء الحق، وكان ابنُ عمرَ رضي الله عنهما يَقُولُ: «الْبِرُّ شَيْءٌ هَيْنٌ وَجَهٌ طَلِيقٌ، وَكَلَامٌ لَيْنٌ». (المجالسة وجواهر العلم: 4/332).

بَصِيرَةٌ

٤

﴿حَتَّى تُنْفِقُوا﴾ يبرز جمال التعبير ﴿حَتَّى﴾

لأنها تبصرنا أن الوصول إلى البر يحتاج إلى قطع مسافة من تدريب النفس على الأعمال الصالحة، حتى نصل إلى الإنفاق من المحبوب.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ أي من المال الذي تحبونه أو من الشيء الذي تحرصون عليه كالوقت والجهد

كأن تنفقوا الطيب منه، أو الذي لا تحبون مفارقتة، ويصوِّر ذلك ما ورد في الحديث أَنَّ رَجُلًا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ الصَّدَقَةِ أَعْظَمُ أَجْرًا؟ قَالَ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَحِيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الْفَقْرَ وَتَأْمُلُ الْغِنَى» (البخاري: 1419)، والصحيح أن المراد هنا ليس الزكاة، بل ما خرج عن الزكاة.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ أي: والذي تنفقونه مهما قلَّ أو كثر

فكلمة ﴿شَيْءٍ﴾ يدخل فيها القليل والكثير:

فقد يكون المنفق قليلاً

لكنه نفيسٌ عند صاحبه كما قال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة: 79].

وقد يكون المنفق خُلُقًا حسنًا

قال النَّوَّاسُ بْنُ سَمْعَانَ الْأَنْصَارِيُّ رضي الله عنه: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنِ الْبِرِّ وَالْإِثْمِ، فَقَالَ: «الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ»، (مسلم: 2553)، ويظهر لي أن النبي ﷺ جعل حسن الخلق أساس البر، والله تعالى في هذه الآية يبيِّن غاية البر التي يُنتهى إليها وهو إنفاق المحبوبات.

وقد يكون المنفق شيئاً عظيماً

فعند (أحمد: 12482 بإسناد صحيح) أَنَّ رَجُلًا قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّ لِفُلَانٍ نَخْلَةً، وَأَنَا أُقِيمُ حَائِطِي بِهَا، فَأُمَرُّهُ أَنْ يُعْطِيَنِي حَتَّى أُقِيمَ حَائِطِي بِهَا. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعْطِيَهَا إِنِّي أَهْ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ» فَأَبَى، فَأَتَاهُ أَبُو الدَّحْدَاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: بِعْنِي نَخْلَتَكَ بِحَائِطِي. فَفَعَلَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي قَدْ ابْتَعْتُ النَخْلَةَ بِحَائِطِي. قَالَ: فَاجْعَلْهَا لَهُ -أَي لَطَالِهَا- فَقَدْ أُعْطِيَتْكَهَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَمْ مِنْ عَذْقٍ رَدَّاحٍ -أَي عَظِيمَةٍ- لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ» قَالَهَا مَرَارًا. قَالَ: فَأَتَى أَبُو الدَّحْدَاحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَمْرَاتُهُ فَقَالَ: يَا أُمَّ الدَّحْدَاحِ اخْرُجِي مِنَ الْحَائِطِ، فَإِنِّي قَدْ بَعْتُهُ بِنَخْلَةٍ فِي الْجَنَّةِ. فَقَالَتْ: رِيحَ الْبَيْعِ.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ أي لا تخشوا ألا يشرككم الناس، ولا تحزنوا إن لم يفعلوا ذلك

فإن الله ﷻ يعلم فعلكم وصدقكم، ويعلم إخلاصكم ومحبتكم لربكم، فسيغمركم بثوابه وبركته في الدنيا والآخرة.

وتعال تشهد صوراً من خیرأمة أخرجت للناس تدعو العالم إلى الخير

لتجد التطبيق العملي للربانيين الحائزين مراتب البر:

فمنهم أبو طلحة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ

فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ أَبُو طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَكْثَرَ الْأَنْصَارِ بِالمَدِينَةِ مَالًا مِنْ نَخْلٍ، وَكَانَ أَحَبَّ أَمْوَالِهِ إِلَيْهِ بَيْرَحَاءُ، وَكَانَتْ مُسْتَقْبَلَةَ الْمَسْجِدِ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدْخُلُهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَاءٍ فِيهَا طَيِّبٍ. قَالَ أَنَسٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فَلَمَّا أُنْزِلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، قَامَ أَبُو طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: 92]، وَإِنَّ أَحَبَّ أَمْوَالِي إِلَى بَيْرَحَاءُ، وَإِنَّهَا صَدَقَةٌ لِلَّهِ ﷻ، أَرْجُو بِرَّهَا وَذُخْرَهَا عِنْدَ اللَّهِ، فَضَعْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ حَيْثُ أَرَاكَ اللَّهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَعْ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، ذَلِكَ مَالٌ رَابِعٌ، وَقَدْ سَمِعْتُ مَا قُلْتَ، وَإِنِّي أَرَى أَنْ تَجْعَلَهَا فِي الْأَقْرَبِينَ». فَقَالَ أَبُو طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَفَعَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَقَسَمَهَا أَبُو طَلْحَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي أَقَارِبِهِ وَبَنِي عَمِّهِ. (البخاري: 1461)، وفي رواية لمسلم (998): فجعلها في حسان بن ثابت و أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.



عرفنا أن القسم الأول من المحور الرابع يصور لنا أن إسلام النفس لله ﷻ، وتزكيتها بأعظم الأعمال حتى نوصلها إلى أقصى درجات البر هو أساس خطة الفلاح، ويبصرنا بذلك الآية رقم (92)، فما القسم الثاني في خطة الفلاح؟

جسراتصال

الجواب:

القسم الثاني

يكشف لنا عن بيناتٍ واقعية تدل على صدق النبي الخاتم ﷺ، وتجعل المؤمنين أكثر ثقة بدينهم، وأكثر قوة في عرضه على غيرهم، وتدفعهم لإعداد خطة الفلاح؛ لتبليغ الخير الذي عندهم للعالم [آل عمران: ٩٣-٩٧]

وفيه ٣ بينات كبرى:

ذكرُ تحريمِ إسرائيل ﷺ لأُمُورٍ مخصوصة على نفسه [آل عمران: 93-94]

البينة
الأولى

اتباع ملة إبراهيم عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام:
﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ٩٥

البينة
الثانية

تقديس أهم مقدسات إبراهيم عليه السلام، وفي مقدمتها أول بيت وضع للناس، وهو البيت الموضوع في بكة [آل عمران: 96-97].

البينة
الثالثة

آيات هذا القسم:

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَءِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ٩٣ ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ٩٤

البينة
الأولى

ذكرُ تحريمِ إسرائيلَ لأُمُورٍ مخصوصةٍ على نفسه [آل عمران: 93-94]

وفيهما 10 بصائر:

آيتا هذه البينة: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٤﴾﴾.

بَصِيرَةٌ

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

الطعام هو كلُّ ما يُطعم ويؤكل، والألف واللام للعهد الذهني أي: كل ما اعتاد الناس أكله من الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل، فيخرج الخنزير والميتة والمحرمات.

بَصِيرَةٌ

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾

تبصرنا بوجه هذه البينة العظيمة، فالعلم بما حرّمه إسرائيل على نفسه لم تنشر تفاصيله الدقيقة حتى بينه النبي ﷺ، فقد حَضَرَتْ عَصَابَةُ مِنَ الْيَهُودِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، حَدِّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسْأَلُكَ عَنْهَا، لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ. فَكَانَ فِيْمَا سَأَلُوهُ: أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ قَبْلَ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ؟ قَالَ: «فَأَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى ﷺ، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْقُوبَ ﷺ مَرِيضًا شَدِيدًا، فَطَالَ سَقَمُهُ، فَتَنَذَّرَ لِلَّهِ نَذْرًا لِيُنْ شَفَاهُ اللَّهُ مِنْ سَقَمِهِ، لِيَحْرِمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، فَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ: لُحْمَانُ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ: أَلْبَانُهَا» (أحمد: 2471، وحسنه محققو المسند)، فكانت حجة عليهم ليؤمنوا؛ لأنهم لم يسألوا إلا وهم يكتمون هذه التفاصيل حتى عن عاينهم، ولذا ترى بعض النصارى بجَهْلٍ يسخر من أكل لحم الإبل، وما يعلم أنها أطيب اللحم عند إسرائيل ﷺ.

بَصِيرَةٌ

﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ هل يجوز أن يحرم الإنسان على نفسه شيئاً؟

الجواب:

١ ربما كان ذلك جائزاً في شريعتهم كالرهبانية لم تكتب عليهم، فكتبوها على أنفسهم، وربما لم يجعل الله ﷻ لهم الكفارة في شريعتهم إذا نذروا نذراً.

٢

نُسَخ ذلك في شريعتنا حيث منع الله ﷻ من تحريم الطيبات، فعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ جِيءَ عِنْدَهُ بِطَعَامٍ، فَتَنَحَّى رَجُلٌ، فَقَالَ: إِنِّي حَرَمْتُهُ أَنْ لَا أَكُلَهُ. فَقَالَ: إِذَنْ فَكُلْ، وَكَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحَرُّوا طَيْبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [المائدة: 87]، وقال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تَحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ حِلَّةً أَيْمَنَكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ] [التحریم: 2-1]. فمن حَلَفَ على تحريم الحلال يلزمه كفارة اليمين على مذهب الأحناف والحنابلة.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَنْزَلَ التَّوْرَةُ﴾

حَرَّمَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَحُومَ الْإِبِلِ وَالْبَائِهَا تَعَبُّدًا عِنْدَمَا أَصَابَهُ الْمَرَضُ، فَلَمَّا نَزَلَتِ التَّوْرَةُ حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ ذلك على بني إسرائيل، مع أمورٍ أخرى عقوبةً لهم، فقد قال ﷻ: ﴿فِطْلِمِ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [النساء: 160]، ومما زيد في التحريم عليهم ما ذكره الله ﷻ في سورة الأنعام، وقال عنه: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ يَبْغِيهِمْ﴾ [الأنعام: 146]، ومن ذلك ما نصَّ عليه كتابهم - إن لم يكن مما حُرِّفوه - ففي سفر اللاويين مما ذكروه من المحرمات:

(4:11) إِلَّا هَذِهِ فَلَا تَأْكُلُوهَا مِمَّا يَجْتَرُّ وَمِمَّا يَشُقُّ الظِّلْفَ: الْجَمَلُ؛ لَأَنَّهُ يَجْتَرُّ لِكِنَّهُ لَا يَشُقُّ ظِلْفًا، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ.

(5:11) وَالْوَبَرُ؛ لَأَنَّهُ يَجْتَرُّ لِكِنَّهُ لَا يَشُقُّ ظِلْفًا، فَهُوَ نَجِسٌ لَكُمْ.

وكل ذلك يمثل بينةً للنبي ﷺ؛ لأنه يحدثهم عن تفاصيل دقيقة عندهم، وهو الأمي الذي لم يدرس كتاباً قط.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿فَاتَّوُوا بِالتَّوْرَةِ فَآتَلُّوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾

هذه قاعدة عظيمة في الحوار المنطقي العقلاني الهادئ، فيطلب من المدعي الإتيان بالبرهان على ما ادَّعى وقال، ويطلب من المنكر الإتيان بالبرهان أو الحلف.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿فَاتُوا بِالَّتُورَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٩٣]

تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْيَهُودَ نَازَعُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَزَعَمُوا أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ، فَأَمَرَهُمْ أَنْ يُحْضِرُوا التَّوْرَةَ تَدْلِيلًا مِنْهُمْ عَلَى مَا يَقُولُونَ، وَالْأَمْرُ هُنَا لِلتَّعْجِيزِ، إِذْ قَدْ عَلِمَ أَنََّّهُمْ لَا يَأْتُونَ بِهَا، أَيُّ: فَاتُوا بِالتَّوْرَةِ الَّتِي تَدُلُّ عَلَى أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَانَ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ.

بَصِيرَةٌ

٧

﴿فَاتُوا بِالَّتُورَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [٩٣]

يَحَاوِلُ مَتَعَصِبُو الْيَهُودِ دَائِمًا أَنْ يَكُونُوا فِي مَوْقِفِ الْهَجُومِ عَلَى الْإِسْلَامِ لِيُغَطُّوا عَوَارِئَهُمُ الْفَاضِحَ وَجَرَائِمَهُمْ فِي حَقِّ الْبَشَرِيَّةِ، وَلِلْأَسَفِ فَإِنَّ النَّصَارَى الصَّهَابِيَّةَ يَصْبِحُونَ مَجْرَدَ أَدَوَاتٍ مَتَعَصِبَةٍ لَهُمْ فِي هَذَا، وَذَلِكَ لِلتَّشْكِيكِ فِي صِحَّةِ الرِّسَالَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَيُظْهِرُ أَنَّهُ لَمَّا سَمِعَ الْيَهُودُ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ [آل عمران: 84] رُبَّمَا احْتَجَوْا، فَقَالُوا: كَيْفَ تَكُونُ عَلَىٰ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ مَعَ أَنَّكَ تَأْكُلُ لُحُومَ الْإِبِلِ، وَذَلِكَ مُحَرَّمٌ فِي التَّوْرَةِ؟ فَجَعَلُوا هَذَا الْكَلَامَ شُهْمَةً طَاعِنَةً فِي صِحَّةِ نُبُوَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى الْآيَاتِ: [93-94].

بَصِيرَةٌ

٨

جَعَلَ اللَّهُ رَجْلَكَ شُهْمَةً بَيْنَهُ لِلنَّبِيِّ ﷺ

وَبَيَّنَ أَنَّ مَا يَأْكُلُهُ النَّبِيُّ ﷺ كَانَ حِلًّا لِإِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، إِلَّا أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ حَرَّمَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِسَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، وَبَقِيَتْ تِلْكَ الْحُرْمَةُ فِي أَوْلَادِهِ فَانْكَرَ الْيَهُودُ ذَلِكَ، فَأَمَرَهُمُ الرَّسُولُ ﷺ بِإِحْضَارِ التَّوْرَةِ، وَطَالَبَهُمْ بِأَنْ يَسْتَخْرِجُوا مِنْهَا آيَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّ لُحُومَ الْإِبِلِ وَالْبَهَائِمِ كَانَتْ مُحَرَّمَةً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَعَجَزُوا، وَافْتَضَحُوا. (تفسير الرازي 8/ 291).

عَظْمَةُ هَذِهِ الْبَيِّنَةِ

فمجرد قولها يكفي لإذعان المعاندين، ولكنهم أصرّوا على عنادهم مما يجعل جريمة المحرفين بعد إظهار هذه البينة من أعظم الجرائم، ولذا قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: 94]، أي: ظهرت حقيقة الأمر، فلماذا لا تتبعون الإسلام؟ إن عدم اتباعكم لدين إبراهيم والأنبياء ﷺ يعني أنكم تفترون على الله الكذب، ومن فعل ذلك فأولئك هم الظالمون.

﴿فَمَنْ أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [آل عمران: 94]

الإفتراء: تقطيع الكلام، وإعادة صنعه على هيئة حسنة أمام الآخرين، فيعلم صاحبه أن ما يفعله كذب حقير أعاد تجميعه في شكل جميل مثير، والمفترون يسببون الظلم لأنفسهم وللعالم، فيشيعون الظلم في الأرض بدلاً من العدل، والباطل بدلاً من الحق، والأكاذيب بدلاً من الصدق، فتئن الأرض من ظلمهم.

البينة
الثانية

اتباع ملة إبراهيم عليه وعلى أنبياء الله الصلاة والسلام، فالمسيح وموسى وإسرائيل كلهم يرجعون إلى ملة إبراهيم، ولذا ينبغي أن نتبعها جميعاً

وببصرنا بهذه البينة قوله -جل مجده-: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ ﴿٩٥﴾

[آل عمران: 95] وفيها 5 بصائر:

بَصِيرَةٌ
١

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾

فقد أظهر أن المحرفين من أهل الكتاب هم الكاذبون، فاطمئن بما أوحى ﷻ إليك.

بَصِيرَةٌ
٢

﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ بدأ الله تعالى الآية بهذا:

لأن هذه البينة العظيمة لا يعرفها إلا خواص أهل الكتاب فضلاً عن نبي أمي، فعند ذلك يتيقن المرء من المصدرية الإلهية للوحي، ولذا نصح الصادقون من أحبار اليهود وقسس النصارى زيد بن عمرو في حديثه المشهور عندما أراد أن يتهود أو يتنصر، نصحوه بعدم ذلك، وأن يكون على ملة إبراهيم ﷺ.

بَصِيرَةٌ
٣

﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾

الفاء تبصرنا بتفريع الأمر باتباع ملة إبراهيم ﷺ على وجود اليقين الواثق بصدق الله ﷻ فيما قاله، خصوصاً بعد أن أظهر كذب المحرفين من أهل الكتاب.

بَصِيرَةٌ
٤

﴿حَنِيفًا﴾ هذه الكلمة تصف حالاً ثابتاً ملازمًا لإبراهيم ﷺ

وتعني: مستقيماً، فتبصرنا أنه ﷻ كان مستقيماً لا مغلطاً ولا مُحَرِّفاً، فمن أين أتى المشركون واليهود والنصارى ودعاة ما يسمى بالديانة الإبراهيمية بالأكاذيب التي يقولونها؟!

تبصرنا بالرد على المشركين وعلى أهل الكتاب الذين ربما قالوا: هل تريدون أن نكون حنفاء كالمشركين الذين في مكة، فبين الله ﷻ أن المشركين ليسوا على ملة إبراهيم، فهو ما كان من المشركين، ولذا لما أخرج المسلمون التماثيل التي صورها المشركون لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام وهما يستقسمان بالأزلام داخل

الكعبة قال النبي ﷺ: «قَاتَلَهُمُ اللَّهُ، أَمَا وَاللَّهِ قَدْ عَلِمُوا أَنَّهُمَا لَمْ يَسْتَقْسِمَا بِهَا قَطُّ» (البخاري: 1601).

تقديس أهم مقدسات إبراهيم عليه السلام، وفي مقدمتها أول بيت وضع للناس، وهو البيت
الموضوع في بكة [آل عمران: 96-97]

آيات هذا القسم:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ
ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾



ما المناسبة والاتصال بين هذه البيئة وما قبلها؟

الجواب:

ذكر الله عليه السلام في البيئة السابقة ملة إبراهيم عليه السلام، وهي الملة التي تدعي طوائف أهل الكتاب الثلاث
(المسلمون واليهود والنصارى) أنهم يتبعونها، فالسؤال الذي ينبغي أن نوجهه لليهود والنصارى هنا: أين
المكان المقدس المركزي لإبراهيم عليه السلام، والذي جعله الله تعالى أول بيت لعبادته في الأرض؟ فذكر الله تعالى له
يعني تقديم بيئة جديدة عظيمة للنبي صلى الله عليه وسلم، وذكر الله تعالى له 6 مزايا:

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾

المزية

هو أول بيت وضع أي: أسس وأُثبت للناس من الله تعالى ليكون علماً للإيمان والهدى، والمعنى:
أول بيت وضع لهداية الناس ومصالحهم، ولم يضعه الناس من عند أنفسهم، فالأولية
تاريخية، والأمر الإلهي بذلك كان قديماً جداً، إذ قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ» (البخاري 4313).
وأتى بلفظ ما لم يُسمَّ فاعله ﴿وُضِعَ﴾: لأن الله تعالى أمر بوضعه، والملائكة أو البشر أسهموا
في بنائه.

المزية ٢

اسم مكان هذا البيت بينةً مستقلةً عظيمة

إذ قال الله ﷻ: ﴿لَلَّذِي بِبَكَّةَ﴾، ولكننا نسأل: لماذا جاء هذا الاسم (بكة) دون مكة؟

الجواب:

ذهب العلامة المحقق ابن عاشور رحمه الله

إلى أن «بكة اسم بمعنى البلدة وضعه إبراهيم عليه السلام علماً على المكان الذي عينه لسكنى ولده بينة أن يكون بلداً، فيكون أصله من اللغة الكلدانية، لغة إبراهيم عليه السلام، ألا ترى أنهم سموها مدينة (بعلبك) أي بلد بعل وهو معبود الكلدانيين، ومن إعجاز القرآن اختيار هذا اللفظ عند ذكر كونه أول بيت، فلاحظ أيضاً الاسم الأول، ويؤيد ذلك قوله: ﴿رَبِّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ﴾ [النمل: 91]، وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: 35]."

(التحرير والتنوير 13/4).

بصيرة ٢

لكننا نريد أن نبرز مفاجأة تتعلق بهذا الاسم

وهي أن هذا الاسم ما زال كما هو ضمن كتب اليهود والنصارى المقدسة، ففي المزمور 84:

- 6. As they go through the Valley of Baca they make it a place of springs; the early rain also covers it with pools.

وقد ترجم إلى العربية بترجمات أريد بها البعد عن الإبقاء على الاسم العلم، ومن أقرب الترجمات لها مع ما بعدها:

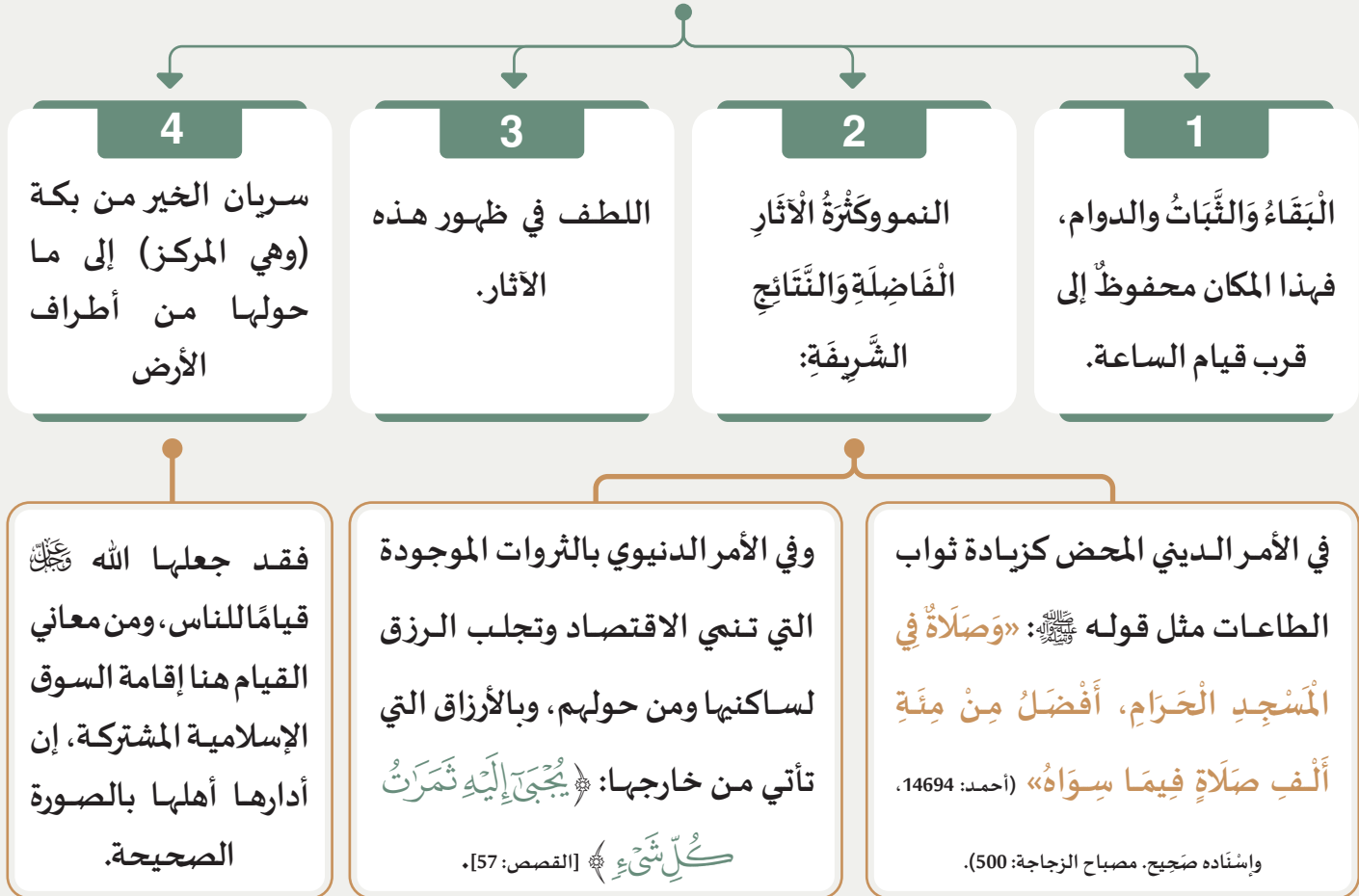
6. إذا مروا بوادي بكعة جعلوا منه ينابيع وبأكورة الأمطار تغمرهم بالبركات.

7. من ذروة إلى ذروة يسرون حتى يتجلى الله لهم في صهيون.

ووجود كلمة «صهيون» تقرب من أن تكون تحريفاً، وهي عندهم «القدس الجديدة»، وعند التأمل فالمكان الوحيد الذي ينطلق فيه الناس من ذروة جبل إلى ذروة جبل يسبحون هو الصفا والمروة، وبين المشاعر المقدسة، والينابيع المباركة الباقية أمام العالم كله هي ينابيع زمزم. فانظر لهذه البيئة الضخمة الكافية لتكون حجة على اليهود والنصارى.

المزية ٣

﴿مُبَارَكًا﴾، والبركة كلمة جميلة تجمع أربعة أمور:



المزية ٤

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾

فبكة تحمل راية الهدى العالمية، فتهدى العالم من جميع النواحي بأن تدلهم على ربهم ﷻ، وعلى صحة رسالة نبيهم الخاتم ﷺ الذي جاء على ملة إبراهيم ﷺ، وتدلهم على تآلف النبيين الذين حجوا جميعًا إلى هذا البيت الذي جدده إبراهيم ﷺ، وهنا نعلم السبب الذي لأجله عرف (مالكولم إكس) الإسلام الحق عندما حج البيت الحرام، فقد كان يعتقد الضلالات لما أسلم في أمريكا، ولما حج عرف الدين الحق.

ترى إلى متى يصرف قادة اليهود والنصارى على إضلال أتباعهم وإبعادهم عن هذا الهدى العظيم؟.

وَهَذَا الْمَفَادُ مِنْ تَفْرِيعِ قَوْلِهِ: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [آل عمران: 95]»، (التحرير والتنوير 14/4).

(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ) وذكر من الآيات ثلاثاً:

﴿مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾:

وهو الحجر الذي وضع إبراهيم عليه السلام قدمه عليه، وفيه آيات كثيرة:

- فَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ **عَجَلًا** كَالطِّينِ حَتَّى غَاصَ فِيهِ قَدَمُ إِبْرَاهِيمَ **عَلَيْهِ السَّلَامُ**.

وَمَا رَفَعَ إِبْرَاهِيمُ ^{عَلَيْهِ السَّلَامُ} قَدَمَهُ عَنْهُ خَلَقَ فِيهِ الصَّلَابَةَ الْحَجَرِيَّةَ مَرَّةً أُخْرَى

وَالْأَنَّهُ بَعْضُ الصَّخْرَةِ دُونَ بَعْضِ آيَةٍ، لِأَنَّهُ لَأَنْ مِنَ الصَّخْرَةِ مَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ فَقَطُّ.

وَأَبْقَاهُ دُونَ سَائِرِ آيَاتِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ آيَةً خَاصَّةً لِإِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَحَفْظُهُ أُلُوفَ السِّنِينَ مَعَ كَثْرَةِ أَعْدَائِهِ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُلْحِدِينَ وَالْفَاسِقِينَ.

(تفسير الرازي 8 / 297-301).

وقال النبي ﷺ: «الرُّكْنُ والمَقَامُ يَاقُوتَانِ مِنْ يَاقُوتِ الْجَنَّةِ طَمَسَ اللَّهُ نُورَهُمَا، وَلَوْ لَا ذَلِكَ لَأَضَاءَتَا مَا

بين المشرق والمغرب». (الحاكم: 1677، وحسنه لغيره الأرنؤؤوط، وصححه لغيره الألباني. ينظر: "الإحسان": 3710، "صحيح الترغيب": (1147).

وَأِبْرَاهِيمَ أَبُو الْأَنْبِيَاءِ عليه السلام، ولا يوجد للأنبياء قبله ولا بعده آثار واضحة تمثل معجزات حسية إلا

معجزة زمزم، فلماذا يحرم قيادات اليهود والنصارى أنفسهم وأتباعهم من رؤية هذه الآيات،

وإسلام وجوههم لرب الأرض والسموات؟!

الآية الثانية:

﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾

فيجد الأمن النفسي والأمن العام، ووصل الأمان فيه أن اجتمع الجاهليون فضلاً عن المسلمين على تعظيمه، وتأمين نباته ووحشه، ولكننا قد نرى أحياناً عدم أمان الداخل كما حدث في إجرام القرامطة الذين اعتدوا على الحجاج، فما معنى الأمن في الآية؟

الجواب:

١ أن يعمل المسلمون على جعل هذا الحرم المبارك مكان أمان لا يُعتدى فيه على أحد، فتكون الآية إخباراً بمعنى الطلب، أي: آمِنُوا مَنْ دَخَلَهُ، ووصل الأمر بتأمين من دخله حتى اختلف أهل العلم في مَنْ وَجَبَ الْقِصَاصُ عَلَيْهِ خَارِجَ الْحَرَمِ، فَالْتَجَأَ إِلَى الْحَرَمِ فَهَلْ يُسْتَوْفَى مِنْهُ الْقِصَاصُ؟ قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: يُسْتَوْفَى، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: لَا يُسْتَوْفَى، بَلْ يُمْنَعُ مِنْهُ الطَّعَامُ وَالشَّرَابُ وَالْبَيْعُ وَالشِّرَاءُ وَالْكَلَامُ حَتَّى يَخْرُجَ. (ينظر: الخلافات للبيهقي 570/6).

٢ ما حدث في فتح مكة من إباحة القتال فيه فهو استثناء. قال النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَمَهَا اللَّهُ، وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، لَا يَحِلُّ لِأَمْرٍ يُؤْمَنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا، وَلَا يَعْصِدَ بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ فِيهَا، فَقُولُوا لَهُ: إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا الْيَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالْأَمْسِ، وَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ». (البخاري: 104).

٣ يمنع حمل السلاح في مكة، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدِكُمْ أَنْ يَحْمِلَ بِمَكَّةَ السِّلَاحَ». (مسلم: 1356).

الآية الثالثة

تكررُ الحج إليه على صورة سنوية

ذات تنظيم عبادي لا يوجد له مثيل في الأرض، وبصرنا بهذا قوله ﷺ:

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾

بَصِيرَةٌ

١

هذه الآية جاءت في صورة الذي يجب على الناس نحو البيت

فبعد أن يَن الله ﷻ فضائل البيت أوجب عليهم الحج، أي: يجب على الناس حج البيت أي: قَصْدَه وزيارته على هيئة مخصوصة مبتغين وجه الله ﷻ.

بَصِيرَةٌ

٢

الاستطاعة هي القدرة على الوصول إليه

ولها شروط، من أهمها: وجود الزاد والراحلة والأمن، وصِحَّةُ البدن، وإمكانُ المُشْيِ إِذَا لَمْ يَجِدْ مَا يَرْكَبُهُ.

بَصِيرَةٌ

٣

هذه الآية نزلت في سورة آل عمران التي نزلت في أواخر السنة الثالثة أو في أوائل السنة الرابعة

فإن نزلت هذه الآية معها فيحتمل أن يكون ذلك وقت فرض الحج، وصار المسلمون مُخَصَّرِينَ عن أداء الفريضة حتى فتحت مكة، وإن كان الأمر كذلك فتكون الآية بانية لخطة مستقبلية عظيمة للمسلمين لاسترداد مكة عاصمة الإيمان والسعادة في الكون. ويحتمل أن يكون نزول هذه الآية قد تأخر إلى وقت فرض الحج وهو بعد الحديبية أو بعد فتح مكة على خلاف بين العلماء. (ينظر: روضة الطالبين 206/10).

جعل الله ﷻ البيت لمصالح العباد

المزية

٦

وببصرنا بذلك المفهوم من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ٩٧.

بَصِيرَةٌ

١

المعنى: وضع الله ﷻ البيت، وسَمَّاهُ بَيْتَهُ

لألحاجته إلى بيت بل ليجمع أهل الأرض المؤمنين، فيتعارفون ويتبادلون المنافع، ويكون لهم بمثابة المؤتمر الجامع، فمن كفر بتشريع الله، فالله ﷻ غني عن العالمين، فلماذا يفرط الناس في مصالحهم؟

الحج يجدد النفس والعواطف الفردية والمشاعر

بَصِيرَةٌ

٢

كما يغذي في الجماعات الأواصر، فيجد الإنسان روحه ونفسه التائهة بما جعل الله ﷻ من بركة في مكانه وزمانه، فكيف ضيَّع أهل الكتاب هذه الفريضة وأخفوها ولعبوا بشريعتهم، وهم إن حجوا فلمصلحة أنفسهم، وإلا ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ٩٧، ولذا قال سعيد بن جبيرة رحمه الله: "لَوْ مَاتَ جَارِلِي وَلَمْ يَحْجْ وَهُوَ مُوسِرٌ، لَمْ أَصَلِّ عَلَيْهِ". (السنة، للخلال: 1575، وإسناده صحيح).

مفهوم الآية يرعب من يترك الحج

بَصِيرَةٌ

٣

إذ يدور حكمه بين أن يكون كفرًا إن جحد الحكم، أو هو مؤدٍ إلى الكفر، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "مَنْ أَطَاقَ الْحَجَّ، وَلَمْ يَحْجْ حَتَّى مَاتَ، فَأَقْسِمُوا عَلَيْهِ أَنَّهُ مَاتَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا". (حلية الأولياء 252/9).

جسراتصال: عرفنا أن القسم الثاني من المحور الرابع يكشف لنا عن بينات واقعية تدل على صدق النبي الخاتم ﷺ، وتجعل المؤمنين أكثر ثقة بدينهم، وأكثر قوة في عرضه على غيرهم، وتدفعهم لإعداد خطة الفلاح لتبليغ الخير الذي عندهم للعالم [آل عمران: 93- 97]، وفيه ثلاث بينات كبرى، فما القسم الثالث؟

جسراتصال

الجواب:

القسم الثالث

قرر الله ﷻ لنا فيه خطة الفلاح التي تقتضي إعلام أهل الكتاب بأبكر كارثتين أو مصيبتين يرتكبهما الفاسدون منهم أمام بينات الرسول ﷺ [آل عمران: 98-99]:

الكارثة الأولى

يكفرون بآيات الله، ويبصرونا بهذا قوله تعالى:

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: 98]

وفيها 7 بصائر:



ما المناسبة والاتصال بين هذا القسم وما قبله؟



الجواب:

يَن الله تعالى بعض البينات الواقعية للنبي ﷺ مما يدل على أنه حق، وأن الإسلام هودينه ودين جميع أنبيائه ﷺ، وهذه البينات تتعلق بأهل الكتاب بصورة مباشرة، وبعضها يتعلق بالعالم، كان ينبغي لأهل الكتاب أن يكونوا قدوة للعالمين في اتباع الرسول الخاتم الأمين المبين ﷺ، ولكن كثيراً منهم أبوا بسبب قياداتهم الدينية والسياسية الفاسدة، وهنا يكشف الله ﷻ جرائم الفريق المتسلط الذي يوجّه حياتهم عبر الإعلام أو القوة.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾: كلمة ﴿قُلْ﴾ مع حرف النداء (يا)



تبصرونا بأن ندير حواراً مع أهل الكتاب، ولكن يجب أن يصدر الحوار عن القرآن والسنة، فنتمكن من أدواته، ونقرر مضمونه معهم، ولذا وجهنا الله ﷻ بقوله: ﴿قُلْ يَا﴾.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

تبصرنا بأن لا ننتظر أن يطلبوا منا ذلك الحوار، بل نُقدِّم عليه بعد التمكن من أدواته، وما أقبح من يُقدِّم على الحوار وهو لا يعرف أصول فكره التي ينطلق منها! أعني الكتاب والسنة.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

تبصرنا أن نخاطبهم جميعاً قياداتٍ وجماهيرٍ، ولا يشترط في النداء أو الحوار أن يكونوا جميعاً، بل المقصود أن يعمهم خطابنا، ولو فصلنا بينهم حسب الأنفع لهم، وسبب النداء أو الحوار أن ندلهم على الخير، ونقيم الحجة عليهم، ونكشف أن التيار الفاسد منهم هو الذي يقترب هذه المصائب، فيحجب الحقيقة عن الجماهير.

بَصِيرَةٌ

٥

﴿لَمْ﴾

تبصرنا بأن السؤال الهادئ المختلط بالإنكار أو التعجيب هو أقوى وسائل الحوار والإثبات للمصائب التي يرتكها الفاسدون منهم، وعلى الرغم من عظم المصائب التي يقتربونها إلا أن الخطاب لهم يتخذ طابع الحوار الحكيم الذي ينبغي أن يتحكم فيه المتكلم بطريقة طرحه للأسئلة، ولا تنافي بين الهدوء في الحوار، والاستنكار التوبيخي في هذه المواضع.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

تبصرنا بأن نواجههم بصراحة ودون مdahنة حول الكفر بآيات الله ﷻ، والسؤال للإنكار عليهم والتعجيب من حالهم، والإشفاق عساهم يعودون، فكيف يرون آيات الله ﷻ، ويسمعونها ثم يكفرون؟! وهل يفعل ذلك عاقل؟!

﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨)

جملة حالية تبين لنا الرقابة الإلهية العظيمة لهم وللمصائب التي يُحْدِثُونَهَا، واستنكار جريمة الكفر لا يعني أن يعاقبهم الله ﷻ عليها في الدنيا بالضرورة، فنذكرهم بأن الله ﷻ يعلم أعمالهم، فيشاهدها، وربما يعاقبهم عليها في الدنيا، مع تحقق العقوبة في الآخرة، فالْوَأُولُ لِلْحَالِ، وَالْمَعْنَى: لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ الَّتِي دَلَّتْكُمْ عَلَىٰ صِدْقِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَالْحَالُ أَنَّ اللَّهَ شَهِيدٌ عَلَىٰ أَعْمَالِكُمْ وَمُجَازِيكُمْ عَلَيْهَا. (تفسير الرازي 307/8).

الكارثة الثانية

يصدون عن سبيل الله، ويحرصون بشدة على أن تظهر سبيله أمام العالم بشكل أعوج، ويبصرنا بذلك قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ ۚ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩) [آل عمران: 99]، وفيها 10 بصائر:

كرر في الآيتين قوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾

لِأَنَّ الْمُقْصُودَ التَّوْبِيخُ عَلَى الْطَفِ الْوُجُوهِ، وَتَكْرِيرُ هَذَا الْخِطَابِ اللَّطِيفِ أَقْرَبُ إِلَى التَّلَطُّفِ فِي صَرْفِهِمْ عَنْ طَرِيقَتِهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْإِضْلَالِ، وَأَدْلُ عَلَى النَّصِيحِ لَهُمْ فِي الدِّينِ وَالْإِشْفَاقِ. (تفسير الرازي 308/8).

﴿لِمَ تَصُدُّونَ﴾

السؤال للإنكار والتشنيع عليهم والتنديد بجريمتهم، إلا أنه امتزج بالتلطف بهم، والإشفاق عليهم، وتعجب أن الله ﷻ يتلطف في خطابهم مع أنهم يحاربونه أشد الحرب، فهم يصدون العالم عن سبيله.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الصد: يعني المنع والدفع الشديد

فمعنى تصدون: تُكُونُونَ حواجز تمنعكم وتمنع غيركم من المؤمنين من الوصول إلى سبيل أي طريق واضح يرضاه الله ﷻ ويحببه، ويوصل العالم إلى سعادته في الدنيا والآخرة، وسبيل الله هو الإسلام، فالإسلام لأجلهم، وإظهار التنظيمات التفصيلية لسبيل الله لأن الله ﷻ يحتاجهم، بل لأنه أعظم الطرق التي تضمن سعادتهم، ومثال ذلك: أن يضع صانع الهاتف دليلاً تفصيلياً لكيفية الاستفادة من جهازه، فتصور كيف تكون الفوضى والبؤس لو أصر الذي وقع عنده الجهاز على تعمد مخالفة تلك التعليمات؟!

بَصِيرَةٌ

٤

كيف يصدون عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ؟

الجواب: هناك مظاهر كثيرة للصد عن سبيل الله ﷻ، ومنها:



بَصِيرَةٌ

٣

﴿تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الصد: يعني المنع والدفع الشديد

فمعنى تصدون: تُكُونُونَ حواجز تمنعكم وتمنع غيركم من المؤمنين من الوصول إلى سبيل أي طريق واضح يرضاه الله ﷻ ويحببه، ويوصل العالم إلى سعادته في الدنيا والآخرة، وسبيل الله هو الإسلام، فالإسلام لأجلهم، وإظهار التنظيمات التفصيلية لسبيل الله لأن الله ﷻ يحتاجهم، بل لأنه أعظم الطرق التي تضمن سعادتهم، ومثال ذلك: أن يضع صانع الهاتف دليلاً تفصيلياً لكيفية الاستفادة من جهازه، فتصور كيف تكون الفوضى والبؤس لو أصر الذي وقع عنده الجهاز على تعمد مخالفة تلك التعليمات؟!

بَصِيرَةٌ

٤

كيف يصدون عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ؟

الجواب: هناك مظاهر كثيرة للصد عن سبيل الله ﷻ، ومنها:



بَصِيرَةٌ

٣

﴿تَصَدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الصد: يعني المنع والدفع الشديد

فمعنى تصدون: تُكَوِّنُونَ حواجز تمنعكم وتمنع غيركم من المؤمنين من الوصول إلى سبيل أي طريق واضح يرضاه الله ﷻ ويحببه، ويوصل العالم إلى سعادته في الدنيا والآخرة، وسبيل الله هو الإسلام، فالإسلام لأجلهم، وإظهار التنظيمات التفصيلية لسبيل الله لأن الله ﷻ يحتاجهم، بل لأنه أعظم الطرق التي تضمن سعادتهم، ومثال ذلك: أن يضع صانع الهاتف دليلاً تفصيلياً لكيفية الاستفادة من جهازه، فتصور كيف تكون الفوضى والبؤس لو أصر الذي وقع عنده الجهاز على تعمد مخالفة تلك التعليمات؟!

بَصِيرَةٌ

٤

كيف يصدون عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ؟

الجواب: هناك مظاهر كثيرة للصد عن سبيل الله ﷻ، ومنها:



بَصِيرَةٌ

﴿تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾

تبصرنا بحرصهم الشديد على صد المؤمنين عن تطبيق تشريعات رب العالمين، ويصدون المؤمنين عن سبيل الله ﷻ بالشبه والعنف والحصار والاستهزاء والإجرام، والصد عن سبيل الله ﷻ مطلقاً قبيحٌ بل من أكبر المصائب والجرائم التي يقتربها الإنسان في حق غيره، فكيف إذا كان هذا الصد لمن اختار أن يؤمن مع أن الاستعراض المنافق للعالم اليوم يدور حول: حرية الاختيار، ومن مظاهر صد المؤمنين إلزام الأمم المتحدة بتشريعات (سيداو) التي تعمل على تدمير الأسرة، وبناء مفاهيم حيوانية جديدة لمصطلح الأسرة.

بَصِيرَةٌ

﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾ أي تطلبون طلباً قوياً أن تكون سبيل الله ﷻ عوجاً

بإظهارها أمام العالم ذات عوج، فيكرهها الناس، ويخافون منها، فتصر القيادات الفاسدة لأهل الكتاب على إدارة العالم بطريقة تصد الناس عن سبيل الله ﷻ، وتظهرها عوجاً إما بأفعالهم مثل تشريع (الفيديو) العنصري الظالم، وإما بجعل الشرائع الظالمة المفسدة تشريعات قانونية مثل تشريع الفاحشة والشذوذ والربا، وأن تكون الثروات دولةً بين الأغنياء، وسرقة ثروات الشعوب الطيبة المستضعفة، ويؤدي ذلك إلى تدمير كل خيرٍ وحقٍّ وجمالٍ في الحياة.

بَصِيرَةٌ

﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾

هذه الجملة الحالية تصف واقعهم بصورة تجعلهم يخلون من أنفسهم، فهي تبصرنا بخمسة معاني:

١. أَنْتُمْ شُهَدَاءُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ الصَّدُّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ، ولا يجوز أن تظهروا ذات عوج.

٢. أَنْتُمْ شُهَدَاءُ أَنَّ فِي كِتَابِكُمُ الْمُقَدَّسَةِ مَا يَبِينُ أَنَّ دِينَ اللَّهِ الَّذِي لَا يَقْبَلُ غَيْرُهُ هُوَ الْإِسْلَامُ.

٣ أَنْتُمْ شُهَدَاءُ عَلَى ظُهُورِ الْبَيِّنَاتِ عَلَى نُبُوتِهِ ﷺ.

٤ وأنتم شهداء أنه لا يجوز التعامل الأعوج المجرم مع العالمين؛ إذ تؤيدون الظالمين والقتلة والمجرمين والمعتدين، ثم تتباكون على ضياع العدالة عن فئة ما للتمويه على إجرامكم وجنونكم في الصد عن الخير الذي عند المسلمين.

٥ يفسر الزمخشري رَحِمَهُ اللهُ معنى هذه الجملة بصورة مختلفة؛ إذ يرى أن معناها: أنتم -يا قادة أهل الكتاب- شهداء بين أهل دينكم، عدولٌ يثقون بأقوالكم، ويستشهدونكم في عظام أمورهم. (الكشاف 1/392).

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ ٩٩ تهديد لهم

والمراد: لا تظنوا أن تمكين الله ﷻ لكم يعني أنه غافلٌ عن جرائمكم، ولكنها طبيعة الاختبار الدنيوي، فلا يمكنكم مهما فعلتم أن تفروا من العقاب العادل إذا بقيتم تصرون على هذا الإجرام.

بَصِيرَةٌ ٨



لماذا التركيز على هاتين الجريمتين، أو الكارتين في الخطاب الثقافي والسياسي الإعلامي المسلم لأهل الكتاب؟

بَصِيرَةٌ ٩

الجواب:

لأنَّ أهل الباطل إما أن يكونوا ضالين فقط بأن يختاروا الكفر على الإيمان، وهذه هي الكارثة الأولى التي قال الله ﷻ عنها: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: 98]، وإما أن يكونوا ضالين مضلين، وهذه الكارثة الثانية ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبَغُّونَهَا عَوْجًا﴾ [آل عمران: 99].



لِمَ خَصَّ اللَّهُ ﷻ أَهْلَ الْكِتَابِ بِالدِّكْرِ دُونَ غَيْرِهِمْ؟

بَصِيرَةٌ ١٠

الجواب:

لأنَّ الله تعالى يعلم أن العالم سيكون تبعاً لهم في الجملة في السياسات التي يسلكونها، فما أبشع ما جعلوا أنفسهم فيه أئمة للضلال والإضلال العالميين!

عرفنا أن القسم الثالث قرر الله ﷻ لنا فيه أن خطة الفلاح تقتضي إعلام أهل



الكتاب بأكبر كارثتين أو مصيبتين يرتكبهما الفاسدون منهم أمام بينات الرسول ﷺ

جسراتصال

[آل عمران: 98-99] ، فما القسم الرابع؟

الجواب:

القسم الرابع

يفصل الله -جلّ مجده- لنا فيه الأسس الأربعة عشر لخطة الفلاح الاستراتيجية

الشاملة التي تهدف إلى دعوة العالم إلى الخير [آل عمران: 100-109]

آيات هذا القسم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۝ وَيَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۚ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۚ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ۝ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۚ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ۝ وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ أُسْوِدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝ تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ ۝ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ۝﴾

[آل عمران: 100-109].

الأساس
الأول

الحذر من طاعة الفريق المجرم المتطرف من أهل الكتاب: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ۝﴾.

الأساس
الثاني

بثُّ النور القرآني والعلم النبوي بتعليم الكتاب والسنة أعظم ما يعصم من الوقوع في أعمال الكفر: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ۝﴾.

الأساس
الثالث

الاعتصام بالله ﷻ بالتلذذ في عبادته، والتوكل عليه أمام أحداث الحياة الخاصة والعالمية: ﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝﴾.

الأساس
الرابع

الارتقاء من مرتبة العبادة إلى مرتبة التقوى الحقيقية، والتقوى تمثل القوة الإيمانية العظمى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ۝﴾ [آل عمران: 102].

الأساس
الخامس

الثبات على الإسلام حتى الممات، ونبصرنا به قوله: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ۝﴾ [آل عمران: 102].

الأساس
السادس

يجب الاتحاد بين المسلمين على منهج الله تعالى، ويحرم التفرق: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ۝﴾.

الأساس
السابع

الذكر لنعمتي الأخوة والإيمان: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ ...﴾ [آل عمران: 103].

الأساس
الثامن

تعاون الأمة جميعًا على تفرغ أمةٍ منهم تدعو العالم إلى الخير ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ...﴾ [آل عمران: 104].

الأساس
التاسع

يجب ألا تكون الدعوة إلى الخير سبيلًا للتمزق الديني والتشطي السياسي والمجتمعي: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا...﴾ [آل عمران: 105].

الأساس
العاشر

استشعار أهمية تطبيق البينات مهما كانت آلامها الدنيوية، وأعظم أهمية تتمثل في الفوز الأكبر في الآخرة: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ...﴾ [آل عمران: 104-107].

الأساس
الحادي
عشر

ربط الخطة الاستراتيجية لدعوة العالم إلى الخير بالحق ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: 108].

الأساس
الثاني
عشر

ربط الخطة الاستراتيجية بأن الله ﷻ يريد العدل والخير للعالم، ولا يعذبهم إلا عندما يُصِرُّون على شقائهم ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 108].

الأساس
الثالث
عشر

ربط خطة دعوة العالم إلى الخير باستشعار إحاطة الله ﷻ بالكون ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 109].

الأساس
الرابع
عشر

مصير الأمور كلها إليه: ﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [آل عمران: 109] فهو الآخر سبحانه.

الأساس الأول

الحذر من طاعة الفريق المجرم المتطرف من أهل الكتاب

وببصرنا بذلك قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ۝١٠٠﴾ [آل عمران: 100]، وفيه 6 بصائر:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

بَصِيرَةٌ ١

نداء جذاب جميل يحمل تشريفًا وتكليفًا، ويلقي بمسؤولية ثقيلة على المؤمنين، وناداهم الله ﷻ مباشرة هنا دون أن يأمر النبي ﷺ بقوله: ﴿قُل﴾؛ ليبين درجة أهمية هذا الأمر الموجه لهم، فهو أعلى شأنًا، وأخطر رتبة من النداء المبدوء بقوله: ﴿قُل﴾ مثل النداء الأمر بغض البصر الذي بدأه الله ﷻ بقوله: ﴿قُل﴾ في قول الله عز وجل: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ﴾ [النور: 30].

﴿إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾

بَصِيرَةٌ ٢

تبصرنا بـ(العدل) القرآني، إذ إن هذه الكلمة ﴿فَرِيقًا﴾ تدلُّ على أن هناك فريقًا آخر ليس عنده هذه الأهداف السياسية الدينية المزدوجة التي بها تُدمر البلدان، ويُصدُّ عن الإيمان، ويؤذى بنو الإنسان، وهذه الكلمة ﴿فَرِيقًا﴾ كأنها تحثنا بصورة غير مباشرة بمفهومها أن نتواصل مع الفريق الآخر لنلتقي معه في المشتركات، ونتخذ ذلك فرصة لدعوته إلى الخير بأنواعه.

﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ۝١٠٠﴾

بَصِيرَةٌ ٣

تبصرنا بعلامة الفريق المجرم، فهو حريصٌ على إبعاد المسلمين عن دينهم ليصلوا بهم أخيرًا إلى تكفيرهم أي إلى إيقاع المسلمين في أعمال الكفر، وأنشطته.

3

تبصرنا بواحدٍ من أهم أسباب الوقوع في الكفر، وهو طاعة الفريق المجرم من أهل الكتاب، ومن العجيب أن الذين يوقعونهم في الكفر يُرهبونهم من التكفير أي يخيفونهم من وصف الكافر بالكفر بُغية التلاعب بالدين، وتسهيل الكفر على المسلمين.

e

نقف على خطوات هذا الفريق المجرم الضال المضل من أهل الكتاب:



۳



T

التفريق بين المسلمين باسم التراب (الجنسية)، واسم الجنس (العنصرية)

وكما يحدث ذلك اليوم فقد حدث في عهد النبي ﷺ

فَعَنْ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ شَاسَ بْنَ قَيْسٍ الْيَهُودِيَّ غَاظَهُ مَا رَأَى مِنْ اجْتِمَاعِ الْأَوْسِ وَالخَزْرَجِ بَعْدَ تَفْرِقِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: قَدْ اجْتَمَعَ مَلَأُ بَنِي قَيْلَةَ بِهَذِهِ الْبِلَادِ، وَاللَّهِ مَا لَنَا مَعَهُمْ إِذَا اجْتَمَعَ مَلَوْهُمْ بِهَا مِنْ قَرَارٍ، فَأَمَرَفَتِي شَأْبًا مِنَ الْيَهُودِ أَنْ يَذْكُرَهُمْ بِحُرُوبِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ -أَيَ فَذَكَرَهُمْ بِبَطُولَاتِهِمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ضِدَّ بَعْضِهِمْ، وَبِتَفَاخُرِهِمْ بِنَسَبِهِمْ وَجَنَسِيَّتِهِمْ الْخَاصَّةِ مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عُمُومَةٍ- فَكَادُوا يِقَاتِلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَخَرَجَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ! اللَّهُ اللَّهُ، أَتَدْعُونَ بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ أَظْهَرِكُمْ بَعْدَ إِذْ هَدَاكُمُ اللَّهُ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَكْرَمَكُمُ بِهِ. فَالْقُوا السِّلَاحَ، وَبَكُوا وَتَعَانَقُوا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ هَذِهِ الْآيَاتِ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ إِلَى آخِرِ الْآيَتَيْنِ السَّابِقَتَيْنِ [آل عمران: 98- 99]، وَأَنْزَلَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 100- 103]. (تفسير الطبري: 55/6، وإسناده مرسل وفيه راوٍ مهم. الإصابة: 306/1).

الأساس
الثاني

بثُّ النور القرآني والعلم النبوي بتعليم الكتاب والسنة أعظمُ ما يعصم من
الوقوع في أعمال الكفر

وببصرنا بذلك قوله تعالى:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ وفيه 6 بصائر:

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾

بَصِيرَةٌ
١

تبصرنا بالتحذير من الوقوع في الكفر، فالواو تصل ما بعدها بما قبلها، والسؤال للتعجيب والاستنكار والتباعد، أي سيكون عجيباً ومستنكراً أن تقعوا في الكفر مع تعلّمكم آيات الله ﷻ، ووجود رسوله ﷺ بينكم؟ أم عقولٌ أن تكفروا وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله؟! والآلة الإعلامية الجبارة التي يمتلكها الفريق المفسد من أهل الكتاب أوقعت المسلمين المعاصرين في عكس ما تبصرهم به هذه الآية، فإعلام المفسدين يشجع على الوقوع في الكفر.

﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾

بَصِيرَةٌ
٢

تبصرنا بأن أعظم ما يعصم من الوقوع في أحابيل الكفر عاصمان:

وَالثَّانِي

أَحَدُهُمَا

كَوْنُ الرَّسُولِ ﷺ موجوداً بين المسلمين.

تِلَاوَةُ كِتَابِ اللَّهِ، وهو باقٍ بحمد الله تعالى، وقد حفظ الله ﷻ لنا آياته عبر الجهود المدهشة لأمة الإسلام في تناقل القرآن والمحافظة على آياته كلماتٍ وأداء إلى اليوم.



هل قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ يعطي العذر لمن يكفر بعد وفاة النبي ﷺ؛ لأنه غير موجود كما في الآية؟



الجواب:

لا عذر في الوقوع في الكفر بحجة أن النبي ﷺ مات؛ وذلك لأنه سنته وتعاليمه باعتباره رسولاً موجودة، وهنا نفهم سروضف النبي ﷺ في الآية بأنه رسول، وليس ذكره باسمه الشخصي، وقد حفظ الله ﷻ لنا السنة على أيدي عظماء المسلمين وقياداتهم ابتداء من أبي بكر والصحابه (رضي الله عنهم) ومروراً بجهاذة علماء الحديث، وفي ذلك رد على فتنة القرآنيين الذين يزعمون الاكتفاء بالقرآن دون الأخذ بسنة النبي ﷺ.

﴿وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾



تبصرنا بأهم عمادٍ للأمن القومي الإسلامي، وهو نشر الكتاب والسنة في جميع المراحل التعليمية والتثقيفية، وجعل تعليمهما برامج توعوية وإرشادية لعامة فئات المجتمع.

الآية تبصرنا بالنعمة العظمى بوجود الرسول ﷺ في الأمة



وفاز الصحابة (رضي الله عنهم) بذلك، فاستبان فضلهم وجلالهم، وفهمنا بهذا معنى قوله ﷺ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي؛ فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ». (البخاري: 3673).

﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾



تبصرنا بأهمية وجود القيادات التي تعمل بآيات الله ﷻ البينات، وتفسرها قولاً وعملاً وفق سيرة خير البريات ﷺ.

الأساس الثالث

الاعتصام بالله ﷻ بالتلذذ في عبادته، والتوكل عليه أمام أحداث الحياة الخاصة والعالمية وليس العوج في فهمها وإدارتها

وببصرنا بذلك قوله تعالى:

﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ وفيه 5 بصائر:

بَصِيرَةٌ ١

ذكر الله ﷻ نتيجة طاعة الفريق المفسد من أهل الكتاب في الأساس الأول

فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾، فهذا وعيدٌ شديد، وذكر في الأساس الثاني أن تعلم الكتاب والسنة أعظم عاصم من الوقوع في الكفر، وفي هذا الأساس وعد من يعتصم به بالهداية أي بالوصول إلى القرارات الصحيحة.

بَصِيرَةٌ ٢

يظهر جمال كلمة ﴿يَعْصِمْ﴾

إذ تصور لنا هذه الكلمة تمسك العبد الصالح بربه ﷻ تمسكًا ملازمًا قويًا، مع شعورٍ بحمايته ومنعه من الأخطار، فيحفظكم الله ﷻ بالفضائل، ويحميكم من الرذائل، كعصام القرية، وهو الخيط الذي يربط به فمها ليستمسك الماء داخلها.

بَصِيرَةٌ ٣

﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾

أي: يدلّه الله ﷻ، ويهئ له من الظروف ما يصل به إلى التوفيق، ويسير به على طريق واضح بينٍ موصل لتحقيق الأهداف العظيمة، فيمكنه حينها أن يصيب في قراراته التي يتخذها في الحياة.

بَصِيرَةٌ ٤

﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ أتى بالفعل الماضي (هُدِيَ)

ولم يقل: ومن يعتصم يهتدي، ولعل ذلك ليخبرنا الله ﷻ أن المعتصم به اتخذ القرار الصائب قطعًا، مهما ظهر له وجود خسارات أو قلق دنيوي في النتيجة بعد اعتصامه بالله ﷻ، فالاعتصام بالله ﷻ في ذاته هداية.

بَصِيرَةٌ

﴿وَمَنْ يَعْصِمْ بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾

تطمئن لمن يأتي بعد النبي ﷺ ولم يدرك صحبته: أنه وإن فاتته ما يثبته على الحق من رؤية النبي ﷺ وأنوار رسالته إلا أن العاصم أولاً وآخرًا وابتداءً و انتهاءً هو الله الحي القيوم، فليعتصم بجنابه وليلذ ببابه. ففي الاعتصام بحبل الله طوق نجاتك، ومصدر قوتك، وسبيل عزتك، فمن اعتصم بالله هُدي إلى الصراط المستقيم، وثبت على الحق القويم، وبهذا لن يتغلب عليه الشيطان الرجيم، ولن يضرك كيدُ جبار أثيم:

إذا كنتَ بالله مُستعصمًا فماذا يضريك كيدُ العبيد

ومن ترك الاعتصام بحبل مولاه هلك بل تجمعت عليه المصائب، وحلت بساحته الفواقِر، وفي هذا يقول

البروفيسور الحبريوسف نورالدائم:

إِنَّ الْمَصِيبَةَ لَا مَصِيبَةَ مِثْلَهَا عَبْدٌ بِحَبْلِ اللَّهِ لَمْ يَسْتَعْصِمِ

الأساس
الرابع

الارتقاء من مرتبة العبادة إلى مرتبة التقوى الحقيقية، والتقوى تمثل القوة الإيمانية العظمى، وهي أهم أسس النجاح الإنساني

وببصرنا بذلك قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ وفيه 3 بصائر:

بَصِيرَةٌ

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ تبصرنا بالوصول إلى أكمل درجات التقوى

وأوضحها وفسر ابن مسعود رضي الله عنه التقوى، فقال: أن يُطاع فلا يُعصى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يذكر فلا ينسى. (السنن الكبرى للنسائي: 11847)، وسليمان الله عليه السلام لنا خمس صفات لتحقيق التقوى في الآية (133)، وسيظهر لنا فيها أنه ليس من شرط التقوى ألا يقع الإنسان في المعصية إن استغفروا لم يصر.

بَصِيرَةٌ

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ تبصرنا بأن يجتهد كل إنسان في الترقى في مراتب التقوى

ليصل إلى أعلى الآفاق، وتحلق به الأشواق، على أن ذلك يبقى في حدود الاستطاعة البشرية.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ تشديد على المسلم ليقوم جميع مقتضيات التقوى

فَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ اشْتَدَّ عَلَى الْقَوْمِ الْعَمَلُ، فَقَامُوا حَتَّى وَرِمَتْ عَرَا قِيَمُهُمْ وَتَقَرَّحَتْ جِبَاهُهُمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ رَجُلًا تَخْفِيفًا عَلَى الْمُسْلِمِينَ: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: 16]، فَنَسَخَتِ الْآيَةُ الْأُولَى». (تفسير ابن أبي حاتم: 3911)، ومعنى النسخ هنا التخصيص، أي: ينبغي أن تتقوا الله عَلَيْكُمْ حق تقاته ولكن في حدود ما استطعتم.

الثبات على الإسلام حتى الممات

الأساس
الخامس

وببصرنا بذلك قوله تعالى:

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وفيه 3 بصائر:

﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

بَصِيرَةٌ

١

تبصرنا بوجوب الثبات على الإسلام حتى الموت؛ وهذا يعني أن يكون الإنسان يقظاً في كل لحظاته؛ لأن الموت غيبٌ لا يدري إنسان متى يدركه، فمن أراد ألا يموت إلا مسلماً فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلماً، وأن يكون في كل لحظة مسلماً.

ليس المراد افعلوا ما بدا لكم من أعمال السوء لكن لا تموتن إلا على الإسلام

بَصِيرَةٌ

٢

إذ الآية تدل على التخويف من أن يرتد الإنسان أو يرتكب المعاصي، أو يطيع المعتدين من أهل الكتاب وغيرهم من الكافرين ثم يأتيه الموت فجأة، وهو على تلك الحال.

التقوى مقصدٌ بحد ذاتها

بَصِيرَةٌ

٣

إلا أن تقديمها على الأمر بالثبات على الإسلام حتى الممات يبصرنا بأنها السبيل الوحيد لضمان تحقق ذلك الثبات، ونيل حسن الختام على الإسلام.

الأساس
السادس

يجب الاتحاد بين المسلمين على منهج الله تعالى، ويحرم التفرق

وببصرنا بذلك قوله تعالى:

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وفيه 4 بصائر:

ذكر الله ﷻ في الآية السابقة القوة الإيمانية

بَصِيرَةٌ
١

بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، وهنا ذكر القوة الثانية، وهي قوة الاتحاد بين المؤمنين، وبهاتين القوتين تستطيع الأمة القيام بأعباء أمانة دعوة العالم إلى الخير.

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ﴾ حبل الله هو كتابه

بَصِيرَةٌ
٢

والاعتصام به يعني التمسك القوي بتعلمه وتعليمه، وتلاوته، وفهمه، والعمل به، والاعتصام يعني الحماية من الأخطار، ووصف القرآن بالحبل مع الأمر بالاعتصام به يَصَوِّرُ الإنسان يمشي في طريق خطر لا يحميه من الانزلاق فيه إلا ملازمته لكتاب الله ﷻ، وقد قال النبي ﷺ: «وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ [حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ] فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»،

وذكر الثاني وهو التوصية بأهل بيته ﷺ " (مسلم: 2408، أحمد: 11104).

يجب على المسلمين الجمع بين هذين الأمرين

بَصِيرَةٌ
٣

الاعتصام بحبل الله ﷻ، وأن يكونوا جميعاً في ذلك دون تفرق، ويُقَدَّمُ الأول عند التعارض، فلا بد من كلمة التوحيد وتوحيد الكلمة.



لماذا جمع بين الاعتصام بحبل الله، وبين قوله: ﴿جَمِيعًا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا﴾؟

الجواب:

كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ تدل على أمرين: أن يكون الجميع معتصمين، ويحتمل أيضًا أن يكونوا مجتمعين على الاعتصام، ولأن المعنى الثاني محتمل، نهام الله ﷻ عن التفرق، ويعني:



فإن التعصب سببه اتباع الهوى لا الهدى، فقد قال أنصاري مرة: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ مَهَاجِرِي: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ؟ دَعْوَاهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ». (البخاري: 3330).

ومن أسوأ ما جرى على المسلمين هذه الأيام مما لا يُصَدَّق: أن تعيد خرائط سايكس بيكو الجاهلية القبلية القديمة، وقد قال النبي ﷺ: «أَبْغَضُ النَّاسِ إِلَى اللَّهِ ثَلَاثَةٌ -وَمِنْهُمْ- وَمُبْتَغٍ فِي الْإِسْلَامِ سُنَّةُ الْجَاهِلِيَّةِ». (البخاري: 6882).

الأساس
السابع

الذكر لنعمتي الأخوة والإيمان

وببصرنا به قوله: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾ [آل عمران: 103]، وهذا الذكر يقتضي نشر التذكير بتسخير أجهزة التوجيه والتثقيف والإعلام لإظهار هاتين النعمتين، وفيه 8 بصائر:

بَصِيرَةٌ
١

بصرتنا الآية بالنعمتين بترتيبٍ فريدٍ معاكسٍ لما سبق

فبدأت بالنعمة الدنيوية نعمة الاتحاد: ﴿إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾، والأخ مشتق من التَّوَجَّى وَهُوَ الطَّلَبُ، فَالْأَخُ مَقْصِدُهُ مَقْصِدُ أَخِيهِ، وَأَخُوهُ يَتَوَخَاهُ لِنَصْرَتِهِ وَتَأْيِيدِهِ.

بَصِيرَةٌ
٢

ثم بصرتنا الآية بالنعمة الأخروية

وهي نتيجة الإيمان، -وإن كانت فوائدها الدنيوية لا تحصى لكن الله ﷻ ذكّرنا بالفائدة الأخروية الأعظم- فقال: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾، وَشَفَا الشَّيْءُ: حَرْفُهُ وَحْدُهُ، كَأَنَّهُمْ قَدْ بَلَّغُوا حَرَفَ الْهَاطِيَةِ الَّتِي تُوْدِي إِلَى النَّارِ، وَأَوْشَكُوا أَنْ يَقَعُوا فِيهَا بِكُفْرِهِمْ، فَأَنْقَذَهُمُ اللَّهُ مِنْهَا بِمَا أَوْدَعَ فِي قُلُوبِهِمْ مِنَ الْإِيمَانِ.

بَصِيرَةٌ
٣

من أهم فوائد التذكر المستفادة من قوله ﴿وَأَذْكُرُوا﴾

الشعور بالعظمة الهائلة لنعمتي الأخوة والإيمان؛ لأنه "لَا يَدْرِيكَ الْفَرْقُ بَيْنَ الْحَالَتَيْنِ إِلَّا مَنْ كَانُوا فِي السُّوْأَى فَأَصْبَحُوا فِي الْحُسْنَى" «التحرير والتنوير (34/4)» أي من ذاق سوء التفرق فانتقل إلى نعيم الاتحاد.



لماذا قال: ﴿فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾ ولم يقل "فألف بينكم"؟

بَصِيرَةٌ
٤

الجواب:

لأنه يصور القلوب كأنها حزمة مؤلفة متألفة بيد الله ﷻ، وعلى عهده وميثاقه.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]

بَصِيرَةٌ
٥

هذه مادة حكمة معظمة لما سبق، فأعظم وسائل بقاء هاتين النعمتين (الاتحاد والإيمان): البيان والإعلان، والمعنى: كذلك البيان البليغ الذي أخبرناكم به من مكر الفريق المفسد من أهل الكتاب بكم، ورغبتهم في تمزيق أخوتكم، وإعادتكم إلى الكفر، فكذلك يبين الله ﷻ لكم آياته لعلكم بهذا البيان تُرشدون وتُدلون على القرارات الصائبة والأفعال السديدة، وتوفقون لها. (انظر: تفسير الطبري 7/ 89).

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: 103]

بَصِيرَةٌ
٦

تبصرنا بأن نوجه وسائل التعليم والتثقيف والإعلام نحو بيان آيات الله ﷻ، وفي ذلك بيان لنعمة التعليم والإرشاد، وإيضاح الحقائق حتى تكمل عقولهم، ويتبينوا ما فيه صلاحهم. (التحرير والتنوير 4/ 36).

استيقظوا أيها المسلمون، فالله هو الذي يبين لكم الآيات

بَصِيرَةٌ
٧

وليس الفريق المفسد من أهل الكتاب، استفيقوا! فالله هو الذي يدلكم على هداكم، وطرق نوركم وسعادتكم وتقدمكم وصوابية قراراتكم.

﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾

بَصِيرَةٌ
٨

تبصرنا بأن من علامات الاهتداء وحدة قلوب الأمة واجتماعها على الحق والدين، وبقدر ما يفوتها شيء من الاتحاد والاعتصام بهذا الأصل يفوتها قدر من الاهتداء الذي يحقق النجاح والفلاح الدنيوي والأخروي.

الأساس
السابع

تعاون الأمة جميعاً على تفرغ أمةٍ منهم تدعو العالم إلى الخير

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

[آل عمران: 104]، وفيه 7 بصائر:



﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ هل هذه الرسالة العالمية الهادفة لنشر الخير في الأرض خاصة ببعض الأمة، فتكون (من) تبعية؟



الجواب:

(من) هنا جنسية التوجيه تبعية التنفيذ، فإذا قلنا هي جنسية كما قرره الزجاج والسمعاني والبغوي وابن عطية رحمهم الله يكون المعنى: ولتكونوا كلُّكم أمةً تدعون إلى الخير، وإذا قلنا هي تبعية المعنى: يجب أن تتعاونوا بمجموعكم على إيجاد أمة منكم تنوب عنكم في أهم رسالة تؤديها لنفسها وللعالم بنشر هذه الفرائض الثلاث:



﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ الْخَيْرُ كُلُّ نَفْعٍ حَقِيقِيٍّ مُسْتَحْسِنٍ حَالًا وَمَالًا تَمِيلُ لَهُ النُّفُوسُ وَتَحِبُّهُ



كالعدل والفضل، وأعظم الخير الذي يوصل السعادة إلى العالم الدعوة إلى الإسلام، فهو الذي يحقق الصالح العام، ولكن الدعوة إلى الخير لا تقتصر على الدعوة إلى الإسلام، فإذا لم يُسلم المدعو، فينبغي أن ندعوه إلى بقية أنواع الخير.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

هذه الفرائض الثلاث ترجع إلى الخير؛ لأن الدعوة إلى الخير جنس تحتها نوعان:

وَالثَّانِي

التَّزْغِيبُ فِي تَرْكِ مَا لَا يَنْبَغِي، وَهُوَ النَّهْيُ
عَنِ الْمُنْكَرِ أَيْ الَّذِي تَنْكَرُهُ النُّفُوسُ مِنْ
الْقَبَائِحِ الْفَرْدِيَةِ وَالْجَمَاعِيَةِ

أَحَدُهُمَا

التَّزْغِيبُ فِي فِعْلٍ مَا يَنْبَغِي، وَهُوَ الْأَمْرُ
بِالْمَعْرُوفِ أَيْ: الَّذِي يَعْرِفُ النَّاسُ حُسْنَهُ.

فذكرهما الله ﷻ بعد الدعوة إلى الخير مع أنهما يدخلان فيه للمبالغة في البيان للناس. (تفسير الرازي: 8/ 315).

بَصِيرَةٌ

٤

يترب على القيام بهذه الفرائض أن يُصِرَّ أهل الشر على محاربة الداعين إلى الخير

ولذا ينبغي للداعي إلى الخير أن يُعد نفسه بأمرين:

وَالثَّانِي

يجب أن يستعين دعاة الخير بالله ﷻ في
مواجهة الداعين إلى الشر

أَحَدُهُمَا

الأمر بالمعروف بالأسلوب المعروف حسنه،
والنهي عن المنكر، ولكن بلا منكر في الأسلوب.

ولذا روي أن عثمان رضي الله عنه كان يقرأها -على سبيل التفسير-: "﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وَيَسْتَعِينُونَ اللَّهَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ" (المصاحف: 128، وذكر المحقق (د. محب الدين) أن إسناده شديد الضعف).

بَصِيرَةٌ

٥

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

تبصرنا بنتيجة إيجاد أمة تقوم بالفرائض الثلاث، وهي: حدوث الفلاح الفردي والجماعي لكل الأمة، والفلاح يقتضي التقدم والأمن والازدهار والعزة والمكانة الدولية على مستوى العالم، كما يقتضي السكينة والطمأنينة والفاعلية والسعادة على المستوى الفردي.

بَصِيرَةٌ

٦

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

تبصرنا بأن إشاعة الخير والمعروف والدعوة إليه مقدم على النهي عن المنكرات؛ إذ الأولى مطلوبة لذاتها، والثانية منهي عنها لانشغال النفوس بها عن المعروفات.

بَصِيرَةٌ

٧

﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

تقديم الأمر بالمعروفات على النهي عن المنكرات لغة القرآن ومعهوده، وتبصرنا بأن جنس الأمر بالمعروفات أشرف من جنس النهي عن المنكرات.

يجب ألا تكون الدعوة إلى الخير سبباً للتمزق الديني والتشظي السياسي والمجتمعي

[آل عمران: 105]، وفيه 4 بصائر:

أي "فلا تتفرقوا، يا معشر المؤمنين في دينكم تفرق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي لهم" (تفسير الطبري: 92/7).

المعجزات التي تبين أن
الإسلام حق.

الكلمات القرآنية، فهي آيات بينات متلوة.

التوجيهات الإلهية الواضحة،
ومنها التوجيه بعدم التفرق.

وإذا كانت البيانات موجودة؛ فإن أهم أسباب التفرق عدم تطبيق البيانات الناهية عن طاعة الفريق المفسد من أهل الكتاب، والأمر بالذلة على المؤمنين، والبيانات التي جعلت المسلمين أمة واحدة.

إذ سيذوقون عذاباً أي: يسلب عذوبة حياتهم، فيجعلها شقية، ووصف هذا العذاب بأنه ﴿عَظِيمٌ﴾ أي: ممتلئ بما فيه من أنواع العقوبات في الدنيا والآخرة، أي وصل في شدته الغاية العظمى.

حتى منع جنوده من صد الجيوش المعادية مع إمكانه أن يفعل ذلك، وكانت النتيجة المؤسفة بداية دمار العثمانيين وزوال دولة تتار القرم معاً. (ينظر: الموسوعة التاريخية 206/8).

الأساس
العاشر

استشعار أهمية تطبيق البينات مهما كانت آلامها الدنيوية، وأعظم أهمية تتمثل
في الفوز الأكبر في الآخرة [آل عمران 106-107]

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا
كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَمِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾﴾

فذكر الله ﷻ ٤ أمور ليعين لنا أهمية تطبيق البينات في حياتنا:

النتيجة المتوقعة لتطبيق الدعوة إلى الخير هي الفلاح الدنيوي والأخروي

﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: 104]

الأمر
الأول

والنتيجة المتوقعة لترك الدعوة إلى الخير حلول عذابٍ عظيم ﴿وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ [آل عمران: 105].

أسوأ نوعٍ من العذاب العظيم سيحقق يوم القيامة، وهنا جاء قوله:

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾

الأمر
الثاني

والمعنى: وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه قوم فتنبسط وتتلأأ بهجةً وسروراً، قد أشرقت بالنور،
وفاضت بالبشر، فابيضت من البشر والبشاشة، وتسود وجوه آخرين؛ لأنها كمدت من الحزن، واغبرت من
الغم، واسودت من الكآبة.

إقامة العدل بتقريع وتوبيخ من اسودت وجوههم ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ أي:
فيقول الله ﷻ لهم، أو تقول لهم الملائكة

الأمر
الثالث

أو يقول لهم النبي ﷺ إنكاراً وتبكيئاً، أو يقول لهم أصحابهم تعجباً:

﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران: 106].



لكن مَنْ هؤلاء المسوّدّة وجوهمهم المقصودون بالتقريع والتبكيّات؟



الجواب:

يدخل فيهم أصناف:

الصف الثالث

أهل الأهواء والشهوات من أمة
النبي ﷺ ممن لعب بدينه، فلم
يدع إلى الخير، بل حاربه

الصف الثاني

قال الحسن رحمه الله: هم المنافقون،
كانوا أعطوا كلمة الإيمان بألسنتهم،
وأنكروها بقلوبهم وأعمالهم.

(تفسير الطبري 95/7).

الصف الأول

كفار أهل الكتاب الذين أصروا
على الكفر بعد مجيء البينات.

فذكر رسول الله ﷺ حركتهم الفاسقة بعده، فقال: «فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ غَيَّرَ بَعْدِي» (البخاري: 6584)، وقال
مالك بن أنس رحمه الله: «مَا آيَةٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَشَدَّ عَلَى أَهْلِ الْإِخْتِلَافِ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿يَوْمَ
تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، وحتى لا يوقعها بعض المتأولين في الكافرين فقط قال مالك رحمه الله: "إِنَّمَا هَذِهِ
لِأَهْلِ الْقِبْلَةِ". (الاعتصام 75/1).



لماذا قال ﷺ: ﴿فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ [آل عمران: 106]؟



الجواب:

قال الرازي رحمه الله: "لَوْلَمْ يُذَكَّرْ ذَلِكَ لَكَانَ الْوَعِيدُ مُخْتَصًّا بِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ، فَلَمَّا ذُكِرَ هَذَا ثَبَتَ
الْوَعِيدُ لِمَنْ كَفَرَ بَعْدَ إِيمَانِهِ، وَلَمَنْ كَانَ كَافِرًا أَصْلًا". (تفسير الرازي 320/8).

الأمر
الرابع

التشويق للمآب الحسن الدائم لمن طبق البيّنات، فدعا إلى الخير
(وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) [آل عمران: 107].

بَصِيرَةٌ



المُرَادُ بِرَحْمَةِ اللَّهِ الْجَنَّةُ، فلماذا ذكر رحمة الله ﷻ بدلاً من ذكر الجنة؟

الجواب:

ليشير إلى أَنَّ الْعَبْدَ -وَأِنْ كَثُرَتْ طَاعَتُهُ- فَإِنَّهُ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ ﷻ (تفسير الرازي 320/8)، فالعمل القليل يورث الأجر الكثير الجزيل، فَيَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ نسألك أن تثبتنا على طاعتك، وتجعل مصيرنا إلى رحمتك ودار كرامتك.

بَصِيرَةٌ

فَصَلَّ اللَّهُ ﷻ الْوَاقِعَ الْآخِرِيَّ، ولم يبين ما يحدث للداعين إلى الخير في الدنيا تفصيلاً

بل اكتفى بوصفهم بالفلاح؛ لأن كثيراً من المخدوعين ربما ترك تطبيق البيّنات خوفاً من العواقب الدنيوية، ولم يركز على العواقب الآخروية، فيخطئ خطأ فادحاً في ترتيب الأولويات واتخاذ القرارات، وتمييز درجات الموازنات في فقه المصالح والمفاسد، كما قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "والرسالة ضرورية في إصلاح العبد في معاشه ومعاده... فإنه بين حركتين: حركة يجلب بها ما ينفعه، وحركة يدفع بها ما يضره، والشرع هو النور الذي يبين ما ينفعه وما يضره، والشرع نور الله ﷻ في أرضه، وعدله بين عباده، وحصنه الذي من دخله كان آمناً". (الفتاوى 99/19).

بَصِيرَةٌ

ذكر الله ﷻ ذلك عن طريق اللف والنشر المعكوس

فذكر ابيضاض الوجوه أولاً، ثم اسودادها ثانياً، ثم فصل سبب الاسوداد ثالثاً، ثم عاد فبين مصير الذين ابيضت وجوههم رابعاً، وكل ذلك لزيادة التشويق لبيضاض الوجوه، وزيادة التخويف من اسودادها يوم القيامة.

بَصِيرَةٌ
٤

ذكر تفاصيل اليوم الآخرون تفاصيل الفلاح الديني

يبصرنا بمركزية الإيمان باليوم الآخر والجزاء، ومقاصديته في الطرح القرآني، وتوظيفه في إصلاح أحوال الناس في الدنيا، وحملهم بمقتضاه على الوحدة والاعتصام بكتاب الله ﷻ ووحيه الجامع إياهم على ما تستقيم به مجامعهم وتستقر.

ربط الخطة الاستراتيجية لدعوة العالم إلى الخير بالحق

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ﴾ [آل عمران: 108]

الأساس
الحادي
عشر

والحق مبدأ عام يقيم العدل في العالم، فهو الشيء الثابت الذي يستحقه كل شيء بحسبه.

﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: 108]، ربط الخطة الاستراتيجية بأن الله ﷻ

يريد العدل والخير للعالم، ولا يعذبهم إلا عندما يصرُّون على شقائهم.

الأساس
الثاني
عشر

والظلم كما قال الراغب رحمه الله: "وَضَعُ الشَّيْءِ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ الْمُخْتَصِّ بِهِ إِمَّا بِنُقْصَانٍ، أَوْ بِزِيَادَةٍ، وَإِمَّا بِعُدُولٍ عَنْ وَقْتِهِ أَوْ مَكَانِهِ" (المفردات، ص 537)، فأحكام الله وتشريعاته سبحانه أنزلها لمصلحة العباد وهدايتهم لسعادة الدنيا والآخرة. (تفسير المنار 4/46).

بَصِيرَةٌ

لماذا كان ذكر عدم إرادة الله ﷻ أن يظلم العالم هنا حسناً ومناسياً؟

الجواب:

لأنه تقدَّم ذكر العقوبة الشديدة، وهو سبحانه وتعالى أكرم الأكرمين، فكأنه تعالى يبين سبب هذه العقوبات مع رحمته الواسعة، وأنها بسبب أفعالهم المنكرة، فإن مصالح العالم لا تستقيم إلا بتهديد المجرمين المعتدين. (تفسير الرازي 8/321).

الأساس
الثالث
عشر

ربط خطة دعوة العالم إلى الخير باستشعار إحاطة الله ﷻ بالكون

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: 109]

فلا ملاذ لمن خالف أمره، ولا منجى لمن عاداه، ولا ضياع لمن أحسن في عمله، ولا حاجة له لظلمكم، فأنتم لا تخرجون عن ملكه، فاتبعوا أوامرهم لتكونوا جزءاً منسجماً مع بقية ملكه الذي لا يخرج عنه.

الأساس
الرابع
عشر

مصير الأمور كلها إليه، وببصرنا بذلك قوله:

﴿وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ﴾ [آل عمران: 109] فهو الآخر سبحانه

ولهذا معنيان:

2

عند النزاع في الأفكار لا بد من إرجاع الأمور إلى الله ﷻ أي: إلى كتابه وتشريعاته.

1

الحساب الحقيقي إنما يكون في الآخرة

فليذكر ذلك الظالمون المجرمون، والمبتلون من المسلمين الذين تطاول عليهم البلاء واشتدت بهم الأرزاء، وليذكر ذلك كل المسلمين، فإذا شعروا حينها لا يفجعهم تأخر العقوبة التي يصيب الله ﷻ بها الظالمين.

بَصِيرَةٌ

لماذا كرر اسم الْجَلَالَةِ (الله) أربع مرّاتٍ في الآيتين في أربع جمل؟

الجواب:

لِلْقَصْدِ إِلَى أَنْ تَكُونَ كُلُّ جُمْلَةٍ مُسْتَقْلِلَةً الدَّلَالَةَ بِنَفْسِهَا، غَيْرُ مُتَوَقِّفَةٍ عَلَى غَيْرِهَا، حَتَّى تَصْلُحَ لِأَنْ يُتِمَّلَ بِهَا، وَتَسْتَحْضِرَهَا النُّفُوسُ، وَتَحْفَظَهَا الْأَسْمَاعُ. (التحرير والتنوير 4/ 48).

عرفنا أن القسم الرابع فصل الله -جلّ مجده- لنا فيه الأسس الأربعة عشر لخطة



الفلاح الاستراتيجية الشاملة التي تهدف إلى دعوة العالم إلى الخير [آل عمران

100-109]، فما القسم الخامس؟

جسراتصال

الجواب:

القسم الخامس

يقرر لنا أن الأمة الإسلامية مصدر سعادة العالمين، فهي خير أمة أخرجت للناس، ويبصرنا بهذا القسم هذه الآية المركزية: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ويمكنك أن تجعل هذه الآية مركز السورة كلها، فهي آية محورية عظيمة تقدم لنا كلماتها ١٦ بصيرة

وظيفة الأمة المسلمة في العالم أن يكونوا أنفع الناس للناس

بصيرة

فقد قال الله ﷻ لهم: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، والمعنى -كما يقول ابن كثير رحمه الله-: "أَنْتُمْ خَيْرُ الْأُمَّةِ، وَأَنْفَعُ النَّاسِ لِلنَّاسِ". (تفسير ابن كثير 2/93).



ما وجه الجمال والقوة في كلمة ﴿كُنْتُمْ﴾، فلم يقل: ﴿أَنْتُمْ﴾؟

بصيرة

الجواب:

1 ﴿كان﴾ تدل في هذا السياق على الحقيقة القديمة، فالمعنى كما أشار إليه النحاس رحمه الله في (إعراب القرآن 1/175): أَنْكُمْ كُنْتُمْ فِي اللَّوْحِ الْمُحْفُوظِ خَيْرَ أُمَّةٍ، فهو إخبار بما سبق في علم الله ﷻ.

2 ويظهر لي أن (كان) تنزع من بني إسرائيل ادعاء تفضيلهم المطلق، فالذين فضلهم الله ﷻ هم الأمة المسلمة القائمة بالشروط الثلاثة المذكورة هنا منذ أن خلق الله آدم ﷺ.

3

﴿ كُنْتُمْ فِي الْأُمَمِ الَّذِينَ كَانُوا قَبْلَكُمْ مَذْكُورِينَ بِأَنْتُمْ خَيْرُ أُمَّةٍ، وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ﴾ [الفتح: 29]، فَشَدَّتْهُمْ عَلَى الْكُفَّارِ: أَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهْيُهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ. (تفسير الرازي 8 / 324).

4

أول من يدخل في هذا الوصف المبارك أَصْحَابُ الرَّسُولِ ﷺ، ثم من طبق الشروط الثلاثة ممن جاء بعدهم، ﴿ كُنْتُمْ ﴾ هنا لا تدل على الانقطاع و انتهاء الخيرية، بل هي مرتبطة بشروطها فمتى حصلت الشروط بقيت الخيرية.

"هَذِهِ الْآيَةُ عَامَةٌ فِي جَمِيعِ الْأُمَمِ، كُلُّ قَرْنٍ بِحَسَبِهِ

بَصِيرَةٌ
٣

وَحَيْرُ قُرُونِهِمُ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ". (تفسير ابن كثير: 2/ 94)،
ويبشرنا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بجانب من جوانب المكافأة على هذه الخيرية، فيروي عن النبي ﷺ أنه قال: «أُعْطِيَتْ سَبْعِينَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ، وَجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، قُلُوبُهُمْ عَلَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، فَاسْتَزَدْتُ رَبِّي، ﷺ، فَرَادَنِي مَعَ كُلِّ وَاحِدٍ سَبْعِينَ أَلْفًا». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:
"فَرَأَيْتُ أَنَّ ذَلِكَ آتٍ عَلَى أَهْلِ الْقُرَى، وَمَصِيبٌ مِنْ حَافَاتِ الْبَوَادِي".

(أحمد: 21، وإسناده ضعيف، وذكر له الألباني شواهد صحيحة. الصحيحة: 1484).

كَلِمَةُ ﴿أُخْرِجَتْ﴾ تَبَصَّرْنَا بِالتَّدِيرِ الْإِلَهِيِّ الْخَفِيِّ الْحَفِيِّ

بَصِيرَةٌ
٤

الذي أخرج للعالم هذه الأمة لتقوم بدورها العظيم في إنقاذ العالم من واقعه الأليم، ومنحهم الخير العميم، وتبصرنا بالدور القيادي لهذه الأمة في العالم، فهي التي تقدم الخير للناس، وتمنع منهم الشر، فينبغي أن تعلمهم، وتمنعهم لا أن تتلقى منهم سخافات الجاهلية.

بَصِيرَةٌ

٥

هذه الآية شَرَفَتِ الأمة المسلمة تَشْرِيفًا عَظِيمًا، وفرضت على المسلمين في الأرض واجبًا ثَقِيلًا

وقد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ». فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا هُوَ؟ قَالَ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهْرًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ». (أحمد: 763 بإسناد حسن)، وقال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾: «أَنْتُمْ تُبْمُونُ

سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللَّهِ ﷻ». (الترمذي: 3001، وقال: حديث حسن).

بَصِيرَةٌ

٦

نقلت هذه الآية التفضيل الذي كان لبني إسرائيل إلى هذه الأمة بشروطه الثلاثة

ويبين مجاهد بن جبر رَحِمَهُ اللَّهُ هذا الانتقال للتفضيل، فيقول: "﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ على هذا الشرط: أن تأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر وتؤمنوا بالله، يقول لمن أنتم بين ظهرانيه، كقوله: ﴿وَلَقَدْ اخْتَرْتَهُمْ

عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الدخان: 32]. (تفسير الطبري 102/7).

بَصِيرَةٌ

٧

استحقت هذه الأمة الخيرية

لا بالانتساب والمجاملة، والادعاء والمحابة كما قالت اليهود والنصارى: ﴿مَنْ أَبْغَضَ اللَّهَ وَآجِبَتْهُ﴾

[المائدة: 18]، بل بالقيم الرسالية الثلاث التي جعلتها خير الناس للناس:

القيمة الرسالية (3)

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

القيمة الرسالية (2)

﴿وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

القيمة الرسالية (1)

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾

بَصِيرَةٌ

٨

إذا أراد أحد الدخول في الوصف والتكريم فليحقق شرط هذا الوسام الفخيم

ويؤكد النبي ﷺ هذا المعنى: إذ قام له رجل وهو على المنبر، فقال: يا رسول الله أي الناس خير؟

فقال ﷺ: «خَيْرُ النَّاسِ أَقْرَبُهُمْ وَأَتْقَاهُمْ وَأَمْرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَوْصَلُهُمْ لِلرَّحِمِ»

(أحمد: 27434 بإسناد ضعيف).

قَدَّمَ الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ الْمُنْكَرِ عَلَى الْإِيمَانِ بِاللَّهِ ﷻ؛ لِسَبْعَةِ أُمُورٍ:

1 لأنه بوجودهما يتم الدِّفاع عن الأمة والحماية لهُويِّتها، والأمر بالمعروف يعني: إشاعة أجمل الأخلاق والعادات في العالم، والنهي عن المنكر يعني: تحجيم لأرذل الآفات والموبقات في الدنيا.

2 هاتان القيمتان الرساليتان محمودتان عند المسلمين والكفار، ولذا قَدَّمَهُمَا اللَّهُ ﷻ على الإيمان به تعالى، فالأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر قسمان:

قسمٌ خاص بالمسلمين

أما الإيمان بالله فمسألة قناعة لا محل للإكراه فيها.

قسم مشترك بين جميع الأمم:

فينبغي أن يشيع في العالمين، ويجب أن يُلَزَمَ به كُلُّ الخلق.

3 وَقَدِّمًا تَعْرِيفًا بأهل الكتاب الذين عطَّلُوا هاتين الفريضتين حتى صار المعروف منكراً والمنكر معروفاً.

4 وَقَدِّمًا لَأَنَّ الْإِيمَانَ بِاللَّهِ تعالى هو الذي يحدد طبيعة المعروف الذي ينبغي الأمر به، وطبيعة المنكر الذي ينبغي النهي عنه، فقد يتوافق أهل زمانٍ على أن الفاحشة معروف، وعلى الرغم من ذلك فيجب رفض توأفهم؛ لأنه يضاد فطرتهم الحقيقية، والذي كشف لنا الفطرة الحقيقية هو الإيمان بالله ﷻ.

5 لأنه يترتب على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متاعب جمّة، فيأتي الإيمان ليهون الصعاب، ويجعل الأوجاع كالشَّهْدِ الرُّضَابِ "العسل".

6

قدم ذكر الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لأنهما مطلوبان، ولأنهما فضيلة لا تختلف فيها الأمم ولا الجماعات، فهما كالصدق والعدل والحق تتفق عليهما الأفهام، بل ولا يمكن أن يتحقق ببيان جماعة من غير تحققهما، وإلا كانت كالذئاب الضارية، أو كانت كالوحوش في الغابة.

7

الإيمان سياج الجماعة وحمايتها من أن تضل، وكأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو الذي يقوم به بناء الجماعة، والإيمان هو الذي يحميها ويسد خطاها، فذكر ما يقوم به البناء ثم ذكر ما يكون به ذلك البناء في دائرة الفضيلة والأخلاق الكريمة وهو الإيمان.

بَصِيرَةٌ

١٠

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

تمثل هاتان الفريضتان أساس حماية الأمة من شرور أنفسها وشرور العالم حولها، والعجيب أن تأتي أنظمة وجماعات يصادرون هاتين الركيزتين العظيمتين؛ بحجة أن السياسة تقتضي ذلك، فانظر لهذه الطاغوتية الجديدة، يصادرون الفريضتين؛ لأن شياطينهم يوحون إليهم، وأهواءهم الحزبية والسلطوية تملي عليهم، ثم يقولون: موازنات سياسية! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

بَصِيرَةٌ

١١

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

تبصرنا بأن التخيير والتفضيل في ميزان الله ﷻ نسبي إضافي، فبقدر قيام الأمة أو الجماعة أو الفرد بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ينال من الخيرية والأفضلية بحسبه.

بَصِيرَةٌ

١٢

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

الآية وإن جاءت على جهة الخبر، إلا أنه خبر بمعنى الأمر، وهو أبلغ في إيجاب الواجبات، والإلزام بها، والمعنى: مروا بالمعروف وانهاؤا عن المنكر لتستحقوا الخيرية.

بَصِيرَةٌ

١٣

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

اقتران عناصر هذه الثلاثية كفيل بتحقيق أهداف الخطة الاستراتيجية لإصلاح العالم، وببث الخير في أرجائه، ويمنع المعتدين من أن يقفوا سدًا منيعًا أمام نشر المسلمين الخير في العالم. فليصبر المرابطون على ثغور الإصلاح وإشاعة المعروفات، ومواجهة المنكرات.

بَصِيرَةٌ

١٤

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

تبصرنا بأن القيام بهذه الثلاثية وظيفه جميع الأمة، وليس لأحد أن يتنصل عنها، فكل فرد من أفرادها جدير بأداء دوره في حدود قدراته وما آتاه الله ﷻ من إمكانيات.

بَصِيرَةٌ

١٥

الأمر والنهي من قبيل الإرشاد والنصح والدعوة

وهذا لا يكاد يوجد فرد لا يستطيعه، ولذلك أسنده إلى عامة الأمة، بعكس تغيير المنكر، ومثله حمل الناس على عمل المعروفات واقعاء، فإن هذا من الأعمال السلطانية.

بَصِيرَةٌ

١٦

جاءت هذه الآية بأصالة هذه الأمة في القيام بوظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

وكان قد سبقها الأمر بها في قوله ﷻ: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: 104]، وأعقبها بالثناء على طائفة من أهل الكتاب أقامته على وجهه فقال ﷻ عنهم: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ [آل عمران: 114]، وببصرنا كل هذا بمركزية هذا الركن في الصناعة الحضارية، والخطة الاستراتيجية للإصلاح الإسلامي العالمي.

عرفنا أن القسم الخامس يقرر لنا أن الأمة الإسلامية مصدر سعادة العالمين، فهي خير

أمة أخرجت للناس، وببصرنا بهذا القسم هذه الآية المركزية:

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾

[آل عمران: 110]، فما القسم السادس؟

جسرات اتصال

الجواب:

القسم السادس

موقف أهل الكتاب من خير أمة أخرجت للناس؛ لأنها تدعو إلى الخير وتطبقه [آل عمران: 110-115]،
وتكوّن هذا القسم من ثلاثة فصول:



الفصل الأول

ذكر الله ﷻ فيه الموقف العام لأهل الكتاب من إيمان خير أمة أخرجت للناس: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١٠)، وفيه 4 بصائر:

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾

بَصِيرَةٌ

(لو) تفيد أنهم لم يؤمنوا، والمقصود لم يؤمن كثير من قياداتهم، فلم يؤمن كثير منهم.

بَصِيرَةٌ

٢

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾

تبصرنا بأن إصرارهم على عدم الإيمان منعهم من الحصول على أعظم الخيرات، حتى صاروا أسوأ جهة صدت العالم عن الإيمان، وجعل الله ﷻ متعلق ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾ مطلقاً أي خيراً لهم في كل شيء في حياتهم، وأنت تصوّر الأمر: كيف ستحل الخيرات والبركات على العالم عندما توقف العصابات الدولية (المافيا) في مجال الأدوية، والتجارب الخبيثة، وتجارة السلاح المحرم، وتجارة المخدرات والبغاء، والعبث بأموال الدول والشعوب؟

وحسبك أن تأخذ أفريقيا فقط لتتصور ما تنهيه الدول المستكبرة منها منذ أكثر من ثلاثمائة عام إلى اليوم، أو أن تأخذ القرن الآسيوي والأفريقي ليأخذ بك الخيال حول الخيرات التي ينهبها قطاع الطريق المحليون والدوليون، وهم لا يفوتون أن يضحكوا على أنفسهم وعلى العالم باختراع أذرع خيرية تغطي على جرائمهم.

بَصِيرَةٌ

٣

سبق أن ذكر الله ﷻ ثلاث فرائض، فقال: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، فلماذا أخبرنا بعدها عن عدم إيمان أهل الكتاب، ولم يخبر عن الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر؟



الجواب:

لأن الإيمان أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهو أعظم ما يؤمر به، وهو الذي يؤدي إلى غيره من شعب الإيمان، وإذا ادّعوا أنهم مؤمنون فينبغي أن نوقف غفلتهم ببيان أن الإيمان هو إيمان إبراهيم ﷺ والأنبياء قبله وبعده، وهذا يعني الدخول في الإسلام، والاستقامة على شعبه، وليس الإيمان الذي اخترعوه لأنفسهم.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ أَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ تبصرنا بأن أهل الكتاب ينقسمون إلى أمتين:

المؤمنون، وهم قلة، والفاسقون وهم كثرة وتتحكم بهم القيادات الفاسدة الدينية والسياسية، فصدوا العالم عن الإيمان، فقد قال النبي ﷺ: «لَوْ آمَنَ بِي عَشْرَةٌ مِنَ الْيَهُودِ لَأَمَنَ بِي الْيَهُودُ» (البخاري: 3941).

ثم فصل الله ﷻ حال الفريقين على طريقة ألف والنشر المعكوس في الفصل الثاني.

الفصل الثاني

واقع الفاسقين منهم [آل عمران: 111-112]، وفيه 10 بصائر:

آيات هذا القسم:

﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى وَإِنْ يُقَاتِلُوكُمْ يُؤْلُوكُمْ أَلَا ذَرْتُمْ لَا يَنْصُرُونَ ۝ ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ أَيْتَ مَا تُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُ وَبِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝﴾

يحاول الفاسقون من أهل الكتاب تدمير خير أمة أخرجت للناس

بَصِيرَةٌ

ويمنعونها من الدعوة إلى الخير في العالم، فوصف الله ﷻ نتائج خطيئهم من خلال 8 بشارات:

﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ إِلَّا أَذًى﴾

بشارة
(1)

فلا يستطيعون القضاء على المؤمنين، بل غاية مكرهم أن يؤذوهم أي: لا يمكنهم أن يستأصلوكم بل غاية إجرامهم أن يؤذوكم، والمعنى المتصل بالآية السابقة: وأكثرهم الفاسقون، فلا تخافوهم إن تمسكتكم بخطة الإيمان؛ لأنهم لن يزيدوا على الأذى في الإضرار بكم.

والأذى:

كل ما كرهته من الأمور التي لا يصل ضررها إلى الحد الأكبر من قولهم: بَعِيرٌ أَدَى، إذا كَانَ لَا يَقْرُفِي مَكَانٍ

وَاحِدٍ، "وَكَاَنَّهُ يَأْذَى بِمَكَانِهِ" كما يقول ابن فارس رَحِمَهُ اللهُ (مقاييس اللغة: 78/1).

ومن الأذى:

الحرب الإعلامية (الأذى باللسان) بإلقاء الشبه، والأذى الجسدي، وغالبًا ما يكون ذلك بالاستعانة بحلفائهم من المنافقين والمرجفين والمريضة قلوبهم.

بشارة
(2)

﴿وَأَنْ يُقَاتِلَكُمْ يُؤْلَوُكُمْ الْأَذَبَارُ﴾

أي: يهربون، فيعطونكم ظهورهم عندما يشتبكون معكم مهما كانت قوتهم إن حققت الأمة الشروط الثلاثة.

بشارة
(3)

﴿ثُمَّ لَا يَنْصَرُونَ﴾

ما الفرق بين هذه البشارة والسابقة؟

الجواب:

﴿يُؤْلَوُكُمْ الْأَذَبَارُ﴾ تبصرنا أنهم يهربون من الاشتباك المباشر، ولكنهم لا يأسون من محاولة الانتصار عليكم بطرق أخرى، وهنا طمأننا ربنا ﷻ أنهم لن يحققوا النصر علينا ﴿ثُمَّ لَا يَنْصَرُونَ﴾ ﴿٣٣﴾ مهما كانت محاولاتهم.

وجاءت كلمة ﴿ثُمَّ﴾ لتبصرنا بعدم تحقيق أهدافهم على المدى البعيد

ولتنبئنا أيضًا أنهم سيظلون يحاولون، وجاءت كلمة ﴿يَنْصَرُونَ﴾ مرفوعة على الاستئناف بتقدير: ثم هم لا ينصرون لنفي أن ينتصروا علينا مهما فعلوا.

فهذه ثلاث بشارات تعبر عن صفات خيرية من الإعجاز الغيبي، أي: لَا يَنْصَرُونَ عَلَيْكُمْ قَطُّ مَا دَامُوا عَلَى فِسْقِهِمْ، وَدُمْتُمْ عَلَى خَيْرِيَّتِكُمْ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ. (تفسير المنار 4/55).

بشارة
(4)

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾

تبصرنا بلزوم الذلة لهم، وهي: قِصَرُ الجاه والحركة مع الهوان الذي يكسر كبرياءهم، ويقتضي التذلل للوصول إلى تحقيق شيء، وَضُرِبَ الذِّلَّةُ عَلَيْهِمُ الصَّاقُهَا بِهِمْ كَمَا تُضْرَبُ الْعُمْلَةُ، فيبقى النقش ملاصقاً لها. (تفسير المنار 4/56).

﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوا﴾

أي أينما لقيهم الناس مترصدين لهم أو غير مترصدين، وكلمة (ثُقِفَ) كلمة جميلة دقيقة تعني وجد الشيء وواجهه متمكناً منه، حاذقاً للتعامل معه.

بشارة
(5)

﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِّنْ اللَّهِ﴾

تبصرنا بأن الذلة لازمة لهم، ولا ترتفع إلا بحبلين أي: بطريقين دقيقين ينقذون أنفسهم بالاتصال بهما:

والثاني

حبل الناس ويأتي في البشارة الآتية:

أحدهما

يبينه قوله: ﴿إِلَّا بِحَبْلِ مِّنْ اللَّهِ﴾ أي عندما تُطبق شريعة الله ﷻ، فيعطهم المسلمون حقوقاً محددة، ترفع عنهم الذلة، ويبصرنا ذلك أن أقوى طريق لعزة المسلمين وإدارة غيرهم بتطبيق شرع ربهم ﷻ.

بشارة
(6)

﴿وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ﴾

تبصرنا بأن الطريق الثاني الذي إذا اتصلوا به رُفعت الذلة عنهم أن يتصلوا بالناس محتالين عليهم بشتى الحيل والأكاذيب، وهنا تظهر عزتهم بسبب ترك المؤمنين شروطاً خيرية، فتقلب المسألة عليهم.

بشارة
(7)

﴿وَبَاءٌ وَغَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾

أي صارت بينهم التي يمكنون فيها يصاحبها غضبٌ لا من الناس بل من الرحيم ربِّ الناس، وهذا يعني أنهم بلغوا في الإجرام حدًّا عظيمًا.

بشارة
(8)

﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾

أي التصقت بهم المسكنة التصاق يد الضارب بالمضروب، فاستبان جمال التعبير بكلمة (ضُرِبَتْ)، و﴿الْمَسْكَنَةُ﴾: هي القرار الذي لا يستطيعون معه التحرك إلا من خلال إظهار السكون البالغ المخادع، فزال عنهم الكرامة الشخصية.

بَصِيرَةٌ

٢

اشتملت هذه الآية على إعجاز غيبي مدهش

فكل البشارات الثمان تحققت، ولا ينفك مجرمو الكتابيين عنها إلا حين يسيطر المنافقون على المسلمين، ويتخلى المسلمون عن تطبيق الشروط الثلاثة.

بَصِيرَةٌ

٣

العدل المطلق

إذ يبين الله ﷻ أن هذه العقوبات الضخمة أصابهم الله ﷻ بها مقابل جرائمهم التي وردت فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١١٢)، وهي الجرائم نفسها التي ذكرها ﷻ في الآية (61) من سورة البقرة، والفرق بينهما أن الكلام في سورة البقرة تركز حول اليهود، بينما عمَّ الكلام هنا اليهود والنصارى.



فما الجرائم الأربع التي ذكرها الله ﷻ هنا؟



الجواب:

جريمة (2)

﴿وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ﴾

وهذا ذكر لجريمتهم في تعاملهم مع أشرف الخلق وأعظمهم.

جريمة (1)

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾

وهذا ذكر لجريمتهم في التعامل مع ربهم تعالى، وقوله: ﴿كَانُوا﴾ مع الفعل المضارع ﴿يَكْفُرُونَ﴾ تبصرنا بلزومهم لهذه الحال المريعة.

جريمة (4)

﴿وَكَانُوا يُعْتَدُونَ﴾

وهذا ذكر لجريمتهم في التعامل مع بقية الخلق، ولقد قننوا هذا الاعتداء تقنيًا سيئًا، وجعلوه ضمن عباداتهم وكتبتهم المقدسة

جريمة (3)

﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾

وهذا ذكر لجريمتهم في التعامل مع الله ﷻ بما هو دون الكفر، فإن لم يكفروا عصوا.

وحسبك أن تسمع هذا النص الخطير في "سفر المزامير":

(8:137) يَا بِنْتُ بَابِلَ الْمُخْرَبَةِ، طُوبَى لِمَنْ يُجَازِيكَ جَزَاءَكَ الَّذِي جَازَيْتِنَا!

(9:137) طُوبَى لِمَنْ يُمْسِكُ أَطْفَالَكَ، وَيَضْرِبُ بِهِمُ الصَّخْرَةَ!

وبناءً عليه، فقد أكدت ذلك وزيرة الخارجية الأمريكية الديمقراطية السابقة "مادلين أولبرايت" لمراسلة (سي بي أس) في 11/5/1996م حين سُئلت: سمعنا أن نصف مليون طفل عراقي توفوا حتى الآن، وهذا العدد يفوق بكثير عدد الأطفال الذين ماتوا في «هيروشيما»، وأنت تعلمين بذلك، فهل يستحقون ذلك؟ فأجابت أولبرايت: «نعم، أنا أعتقد أنهم يستحقون ذلك».

بَصِيرَةٌ
٥

هنا نسأل: كيف يقال: الروم النصارى ضربت عليهم الذلة والمسكنة بينما نرى قوتهم تتجدد، وكيف يقال: إنهم قتلوا الأنبياء، وهم أتباع عيسى، فلم يوجد نبي بعده عندهم إلا النبي ﷺ؟

الجواب:

مشكلة المحرفين من النصارى أنهم يصرون على اعتماد العهد القديم والعهد الجديد معاً ليكونا كتابهم المقدس الذي يدعونه البايبل، وهذا يعني أنهم يقرون ما صنعه المجرمون منهم مع الأنبياء السابقين، كما أنهم لا يعترضون رسمياً على التحريف الموجود في كتبهم، وأما ضرب الذلة والمسكنة فقد رأيناها في كثير من أماكن الاحتكاك والمواجهة بينهم وبين المسلمين عندما يتمسك المسلمون بشروط الخيرية الثلاثة، فإذا لم يتمسك المسلمون بها انعكست عليهم، فصاروا هم الذين تضرب عليهم الذلة كما هو الحال الآن.

بَصِيرَةٌ
٦

لا أشد من الإجرام بحق الأبرياء إلا تشريعه والتبرير له بتحريف النص الديني

وهذا ما يفسر توحش المتعصبين من اليهود النصارى وفتكهم بالمدينين والأبرياء حينما يتمكنون وتكون لهم الغلبة.

بَصِيرَةٌ
٧

لماذا جاء ترتيب هذه المعاصي بهذه الطريقة؟

الجواب:

2

كذلك يظهر في ترتيبها الانتقال من الجرائم الخاصة الأكثر بشاعة إلى الجرائم العامة، فالكفريات الله ﷻ جريمة خاصة، والعصيان جريمة عامة، وقتل الأنبياء جريمة خاصة والاعتداء جريمة عامة.

1

جاءت على ترتيب رائع، تنزلاً من الأسوأ إلى الأقل سوءاً، ومن النتيجة إلى السبب، فقوله: ﴿وَكَاَنُوا يَعْتَدُونَ﴾ ١١٣ أي: بدؤوا بالاعتداء على أتباع الأنبياء، ثم اجتروا على قتل الأنبياء، وقوله: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا﴾ تزايدت المعصية بينهم وبين الله ﷻ حتى أوصلتهم إلى الكفريات الله تعالى.

من أسباب التكرار لهذه المعاصي التي ذكرها الله عز وجل بعينها في سورة البقرة الآية (61):



فترك المسلمون هذه الخطط، واستغل فسّاق أهل الكتاب ذلك، فملؤوا الإعلام بالخرافات المعاكسة، وقلّبوا على العالم الأمور، فصيّروا الحق باطلاً والباطل حقاً، ونصروا الوثنية والإجرام في العالم، وحتى المؤسسات التي أقاموها لترعى حقوق الإنسان يتنصلون من التزاماتها.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾: هذا مبدأ عقدي سياسي عادل عظيم

فهو يضع لنا قاعدة التعامل مع الناس بالقسط والعدل، فليس أهل الكتاب سواء في الفسق أو في الخير، والله ﷻ يمنحنا النظرة المعتدلة المتزنة لنتقن التعامل المختلف مع هذه الفئات، فلا تستفزنا جرائم المعتدين من أهل الكتاب لنتبنى أحكاماً متشجعة مطلقة بحق الجميع، بل ينبغي أن نفرق بين المعتدي، والمحسن.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾: في أتون الصراع مع مجرمي أهل الكتاب

وحض القرآن المؤمنين على منازلهم باللسان والبرهان، إلا أن المنطق القرآني يربي المؤمن على العدل في النظر إلى الناس، ليبقى محتفظاً باتزانه في الموقف من الجماعات والطوائف، ويربي في نفوس المؤمنين التزام التوسط بين الإفراط والتفريط في التعامل مع الآخر.

الفصل الثالث

الأمة المؤمنة من أهل الكتاب حالها ومآلها [آل عمران: 113-115]، وفيه 4 بصائر:

آيات هذا الفصل:

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ۖ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٥﴾﴾

انتقل التبصير القرآني إلى الأمة الثانية من أهل الكتاب

وهي الأمة المؤمنة، وبين (٩) صفات لهم حتى نعرفهم بها:

صفة ١ هم بعض أهل الكتاب، بل هم قليل منهم

وببصرنا بذلك قوله: ﴿مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، فكلمة ﴿مِّنْ﴾ تبعية، وينبغي أن ندرك ذلك ونعيه لئلا نقع في أوهام تصديق أهل الكتاب بادعاءاتهم الفارغة، وأن نحترس من التعميم في الخير أو في الشر، كأن يغرنا من بعضهم أنه يدعو إلى نصرة المظلومين، وننسى في الوقت نفسه أنه يدعو مع الله إليها آخر، أو يناصر حقوق الفاحشين.

﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ تَحْرُسُ أَمْرَ اللَّهِ وَحُجَّتْ﴾

صفة ٢

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أمة مهتدية، قائمة على أمر الله ﷻ، لم تنزع عنه وتتركه كما تركه الآخرون وضيعوه» (تفسير الطبري 7/123)، والقيام يعني حراسة حدود الله ﷻ، وحماية الأمة من أن تُخترق في أمنها الفكري أو أمنها العام، وعدم الغفلة عنها كما قال النبي ﷺ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَأَقِعِ فِيهَا...» (البخاري: 2493).

﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ﴾

صفة ٣

يتلون حال قيامهم في الصلاة ساعات الليل، و﴿آيَاتِ اللَّهِ﴾ يراد بها: ما بقي عندهم من التوراة والإنجيل مما لم يحرف كبعض نصوص المزامير، ففيها ثناء إلهي عظيم.

﴿وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾

صفة ٤

ينوعون بين عباداتهم الليلية قيامًا وسجودًا كما ذكر الله ﷻ عن هذه الأمة ﴿أَمَّنْ هُوقَنْتِ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: 9]. قَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ: "يُرِيحُ رَأْسَهُ بِقَدَمَيْهِ، وَقَدَمَيْهِ بِرَأْسِهِ"، وَهَذَا عَلَى مَعْنَى إِرَادَةِ الرَّاحَةِ وَإِزَالَةِ التَّعَبِ وَإِحْدَاثِ النَّشَاطِ. (تفسير الرازي 8/333).

وخص السجود هنا؛ لعظمة التعبد به، وقوة السعادة بفعله، ولأن أهل الكتاب ضيعوا هذه العبادة العظيمة الجليلة، فإلى أين يفرون؟ ولماذا يتركون هذه السعادة وراء ظهورهم؟

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾

صفة ٥

فليست عبادتهم لطلب الراحة النفسية، ولا الرياضية العقلية والجسدية، بل للإيمان بالله واليوم والآخر أي يطلبون الأمان بالإيمان.

وَصَفَهُم بِالْكَمَالِ الْعَمَلِيِّ وَالْعِلْمِيِّ:

والكمال العلمي

النظري المعرفي يظهر في اعتقادهم الصحيح،
فوصفهم به؛ إذ قال: ﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾ [آل عمران: 114]، والإنسان ينبغي أَنْ يَعْرِفَ
الْحَقَّ لِدَاتِهِ، وَالْخَيْرَ لِأَجْلِ الْعَمَلِ بِهِ كَمَا يَقْرَر
الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي تَفْسِيرِهِ (333/8)، وقد حصلوا
ذلك كله علمًا وعملاً.

فالكَمَالُ الْعَمَلِيُّ

ذكره في قوله ﷺ:
﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتَّخِذُونَ آيَاتِ اللَّهِ آتَاءَ أَلِيلٍ وَهُمْ
يَسْجُدُونَ﴾ (١١٣).

﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾

صفة ٦

ليشيعوا الأخلاق والقيم المعروف حسنُها في الأرض مما يوافق الفطرة الشرعية لا الأهواء الشهوانية.

﴿وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾

صفة ٧

ليحموا الإنسانية من أخطار الأمور التي تنكرها الفطرة السوية.

﴿وَيَسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾

صفة ٨

فلا يكتفون بفعلها، ولا بالمسارعة إليها، بل يسارعون فيها، ويظهر جمال ذلك بأن تتصورهم كأنهم
انغمسوا في عالم الخيرات ثم سارعوا لتحقيقوها وهم فيها.

صفة ٩ الصلاح الذي يسمو بالإنسان إلى الرتبة العلية

﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 114] أي من الراسخين في الصلاح ليتقربوا إلى رب العالمين، ووصف الله ﷻ بهذا أكابر الأنبياء، فقال عن إسماعيل وإدريس وذي الكفل ﷺ: ﴿وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الأنبياء: 86]، والصلاح يحقق كل خير وحق وعدل وجمال، وضده الفساد الذي يدمر كل خير وحق وجمال، ويحول الناس إلى وحوش.

بَصِيرَةٌ

٢

من أبرز هؤلاء من ذكرهم الطبري رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

لَمَّا أَسْلَمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلَامٍ، وَثَعْلَبَةُ بْنُ سَعْيَةَ، وَأَسَدُ بْنُ عُبَيْدٍ، وَمَنْ أَسْلَمَ مِنْ يَهُودَ، فَأَمَنُوا، وَصَدَّقُوا، وَرَغِبُوا فِي الْإِسْلَامِ، قَالَتْ أَحْبَابُ يَهُودَ أَهْلُ الْكُفْرِ: مَا آمَنَ بِمُحَمَّدٍ، وَلَا تَبِعَهُ إِلَّا شِرَارُنَا، وَلَوْ كَانُوا مِنْ خِيَارِنَا، مَا تَرَكُوا دِينَ آبَائِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِي ذَلِكَ مِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ:

﴿الصَّالِحِينَ﴾ [آل عمران: 113-114]. (تفسير الطبري 120/7).

بَصِيرَةٌ

٣

﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 115]

فأظهرت الآية مبدأً عظيمًا، وهو مبدأ العدل الإسلامي المطلق في النظر إلى الأفعال، والإنصاف للناس، وفي الآية قراءتان توضحان مشهدين:

المشهد
الأول

توضحه قراءة حمزة والكسائي وخلف وحفص: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ﴾ بالياء بيانًا لحال هذه الأمة القانئة من أهل الكتاب، فمهما قدموا من خير فلن يُغَطَّى أو يُجَحَّد أو يُحَرِّمُوهُ، ولكنهم سيُشْكرون على ما فعلوا من ذلك، فيُجَزَّلُ لهم الثواب، فإجرام فساقهم لا يعني عدم إنصاف مؤمنهم.

المشهد
الثاني

توضحه قراءة الجمهور بالتاء في الموضعين جميعاً: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ تُكْفَرُوا﴾
وهي تهدينا لخطاب فئتين:

الأولى:

المسلمون، أي وما تفعلوا - أنتم أيها المسلمون - من خيرٍ ولو صغر في زمن الرخاء أو الشدة، فلن يُنسى أو يُغَطَّى أو يُجَحَد، بل لكم فيه أجر كم كما لهم أجرهم، ويبين ذلك ما جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: أَخْرَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صَلَاةَ الْعِشَاءِ، ثُمَّ خَرَجَ إِلَى الْمَسْجِدِ، فَإِذَا النَّاسُ يَنْتَظِرُونَ الصَّلَاةَ، قَالَ: «أَمَّا إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ هَذِهِ الْأَدْيَانِ أَحَدٌ يَذْكُرُ اللَّهَ هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ»، قَالَ: وَأَنْزَلَ هَؤُلَاءِ الْآيَاتِ: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ حتى بلغ: ﴿وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوا وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: 113-115].. (أحمد: 3760، بإسناد حسنه محققو المسند).

الثانية:

خطاب المؤمنين من الكتابيين، وذلك لهدفين:

2

لإشاعة هذه اللغة في الخطاب الإعلامي بذكر هذين القسمين، وبيان سبب الثناء على القسم الثاني، وسبب ذم القسم الأول، ومن الأخطاء الكبرى:

1

لبيان قريتهم من المؤمنين، وضرورة اللقاء بهم، وإعلاء هذه اللغة الحوارية معهم.

2

أن لا يُذكر القسمان خوفاً من الفتنة الطائفية (ألا في الفتنة سقطوا)، فإن القسم الأول وهم فساق أهل الكتاب لا يتورعون عن كل جريمة ضد المجتمع المسلم، وهم يصدون من آمن منهم عن الإيمان، ويفتنونهم في دينهم، ويتحالفون مع الوثنية والخرافية ضد المؤمنين من النصاري ومن المسلمين.

1

أن يذكر النصاري، فيذكر الثناء المحض عليهم كأنهم كتلة واحدة، وليس ذلك منهج القرآن.

﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾

خَتَمُ الآية بهذا التذييل يَبَصِّرُ مؤمني أهل الكتاب وسائر المسلمين بجزيل الثواب لمن نَوَّعَ في فعل الخيرات صغيرة كانت أو كبيرة، فهو يوشك أن يرتقي إلى مرتبة المتقين.

عرفنا أن القسم السادس فصل لنا موقف أهل الكتاب من خير أمة أخرجت للناس؛ لأنها تدعو إلى الخير وتطبقه، وذلك في الآيات [آل عمران: 110-115]، فما مصير الفاسقين من أهل الكتاب؟ وما مصير حروبهم المباشرة وغير المباشرة ومؤامراتهم التي يشنونها ضد أمة الخير؟

جسر اتصال

الجواب:

القسم السابع

خسارة الفاسقين من أهل الكتاب وغيرهم من الكافرين في مواجهتهم لخیرامة أخرجت للناس إن استمسكت هذه الأمة بشروط الخیرة الثلاثة [آل عمران: ١١٦-١١٧]

وفيه ١٤ بصيرة:

آيتا القسم

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٧﴾

بَصِيرَةٌ ١

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تبصرنا كلمة ﴿إِنَّ﴾ بالتأكيد على حقيقة الكفار وأقبحهم

فكأن الآية تقول: نؤكد لكم تأكيداً محققاً عن مصير الكافرين وسوء عاقبتهم، وتبصرنا كلمة ﴿كَفَرُوا﴾ بأن الكفار اتخذوا قراراً بأن يغطوا حقائق الإيمان، وعبر عن ذلك الفعل الماضي؛ ليدل في هذا السياق على قدم القرار وبقائه.

بَصِيرَةٌ ٢

يبصرنا الله ﷻ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

بأن الكافرين كتلة واحدة، وقد يجمعهم الكفر للاتحاد ضد المؤمنين.

بَصِيرَةٌ

٣

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾ تبصرنا بأن الكافرين يعتمدون على قوتين عظيمتين:

الثانية

﴿أَوْلَادُهُمْ﴾

والمراد بها كل ما يملكون من ثرواتٍ وطاقاتٍ،
ويدخل في الأولاد: جيوشهم وحشودهم.

الأولى

﴿أَمْوَالُهُمْ﴾

والمراد بها كل ما يملكون من ثرواتٍ وطاقاتٍ
وإمكانيات وتكنولوجيات، ومؤسسات استخبارية
وعسكرية واقتصادية وثقافية وإعلامية.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾

تبصرنا بضالة قوة الكافرين أمام رب العالمين في الدنيا والآخرة:

وأما في الآخرة

فقال الله ﷻ: ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 116]، ولن تغني عنهم هناك
أيضاً أموالهم، ولا أولادهم كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ لَا
يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ [٨٨] إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾

[الشُّعْرَاءُ: 88، 89].

أما في الدنيا

فلن تغني عنهم من الله ﷻ شيئاً، أي: لن تشكّل غنى
يغنيهم، ولا غناء يُغني عنهم أو يدفع عنهم قوة الله
ﷻ، فدخل في الفعل: ﴿تُغْنِي﴾ [أمران: الغنى،
والغناء].

فصحبتهم تعني ملازمتهم للنار، وخلودهم يعني البقاء فيها والاستمرار، والخلود فيها يجعل صحبتهم لها
"صحبة دائمة لا نهاية لها، ولا انقطاع". (تفسير الطبري 134/7). نعوذ بالله منها ومما قَرَّبَ إليها من قول وعمل.



لماذا تكررت هذه الآية بألفاظها تقريبًا هنا بعد أن جاء ما يقاربها أول السورة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ﴾ ﴿آل عمران: 10﴾؟



الجواب:

1 الآية (10) جاءت في سياق الكلام عن حال الكفار المعتدين وهم يجمعون أموالهم وثرواتهم وطاقاتهم وأولادهم وحشودهم ضد المسلمين، أما هذه الآية فتتحدث عن ذلك مع زيادة بيان مصير إيدائهم للمؤمنين مما سبق الإشارة إليه في الآيات السابقة، وزيادة تحذير المسلمين من اختراق الكفار المعتدين لهم إذا اتخذوهم بطانة كأن يكونوا وزراء أو مستشارين أو ذوي قرار مؤثر.

2 وجاءت بعد الكلام عن المؤمنين من أهل الكتاب لئلا يحتج بها بعض المسلمين في الخضوع للكافرين ذوي الثروات والقوات الكبيرة، فيداهن في دينه، ويحتج بأن الله ﷻ ذكر المؤمنين من أهل الكتاب.

3 جاءت قبل ذكر تفاصيل غزوة أُحُد ليُعلم أن قوة الكافرين في ثرواتهم وكثرة جنودهم ليست السبب الأساسي في هزيمة المسلمين.

تبصرنا كلمة ﴿مَثَلُ﴾

بضرورة تقريب المسائل للناس عن طريق ضرب الأمثال ليدركوا المعاني، ويشعروا بخطر كل أمر له شأنه.

﴿مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

أي الذي ينفقونه، وببصرنا الفعل المضارع ﴿يُنْفِقُونَ﴾ باجتهادهم الشديد من خلال استمرارهم في النفقة؛ سواء أكانت هذه النفقة من ثرواتهم أم من سرقاتهم.



بَصِيرَةٌ

٨

﴿مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾

أطلق الإنفاق ولم يقيده بشيء محدد، فبصرنا ذلك بأنهم ربما أنفقوا على جرائمهم، وربما أنفقوا في أعمالٍ خيرية تستر جرائمهم، أو تحقق لهم شهرة دنيوية.

بَصِيرَةٌ

٩

﴿كَمَثَلٍ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ﴾

تصورلنا ريحًا هائلة قوية فيها صِرٌّ تسلطت بصورة صائبة على زرعٍ نتج عن حَرْثٍ قومٍ اجتهدوا فيه، وهذه الكلمة العجيبة ﴿صِرٌّ﴾ جمعت عددًا من المظاهر المصاحبة للريح، منها: شدة الضيق المصاحب لها لقوتها كأنها لا ينجو من ضربها شيء، ويصبحها كذلك شدة البرد الزمهرير المهلك المحرق للزروع والثمار، فهي عاصفة فيها بَرْدٌ شديد، وقد يصبحها حَرٌّ شديد، كما أشار ابن فارس (مقاييس اللغة 283/3). ويصحب ذلك صوتٌ شديدٌ.

بَصِيرَةٌ

١٠

﴿حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكْتَهُ﴾

تصورلنا العدل الإلهي، فهم استحقوا العقوبة؛ لأنهم ظلموا، وتوهموا في ظلمهم أنهم ظلموا غيرهم، والحقيقة أنهم ظلموا أنفسهم.

بَصِيرَةٌ

١١

المراد بيان المثل لعدم إغناء أموالهم وأولادهم عنهم شيئاً في الدنيا والآخرة

فكل الجهود التي ينفقونها لمحاربة الإسلام سيكون مآلها كالحَرْث الذي أصابته ريح فيها صرفاً هلكته، ومثل ذلك ما ينفقونه من جهودٍ وأموال يزعمون التقرب بها إلى الله ﷻ على غير أساس الدين الحق، فلن يجدوا مقابله أجراً يوم القيامة.

بَصِيرَةٌ

١٢

إبطال الجبرية، وإثبات الاختيار:

ربما طرأ هنا هذا السؤال: الله ﷻ هو الحَكَمُ العَدْلُ، فكيف يدمر أعمالهم الخيرية أو التي يزعمون بها نصره خرافاتهم التي جعلوها دينًا؟

يبصرنا بالجواب قوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 117]، فالله ﷻ لم يظلمهم، ولم يضع الشيء في حقهم في غير موضعه، بل هم من فعل ذلك باختيارهم، والمفاجأة أنهم ظلموا أنفسهم حتى لو توهموا أنهم أوقعوا الظلم على غيرهم، لإصرارهم على محاربة الدين الحق مع وضوحه، ولو لم يكن من وضوحه إلا ميلهم السافر للاعتداء وعدم مبالاتهم بالأبرياء لكان كافيًا في مقابل حماية الإسلام للأبرياء والضعفاء، فكيف وبينات الرسالة جليّة أمامهم!

بَصِيرَةٌ

١٣

إذا اعترض معترض وقال: نحن نرى منهم من ينفق في المشاريع الخيرية وفي المكارم ويواسون بأموالهم في المغارم؟

الجواب:

إن كل ذلك يكون كما في هذا المثل، فيجعل الله ﷻ كل ذلك "هباءً منثورًا، ضائعًا وإن كثر - بورًا، كأن لم يكن شيئًا مذكورًا".

(نظم الدرر: 35/5).

بَصِيرَةٌ

١٤

بيّن الله تعالى ثلاثة أمور تمنع من الاغترار بالكافرين:

الأمر الثالث:

تذكر أن الأموال التي ينفقونها ستجعلهم يشعرون بالحسرة التامة على إهدارها على مكرٍ لن تستمر نتائجه وثماره، وسيرون عاقبة ظلمهم في خسارة كل ذلك.

الأمر الثاني:

تذكر سوء مصيرهم وشؤم عاقبتهم ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: 116].

الأمر الأول:

عدم غناء أموالهم (إمكاناتهم الضخمة)، وأولادهم (الجموع الحاشدة) أمام أولياء الله ﷻ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [آل عمران: 116].

ولكن ذلك كله لا يعني التهوين من شأن الكافرين، وإنما يخسرون إذا تمسك المؤمنون بشروط الخيرية الثلاثة، وطبقوا خطة الفلاح الاستراتيجية التي يدعون فيها العالم إلى الخير.



عرفنا أن القسم السابع من المحور الرابع حدثنا عن خسارة الفاسقين من أهل الكتاب وغيرهم من الكافرين في مواجهتهم لخير أمة أخرجت للناس إن استمسكت هذه الأمة بشروط الخيرية الثلاثة [آل عمران: 116-117]، وفهمنا من ذلك أن خسارتهم محققة حال المواجهة بيننا وبينهم، فهل هناك عامل محدد يمكن أن يقلب هذه النتيجة لصالحهم؟

جسرات اتصال

الجواب:

القسم الثامن

خسارة الكافرين أمام خير أمة أخرجت للناس قد تنقلب إلى نصرٍ في الدنيا إن اتخذهم المؤمنون بطانة، أو اتخذوا من يواليهم بطانة من عملائهم ومن الفسّاق، وبصّرنا الله ﷻ بذلك في الآيات [آل عمران: ١١٨-١٢٠]، وجاء هذا القسم التحذير من بطانة السوء؛ لأنها تمنع بدسائسها الخفية الفلاح في الخطة الاستراتيجية لدعوة الخير الإسلامية في العالم

وفي هذا القسم ٥ قوانين:

١ القانون الأول يحرم اتخاذ بطانة السوء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ...﴾.

٢ القانون الثاني يجب معرفة الصفات التسع للبطانة المفسدة [آل عمران: 118-119].

٣ القانون الثالث ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118].

٤ القانون الرابع يجب أن نعرف ضوابط التعامل معهم: ﴿قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ...﴾.

٥ القانون الخامس ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا...﴾.

آيات هذا القسم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ
الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تَخَفَى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾
هَآأَنْتُمْ أَوْلَاءُ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُومُ قَالَُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا
عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾ إِن
تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُوهُمْ وَإِن تَصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ
شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٢٠﴾﴾

القانون الأول

يحرم اتخاذ بطانة السوء سواء كانت تنتمي للمسلمين أم للكافرين

وببصرنا بذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾، وفيه 6 بصائر:

بَصِيرَةٌ ١

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾

ناداهم بلقب الإيمان تشريعاً وتكليفاً، فذلك يشعرهم بجنسيتهم الإيمانية التي يحاول أتباع الباطل أن ينسوهم إياها، فكأنه -جل مجده- يقول: إن كنتم مؤمنين حقاً فاستمعوا لما تؤمرون، وحقّقوا مقتضيات إيمانكم، وتذكّروا أخوة الإيمان فيما بينكم، فهي التي تمنحكم الهوية القوية، والمكانة العلية.

بَصِيرَةٌ ٢

﴿لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً﴾

فالنهي يدل على التحريم والتحذير أي يحرم عليكم اتخاذ بطانة السوء، واحذروهم، وكلمة: ﴿تَتَّخِذُوا﴾ معبرة جداً عن اختيارهم لمن يلزمهم، ومسؤوليتهم عن هذا الاختيار.

بَصِيرَةٌ ٣

﴿بَطَانَةً﴾ أي أصدقاء ملازمين، فكيف ظهر جمال هذه الكلمة؟

الجواب:

سَمَّى اللهُ ﷻ الأَصْحَابَ والمستشارين بَطَانَةً؛ لأنها اشتقت من بَطْنِ الثوب والإنسان، وبطن الأرض المخفي، وهي تقابل الظاهر المكشوف للآخرين، فبطانة الثياب تلي البطن، وتلامس من جسده كلّ ما خفي على من يراه من الخارج، وسمى أصدقاء الرجل ومستشاريه بَطَانَةً؛ لأنه ينكشف لهم من الأسرار ما يخفى عن الأقارب والأبعد، فالمعنى: لا تتخذوا لكم أصحاب سوءٍ مقربين تستأنسون بهم يعرفون دواخل أموركم، ودقائق أسراركم، وبواطن أخباركم، وقراراتكم في شؤونكم الصغيرة أو الخطيرة، والعرب تسمي العشيرة الواحدة: بَطْنًا، وهي دُونُ الْقَبِيلَةِ كأنهم شخص واحد.

بَصِيرَةٌ

٤

﴿مَنْ دُونَكُمْ﴾ لها معنيان: من حولكم، ومن غيركم

فتبصرنا بنوعية البطانة التي نهينا عن صحبتهم، والتقدير:

لا تتخذوا بطانة سوء من حولكم سواء أكانوا مسلمين أم غيرهم، فهم يحرصون على جعل حياتكم في خبال، وقراراتكم في خبال، والمعنى الثاني المكمل: ولا تتخذوا بطانة مِنْ غَيْرِ أَهْلِ مِلَّتِكُمْ، فهم أحرص على إيقاعكم في الخبال، فدخل في بطانة السوء: المتآمرون والمنافقون، والحمقى، والمفسدون من المسلمين أو من غيرهم.

بَصِيرَةٌ

٥

ما الذي يدفع المسلمين إلى اتخاذ أهل السوء بطانةً مع أنهم يسعون في تدمير خير أمة أخرجت للناس تدعو العالم إلى الخير؟

الجواب:

٣

العكس وهو أن تأتي بطانة السوء لتحوم حول أهل المال والقوة من المسلمين، وتظهر أخلاقاً حسنة، وتكون أهداف هذه البطانة التدمير التكتيكي للمؤمنين، أو الاستغلال لهم.

٢

الاغترار والخوف من كثرة أموالهم وأولادهم كما في الآية (116).

١

الخلق الحسن، فقد يفهم من حث الشريعة عليه التسامح مع أهل السوء بجعلهم من البطانة الخاصة بالإنسان.

من أمثلة بطانة السوء

بَصِيرَةٌ

٦

١ أن يتخذوا مستشارين أو وزراء، أو وكلاء على التجارة والاستثمار، أو تسند مسؤولية تفويضية إليهم.

٢ أن يتخذوا مبعوثين أميين يأتون بلاد المسلمين بزعم إصلاح الأوضاع، وكما ترى حال المسلمين عندما اتخذوهم بطانة، فلا توجد دولة واحدة دخلوها فأصلحوها، بل أسهموا في السرقات الدولية، وزيادة تشتيت النسيج الاجتماعي للمجتمعات.

٣ المجرمون الذين يلبسون جلود الضأن؛ فيحرصون على مداخله المستقيمين من المسلمين والدخول معهم في البيع والتجارات والمصاهرات، ثم يمكرون بهم ويفسدون دنياهم ودينهم، وكيفيك أن تتذكر أن أبا عبد الله الأحمر الصغير آخر ملك للمسلمين في الأندلس تربى على أيدي أعدائه من الصليبيين في مملكة قشتالة، فیرسله أولياؤه ظناً أن هذا يزيد أو اصر التقارب، فماذا تتوقع أن تكون النتيجة؟!

٤ مثل لهم ابن عباس رضي الله عنه، فقال: كان رجال من المسلمين يواصلون رجالاً من اليهود، لما كان بينهم من الجوار والحلف في الجاهلية، فأنزل الله عز وجل فيهم ينههم عن مبايعة منهم، تخوف الفتنة عليهم منهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ الآيات، وعن مجاهد وقتادة أنها نزلت في المنافقين، نهى الله عز وجل المؤمنين أن يتولّوهم. (تفسير الطبري 141/7)، والصحيح أنها فيهم وفي غيرهم.

جسر اتصال

بعد أن عرفنا أن القانون الأول يحرم علينا أن نتخذ بطانة السوء يأتي السؤال: كيف نعرف الصفات الخاصة التي تكشف هذه البطانة السيئة؟

الجواب:

يجب معرفة الصفات التسع للبطانة المفسدة، وهي:

القانون الثاني

﴿لَا يَأْلُونَ زَكْمًا حَبَالًا﴾

صفة ١

وهذه صفة خفية، فهم يُخَبِّلُونَ عقولكم وحياتكم أي يفسدونها حتى تشبهوا المجانين في اتخاذها وأنتم لا تشعرون. والمعنى: لا يدخرون جهداً في إيقاع الخبل فيكم، فيفسدون قراراتكم، ويدمرون جهودكم بأساليب تظنونهم من خلالها مصلحين، فهذه صفة باطنة تكشف أهدافهم الخفية، ومعنى ﴿لَا يَأْلُونَ زَكْمًا حَبَالًا﴾ أي لا يقصرون ولا يضعفون ولا يدخرون جهداً ليقعواكم في الخبال، والخبل والخبال: الجراح والفساد والاضطراب وعفن القرارات، وسوء الحياة.

وهذه الصفة الخفية لهم تكشفها الصفات التي ستأتي.

صفة ٢

﴿لَا يَأْلُو نَكُمْ حَبَالًا﴾

تبصرنا بصفة ثانية ولكنها قولية، فهم يأمرونكم بما يفسد عقولكم وحياتكم.

فالنبي ﷺ قال: «مَا بَعَثَ اللَّهُ مِنْ نَبِيٍّ، وَلَا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ إِلَّا كَانَتْ لَهُ بَطَانَتَانِ: بَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ

وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، وَبَطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالشَّرِّ وَتَحْضُهُ عَلَيْهِ، فَأَلْعَصُومُ مَنْ عَصَمَ اللَّهُ تَعَالَى». (البخاري: 6611).

فلفت نبينا ﷺ نظرنا إلى شيء خطير؛ إذ ذكر أن كلَّ نبيٍّ بعثه الله ﷻ يكون له بطانة خير، وبطانة شر مع أن النبيَّ معصوم، وذلك ليحذر غيره من الأفراد والجماعات والحكومات، فهم أخرى أن يقعوا فريسة لبطانة السوء، وهذا يدعوهم إلى أن يجعلوا من أهم استراتيجياتهم التفكير في بطانتهم، ووضع نظام ومواصفات خاصة لهم.

صفة ٣

﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾

وهذه صفة قلبية، فهم يحبون محبةً خالصة كلَّ أمرٍ يُعنتكم أي يُصيبكم بالشدة والضرر الشديد عندما تبدؤون بالتعافي، لأن العنت: انكسار العظم مجدداً قبل التئامه، فمهما حاولتم إصلاح أموركم لا يقصرون معكم في تدميرها بصورة خفية.

والعلاقة بين هذه الصفة والتي قبلها أنهم «لَا يُقَصِّرُونَ فِي إِفْسَادِ أُمُورِكُمْ فِي الدُّنْيَا، فَإِذَا عَجَزُوا عَنْهُ لَمْ يَزُلْ عَنْ قُلُوبِهِمْ حُبُّ إِعْنَاتِكُمْ» (تفسير الرازي 8/ 341).

هنا حسبك أن تتأمل في قضية واحدة مثل فلسطين لتفكر كيف تتلاعب بها قوى الشر التي اتخذت بطانة يتحاكم إليها فيما يسمى بالقرارات الدولية.

والتعبير عن محبتهم الشديدة لإعنات المسلمين بالفعل الماضي ﴿وَدُّوا﴾ يصور استقرار هذه الصفة عندهم.

صفة ٤

﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾

فتظهر عدوتهم في فلتات لسانهم مع اجتهادهم في إخفائها، ولكنكم لحسن خُلُقكم وصفاء نياتكم، أو لغفلتكم لا تركزون عليها، على أن ما تخفيه صدورهم من كراهييتكم، والرغبة في تدميركم أكبر بكثير مما قد يظهر لكم أحياناً.

جسرات اتصال

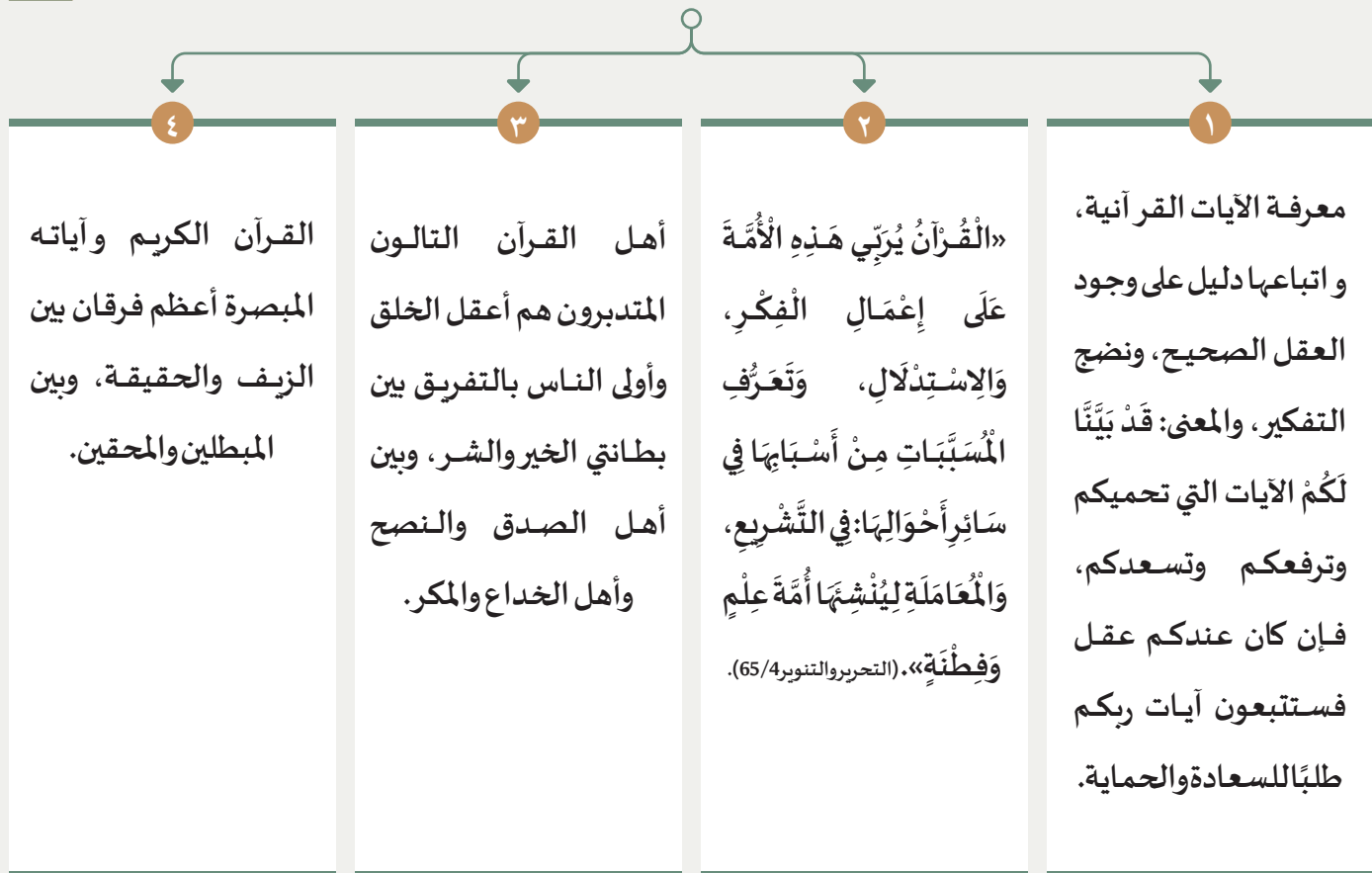
قد يظن القارئ أن هذه كلمات وعظية، وأن أمور السياسة لا تحكم بمثل هذه الكلمات، أو بهذه الدروشة، وهنا يأتي ما يبين أهمية استيعاب هذه التوجيهات والكلمات

وذلك في:

القانون الثالث

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 118]

فتبصرنا بالآتي:



صفة ٥

﴿هَآأَنَّمْ أَوْلَآءَ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمُ﴾

تُحِبُّونَهُمْ لا غتراركم بإقرارهم بالإيمان لصفاء بواطنكم فتريدون لهم الخير الديني والدنيوي، أوتحبونهم لا غتراركم بظواهرهم إن لم يكونوا مؤمنين، في حين أن هؤلاء لا يحبونكم، فيعملون على تكفيركم وتفسيقكم، أي إيقاعكم في الكفر والفسق، ويتآمرون عليكم، فهذه الصفة تحذيرٌ استراتيجيٌّ خطير من الغلو في كلِّ شيء، ومن ذلك الخُلُق الحسن مع هذه الفئات، وعن قتادة رَضِيَ اللَّهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: «فوالله إن المؤمن ليحب المنافق ويأوي له ويرحمه، ولو أن المنافق يَقْدِرُ على ما يَقْدِرُ عليه المؤمن منه، لأباد خضراءه» أي لأستأصله. (تفسير الطبري 151/7).

صفة ٦

﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ﴾ [آل عمران: 119].

٢

وإن كان التحذير من بطانة السوء من المسلمين يكون المعنى: أنتم أيها المؤمنون تزعمون أنكم تؤمنون بالكتاب كله في الإيمان والعبادات والمعاملات، فكيف توالون هؤلاء الخبيثاء؟ فكأنكم تؤمنون ببعض الكتاب، وهم يؤمنون ببعض الكتاب؛ إذ لا مانع عندهم من أن تُصَلُّوا أو أن يبنوا لكم مسجداً، لكنهم لا يطيقون تحريم الربا والزنا والخمر والمخدرات وسرقة أموال الآخرين، فهم يقومون بذلك، ويعتبرون أنهم يعرفون الدين الواسع الذي يبيح لهم هذا.

١

أي: أنتم أيها المؤمنون تؤمنون بالكتب كلها (فالكتاب بمعنى الجمع)، بينما هم يؤمنون ببعضها، ويجحدون بعضها، (فالنصارى يؤمنون بالتوراة والإنجيل ويجحدون القرآن، واليهود يؤمنون بالتوراة ويجحدون الإنجيل والقرآن)، فإن كفروا ببعض ما أنزل ربهم ﷻ، فما وزنكم عندهم؟

صفة ٧

﴿وَإِذَا الْقَوْمُ قَالَُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ﴾

أي يجاملونكم في أنهم مؤمنون، فتجاملونهم بترك ذكر فساد عقائدهم، وتزوير تاريخهم، لكن غيظهم منكم شديد، وحقدهم عليكم أكيد حتى أنهم يعضون أناملهم أي رؤوس أصابعهم؛ حقداً عليكم.

جسرات اتصال

هنا يأتي سؤال قبل إكمال الصفات: فكيف نتعامل معهم؟

وذلك في:

القانون الرابع

يجب أن نعرف ضوابط التعامل معهم

ومنها:



بَحِيرَةٌ

﴿قُلْ مُتَوَابِعِظُكُمْ﴾

تبصرنا بأن من مقاصد القرآن إغاية أهل النفاق والمجرمين الذين يتلصصون على المؤمنين ويتسربون بين صفوفهم، ويشيعون بينهم الخبال، ويضمرون لهم البغض والمكيدة.

صفة ٨

﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٢٠]

المُسُّ أَصْلُهُ المباشرة باليد دون القبض.

ويظهر جمال التعبير به في أنه يصور أن أدنى خير يحدث لكم يُغيظهم، فيظهر السوء على وجوههم بسبب ذلك. والحسنة ما يحسن عند الناس وقوعه كالعافية، والتقدم والرفاه والألفة والاجتماع والظفر على عدوهم.

صفة ٩

﴿وَأَنْ تُصِبَّكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا﴾ [آل عمران: ١٢٠]

وإذا رأوا في أهل الإسلام المَرَضَ وَالْفَقْرَ وَالْهَزِيمَةَ وَالْفُرْقَةَ والتنازع سرَّهم وأعجبوا به، ويظهر جمال التعبير بقوله: ﴿تُصِبَّكُمْ﴾ في أن الذي يحدث للإنسان مما يسوؤه وقوعه قد جاء في مكانه الصواب في التقدير الإلهي، فهو إما ابتلاء وإما عقوبة.



لماذا فرَّق البيان القرآني المبهرين المس والإصابة، فذكر المس مع الحسنة والإصابة مع السيئة؟

الجواب:

«للإيدان بأن مدار مسائهم أدنى مراتب إصابة الحسنة، ومناطق فرحهم: تمام إصابة السيئة».

(تفسير أبي السعود 77/2).



ما المعنى الحياتي المباشر الذي تفيدنا به هاتان الصفتان الأخيرتان؟

الجواب:

أن يحذر المسلمون من تقسيمهم إلى متشدِّدٍ منغلِقٍ ومتساهلٍ منفتح، وتصنيف أحزابهم إلى حمائم وصقور حسب مقياس أعدائهم وخصومهم، فإن ذلك من أعظم ما يتوصل به مجرمو الأعداء إلى تدمير المسلمين.



كل ما سبق يدفعنا إلى أن نسأل: هل هذا يعني بالضرورة أن يُقاتلوا؟

جسر اتصال

الجواب: هنا يأتي:

القانون الخامس

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾.

فلا نقابل التآمر والغل والحقد والكراهية والدس والمكر بمثلها، فالمسلم يتقي الكيد ولكنه لا يخون، ويحذر الحقد ولكنه لا يحقد، فنقابل هؤلاء المجرمين بأمرين:

٢

التقوى: ولها معنيان هاهنا: تقوى الله ﷻ بطاعته، واتباع مؤامراتهم التي تهدد الأمن القومي للأمة الإسلامية، بالإعداد المسبق الذي إن لم يمنع وجود المكر منع وجود آثاره، فعبر عن الحذر بالتقوى ليلبغ أعظم مبلغ وأشدّه. قَالَ بَعْضُ الْحُكَمَاءِ: إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَكْتِبَ مَنْ يَحْسُدُ فَاجْتَهِدْ فِي اكْتِسَابِ الْفَضَائِلِ.

(تفسير الرازي 344/8).

١

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا﴾ والصبر حبس النفس على ما تكره، والمقصود به هنا الصبر الإيجابي فيكون صبراً على طاعة الله ﷻ، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، ويشمل ذلك عدم الانجرار إلى قتال بطانة السوء ما داموا لم يحولوا مكرهم إلى اعتداء فعلي، وليس المراد الصبر السلبي بالنظر إليهم يتآمرون وينفذون ويجرمون والمسلمون لا يصنعون شيئاً، بل ربما أضاعوا الكثير من فرص الرد عليهم.

المعنى العام لقوله:

﴿وَإِنْ تَصَبَّرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾

أي والحال أنه إن تصبروا في تنفيذ توجهات شرعكم، وتتقوا غضب ربكم ﷻ، ومكائد عدوكم، فإن كيدهم لا يؤثر عليكم، ولو تأثراً صغيراً؛ لماذا؟ ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾، فهو محيط بهم علماً، وقوة، فلا يقدر على الخروج من علمه بخفائهم، ولا على الهرب من قوته، فالإحاطة إحاطتان: إحاطة علم، وإحاطة قدرة ومنع. (تفسير المنار 4/77).

فهم - كما قال قتادة رحمه الله -: «كلما خرج منهم قرن أكذب الله ﷻ أصدوثته، وأوطأ محلته، وأبطل حجتة، وأظهر عورته، فذاك قضاء الله ﷻ فيمن مضى منهم وفيمن بقي إلى يوم القيامة». (تفسير الطبري: 156/7).



الأستاذ الدكتور عبد السلام مقيّد المجدي

رئيس مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية، ومؤسس مشروع تسوير السور القرآنية.

رئيس مشيخة الإقراء اليمنية

أستاذ دكتور (برفسور) في قسم القرآن والسنة / كلية الشريعة / جامعة قطر حالياً، وجامعتي ذمار وحضرموت سابقاً.

أشرف على العديد من رسائل الماجستير والدكتوراه.

له أكثر من ٣٣ كتاباً ومؤلفاً في التفسير وعلوم القرآن والدراسات الإسلامية.

له أكثر من ٢٥ بحثاً علمياً منشوراً في عدة مجلات علمية محكمة.

أسهم في تأسيس عدد من الكليات والجامعات الشرعية في اليمن.

شارك في عضوية تحكيم أكثر من ٣٠ مسابقة دولية للقرآن الكريم في العالم، ورأس بعضها.

شارك في العديد من المؤتمرات العلمية في أنحاء متفرقة من العالم.

قدّم عدداً من البرامج الإعلامية، والدورات العلمية والتدريبية في التفسير وعلوم القرآن في اليمن وقطر والبحرين والكويت

وبريطانيا وفرنسا وتركيا وإندونيسيا وكينيا وغيرها من الدول.

﴿تفسير سورة عمران وبصائرهما﴾ (الوسيط) الجزء الأول

يسرُّ "مؤسسة بصائر المعرفة القرآنية" أن تضع بين يديك الجزء الأول من هذا الإصدار الجديد (الوسيط في تفسير سورة آل عمران وبصائرهما) ضمن مشروعها الرائد "تسوير السور القرآنية"، ليكون دليلك في استكشاف رحلة التأسيس لبناء "خير أمة". يختص هذا الجزء بتناول القضية الكبرى الأولى في سورة آل عمران، وهي: "تكوين أمة الشهادَةِ الكبرى؛ القائمة على توحيد الله، ومُحَاوَرَةِ أهل الكتاب، ورسم خُطَّة الفلاح الاستراتيجي".

وعبر منهجية تدريجية مُحْكَمَة، يستعرض الكتاب هُنْدَسَةَ النصف الأول من السورة؛ فمن مقدمة تُرسي "الثوابت الدستورية العشرة" للمجتمع المسلم، ينتقل بك إلى تأسيس "شهادة الوحدانية" في مواجهة العقائد المحرفة. وتأخذك محاوره في رحلة نورانية عبر القصة الحقيقية لأسرة "آل عمران" واصطفاء مريم وميلاد المسيح عليهما السلام، كاشفاً عن "ميثاق الأنبياء" والمنهج الأمثل لحوار الحضارات والأديان.

لتصل بك الرحلة في ختام هذا الجزء إلى تفصيل "خُطَّة الفلاح الاستراتيجية"؛ التي ترسم معالم التزكية، والإنفاق، والتميز الحضاري الذي يؤهل هذه الأمة لقيادة البشرية نحو الخير.

راعي مشارك



الراعي الأول



الراعي الرسمي



تصميم وإخراج الكتاب:

+ 90 555 152 05 22
moh.ab.ad1071@gmail.com